مجلة الفكر والفن المعاصر



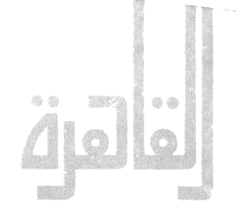
العدد (١٣٩) يونية ١٩٩٤

التاريخ يتغير من جنوب أفريقيا

نحن وإسرائيل التحدى والمستقبل

چورچ قنواتى : الراهب الفيلسوف الإسلامى

يونسكو : الضحك يواجه الموت



مجلة الفكر والفن المعاصر

شهرية تصدر يوم ١٥ من كل شهر. الناشر: الهيئة المصرية العامة للكتاب

العدد (١٣٩) يونية ١٩٩٤

الثمن فى مصر : جنيهان

الثمن فى الخارج

العراق ـ ١٥٠٠ فلس ـ الكويت ١,٢٥٠ دينار ـ قطر١٥ ريالا ـ البحرين ١,٥٠٠ دينار ـ سوريا ٧٥ ليرة ـ لبنان ٣٠٠٠ ليرة ـ الأردن ١,٢٥٠ دينار ـ السعودية ٢٠ ريالا ـ السودان ٤٧٠٠ ق ـ تونس ٤ دينار ـ الجزائر ٢٨ دينارا ـ المغرب ٤٠ درهما ـ اليمن ١٠٠ ريال ـ ليبيا ١٦٠ دينارا ـ الإمارات ١٥ درهما ـ سلطنة عمان ١,٥٠٠ ريال ـ غزة والضفة والقدس ٢٥٠ سنتا ـ لندن ٤٠٠ بنس ـ الولايات المتحدة دولاران.

الاشتراكات فى مصر :

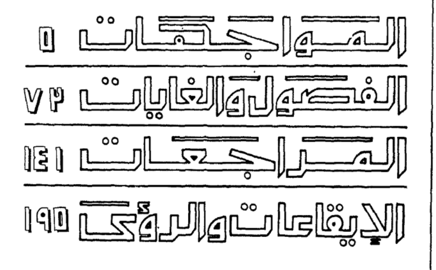
عن سنة (١٢ عددا) ٢٤ جنيها مصريا شاملا البريد.

الاشتراكات من الخارج [عن سنة ١٢ عددًا] :

- البلاد العربية: أفراد ٣٠ دولارا، هيئات ٥٢ دولارا شاملة مصاريف البريد.
- أمريكا وأوروبا: أفراد ٤٨ دولارا، هيئات ٧٠ دولارا شاملة مصاريف البريد.

العنوان: مجلة القاهرة ـ جمهورية مصر العربية ـ القاهرة ـ ١١١٧ كورنيش النيل ـ فاكس ٧٥٤٢١٣ ت/ ٥٧٨٩٤٥٥

المادة المنشورة مكتوبة خصيصا للمجلة، وتعبر عن آراء أصحابها ولاترد فى حالة عدم النشر. المراسلات باسم رئيس التحرير.



٢ ـ القاهرة ـ يونية ١٩٩٤

من المحرر

نحو ميثاق ضد التطبيع الثقافي

منذ توقيع اتفاقية غزة أريحا في الشهر المنصرم ، والعدو الإسرائيلي يكثف محاولاته للتطبيع مع الكتاب والمثقفين والمبدعين المصريين ، بمختلف تياراتهم وتلاوينهم الفكرية .

ونحن الكتاب والمثقفين والمبدعين المصريين ، نعلن عن إصرارنا على رفض كل أشكال التطبيع والتعامل مع إسرائيل، انطلاقاً من عنصرية هذه الدولة الإستيطانية، وعنصرية ثقافتها، ودورها التاريخي في إشعال حروب الإبادة ضد شعوبنا العربية.

إن إسرائيل ما زالت تصرُّ على أن حدود دولتها تبدأ من النيل وتنتهي إلى الفرات ، وهي مازالت تحتل الجنوب اللبناني ، ومرتفعات الجولان السورية ، وتقمع انتفاضة الشعب الفلسطيني بوحشية، وتصر على أن القدس عاصمة أبدية لها .

ونحن الكتاب والمثقفين والمبدعين المصريين ، استناداً إلى وعينا بمصالحنا القومية ، واستناداً إلى ضمائرنا الأخلاقية، نعلن عن ميثاق شرف فيما بيننا ، نرفض من خلاله كل أشكال التعامل الثقافي مع الكيان الصهيوني وخصوصاً عبر الأشكال التالية :

١ ـ رفض التقاء كل ذي حيثية ثقافية بصفته إسرائيليا داخل مصر أو خارجها أو في إسرائيل.

٢ ـ رفض الحضور و المشاركة في مؤتمرات أوندوات في اسرائيل.

٣ ـ رفض المشاركة في مؤتمرات أو حوارات عالمية يحضرها إسرائيليون وعرب فقط ، وتتخذ صفة الحوار العربي الإسرائيلي .

٤ ـ رفض الإدلاء بأية تصريحات ، أو إجراء مقابلات مع الإعلام الإسرائيلي .

٥ ـ رفض نشر وتوزيع أعمال المبدعين المصريين داخل إسرائيل.

٦ ـ عدم المساهمة في مهرجانات سينمائية أو مسرحية أو فنية داخل إسرائيل ، وكذلك رفض إقامة معارض تشكيلية لفنانين مصريين داخل إسرائيل.

إننا نتوقع المزيد من محاولات التطبيع الثقافي يقوم بها العدو معنا ، وبطرق وأشكال عديدة ، تتفرع عن الخطوط العريضة آنفة الذكر . لذلك فإن وعينا وضمائرنا ستظل جميعًا بوصلتنا الحساسة في معرفة جادة الصواب ضد التطبيع، والحفاظ على موقفنا العادل الإنساني المعبر عن مصالح شعوبنا .

* * *

قام بكتابة وتوقيع هذا «الميثاق» فريق من المثقفين المصريين . وهو إذا كان يعبر فعلا عن ضمير الرأى العام الثقافي في مصر ، فإن «القاهرة»، وهي تتبناه نصًا وروحًا ، تورد فيما يلي مجموعة من الملاحظات استكمالا للفعالية والتأثير والمشروعية حتى تتحول الكلمات إلى قيم معيارية يُقاس بها فكر وسلوك المثقفين :

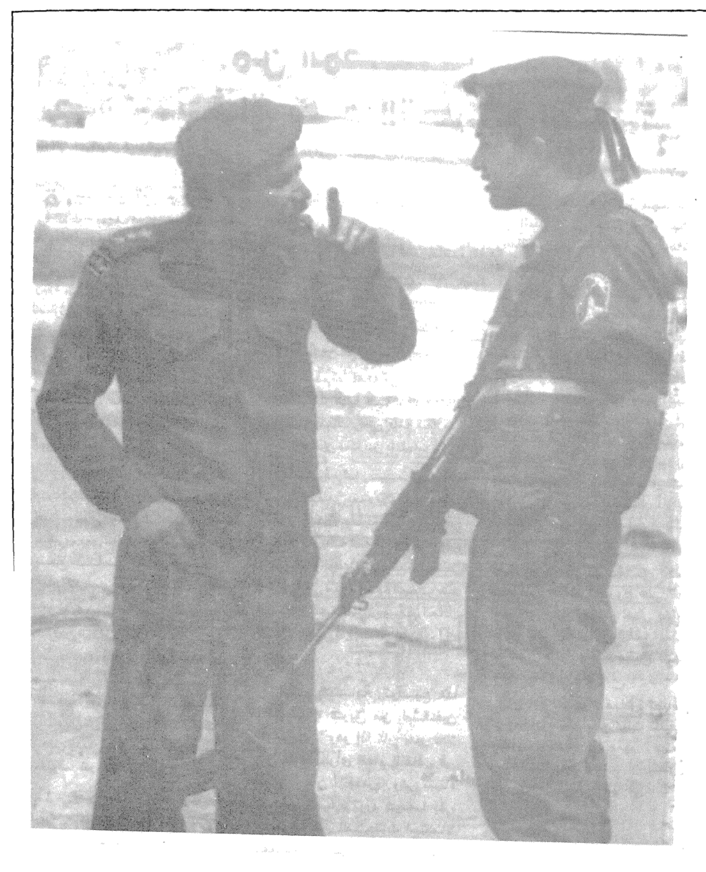
• يجب اعتبار هذا الميثاق مجرد مشروع للميثاق بعد التوقيع الشخصي عليه من أكبر مجموعة من المثقفين في جميع أنحاء البلاد والمنتمين إلى مختلف الاتجاهات والأجيال .

• وفي غياب مؤتمر عام للمثقفين يجب عرضه والتوقيع عليه من الهيئات الثقافية الأهلية المختلفة كلجنة الدفاع عن الثقافة القومية والأتيليه واتحاد الكتاب ونقابة الصحفيين والنقابات الفنية الأخرى والجمعيات الثقافية في العاصمة والأقاليم والمؤسسات الثقافية في جميع الأحزاب إن وجدت ونوادي أعضاء هيئة التدريس في الجامعات ، وأية هيئات أخرى لها أية صلة بالثقافة.

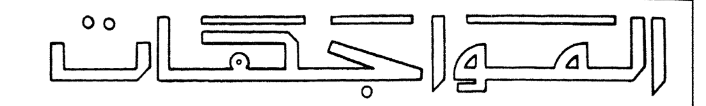
• ولابد من انبثاق لجنة مصغرة تتابع الخروج على هذا الميثاق بعد إعلانه حتى يكون للرأى العام الثقافي موقف عملي محدد إزاء أية واقعة يخرج فيها أحدهم على الاجماع .

إن هذا المشروع مبادرة تضاف إلى مبادرات سابقة كانت تكتفي بالتنديد والإدانة والتعميم ، بينما نرجو للمشروع الجديد أن يتحول إلى مؤسسة للضمير الثقافي .

غالي



ضابط فلسطينى يواجه إسرائيليا في غزة



نحن وإسرائيل التحدى والمستقبل

نحـــن و إســـــــــرائيـل



التحدى والمستقبل





تزييف التاريخ عصور فى فوضى

رفعت السيد

طبيب وباحث مصرى

فى لقد صمت الفكر العربى طويلا عن إعمال النظر فى التجمع الإسرائيلى وما يجرى فيه. صحيح أن الساحة لم تخل من محاولة هنا، أو أخرى هناك. ولكن ظل الطابع الغالب هو الصمت والتجاهل، وتحول العقل العربى خلال ما يقرب من ربع القرن إلى نوع من الاستكانة لهذه المجهلة، مطمئنا إلى مسلمات فكرية زائفة، عازفًا حتى عن محاولة التيقن من مدى صدقها. وظل الأمر كذلك حتى قارعة يونيو ١٩٦٧ التى كان ينبغى أن تجرف فيما جرفته - وقد جرفت الكثير - ذلك الزيف الفكرى الذى عاشه العقل العربى طويلا ولكن ما حدث لم يكن على هذه الصورة تماماً، لقد اهتزت المسلمات الفكرية العتيقة، وكان اهتزازها عنيفا حقا، ولكنها لم تسقط تماما، ولم تتوارَ ولم تجتث جذورها. لعله هول المفاجأة وبشاعتها، ولعلها الطمأنينة التى طالت لصحة هذا الفكر الزائف، أو لعل الأمر راجع إلى ما لهذا الفكر من جذور عميقة ممتدة تضرب فى أعماقنا إلى بعيد،(١).

وعلى النقيض من ذلك كان الفكر الصهيونى يسعى سعيا حثيثا وبكل السبل إلى امتلاك زمام الفكر العالمى والسيطرة عليه، بله، وتلجيمه إن لزم الأمر. ولا ينكر إلا مكابر أنهم قد قطعوا فى سبيل ذلك أشواطاً مكنتهم فى أضعف الأحوال من إضفاء المشروعية والشرعية على نهجهم وتوجههم.

يرتكز جوهر الفكر الصهيونى على مبدأ أن اليهود جميعاً كيان واحد متجانس

ممتد فى الزمان والمكان، يقول ليونارد فاين فى كتابه المنشور عام ١٩٦٧م، تحت عنوان «السياسة فى إسرائيل»(٢) إن «مفهوم اليهودى فى حد ذاته يثير إحساسا لا يمكن تلافيه بالقرابة المشتركة والتاريخ المشترك»

ويذكر ليڤين وهو عضو بالكنيسيت عن حزب أجودات إسرائيل فى عام ١٩٧٠ «إننا لسنا شعبا كباقى الشعوب، ولسنا دينا ككل الأديان، إننا شعب خاص، شعب الله، شعب التوراة»(٣). ولذا يحرص الفكر الصهيونى على إثبات أن اليهود يتسمون بخصائص تميزهم عن غيرهم مهما باعدت بينهم المسافات، وأهم تلك الخصائص تفوقهم العقلى على سواهم من الأغيار، وتبلور هذا الاتجاه إلى التسليم بحق دولة إسرائيل - كدولة لليهود - فى الحديث باسم اليهود فى العالم كله وهو الركن الأول أو المسلّمة الأولى فى الفكر الصهيونى المعاصر، أما الركن الثانى أو المسلمة الثانية فتتمثل فى ارتكاز هذا الفكر على ادعاء الانتماء إلى تاريخ قديم يضرب بجذوره فى أعماق الحضارات القديمة، هذا إن لم يدّعِ أنه صانع تلك الحضارات، ولا يوجد صهيونى واحد لا يحرص على التمسح بهذا التاريخ أو اصطناعه إن لزم الأمر أوتزييفه إيغالا فى الادعاء. وتتمثل أهمية الركن الثانى أو المسلّمة الثانية للفكر الصهيونى فى مردودها الذى ينحصر فى:

١- تبرير الاستعمار الاستيطانى لفلسطين بدعوى أن هجرة اليهود ما هى إلا عودة لأرض الأجداد وأرض الميعاد، وأن تلك العودة ما هى إلا تحريرلأرض إسرائيل التاريخية من أيدى المغتصبين.

٢- ييسر عملية الاندماج بين يهود التجمع فى إسرائيل بالتركيز على فكرة الامتداد التاريخى، فامتداد التاريخ يعنى وحدة أصحاب هذا التاريخ نفسيا واجتماعيًا وحضاريًا.

٣- يمتد ذلك إلى ما أبعد من التجمع فى إسرائيل، إذ يمثل دعوة ليهود العالم للهجرة إلى إسرائيل، وإبراز وحدة اليهود فى كافة أنحاء العالم، واكتساب تضامن من لم أو لن يهاجر إلى إسرائيل للانضمام إلى التجمع الإسرائيلى.

من الركيزة الثانية تتضح الأهمية الحيوية القصوى لتجذير التاريخ الإسرائيلى فنجد أن جهد جلّ المفكرين اليهود اتجه إلى تأصيل الوجود الإسرائيلى بفلسطين كإطار عام يندرج فى ثناياه إبراز الدور الإسرائيلى خاصة واليهودى بعامة فى أحداث الشرق القديم.

وتزخر المكتبات ودور النشر فى كل أرجاء العالم بهذا النمط من كتب التاريخ اليهودى بالرؤية أو الطبخة الصهيونية، وما نذكره هنا لا يغدو إلا الأمثلة البسيطة للدلالة على تلك الركيزة أو عامود المنتصف فى هيكل الفكر الصهيونى، مثل سيسيل روث وكتابه الذى يحمل اسم «تاريخ اليهود»(٤)، والمؤرخ الإسرائيلى هوارد موللى ساخار فى كتابه «مسار التاريخ اليهودى الحديث»(٥) الذى يركز فيه على التفوق العقلى اليهودى، وأن أهم الصفات التى تميز العقلية اليهودية عن غيرها، هى الرغبة فى الإبداع، وصياغة الأفكار الجديدة، والوقوف فى وجه الأفكار القديمة»، وترود فايس روز مارين(٦) التى تركز فى كتابها «انتصار اليهود فى صراع البقاء، على أن اليهودية دين وقومية. وبنتوفتش(٧) فى كتابه الذى يحمل عنوان «فلسطين» ويذكر فيه «إن عراقة الصهيونية، إنما تعود إلى زمان هدم الهيكل، ووقوع الشعب اليهودى فى أسر نبوخذ نصّر» إلا أن من أهم من نعرض لهم فى هذا المقال وأخطرهم على الإطلاق إيمانويل فلايكوفسكى الذى عكف على وضع موسوعة من أخطر الموسوعات التاريخية، تلك الموسوعة التى كرس فلايكو فسكى كل عمره لإنجازها تحت اسم «عصور فى فوضى»(٨) الذى يركز على إعادة ترتيب وقائع وأحداث وتاريخ منطقة الشرق القديم، فى هذا العمل تجاوز فلايكوفسكى مجرد التركيز على دور اليهود الحضارى وتعداه إلى إعادة ترتيب أحداث التاريخ من جديد من خلال ادعائه أن هناك خطأ فى تزامن الحضارات القديمة وخطأ فى الأسماء والمسميات أدى إلى خلط فى تزامن وتزمين الحضارات القديمة، وأن هذا الخلط نجم عن ستمائة عام مكررة فى التاريخ التقليدى المصرى كما هو معروف لنا الآن.

إذن، فالعمل الذى نعرض له فى هذا المقال يدخل فى إطار الأعمال التاريخية الصهيونية التى تهدف إلى إعادة تركيب

التاريخ القديم وصياغة تفسير جديد لأحداثه، ولكنه عمل يتفوق على كل الأعمال الصهيونية التى أنتجت داخل هذا الإطار، فهو لم يتوقف عند حد إعادة تفسير التاريخ ولكنه قلب الموازين التاريخية رأسا على عقب وقدم لنا تاريخا جديداً للشرق القديم نالت فيه الدولة اليهودية الأولى النصيب الأعظم.

مؤلف الكتاب عالم طبيعة يهودى روسى ولد فى روسيا عام ١٨٩٥ ودرس فى جامعة موسكو وجامعات برلين وڤيينا وأدنبره. وله نشاط علمى متميز ومن أبرزه اشتراكه مع ألبرت إينشتاين فى تحرير مجلة الجامعة العبرية التى تحمل اسم «المخطوطة الجامعية» Scripta Univeristatis.

والتى كانت من الركائز العلمية التى قامت عليها الجامعة العبرية بالقدس. وقد هاجر إلى أمريكا عام ١٩٣٩م وعاش بها إلى أن مات عام ١٩٨٠.

يبدأ إيمانويل درة أجزاء الموسوعة والذى يحمل عنوانها الرئيسى «عصور فى فوضى» بتساؤل مهم وهو أنه مع التسليم بوجود الدولة اليهودية الأولى ووجود الدولة الفرعونية، ووجود حدود مشتركة وجوار جغرافى، إلا أن كل الوثائق والسجلات والتسجيلات الفرعونية قد خلت تماما من أى ذكر لوجود الدولة اليهودية فى أى حقبة من أحقاب التاريخ الفرعونى إلا من مرة واحدة ذكر فيها اسم إسرائيل على تابوت مرنبتاح، فكيف يتأتى ذلك مع التسليم بأن التاريخ الفرعونى لم يغفل ذكر تفصيلات أقل من ذلك أهمية ؟

ويقوم العمل بأكمله على افتراضين، الافتراض الأول هو أن هناك فجوة زمنية تصل إلى ستمائة عام اختفت من التاريخ اليهودى وتكررت فى تاريخ مصر، وأنه ترتب على سقوط ستة قرون من التاريخ اليهودى وتكرارها فى التاريخ المصرى اختلاف التزامن الصحيح لكل الحضارات القديمة حيث تصبح البابلية - التى أرخ لها قياسًا على تاريخ مصر - معاصرة لحضارات أخرى غير تلك التى عاصرتها بالفعل، وقس على ذلك كل أحداث التاريخ القديم والحضارات القديمة وأن الشك يحيط بكل الأحداث والشخوص والأسماء، وأن ذلك الخلل يستوجب إعادة تركيب التاريخ القديم بطريقة صحيحة ووضع كل الأحداث والحضارات والأشخاص فى أزمنتها الصحيحة. والافتراض الثانى يقوم على تفسير الأحداث التاريخية الكبرى والتغيرات المفاجئة فى مسار الأحداث إلى عوامل وحوادث طبيعية ضخمة مثل تغيرات كونية وكوارث طبيعية أدت إلى تلك التغيرات، وهو كعالم طبيعة يقدم عرضا شيقًا لتلك الكوارث الطبيعية، والأحداث الكونية، استخدم فيه كل إمكانياته العلمية لإثبات وقوعها.

أسس فلايكوڤسكى نظريته فى إعادة بناء وترتيب وتزمين أحداث الشرق القديم فى الفترة التاريخية الممتدة من الخروج حتى غزو الإسكندر الأكبر لمنطقة الشرق القديم، وهى فترة تغطى اثنى عشر قرناً من تاريخ الشرق الأدنى القديم، وظل ينقب فى شئون الكون والطبيعة بحثاً عن كوارث طبيعية وكونية (٩) تكون قد وقعت خلال تلك الفترة، كذلك الزلازل والهزات الأرضية والبراكين التى من الممكن أن تكون قد أثرت وغيرت من مسار الأحداث فى الشرق، بل فى العالم كله، كما جمع مادته العلمية من البيولوجيا(١٠) وعصور ما قبل التاريخ والوثائق التاريخية والآثار التى تشير إلى وقوع كوارث كونية وآثارها التى ترتبت عليها فى تغيير مجرى الأحداث التاريخية، مع إعادة دراسة أحداث التاريخ القديم على ضوء التاريخ الطبيعى.

أول ما يخرج به فلايكوڤسكى من إعادة دراسة التاريخ على ضوء الكوارث الكونية هو أن حادثة خروج بنى إسرائيل من مصر واكبت كارثة كونية وقعت بفعل حادث طبيعى كونى، وهو ارتطام ذيل أحد المذنبات السيارة بالكرة الأرضية، وأن البلايا العشر التى سبقت الخروج ووقعت آثارها على مصر - كما يذكر التاريخ والكتب السماوية - لم تك إلا من آثار ارتطام ذيل المذنب بالأرض، وحتى انشقاق البحر ومرور بنى إسرائيل لم يك إلا نتيجة للعواصف الكونية الضارية التى تبعت ارتطام ذيل المذنب بالأرض، وأن انطباقه (أى البحر) بعد ذلك على جيش الفرعون لم يك إلا بسبب ارتداد موجة الجزر العاتية التى سببتها العواصف.

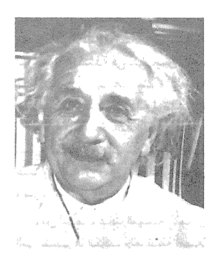
يذكر المؤلف أنه عثر على الدليل الذى يثبت صدق نظريته فى التاريخ القديم لكل الحضارات البائدة من الأمريكتين إلى آسيا الصغرى والكبرى وحتى منطقة الشرق القديم وأن الإرث الثقافى لتلك الحضارات فى مختلف أرجاء العالم تضمن حكايات وقصصاً عن أحداث جسيمة مرت بها الأرض دام فيها الليل ليالى طويلة فى بعض مناطق الأرض، كما دام فيها النهار أياماً طويلة فى بعضها الآخر. أما حجته العظمى فهى القراءة الصحيحة لبردية آبى - أور الفرعونية التى يذكر أنها سجل حقيقى لوقائع الكوارث المتتالية التى وقعت بمصر والتى سبقت الخروج، كما يرى أن التفسير التقليدى السائد بين علماء الآثار من أن البردية لا تعدو كونها مجموعة من الحكم الفلسفية الفرعونية القديمة ما هو إلا قراءة خاطئة تبعد بها عن الواقع الذى كتبت فيه وأن قراءتها يجب أن تتم على ضوء نظريته، وأنها بتلك القراءة الصحيحة تنطبق وقائعها تماما على الواقع الناجم عن حدوث الكوارث

المذكـورة، وأنهـا ـ أى البـردية ـ تمثل الشـاهد المصـرى الوحيـد على صـدق نظريته .

هذا التفسير الطبيعى لحادثة خروج بنى إسرائيل والأحـداث المعجـزة التى سبقته، وواكبته، وتبعته، والتى عرفت اصطلاحًا باسم الضربات العشر (بلاء الظلام ـ بلاء تحـول مـاء النيل إلى لون الدم ـ بلاء الحشرات والقمل ـ بلاء الجراد .... ألخ) يخـرج بكل هذه الوقـائع من دائرة الدين التى تعزوها إلى معـجزات إلهـيـة، إلى دائرة الكوارث الكونيـة التى تعود الى أحداث الطبيعة، فالخروج لا يمثل معجزة إلهية، والضربات العشر لا تمثل مـعـجزات لموسى إنما هى أحداث طبيـعيـة سببـتـهـا كـارثة اصطدام ذيل المذنب بالكرة الأرضيـة. وبذلك نجد أن فلايكوفسكى يخضع الدين للعلم الطبيعى، ويسعى إلى تفسير ماورد بالكتب السماوية والوثائق التاريخيـة والآثار القديمة على ضـوء العلوم والأحـداث الكونيـة وعلم الطبـيـعـة. وهو لا يعنى بالضـرورة أن الدين ضد العلم ولكنه يحاول تفسير الدين بالعلم، مع دس مـا يمكن دسُه لتـجـذير وتأصـيل وتوسـيع الهـامش التـاريخى الإسرائيلى.

من المسائل التـاريخيـة المهمـة التى يعيد فلايكوفسكى صياغتها على ضوء الكارثة الكونيـة المذكـورة، مـسألة غـزو الهكسـوس لمصـر، وتحـديد هويتـهم وجنسهم، فقد ترتب على الكارثة الكونية التى تعرضت لهـا كل الشـعوب فى آن واحـد، حـدوث الآثار المدمـرة نفسـهـا بأرض شبـه الجزيرة العربيـة، وقـد نجم عن ذلك حـدوث مـوجات مـد عاليـة من البحر الأحمر أغرقت الأرض بمن عليها، وتسـببـت العـواصـف الكونيـة والظلام والزلازل والبراكين فى هلاك عدد كبير من قبائل شبه الجزيرة مما دفع بالباقين منهم إلى هجر شبه الجزيرة والفرار منها بالاندفاع إلى الشمال الغربى بحثـا عن أرض أكثـر أمنًا باتجـاة فلسطين ومـصر، دون أن يدور بخلدهم أن الكارثة كـونيـة شـمـلت كـل البـلاد، وبذ لـك اندفـعت جحافلهم الهارية من شبه الجزيرة باتجاه مـصـر فى الوقت الذى كـان فـيـه بنو إسرائيل قد عـبروا البـحر وأصبحـوا فى سيناء . ويذكر أن الشعبين قد تقابلا فى احتكاكات وتحرشات جانبية متعددة نعت فيها بنو إسرائيل جحافل أهل شبه الجزيرة بأقـذر الصفات كـما تذكـر التوراة لأنهم كانوا يهاجـمون الجمـاعات الشـاردة من بنى إسرائيل والأفـراد المتـعبين فى ذيل قـافلة الخـروج وينهـبـون منهم أقـواتـهم الضئيلة حتى مرت القبائل الخارجة من شبه الجزيرة ودخلت مصر.

بذلك يذكر فلايكوفسكى أن الهكسوس هم العمالقة العرب أوالعماليق أو آمو فى الفرعونية أو أمية فى العربيـة القادمـون من شـبـه الجـزيرة وأنهم هم من أذاقـوا الشعب المصرى سوء العذاب، وهدموا كل مـؤسسـات الدولة ومـعـالمهـا الحـضـارية وأتلفـوا كـل وثـائـقـهـا المكتـوبـة، وأن عـاصـمـتـهم أواريس لم تكن فى شـمـال مصر كما تذكر المصادر الأخرى ولكنها كـانت فى سـيناء وتحـديدًا فى مـدينة العريش.



إينشتاين

تمتد مسألة الهكسوس إلى ما هو أبعد من ذلك، فـقـد توصل فـلايكوفـسكى إلى أدلة حـاول أن يثـبت من خـلالهـا أن تحـرير مـصـر من الهكسـوس لم يتم إلا بمساعدة قوية وفعالة من شاؤول أول ملك يهودى بعد عصرالحكماء فى دولة بنى إسرائيل، وأن قوات يهودية كـانت على رأس القوات المصرية المحاصرة لمدينة أواريس، وأن القوات المشتركة من مصر وإسرائيل هى التى قضت على عـاصمـة العـمـاليق وطاردوا فلولهم حـتى أجلوهم عن مصر وتخوم فلسطين، وأن ذلك كان عـام ١٥٨٠ق.م ويعـزو فـلايكوفـسكى ظاهرة العـداء للسـامـيـة وتأصلهـا إلى العمـاليق الذين مـثلوا بأجسام الجرحى والمساجين وقطعوا أطرافهم، وكانوا على درجـة كـبـيـرة من الفظاظة والقسـوة فى نواحٍ كـثـيـرة أخـرى، وخطفـوا النسـاء والأطفـال وأحـرقـوا المدن ودمـروا الآثار والأعـمـال الفنيـة التى نجت من الزلازل وجردوا مصر من ثرواتها وكنوزها كما كانوا يهـينون ويحقرون المشاعر الدينية للمصريين، وأتلفوا كل لفائف البردى كما عذبوا الأسرى فى معسكراتهم بوحشـية فاقت كل حد.

ويذكر أن بداية تكون مشاعر العداء لليهود لم تظهر تاريخيًا إلا بعد ما ذكره مـا نيتـو ـ المؤرخ اليهودى المصرى ـ من أن اليـهـود سلالة منحدرة عن العمـاليق المتـوحـشين. وأن الإسرائيلين عـانوا أشد المعـاناة بسـبب تشـويه حـقـائق التـاريخ وحـمـلوا آلام إدراجـهـم فى سـلالات العمـاليق، وأن ذلك العقـاب التـاريخى لم يبـدأ إلا بـعـد أن أطلق مـانيـتـو أحكامـه الخـاطئـة، ويذكـر أن العداء للسامية قد تغذى بعد ذلك عن روافد كثيرة أخرى.

من المسائل التاريخية المهمة الأخرى التى عالجها فلايكوفسكى، وفقًا لنظريته، مسألة ملكة سبأ الواردة فى الكتب المقدسة فاستناداً إلى فكرة اختفاء ستة قرون من

تاريخ اليهود وتكرارها فى التاريخ المصرى يضع فترة حكم داود وسليمان فى القرن السادس عشر قبل الميلاد وليس فى القرن العاشر قبل الميلاد حسب المعروف تاريخيًا، وفى ظل هذا التعديل التاريخى يضع أحداث ملكة سبأ وزيارتها لسليمان فى القرن السادس عشر قبل الميلاد وهو يرى أن تحديد شخصية ملكة سبأ بأنها ملكة عربية جنوبية من سبأ، هو تحديد خطأ وأن ملكة سبأ ما هى إلاملكة مصرية مشهورة هى حتشبسوت وقد قامت بترتيب رحلتها من طيبة عاصمة مصر فى الجنوب إلى أورشليم عاصمة سليمان عن طريق البحر الأحمر، وأن كل الجداريات فى معبد حتشبسوت المسمى بالدير البحرى قد تمت قراءتها وتفسيرها على أنها رحلة إلى سواحل الصومال أو ما يسمى بلاد بونت «التى تعنى الأرض المقدسة»، وأن القراءة الصحيحة لجداريات معبد الدير البحرى تظهر بجلاء أن الرحلة كانت إلى أرض فلسطين إلى أورشليم، كما نفى أن تكون ملكة سبأ من الحبشة وأن ذلك الخلط إنما حدث بسبب أن ملكة مصر كانت تسمى ملكة مصر والحبشة فى ذلك الوقت كما ذكر المؤرخ جوزيفوس فلافيوس، وأن هناك تشابهًا واضحًا بين اسم ملكة سبأ وهو «ما كيدا» كما ورد فى المصادر الحبشية وبين لقب حتشبسوت وهو «ماكيرا» الذى يحتوى مقطعه الأخير على اسم الإله المصرى رع، كما كانت حتشبسوت تصور دائمـاً فى الآثار المصرية القديمة مع طائر، وهذا يوافق قصة الهدهد الواردة فى قصص الهجادة والتى يرى أنها انتقلت إلى التراث العربى وظهرت فى القرآن الكريم، وأن الأرض المقدسة الوارد ذكرها فى آثار حتشبسوت هى فلسطين، وأن معبد حتشبسوت (الدير البحرى) الذى شيدته بعد عودتها من رحلتها إلى أورشليم جاء صورة من هيكل سليمان بعد أن أعجبها الهيكل وأخذ بلبها فأمرت معمارييها المصريين بإنشاء نسخة منه فى طيبة، وأن هذا المعبد كان بداية طفرة وثورة فى فن العمارة المصرى القديم، ومن أبرز ملامح ذلك الأعمدة المربعة التى تختلف عن الأعمدة التقليدية المصرية المستديرة، وأن الأثر الأجنبى واضح فى تكوين المعبد ليس من النواحى الفنية فقط ولكن من النواحى الدينية حيث برزت عناصر جديدة لم تك موجودة من قبل وطقوس لم تك تمارس من قبل ، مع استحداث وظيفة الكاهن الأعظم على رأس اثنى عشر كاهنًا كما هو ممارس فى هيكل سليمان، وأن الاثنى عشر كاهنًا يمثلون عدد الأسباط اليهود وأن كل الهدايا التى عادت بها حتشبسوت من رحلتها والمصورة على جدار معبد الدير البحرى والتى تنسب إلى بلاد بونت الصومالية من قرود وعبيد وأقزام وبخور وحيوانات غريبة لم تك إلا بعض الهدايا والطرائف التى أهداها لها سليمان الملك العظيم الذى كانت تأتيه الهدايا والطرائف من كافة أركان الأرض ومن كل الممالك طلبا لنيل رضاه.

كل هذه الأدلة وغيرها كثير يسوقها فلايكوفسكى ليثبت أن الملكة التى زارت سليمان هى حتشبسوت ملكة مصر والحبشة وليست ملكة الجنوب ماكيدا أو بلقيس فى المصادر العربية. هناك ثلاثة فصول أخرى تتناول رسائل تل العمارنة الفرعونية المكتشفة فى بنى حسن ويعيد قراءتها من جديد على ضوء النظرية نفسها، ويظهر من خلال القراءة الجديدة والساحرة وبين آخر ملوك الأسرة الثامنة عشرة الفرعونية والتى تنتهى فى أواخر عهود اخناتون ومن تلاه على عرش مصر.

ومن الموضوعات المهمة الأخرى التى يثيرها الكاتب والمرتبطة أصلا بهدف الكتاب، تغيير الوضع الحضارى لبنى إسرائيل فى التاريخ القديم وذلك بإعطاء الاسرائيلين القدامى دوراً حضارياً أكبر مما نسب إليهم، ويتضح ذلك من خلال عدة جوانب من أهمها بالطبع نسب المنجزات الحضارية الكنعانية إلى بنى إسرائيل، وإعطاؤهم دورا أكبر فى مسألة التأثير الحضارى على شعوب الشرق الأدنى القديم وعلى رأسهم شعب مصر.

من المعروف أن الكنعانيين هم السكان الأصليون لفلسطين قبل خروج بنى إسرائيل من مصر ونزوحهم إلى فلسطين المعروفة فى التوراة بأرض كنعان. والمسألة الكنعانية تعد من أهم المسائل التى شغلت أنبياء بنى إسرائيل والحركات الدينية الإصلاحية والتى كانت تركز على تحذير الإسرائيليين من الوقوع تحت تأثير العوامل العقائدية الدينية والحضارية والاجتماعية الكنعانية، ولكن المؤلف ينفى وجود هذا التأثير الكنعانى ويحاول أن يثبت أن التأثير الإسرائيلى كان هو الأعلى والأرجح على كل شعوب الشرق الأدنى القديم، خاصة مصر.

من هدف فلايكوفسكى الواضح فى كل أعماله هو تأصيل الوجود الإسرائيلى فى فلسطين وفرض جغرافية سياسية جديدة بقوة السلاح تستند إلى ركائز تاريخية يوسع فيها هامش تاريخ بنى إسرائيل فى المنطقة بتضخيم الدور الإسرائيلى وبيان تأثيره على الحضارات القديمة حتى تظهر إسرائيل ليس فقط كقوة حديثة فى الشرق الأوسط ولكن بتأصيلها وإظهارها كقوة سياسية وحضارية قديمة فى منطقة الشرق الأدنى القديم، مع إثبات الحقوق التاريخية والدينية المترتبة على هذا التأصيل.

نظرية فلايكوفسكى تعتمد على عامل طبيعى فى المقام الأول وتفسر التاريخ القديم وأحداثه بل تعيد صياغته وتزامنه على أساس من التاريخ الطبيعى■

تهميش:

١- قدرى حفنى «الإسرائيليون من هم؟»، أكتوبر ١٩٧٧ص٣.

٢- فاين ل.ج. «السياسة فى إسرائيل» بوسطون١٩٦٧م.

٣- شهادات يهودية، منظمة التحرير الفلسطينية، مركز التخطيط ١٩٧٦/١/٢٧.

٤- روث سيسيل «مختصر تاريخ الشعب اليهودى» مكتبة الشرق والغرب ١٩٦٩.

٥ - ساخار «مسار التاريخ اليهودى الحديث» دلتا، ١٩٦٣، صفحات ٣٩٤ ـ ٤٤٨.

٦ - ترود فايساروز مارين «انتصار اليهود فى صراع البقاء» المكتبة الفلسفية ١٩٤٩م.

٧ - بنتو فيتش «فلسطين» دار فيكتور جولا ١٩٣٤م.

٨ - ايمانويل فلايكوفسكى «عصور فى فوضى» ترجمة رفعت السيد على، دار الصباح، تحت الطبع.

٩ - ارجع إلى «عوامل فى تصادم» للمؤلف نفسه ترجمة رفعت السيد على.

١٠ - ارجع إلى «ثورة الأرض» للمؤلف نفسه.



رباعية الحرب والحياة في الشرق الأوسط

أحمد عبد الله

(١) الحرب والدولة

إن تناول موضوع الحرب والحياة فى الشرق الأوسط إنما يفترض التطرق إلى أربعة مفاهيم: الدولة، والمجتمع، والديمقراطية، والحرب. وهذا المفهوم الأخير - الحرب ذاتها - هو «المفهوم المفصلى» الذى تحدد علاقاته بالمفاهيم الثلاثة الأخرى مضمون العملية التفاعلية التى نحاول دراستها وفهمها. وقبل أن نركز على الجانب الخاص بعلاقة الحرب بالديمقراطية دعنا نمهد الطريق بشىء من التأمل الخاص بالجانبين الآخرين من التفاعل، أى علاقة الدولة بالحرب وعلاقة المجتمع بالحرب، والإطار الذى يحتوى هذا التفاعل هو الشرق الأوسط الذى يمثل تشكيلا جغرافيا سياسيا فى الكوكب، يحتويه هذا التفاعل بقدر ما يحتوى هو التفاعل.

لقد ارتبطت الدولة الوطنية الحديثة فى الشرق الأوسط ارتباطا حميما بالحرب من حيث نشأتها، وتعضيدها، وتضعضعها، وإخضاعها لغيرها. والمقصود هنا الحرب بمختلف أنواعها: العالمية، والإقليمية، والأهلية، بما فى ذلك الحرب الباردة وحروب الاستقلال. لقد أصبحت أجزاء الإمبراطورية العثمانية فى آسيا العربية دولا وطنية تحت الانتداب الأوروبى فى أعقاب الحرب العالمية الأولى. أما أفريقيا العربية فقد اتضحت أيضا قسمات التمايز بين مكوناتها المختلفة. وخلقت دولة جديدة هى الأردن. كما اكتمل تكون دولة جديدة أخرى هى المملكة العربية

السعودية فى أعقاب نوع من الحرب الأهلية فى شبه الجزيرة العربية. أما مصر فقد أعطيت استقلالا اسميا. وقد تحول مركز الإمبراطورية العثمانية إلى دولة تركية وطنية.. وقد مثلت الحرب العالمية الثانية خلفية استكمال هذه العملية كلها من خلال استكمال وإعلان استقلال الدول الوطنية، وبخاصة فى إطار التقسيم النهائى لسورية الكبرى.

وقد مثلت حروب الاستقلال أو التحرر الوطنى مرحلة ثالثة من مراحل التوسع فى إقامة الدول الوطنية فى الشرق الأوسط. حيث أضافت إليها الجزائر المستقلة ومجموعة دول الخليج المستقلة. وبعد جولة ١٩٦٧ من الحروب العربية الإسرائيلية نشأ اليمن الجنوبى كدولة مستقلة بجانب اليمن الشمالى الذى مثل جيبا مستقلا دائما. أما بعد جولة ١٩٧٣ من الحروب العربية الإسرائيلية فقد نشأت دولة عربية مستقلة جديدة هى چيبوتى التى مثلت على صغرها موضع اللحام بين الشرق الأوسط والقرن الإفريقى.

أما دول الشرق الأوسط غير العربية فقد ارتبط بنيانها كذلك بالحرب: تركيا من حيث نشأتها كدولة وطنية حديثة بعد الحرب العالمية الأولى وما ارتبط بذلك من صياغة سياسية ـ ثقافية لمجتمعها القومى، ثم ما تم بعد الحرب العالمية الثانية من ربط نهائى لها بالتحالف الأطلنطى، وإيران من حيث مسارها المضطرب إبان وفى أعقاب الحرب العالمية الثانية بما شمله ذلك من وجود قوات أوروبية على أراضيها لفترة، ثم أخيرا «إسرائيل» التى نشأت فى أعقاب الحرب العالمية الثانية والتى دشنت نشأتها ارتسام «الحرب» ذاتها كعلامة مميزة للشرق الأوسط!

وإذا ما كانت أغلب دول الشرق الأوسط فى صورتها الحديثة مدينة للحرب كأساس لنشأتها، فهى مدينة لها أكثر كأساس لتدعيم بنيانها. ففى حالات كثيرة كان تماسك الدولة نتاجا للحرب، سواء السابقة أو الحاصلة أو اللاحقة، لقد تحول محاربو جبهات التحرير إلى حكام فى الجزائر واليمن الجنوبى. وكانت المادة الأولى فى البضاعة التى قدمها هؤلاء الحكام إلى شعوبهم هى «الدور» الذى لعبوه فى حرب التحرير ذاتها. وقد بقى هؤلاء المحاربون القدامى على مقاعد الحكم بصورة احتكارية لزمن يناهز الثلاثين عاما فى حالة الجزائر وربع القرن فى حالة اليمن الجنوبى أى حتى توحد اليمن جنوبا وشمالاً. وبالنسبة لهم، كما بالنسبة لغيرهم من حكام دول المنطقة، كان هدف الحفاظ على تماسك الدولة مبررا لوسيلة القمع الصريح.. وللمفارقة كانت الدولة الأقل قمعا، ألا وهى لبنان، هى الأقل تماسكا!

أما أدوات الحكم غير المرتبطة بالقمع فقد كانت مع ذلك مرتبطة بالحرب. فالأيديولوجية المسبغة للشرعية السياسية بالنسبة لأغلب أنظمة المنطقة، والتى عبرت عنها أفكار القومية العربية والوحدة العربية وتحرير فلسطين كانت تحتوى ـ ضمنا وعلنا ـ فكرة الحرب ضد أعدائها: الاستعمار العالمى، والصهيونية، والطابور الخامس. وبعد عقود من الكلام الرنان والحرب الجادة معا، لم يتحقق أىٌ من الأهداف المعلنة والمتضمنة فى أيديولوجية إسباغ الشرعية. لكن الدولة القمعية التى ارتبطت بها بقيت قائمة. حيث أصبحت النظم العسكرية هى الأصل لا الاستثناء. وحتى الآن ما زال جميع رؤساء دول إفريقيا العربية ـ باستثناء المغرب ـ رجالا عسكريين.

إلا أنه بينما كانت الحرب عاملا مهما فى تكوين وتدعيم الدول الوطنية الحديثة فى الشرق الأوسط، فهى ـ على العكس ـ لم تكن عاملا فى القضاء عليها أو على وجودها القانونى. فقد عرفت الدول العربية ظاهرة اختفاء الدولة المستقلة مرتين فى التاريخ الحديث: مرة فى حدث الوحدة المصرية السورية عام ١٩٥٨، ومرة فى حدث الوحدة اليمنية الأحدث عام ١٩٩٠. وفى المرتين اختفت الدولة المستقلة طوعا لا حربا، أى أن ظاهرة الإلحاق بالقوة تعد غير معروفة بالنسبة للدول العربية. ولهذا كان الغزو العراقى للكويت، وضمها بالقوة حدثا غير مسبوق، مما يفسر جزئيا انتهاءه بالفشل.

ومع ذلك فإن تفكك بنيان الدولة الوطنية من خلال الحرب الأهلية يعد ظاهرة مألوفة، ومنتشرة فى منطقة الشرق الأوسط. وهو ما تعرضت له دول مثل لبنان والسودان وعمان واليمن والعراق. ولا حاجة بنا لذكر النموذج الفج للصومال!

وتوضيحا لصورة ونطاق العلاقة الحميمة بين دول الشرق الأوسط وبين مسألة الحرب قد تفيد الإشارة إلى أنه من بين اثنتين وعشرين دولة عربية مستقلة لا توجد إلا واحدة هى تونس لم تضطر لتحريك قواتها للمشاركة فى حرب أو أخرى أهلية أو إقليمية.. وبإضافة الدول الثلاث غير العربية (تركيا - إيران - إسرائيل) بسجلها المعروف فى الحروب يصبح المجموع أربعا وعشرين دولة «محاربة» من بين خمس وعشرين دولة يتكون منها الإقليم. وهى الصورة التى سيؤكدها انضمام إرتريا لنادى المحاربين وهى بعد فى الزى العسكرى!

(٢) الحرب والمجتمع

أصبح المجتمع فى الشرق الأوسط - بالتبعية لكن بامتياز - توءمًا للدولة فى العلاقة الحميمة مع مسألة الحرب: فإسرائيل تتصدر العالم كله فى احتوائها على «مجتمع كثيف الحرب». وتنتشر فى مجتمع إيران رؤية تبشيرية حول دورها الإقليمى والدولى، أيا كانت تجليات هذا الدور فيما بين تصدير القوات إلى عمان فى ظل الشاه وتصدير الثورة إلى أكثر من مكان فى ظل الدولة الإسلامية، أما تركيا فليست بحاجة لإثبات صلتها بالحرب على مستوى مجتمعها وجيشها معا، سواء بشأن دور الجيش فى حياتها كدولة وكمجتمع، أو بشأن لجوء بعض قوى المعارضة فيها للعنف المسلح، أو بشأن الإلحاق القسرى لمجموعة قومية متميزة، هى الأكراد الذين فرض عليهم أن يكونوا جزءا من المجتمع التركى وما يتضمنه ذلك من مراوحات حربية بين الجيش التركى والمقاومين الأكراد.

أما الأكثر من عشرين مجتمعا عربيا التى تمثل الأغلبية فى الشرق الأوسط فهى تتمثل فى الخطاب الحربى لقادتها المدنيين والعسكريين، وهؤلاء هم أولئك فى أكثر دول المنطقة. لقد غطى الخطاب الحربى كل مجتمعات المنطقة من أقصاها إلى أقصاها. فأفراد المجتمعات الخليجية كانوا - على الأقل حتى عهد قريب - يتحدثون عن تحرير فلسطين بالمقدار نفسه الذى تحدث به أبناء مجتمعات دول المواجهة. وحينما تغيرت النظرة لفلسطين فى الخليج حديثا كان على الصحافة الخليجية أن تجد موضوعا آخر غير موضوع فلسطين لتملأ به صفحاتها الفسيحة. وقد وجدت ضالتها بالفعل فى موضوع حربى آخر أقرب للدار هو موضوع حرب الخليج نفسها وما نجم عنها من آثار. لقد حلت «القضية الخليجية» محل «القضية الفلسطينية»، وكلاهما مرتبط بموضوع الحرب.

لقد أصبحت الحرب - من أجل قضية عادلة - هى القاسم المشترك بين الدولة والمجتمع فى الشرق الأوسط. وقد غطت على قضايا أخرى رفعت راياتها أيضا: التنمية، التقدم، الحرية، العدل، الوحدة ...الخ. فقد أصبحت الحرب التى اصطلح على تسميتها باسم «القضية الوطنية» أو «القومية» هى الإطار الجامع لتفاصيل الحياة اليومية والقضية التى تسبق أى قضية أخرى. وكما قال جمال عبد الناصر بعد حرب ١٩٦٧ : «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة». لقد أصبحت التعبئة من أجل الحرب مسألة مفروغ منها، سواء فى ذلك تعبئة البشر أم تعبئة الأشياء. فالاقتصاد، والمجتمع، والسياسية، والثقافة كان عليها جميعا أن تكون مجالات فى خدمة المعركة. وهو ما تم بالفعل على اتساع الرقعة فيما بين تصنيع الأسلحة، وتوسيع الكليات العسكرية، وتوزيع القوى العاملة لخدمة المجهود الحربى، وتعليم التلاميذ من خلال مقررات دراسية تخدم التنشئة الحربية، إلى نشر الأغانى الوطنية والأناشيد الحربية، وعلى جانبى الصراع العربى الإسرائيلى أصبح الصراع نفسه هو محور الحياة اليومية فى مجتمعى الطرفين المتصارعين. وبذا لم يبعد عن هذا الصراع من مجتمعات منطقة الشرق الأوسط سوى إيران وتركيا، لكنه على أى حال لم يكن ابتعادا تاما. وإنْ هى إلا سنوات قلائل حتى انجرَّ هذان الطرفان أيضا إلى صراع آخر هو صراع الخليج الذى التصق بهما أكثر. بينما حاول العراق بالخطاب الدعائى وبصواريخ سكود إحداث التداخل بين صراعى المنطقة.


جمال عبد الناصر

وبرغم ذلك فإن تطابق موقف المجتمع مع غايات ووسائل الدولة فى الشرق الأوسط لم يكن كاملا، إلا من الناحية الظاهرية. فربما بدا الخطاب الحربى للطرفين متطابقا بقدر ما كان زاعقا. لكن المشاركة الحربية بين المجتمع والدولة كانت علاقة متضمنة لتوترات غير متجلية دائما. فمثلما كان لدول المنطقة ارتباط مختلف الدرجات بمسألة - الحرب - تضمن تهدئة خطابها الحربى الزاعق من خلال السياسات البراجماتية واتصالات الكواليس الدبلوماسية - كان لمجتمعات المنطقة أيضا طرائقها الخاصة فى الارتباط

بالمسألة وإن لم تفرض طرائقها على دولها. ففى تمثلها للحرب ولإدارة دولها للحرب كانت مجتمعات المنطقة متنوعة التوجهات والدرجات، سواء فيما بين مجتمع وآخر أو داخل كل مجتمع على حدة. فرغم أن مجتمعات الوفرة فى الخليج ومجتمعات الندرة فى دول المواجهة العربية قد تحدثا بلغة واحدة إزاء الصراع، إلا أن خلافا بين الطرفين كان كامنا تحت السطح، وفى داخل مجتمعات الندرة والمواجهة وجدت اتجاهات متغايرة إزاء الصراع ونمت عبر الزمن. وقد قمعت الخلافات فى العادة فى ظل «أجواء» المعركة، حتى سنحت الفرصة لإعلانها فى ظل «أصداء» المعركة. أى بعد جولات فعلية من الحرب الحقيقية بما تمخضت عنه من نتائج حطمت القوالب وتحدت المحرمات.

فالمجتمعات كالدول يتنازعها دوما طرفان: السياسة المثالية والسياسة العملية، أو عيش الحلم ومعايشة الحقيقة. ومجتمعات الشرق الأوسط كانت حبلى بالأجنة المختلفة التى لم يتيسر لها الميلاد إلا فى أعقاب موت الجنود فى الحروب الفعلية. فبعد حرب ١٩٦٧ أصبح ممكنا فى إسرائيل اعتبار قرار الأمم المتحدة بتقسيم فلسطين، والذى على أساسه نشأت الدولة نفسها، اعتباره منقضيا حيث تجاوزه الزمن - أو بالأحرى نتائج الحرب - بل واعتبار الأمم المتحدة نفسها محلا للتجاوز الكامل واليسير. وأضحى من اليسير كذلك أن تتسع رقعة ذلك القطاع من المجتمع الإسرائيلى الذى ينشد تأسيس إسرائيل الكبرى ويشيد أسسها بجدية. وفى المجتمعات العربية من ناحية أخرى - وبخاصة داخل الدولة كمؤسسة - بذرت بذور التصالح مع إسرائيل اعتبارا من قبول قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ومن صياغة منظمة التحرير الفلسطينية لشعار إنشاء الدولة الديمقراطية العلمانية على أرض فلسطين. لكنه فى الوقت نفسه وجد رد فعل آخر للهزيمة العسكرية تمت صياغته رسيما فى اللاءات الثلاثة لمؤتمر قمة الخرطوم (لا صلح - لا اعتراف - لا تفاوض) كما تمت صياغته شعبيا فى مظاهرات الشوارع التى عرفتها مصر ودول عربية أخرى.

وبعد حرب ١٩٧٣ أصبح من الممكن أكثر الحديث عن المصالحة الفعلية وبدأت الاتصالات السياسية التى دشنت استخدام تعبير «عملية السلام». وكان لذلك أيضا رد فعله المضاد الذى احتوى فى مقداره على حادثة اغتيال رائد العملية نفسها الرئيس المصرى أنور السادات.

ومن مظاهر التنوع أيضا فى مواقف دول ومجتمعات المنطقة إزاء صراعاتها ما عرفته صراعات الخليج. ففى سياق حرب الخليج الأولى أو الطويلة بين العراق (وحلفائها العرب) وإيران (والمتعاطفين معها من العرب أيضا) أصبح المواطنون الخليجيون المنتمون للمذهب الشيعى محل شك - بل وأحيانا اضطهاد - من قبل سلطات الدولة وأفراد



حافظ الاسد

المجتمع. لكنه فى سياق حرب الخليج الثانية أو القصيرة أعيد الاعتبار لهؤلاء المواطنين بل ولإيران نفسها. وللمفارقة فقد بدأت عملية إعادة الاعتبار على يد العراق نفسه قبل أن تبدأها دول ومجتمعات الخليج الأخرى. وبعد هذه الحرب الأخيرة أيضا بدأت أصوات الاعتراض المحرمة تفصح عن نفسها. فكان الحديث عن الحقوق الكاملة للأكراد، والديمقراطية لكل العراقيين، وحقوق المرأة السعودية، والديمقراطية للرجل الكويتى وللمرأة الكويتية.. الخ. لقد انطلقت عملية التنوع المجتمعى فى مواجهة احتكار الدولة، وذلك من خلال اندلاع الحرب ومسارها ونتائجها. وهو ما يقودنا للحديث عن العلاقة الحرجة بين الحرب والديمقراطية.

(٣) الحرب والديمقراطية

يبدو من ظاهر الأمور أن «الديمقراطية» و «الحرب» مصطلحان متناقضان منذ البداية، وربما بدا أيضا أن «الديمقراطية» و«الشرق الأوسط» مصطلحان متناقضان أيضا! لكنه من غير اللازم أن يكون ذلك مدعاة للتشاؤم. فقد بدأت بالفعل فى بلدان الشرق الأوسط عملية طويلة من التحول التدريجى إلى الديمقراطية تخللتها معوقات وتراجعات على طريق غير ممهد أصلا.

إن عبارة عبد الناصر الشهيرة «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة» تلخص أمر العلاقة بين الحرب والديمقراطية حيث تفرض الحرب منطقها المتمحور حول الإدارة السلطوية للأمور وعدم تشتيت الانتباه فى وقت الحروب. لكنه للمفارقة فقد كان عبد الناصر ينطق بهذه الكلمات بينما يقوم فى الوقت نفسه بتقديم أكثر أوراق اعتماده ليبرالية، ألا وهو برنامج ٣٠ مارس ١٩٦٨ الذى طرحه فى أعقاب المظاهرات الطلابية العمالية

فى فبراير ١٩٦٨ . وعلى أى حال فإن عبارة «صوت المعركة» على لسانه وعلى لسان خليفته أنور السادات قد تعرضت للنقد اللاذع على لسان الشاعر الشعبى أحمد فؤاد نجم بمصاحبة ألحان الشيخ إمام:

آلو.. آلو يا همبكة

لا صوت يعلو فوق صوت المعركة..

سلام يا واد عشان المعركة

وكمان سلام للست معمعمعركة..

هرشت مخى هى فين المعركة ؟!

إن من الصعب حقا أن نرى الحرب والديمقراطية متعانقين كالأحباء. لكن بينهما نوع من الرباط الخفى، رباط ذى ضفائر معقدة حقا.

إن الحروب تشهر وتشعل وتخاض وتصعد وتعجل وتؤجل وتهدأ وتنهى. إنها تتقدم على مراحل. وبالتوازى مع هذه المراحل تتواجد مراحل من التحول إلى الديمقراطية أو التحول عن الديمقراطية. لقد حاول البروفيسور تيلور الإجابة عن سؤال «كيف تبدأ الحروب؟» فى كتابه الذى حمل هذا الاسم (لندن - ١٩٧٩). ومن الممكن أن نطرح سؤالا موازيا: كيف تبدأ الديمقراطية فى ظل الحرب؟

وفى الشرق الأوسط كما فى غيره فإن امتياز الإجابة عن السؤال غالبا ما يكون فى يد مديرى الدولة الذين يتحولون إلى مخرجى مسرح، يوزعون الأدوار بما فى ذلك دور الديكور الديمقراطى لعروضهم الحربية. هذا فى حالة ما إذا كان ذلك معينا لهم على تعبئة مجتمعاتهم للحرب. إن اللمسات الديمقراطية هنا لا تسىء إلى صورتهم أو قدرتهم الفعلية فى تعبئة الفائض من أجل المجهود الحربى. أما الملامح الأساسية لهياكلهم الاستبدادية فتبقى واضحة بل ومبررة بضرورات الحرب.

وفى الأمر خليط طريف. فقبل حرب ١٩٦٧ مباشرة كان عبد الناصر يضفى لمسة أكثر ديمقراطية على تنظيمه السياسى الاتحاد الاشتراكى العربى، لكنه كان فى الوقت نفسه يقوم بقمع حركة الإخوان المسلمين، وقبيل حرب ١٩٧٣ أرسل أنور السادات قوات الأمن المركزى لاقتحام جامعتى القاهرة وعين شمس وإنهاء اعتصام الطلاب بالقوة، بينما بعد ذلك بأشهر وقبل حرب أكتوبر بأيام أمر بالإفراج عن الطلاب المعتقلين وإعادة الصحافيين المعزولين لتعاطفهم مع الطلبة، وبدوره كان صدام حسين قبيل حرب الخليج الثانية يناقش داخل طاقم حكمه مسألة إدخال التعددية السياسية فى العراق، بينما كان يقوم فى الوقت نفسه بإمطار مواطنيه الأكراد بالأسلحة الكيماوية. وخارج العالم العربى لكن داخل إقليم الشرق الأوسط نفسه كانت إسرائيل تقدم نموذجا آخر للتناقض بين نظامها الديمقراطى وفعلها القمعى ضد الانتفاضة الفلسطينية، مما حصر نظامها نفسه فى حدود أشبه بالديمقراطية «الأثينية الإثنية» (العرقية).

إن ما يهم عملية التحول الديمقراطى فى علاقاتها بالحرب ليس هو الكيفية التى تبدأ بها الحروب بقدر ما هو الكيفية التى تنتهى بها الحروب. وسواء انتهت بالنصر أم بالهزيمة فإن هناك إمكانية للتحول إلى الديمقراطية. لكن مضمون التحول يتوقف على الحالة. فالأنظمة المنتصرة تكون أعصابها أكثر هدوءا وتقبلا للتحول الديمقراطى، بشرط أن تبقى المبادرة فى يدها وألا تحرم من حلاوة انتصارها. لقد قام الرئيس السادات فى أعقاب حرب ١٩٧٣ بإعادة نظام التعدد الحزبى فى مصر، لكنه حدد بنفسه عدد الأحزاب المسموح لها بالتواجد، وثبت حزبه الخاص فى السلطة. وفى أعقاب انتفاضة يناير ١٩٧٧ قام بقمع حزب اليسار الذى كان واحدا من ثلاثة أحزاب فقط سمح لها بالعمل.


انور السادات

أما الأنظمة المهزومة فى الحروب فهى على العكس تتجه للتحول الديمقراطى مرغمة وتحت الضغط الشعبى. وبينما قد ترى هذه الأنظمة أن شيئا من التحول الديمقراطى يعد شيئا من التعويض عن هزيمتها والتهدئة لشعبها، إلا أن الأولوية لديها تظل لعملية استدراك الهزيمة نفسها، أى بتعبير عبدالناصر«إزالة آثار العدوان» وبتعبير صدام حسين مواجهة «العدوان الثلاثينى». ومع الاتجاه لاستدراك الهزيمة تكمن خميرة الارتداد عن التحول الديمقراطى نفسه إلا إذا استمر الضغط الشعبى كافيا. ففى حالة عبد الناصر والسادات استلزم الأمر فيما بين ١٩٦٧ و١٩٧٣ أربع انتفاضات طلابية مدعومة بضغوط أخرى من دوائر الصفوة والقواعد الجماهيرية لكى تنطلق عملية التحول الديمقراطى. وفى حالة صدام حسين استلزم الأمر هذا النطاق الهائل من الحرب الدولية والحرب الأهلية لكى يبدأ فى ١٩٩١ نطاق صغير من الإصلاح فى النظام السياسى. وسواء فى حالة النصر أم فى حالة الهزيمة فإن الإجماع

الوطنى يساعد على إقرار التعددية من حيث إنه يدعم تسامح النظام السياسى تجاه الاختلافات الثانوية مادام الاتفاق بقى على القضية الأساسية. لقد ساعد الإجماع الوطنى عملية استعادة الحياة الديمقراطية فى المغرب فى أعقاب المسيرة الخضراء إلى الصحراء برغم ما تمخض عن ذلك من حرب طويلة. كما ساعد الإجماع الوطنى حول حرب أكتوبر عملية التحول الديمقراطى فى مصر برغم الاختلاف بعد ذلك حول طريقة استثمار نتائج الحرب.

لكن الإجماع الوطنى سلاح ذو حدين. فهو قد يخنق الاختلاف بين الفرقاء السياسيين لدرجة تجعل من التعددية نفسها صورة سطحية. أو أن توترات الاختلاف والتى يخفف منها وجود إجماع وطنى قد تعاود التراكم وتفرض التصادم حول القضايا الأخرى غير القضية محل الإجماع الوطنى. حيث تقدم المغرب ومصر هنا أيضا مثالين بارزين بما عرفتا من انتفاضات خبز - أى اختلاف حول القضية الاجتماعية - رغم تحقق الإجماع حول القضية الوطنية. أما صدام حسين فقد افتقد الإجماع حول غزوه للكويت سواء على المستوى العراقى أم على المستوى العربى، وهو ما حاول إيجاده من خلال ضربه لإسرائيل بالصواريخ. لكن هذا كان قليلا ومتأخرا لتحقيق المطلوب. ولم يحظ صدام بقدر من التعاطف إلا حين أصبح فى موقف الدفاع حين تعرضت بلاده للتدمير الغربى. أما التعددية التجميلية التى لجأ لإدخالها بعد الحرب فجاءت نتيجة للضغط الشديد لا للإجماع الوطنى أو التوافق على الصعيد الشعبى.

ومقابل التوافق على الصعيد الشعبى يوجد التوافق على الصعيد السلطوى، أى داخل صفوف الصفوة الحاكمة. وهو توافق يفيد إدارة الحرب بأكثر مما يفيد التحول الديمقراطى. فهو يساعد على اتخاذ القرارات فى يسر وإعمالها بفعالية سواء لأغراض الحرب أو لغيرها. وهو يغيب فى البلدان التى توجد بها بنية أساسية لاشتعال الحروب الأهلية. وفى بلدان أخرى تتخذ صراعات السلطة صبغة دموية شبيهة بالحرب الأهلية أعلى السلم، كما كان الحال فى اليمن الجنوبى والشمالى وسوريا والعراق. حيث يصبح صعود حكام أقوياء ذوى أيد باطشة مثل حافظ الأسد وصدام حسين هو الصورة العنيفة لضمان وجود توافق داخل السلطة بالقوة.

وقد عرفت مصر صورة أقل عنفا فى إطار صراع السلطة بين عبد الناصر والمجموعة العسكرية للمشير عبد الحكيم عامر، وهو الصراع الذى كلف مصر ثمنا فادحا فى صراعها الأكبر مع إسرائيل بل وكلف العرب جميعا ثمنا فادحا فى صراعاتهم لإنجاز مختلف التطلعات الوردية. لقد أنهى المشير المصرى المهزوم حياته بيده بتناول السم. أما اللواء العراقى المنتصر فى أعقاب حرب الخليج الأولى مع إيران «عدنان خير الله» فقد انهيت حياته أيضا على يد قائده وقريبه صدام حسين نفسه الذى تلقى التعازى إثر «حادثة» الطائرة!



أحمد فؤاد نجم

لقد كان استمرار صراع السلطة فى مصر بعد موت عبد الناصر بين السادات ومنافسيه الناصريين مساعدا على نمو التعددية. فالأجنحة المتصارعة فى قمة السلطة تحتاج دعامات فى قاعدة المجتمع، بشرط أن تتحكم فيها. وفى المجتمعات التى يسودها الاستبداد الهيكلى برغم نشأة الليبرالية الجديدة فيها، يكون من السهل عادة على أجنحة السلطة التلاعب بأجنحة المجتمع، السياسية أو الاجتماعية أو غيرها. وإذا كانت الخلافات الأيديولوجية بين مختلف الأجنحة فى القمة وفى القاعدة حادة بالدرجة الكافية، فإن نمو التعددية يصبح أمرا جديا ومعركة حامية الوطيس.

(٤) الحرب وما وراء الديمقراطية

لقد وقعت الدولة فى الشرق الأوسط ضحية لما روجت له بنفسها من إيديولوجية فقد قدمت أطروحاتها الأيديولوجية فى أكثر صورها مثالية وصرامة وقامت بتعبئة جماهيرها حولها فى خطوط مستقيمة. ولذا كان من الطبيعى أن يتعرض طرح خطوط التراجع والمرونة للمقاومة. فبينما كان من السهل نسبيا تفكيك ما تم من تربيط على مستوى القمة (مثلا استخدام السادات لأداة الدولة الناصرية نفسها لتغيير المسار الناصرى) كان من الصعب لجم القوى التى أطلقت فى القاعدة.

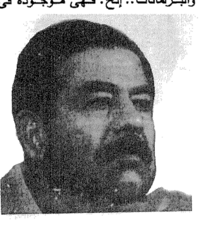
لقد تعرضت أيديولوجية الدولة فى الشرق الأوسط للمتاعب من قبل خصومها، لكن أكثر متاعبها جاءت من طرف القوى التى جندتها بنفسها فتحولت إلى أكبر داعية لأيديولوجيتها. وهكذا جاء مسار المتاعب فى الشرق الأوسط. ففى تركيا احتاجت الايديولوجية العلمانية للحماية الدائمة من قبل القوات المسلحة.

وفى إيران تمت حماية أيديولوجية التحديث فى ظل الشاه بالوسائل القمعية للعصور المظلمة، ثم أدت الأيديولوجية الإسلامية إلى مخاصمة إيران لكثيرين من جيرانها الأقربين والأبعدين بل ومحاربة بعضهم، حتى ما إذا طرح فيها خط أيديولوجى جديد يسمى «الواقعية» تعرض للمتاعب من قبل جنود الثورة الإسلامية. أما الأيديولوجية الصهيونية فى إسرائيل فقد غذت الحلم المستحيل لبناء إسرائيل الكبرى والذى جعل السلام مستحيلا بالنسبة لإسرائيل الصغرى. وعلى مستوى الأغلبية العربية فى الشرق الأوسط لم تتمكن أيديولوجية القومية العربية من تحقيق أى من أحلامها، بل على العكس ولدت نوعا من محاربى «الكاميكازى» اليابانيين الذين أدمجوا المجد والانتحار على نحو ما فعل صدام حسين الذى لم يوحد العرب بقدر ما عاد بهم إلى مستوى الصراعات القبلية قبل ظهور الإسلام.

وإذ فشلت الأنظمة العربية فى تحرير فلسطين فقد اتجه قادتها البراجماتيون إلى خط جديد سبب لهم صداما مع عناصر الرفض التى قاموا بتفريخها بأنفسهم. ويفرض ذلك تحديات على التحول الديمقراطى على الأقل من ناحية الترتيبات العملية. فحيث تتخذ عناصر الرفض باطراد صبغة إسلامية تفرض التحديات على الديمقراطية شكلا ومضمونا كما أضحت الحالتان الأردنية والجزائرية. وليست بأقل أهمية حالات تونس واليمن والسودان. ويؤدى ازدواج المقاييس الغربية فى التعامل مع المسألة الديمقراطية إلى تأجيج الموقف وتهديد العملية الديمقراطية فى المنطقة عموما. كما أن العناد الإسرائيلى يهدد إمكانيات السلام وبالتالى يعوق التحول الديمقراطى فى بلدان الشرق الأوسط.

ومن حسن حظ الصفوات الحاكمة فى معظم هذه البلدان أن الصفوات البديلة غير متماسكة حتى الآن. فهى تتكون من ثلاثة أفرع عريضة: الليبرالى والراديكالى والإسلامى. هذا دونما ذكر للأفرع العرقية والقبلية. وتفتقر هذه الأفرع للاتفاق حول البديل السياسى من الناحيتين النظرية والعملية. ولذلك تعادل هذه االأفرع أثر بعضها بعضاً وتتأجل عملية استبدال السلطة. وعلى هذا النحو جاء استمرار نظام عبد الناصر بعد هزيمة ١٩٦٧، كما استمر صدام حسين فى السلطة جزئيا بسبب هذا العرض المؤثر على الصفوة العراقية البديلة. إلا أنه مع استمرار نمو الفرع الإسلامى للصفوة البديلة سيصبح الوضع استقطابا ثنائيا حادا ويكون من الممكن استبدال النظم القائمة إما من خلال صندوق الانتخابات أى بأداة جماهيرية أو من خلال الانقلابات العسكرية ذات المسحة الإسلامية أى بأداة الصفوة. وهو ما سيهدد عملية التحول الديمقراطى. وبدلا من قياس أثر الحرب على الديمقراطية والتحول الديمقراطى سيكون علينا أن ندرس هذه العملية الأخيرة باعتبارها حربا فى حد ذاتها.

إنه لا يكفى هنا أن نتتبع وجود الدساتير، والانتخابات والأحزاب، والبرلمانات.. إلخ. فهى موجودة فى



صدام حسين

بلدان الشرق الأوسط بدرجة أو بأخرى. حتى الصحافة الحرة موجودة فى هذا المكان أو ذاك. والرأى العام كذلك موجود ويتنامى برغم التلاعب به وخداعه مثلما حدث فى الغرب نفسه خلال حروب ڤيتنام والخليج. إن بلدان الشرق الأوسط تقف على مسافات مختلفة من كل من الحرب والديمقراطية. وتلك البلدان التى تعيش الحرب فعلا أو تعيش فى ظل التهديد بها ليست بالضرورة هى البلدان الأقل ديمقراطية. فمصر والأردن ولبنان دول شبه ديمقراطية. وعلى العكس فإن دول الخليج التى تميزت ببعدها الجغرافى عن حروب الصراع العربى الإسرائيلى لعقود من الزمان، وتوافر لديها الفائض المالى لإرضاء شعوبها قليلة العدد، لم تعبأ بأن تتحول إلى الديمقراطية. وحين وصلت الحرب إلى عقر دارها كان قادتها قد عرفوا تكتيك الكلام الديمقراطى والفعل الأوتوقراطى. وحالة الكويت ذات دلالة هنا سواء قبل غزوها أو بعد تحريرها.

إن السعى إلى الديمقراطية فى الشرق الأوسط ليس مجرد بحث عن وسيلة سلمية للتعامل مع مسألة السلطة السياسية: توليها، توارثها، تبادلها، تداولها، مشاركتها، نقدها.. الخ. إنها مسألة أكبر متعلقة بالنظرة العامة للكون وطريقة الحياة. وهى تحتاج كثيرا من الاجتهاد والجهاد، الاجتهاد الفكرى والنظرى العميق والجهاد العملى أى التجريب الفعلى الصبور فى مجال تشييد أبنيتها وممارستها. إنها حرب فى حد ذاتها وتحض على التعمق فى دراسة علاقتها ليس بمسألة الحرب وحسب وإنما بمجالات أخرى عريضة للعيش البشرى:

أولا: المسألة الاقتصادية وكيفية حصول الأغلبية الفقيرة فى إقليم الشرق الأوسط على لقمة عيشها. فإذا لم

«يتوزع» الفائض النفطى للمنطقة توزيعا معقولا، «ستتوزع» القوات المتأهبة للانقضاض عليه وسيكون أكثر الكلام فى المنطقة عن التوتر والحرب لا عن الديمقراطية. والأسوأ من ذلك أن المقدار البسيط من التحول الديمقراطى الذى تم فى بعض البلدان سيتعرض للخطر.

ثانيا : المسألة الوطنية أو القومية والمسألة الإقليمية. أى مسألة الصراع الرئيسى حول فلسطين والصراعات التالية فى مناطق الأكراد والبربر وجنوب السودان، أو عموما مسألة غير العرب فى القلب العربى وغير المسلمين فى القلب الإسلامى. إن دولة إسرائيل الصغيرة بأحلامها حول إسرائيل الكبيرة وعنادها الطفولى حول حل مسألة فلسطين الأساسية إنما تعطل حل بقية المشكلات القومية والإقليمية وتضمن بقاء الإقليم فى حالة توتر دائم وفى هذه الحالة سيكون الحديث عن الديمقراطية نوعا من الترف وسيكون الحديث. أوقع - مرة أخرى - عن «صوت المعركة».

ثالثا : المسألة الثقافية والحضارية، والتعبير الواضح عنها هو المسألة الدينية أو بالأحرى «المسألة الإسلامية». إنها مرة أخرى فى التاريخ «المسألة الشرقية». لكنها هذه المرة ليست مسألة إمبراطورية إسلامية متداعية، ولكن مسألة تيار صاعد وطموحات متزايدة. والكرة فى ملعب الغرب أن يحدد ما إذا كان يريد مصالحة - وربما ترشيدا - مع الظاهرة الإسلامية أم يريد الصدام والمواجهة. إن امتدادات الحضارة الغربية من نظم قمعية وفاسدة فى العالم الإسلامى آخذة فى التداعى ولن ينقذ جلدها سوى المزيد من القمع لكن لبعض الوقت. إن الحديث عن وجود ديمقراطية فى العالم الإسلامى يستبعد منها الأصوليون الإسلاميون بكل ألوانهم - بما فى ذلك المتشددون المعادون للغرب - هو حديث سخيف من الأصل ويعبر عن موقف هروبى من المسألة كلها. إن الأصوليين الغربيين المعادين للإسلام والحضارة الإسلامية، إنما هم متحالفون موضوعيا مع الأصوليين الإسلاميين المعادين بالكامل للحضارة الغربية، فكلاهما يسهمان فى تدمير الديمقراطية السياسية على أرضية صراعهما الثقافى والحضارى الاستبعادى.

رابعا : مسألة القوة الكونية وتوزيع مصادر الثروة الاقتصادية والسياسية على الصعيد العالمى ونصيب بلدان الشرق الأوسط من ذلك. فبعد نصف قرن من الزمان انهار النظام العالمى ثنائى القطبية، وخلال فترة أقصر قد ينهار النظام العالمى الأحادى القطب، وربما بصورة أكثر مأساوية. إن الصراع العالمى يحتاج لجرعة من التفكير الحضارى والتقدير الحضارى. بمعنى أنه إذا لم تتعلم الولايات المتحدة الأمريكية (الدولة الأقوى فى السياسة الدولية والعضو الأحدث فى الحضارة العالمية) كيف تتعامل مع العالم القديم (اليابانيون - الأوروبيون - العرب - الفرس - الصينيون - الهنود .. الخ) بطريقة «متحضرة» (تدمير العراق لم يكن تحضرا) فستكون هناك كارثة عالمية من صنع الإنسان تنتظره فى القرن القادم، كارثة ستبدو الحرب العالمية الثانية أمامها جرحا سطحيا على جلد البشرية. وعند ذاك ستكون الحرب لا الديمقراطية هى حديث المدينة العالمية ناهيك عن قرية الشرق الأوسط التى لن تكون أرضا للاستقرار فى الكرة الدوارة أو واحة للديمقراطية فى عالم يقوده الطغاة.

وأخيرا فإن هؤلاء الطغاة وفلاسفتهم الذين لايرون فى الشرق الأوسط سوى ثلاثية «متحف التاريخ - قاعدة الصواريخ - بئر البترول» ليسوا مؤهلين لمساعدة العملية الديمقراطية لدى البشر الذين يقصر بصرهم عن رؤياهم كما تعجز بصيرتهم عن احترامهم. إن الجهود المضنية التى يبذلها أهل المنطقة بأنفسهم لإقامة حياة ديمقراطية فى بلادهم برغم الحرب هى مهمة شاقة تستأهل كل تقدير. وقد لا تؤدى هذه الجهود لأكثر من الحصول على نوع من «ديمقراطية الثكنة العسكرية» لا الديمقراطية المتكاملة. لكن هذا باعتبارات الزمان والمكان يعد فى حد ذاته إنجازا كبيرا. والمهم أن تتحقق تطلعات الناس لحياة ديمقراطية بهذا المقدار أو ذاك بدلا من أن تضيع تضحياتهم سدى فى الخلجان والمحيطات ■



تساؤلات على هامش المستقبل

بدر الرفاعى

كاتب ومترجم صدر له «ضباط الجيش فى المجتمع العربى» لـ بعيرى و «الحروب العربية الاسرائيلية» لـ حاييم هارزوج.

قبدخول اتفاق «غزة ـ أريحا أولا» مرحلة التنفيذ، تدخل المنطقة، ككل مرحلة جديدة فى طبيعتها، مرحلة تختلف فيها معسكرات المواجهة، وآليات الصراع، والتحالفات، بل ونوع المواجهة. فعلى مدى عمر الصراع العربى ـ الإسرائيلى، من ١٩٤٨ وحتى ١٩٧٣، كانت المواجهة عسكرية فى المقام الأول، خاض الطرفان خلالها أربعة حروب، انتهت بهزيمة العرب. حتى ثمار نصر اكتوبر المجيدة ذهبت أدراج المسارب السياسية. فى خلال تلك الفترة، وبالذات فى الفترة من ١٩٤٨ ـ ١٩٦٧، كان التعامل مع إسرائيل يتم من خلال منطق يستهين بها ويقلل من شأنها. فهى «الكيان المزعوم» تارة، و «دولة العصابات الصهيونية» تارة أخرى. واستنامت الأطراف العربية إلى كثرتها العددية، وشعار لم ير التحقق يوما، أى الوحدة العربية، شعار اكتسب صبغة أصولية ولم يسفر سوى عن مؤتمرات للمصالحة العربية، فى أفضل الأحوال.

ويفيق العرب على صدمة ١٩٦٧، بعد أن ابتلع العدو مساحات جديدة من الأرض، ومن الكبرياء القومية. وبعد أن ينقشع دخان الحريق، تبدأ رحلة اللهاث فى أروقة المنظمات الدولية. وتتراجع الأهداف القديمة، وبدلا من استرداد الأرض السليبة وعودة الفلسطينيين إلى ديارهم والقضاء على إسرائيل، يصبح غاية المنى تطبيق القرار ٢٤٢ واستعادة الأرض التى سلبت حديثا.. سيناء والجولان والضفة الغربية. يتم كل هذا دون وقفة توضيح أو نقد ذاتى أو تقديم

مبرر للجمهور، وهو أمر يبدو كآلية طبيعية للعقل العربى، آلية التواطؤ مع الذات، دون اعتبار لدماء الشهداء أو لعقول الأحياء. ثم تجىء حرب أكتوبر ١٩٧٣ المجيدة.

برولوج موسيقى قصير وسريع، ينفتح بعده الستار عن فصول جديدة تقدم، ولأول مرة، لجمهور المشاهدين من شعوب المنطقة .. كامب دافيد .. حرب الخليج ١٩٩٠ .. وأخيرا غزة ـ أريحا أولا. (لا يقصد كاتب هذه السطور أى استهانة أو تقليل من تضحيات الجنود والشهداء الذين جادوا بجهودهم وأرواحهم، وشهد العالم كله بأدائهم البطولى فى حرب أكتوبر المجيدة.)

وهكذا، وكالعادة، أُدخلت المنطقة فى مرحلة جديدة. وأقول أُدخلت لأن العرب طوال تاريخ صراعهم مع إسرائيل كانوا دائما فى موقف رد الفعل. كانت إسرائيل دائما تختار الموقف وتختار التوقيت، بل وأحيانا ما كانت تفرض نوع رد الفعل. مرحلة جديدة ندخلها، تتراجع فيها المواجهة العسكرية الساخنة، لتحل محلها التسويات السياسية، كتمهيد لإقرار واقع جديد مغاير لن يقتصر، فى المدى البعيد، على مجرد تلك التسويات. وهى مرحلة، فى نظرنا، انتقالية الهدف منها ترتيب الأوضاع بما ينسجم مع المرحلة الثالثة من مراحل المواجهة العربية الإسرائيلية، مرحلة الشرق أوسطية، أو هكذا اختارت أن تسميها إسرائيل، بمباركة القوى الكبرى فى النظام العالمى الجديد (تحت التأسيس).

ما المقصود بالشرق أوسطية ؟

تركز النقاش الذى دار حول الشرق أوسطية فى الصحف على تناول الفكرة من منظور كونها سوقا تضم دول المنطقة. لكن المتأمل لأفكار «شيمون بيريز»، مهندس الشرق أوسطية، يشتمّ رائحةً قومية إقليمية جديدة، انتماء إقليمياً جديداً، يتجاوز أو يتماس مع الكيانات القومية الوطنية. فهو يشير إلى أنه «خلال فترة حكم الإمبراطورية العثمانية لم يكن للهوية الوطنية سوى اعتبار ثانوى فى تفكير الشعوب الخاضعة للعثمانيين، أو فى نظر الشعوب الأخرى»[1] والخطوط العلمية المعلنة حتى الآن تركز على قضايا عديدة لا تقتصر على الاقتصاد أو السوق فحسب، فهى تتناول قضايا الأمن والديمقراطية والتنمية والاستقرار السياسى .. والحياة. بالإضافة إلى التعاون الثقافى والعلمى مع شعوب المنطقة، والذى بدأته إسرائيل مع مصر بعد التوقيع على كامب دافيد.

لقد سبق مَقْدم الشرق أوسطية مجموعة من المتغيرات العالمية والمحلية المواتية. فقد شهد العالم سقوط الاتحاد السوفيتى والكتلة الاشتراكية، التى كانت تمثل دعامة وسندا للجبهة العربية وانسلاخ كتلة «النمور» ومجموعة «التنين» الآسيويتين من معسكر العالم الثالث، ويتواقت هذا مع إعداد المسرح العالمى لنظام جديد لم تتضح قسماته بعد. وعلى المستوى العربى، كانت حرب الخليج قد أتت على البقية الباقية مما سمى التضامن العربى. فمنذ زمن غير قريب ظلت الوحدة العربية تتضاءل، حتى أصبح يطلق عليه التضامن العربى مرة والتنسيق العربى مرة أخرى، لقد قضت تلك الحرب على أى أمل للتضامن أو التنسيق أو حتى العلاقات الطبيعية. **وحرب اليمن التى تدور رحاها الآن بين الأشقاء هى فى جانب منها شكل من أشكال تصفية الحساب.**

كانت حرب الخليج تفجيرا لعداوات عربية كامنة. وبدت قوات التحالف الغربى بمثابة المنقذ من الضلال العربى. وخرجت الأمة العربية من تلك الحرب مهزومة بيديها .. ربما لأول مرة فى التاريخ تمول أمة من الأمم هزيمتها. واحترقت ـ ضمن أشياء أخرى ـ محاولات النفط المستميتة لوراثة دور مصر فى قيادة المنطقة.

على هذه الأرضية من السيولة والتشتت وفقدان الاتجاه والقيادة بدأت تظهر الدعوة الشرق أوسطية. وهو اهتمام قديم لدى قادة إسرائيل، يعكسه عدد مراكز الأبحاث المهتمة بدراسات الشرق الأوسط، منها «مركز موشى ديان لدراسات الشرق الأوسط» و «مركز دراسات الشرق الأوسط وأفريقيا» بجامعة حيفا و «قسم الشرق الأوسط والدراسات الإسلامية» بالجامعة العبرية، و «معهد شيلواح» و «قسم التاريخ الشرق أوسطى والإفريقى» بجامعة تل أبيب .. وغيرها من المراكز والمعاهد المتخصصة. وتضم هذه الهيئات مجموعة كبيرة من الأساتذة والمتخصصين فى شئون المنطقة، الذين يتولون تقديم الدراسات والأبحاث حول الجوانب المختلفة، السياسية والاقتصادية

والثقافية والتاريخية. ومنذ ١٩٧٦، يصدر مركز «موشى ديان» كتابا سنويا(٢)، يتناول فيه الأوضاع التى عايشتها بلاد المنطقة خلال السنة المعنية، بلدا بلدا، مع التعرض للقضايا المحورية التى شهدها العام. وشبكة دراسات الشرق الأوسط فى إسرائيل على علاقة وثيقة بالشبكة المثيلة بالولايات المتحدة الأمريكية، والتنسيق بينهما كبير.

مشروع الشرق أوسطية إذن ليس وليد الظروف المستجدة أو العابرة، وإنما جزء من تخطيط استراتيجى، يستفيد من تعثر المشروعات العربية. ولا أعنى أنه رد فعل لهذه العثرات. إن المشروع يستهدف، هذه المرة، السوق والعقل العربى. وسوف يرتدى الغازى، هذه المرة، ثياب التجار والمفكرين، يظاهره بنية اقتصادية عربية متخلفة، ووسائل اتصال وأقمار صناعية جبارة بدأت نتائجها تظهر فى البيت العربى بالفعل، وجيش من علماء الاجتماع. ومرة أخرى استشهد بشيمون بيريز، الذى يقول: «القوة الحقيقية، بل وحتى القوة العسكرية لم تعد توجد فى المعسكرات، بل فى حرم الجامعة»(٣).

كيف ندخل الحقبة الجديدة؟

هذا سؤال يستدعى جهود كل مفكرينا ومثقفينا، باختلاف توجهاتهم. جهد يتحلى بالعقلانية وشجاعة السؤال وإعادة النظر فى البديهيات المستقرة. إن تحدى المستقبل، فى اعتقادى، مازال هو تحدى الماضى: بنية عقلية عصيّة على التجدد، وتنمية متعثرة، وديمقراطية محتجزة. وفى هذا الإطار ينبغى طرح مجموعة من الأسئلة، منها ما هو جديد ومنها ما تأخر طرحه لسبب أو لآخر. وعلى رأس هذه الأسئلة يجيء السؤال: من هو العدو الرئيسى فى المرحلة المقبلة؟ هل ما زالت إسرائيل هى العدو الرئيسى؟ وهل الإجابة على هذا السؤال تحوز إجماعا أو أغلبية عربية؟



شكرى عياد

هل ما زالت الوحدة العربية - ولو على مستوى الشعار - عامل جذب، يمكن أن يشكل عنصر استقطاب للعرب، أم استحالت إلى حلم ينتظر الفرصة المواتية؟

بعد سقوط الكتلة الاشتراكية ثار التساؤل: هل العيب فى فكرة الاشتراكية نفسها، أم فى التطبيق؟ فهل يمكن أن نطرح السؤال نفسه فيما يتعلق بالوحدة العربية؟ إن أوروبا لم يجمع بينها من عناصر الوحدة ما تحققت للأمة العربية من عوامل، ومع ذلك تحقق لأوروبا وحدتها القائمة على تبادل المصالح الوطنية لكل وحدة من وحداتها القومية، فهل علينا فى الحقبة القادمة أن نحذو حذو أوروبا، مثلا؟ بمعنى التركيز على استكمال البنية الوطنية والاسترشاد بمصالحها، وبعدها يأتى الحديث عن الوحدة؟

وماذا عن مصر؟

هل آن أوان انعزال مصر، كما يرى بعضهم؟ انعزال يفرض بناء الذات على كافة الأصعدة؟(٤).

إن لمصر - دائما - دورها المحورى فى قيادة هذه المنطقة، وتراجعها الحالى وضع مؤقت وعابر، لابد أن ينتهى يوما.

ولكى يتحقق هذا لمصر لابد وأن تشرع فى المواجهة التى تأخرت طويلا.. مواجهة تخلفها على جميع المستويات. ولن يتحقق لها هذا إلا بإرساء الديمقراطية. ومصر أكثر الدول المؤهلة لهذا، بفضل تراثها السابق فى التنوير والريادة الفكرية.

هل يمكن للأصولية أن تكون بديلا للعروبة فى المرحلة القادمة؟ هل يمكن أن يكون الانتماء الإسلامى هوية قومية بديلة فى مواجهة الشرق أوسطية؟

إن إسرائيل تضع الأصولية الإسلامية كأحد الأسباب التى قامت الشرق أوسطية لمواجهتها. فهل يضعنا المستقبل أمام اختيار مأساوى بين أحد الاثنين؟

أسئلة كثيرة وغيرها، ينبغى طرحها والتصدى لها بشجاعة واستنارة، ولا يجب أن ننتظر حتى نواجهها بيأس الموشك على الغرق.

وأعتقد أن مجمل هذه التساؤلات وغيرها فى حاجة إلى جهد بحثى وحوار منظم، يشارك فيه كل مفكرينا ومثقفينا المستنيرين. إن مجموعة المقالات والأبحاث الواردة بهذا الملف تمثل جهدا فرديا مشكورا. لكن الأمر فى حاجة إلى إطار يجمع جهود المهتمين بالأمر، ينظمها ويوجهها فى خدمة أهداف واضحة، يتفق عليها بطريقة ديمقراطية. إن الأمر يتعلق بمستقبل وطن ومصير شعب. ولا ينبغى ترك المسألة برمتها للحكومات والأنظمة.

فهل تكون البداية ندوة «ضيقة» بين المهتمين تتولى الإعداد لها مجلة **«القاهرة»**، باعتبارها منبرا تنويرياً رائدا؟■

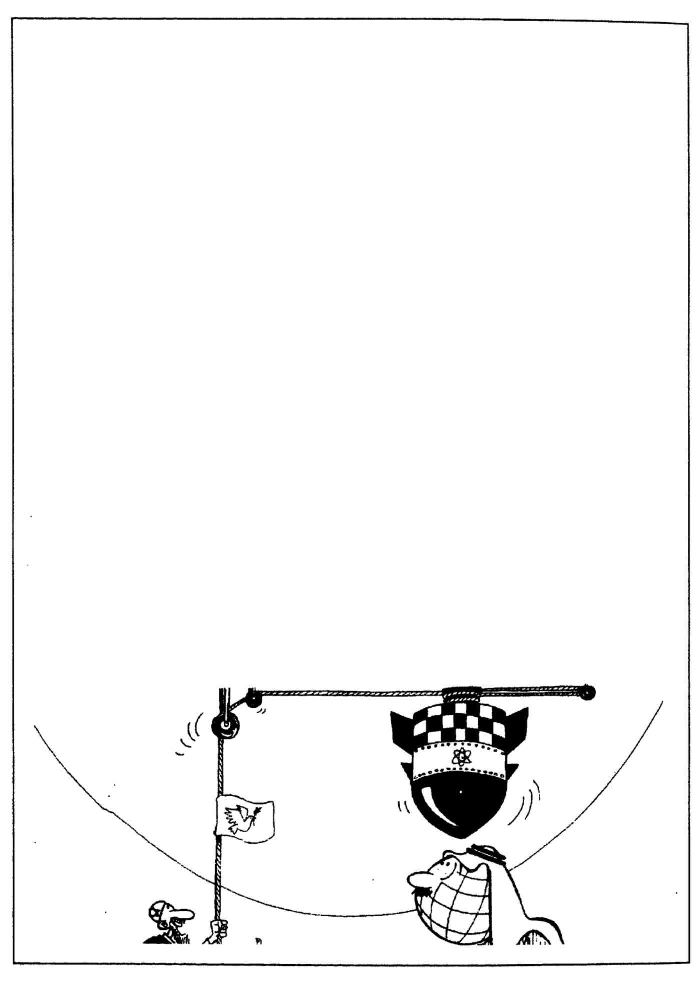
الهوامش

(١) شمعون بيريز، الشرق الأوسط الجديد، ص ١٨٤

(٢) Middle East Contemporary Survey.

(٣) بيريز مرجع سابق ص ٣٥.

(٤) انظر مقال الدكتور شكرى عياد بجريدة الأهالى - ٢٥ مايو ١٩٩٤.





صورة إسرائيل ومستقبلها لدى الشباب الجامعى المصرى

محسن خضر

باحث مصرى وروائى وقاص

فإذا كان الكبار يحكمهم فن الممكن فإن الشباب يطمحون نحو أفق المستحيل وتبدو الحاجة إلى الكشف عن رؤى العالم لدى الشباب حاجة مستجدة ومفتوحة لفهم عالمهم، ومن ثم فهم مستقبل الأمة.

ومعرفة جوانب وحقيقة الوعى السياسى للشباب - وخاصة الجامعى - مهمة مشروعة ومغرية فى أغلب الدراسات التى تعرضت لواقع التنشئة السياسية لهم. وقد أجريت الدراسة الحالية لمعرفة صور المستقبل العربى لدى خريجى الجامعة المصرية حديثا، حيث أجريت على ٢٧٠ خريجًا جامعيًا من خريجى مختلف كليات الجامعة المصرية والذين يأتون إلى كلية التربية للحصول على دبلومة عامة فى التربية لمدة عام، تؤهلهم بعدها للانخراط فى مهنة التدريس، فى ضوء واقع متأزم يعانى فيه أكثر من ثلاثة ملايين شاب التعطل.

والسؤال الأساسى والمفتوح الذى وجه لهذه العينة: ما صورة مستقبل الأمة العربية فى القرن القادم فى توقعك؟

وأجريت الدراسة مرتين فى عامى ١٩٩٠، و١٩٩٢، ونلاحظ أنها استوعبت - اتفاقًا - حدثًا جللا هو زلزال الكويت خلال مدة البحث، ومن قبل تخصصات مختلفة من هندسة وعلوم وتجارة وآداب وخدمة اجتماعية وعلوم سياسية ولأن الإجابة كانت مفتوحة، أى لم تحدد لهم جوانب بعينها فى المستقبل، فقد استخلص التحليل أهمّ القضايا الرئيسية الأكثر

تكرارا فى إجاباتهم، وكانت قضايا مستقبل الوحدة العربية، ومستقبل الصراع العربى الإسرائيلى، ومستقبل علاقة الذات بالآخر ومستقبل التنمية والاقتصاد العربى، ومستقبل الديمقراطية ومستقبل العلم والتعليم.

١ ـ صورة إسرائيل

تكشف مجمل الإجابات عن استمرار مشاعر العداء بين أوساط الشباب المصرى تجاه إسرائيل، والنزوع نحو رفض التطبيع معها، وعدم الثقة فى سعيها الجاد تجاه إحلال السلام.

وتتوزع الاستجابات عمومًا بين مشاعر انفعالية سلبية وموقف عداء عقلانى.

وقد اختلفت التعبيرات حول صورة إسرائيل فى إجابات الشباب المستفتى، وإن تقاربت فى المعنى، فهى خنجر فى جنب العرب، و(طعنة فى قلب العرب) و(أخطبوط) و(الابن المدلل لأمريكا) و(أداة الاستعمار) و(العدو اللدود للأمة العربية) و(محاربون ضد السلام) و(ولاية أمريكية).

ويتحدد دور إسرائيل عندهم فى استنزاف قوى العرب، وإجهاض محاولات التنمية والتقدم، والتهديد المستمر للأمن العربى، وفصل المشرق العربى عن مغربه، وغايته تحقيق إمبراطورية يهودية من النيل إلى الفرات، كما زرعها الاستعمار الغربى لتصبح مصدر قلق وحروب، ولتحقيق حلم الصهيونية العالمية.

٢ ـ نوايا إسرائيل فى المستقبل.

تستبعد أغلب الإجابات نوايا إسرائيل الجادة نحو بناء السلام، ونلاحظ أن توقيت إجراء هذه الدراسة (١٩٩٠ ـ ١٩٩٢) تم فى ظل مناخ (السلام البارد) وقبل الاتجاه الرسمى والإعلامى الأخير نحو (تسخين السلام) والإعلان عما يسمى (بالسوق الشرق أوسطية)، فنوايا إسرائيل فى المستقبل ـ عند عينة الدراسة ـ ترى أن إسرائيل ستستمر فى ممارسة تهديدها، وستستمر فى احتلال الأرض العربية، و(ستستمر الحلول المحدودة بسبب طبيعتها العدوانية وستمارس تخريبها فى قلب الأمة العربية بالتهديد والتهويد والقوة)، وأن القضية الفلسطينية لن تحل إلا بوحدة العرب.

٣ ـ مستقبل إسرائيل.

لاتكشف الإجابات عن إلمام كاف بالتركيب السكانى والسياسى للمجتمع الإسرائيلى، ولابتناقضاته الداخلية (الأحزاب الدينية المتطرفة وأحزاب اليسار، أو بين الاشكنازيم والسفرديم، أو الهجرة المضادة، أو القنبلة السكانية الفلسطينية.، كما لم تشر إلى وضع الاقتصاد الإسرائيلى وبنيويته، ولا عن خريطة منظمات المقاومة الفلسطينية، وهو مايشير إلى جهل الشباب المصرى بتضاريس القضية الفلسطينية وظلالها وتعرجاتها المختلفة، وإن كان الوعى كبيرا بتطورات الانتفاضة الفلسطينية.

كما ظهرت نبرة واضحة تتعلق بالخيار (صفر) أى تصفية إسرائيل وتحرير فلسطين بالقوة أو تقليم أظفارها كحد أقصى، وإن لم يكن مطروحًا إقامة دولة ديمقراطية علمانية لكل القوى السياسية والعرقية، ومن أمثلة هذه الإجابات:

- لايمكن أن تصل إسرائيل إلى نيل مصر أو فرات العراق (أرض الميعاد).
- ستتهدد إسرائيل بوحدة العرب.
- ستقوم حرب مدمرة بيننا وبين إسرائيل للسيطرة على الوطن العربى بسبب طبيعتها العدوانية.
- لا حرب بين العرب وإسرائيل خلال عشر السنوات القادمة لفشل كل منهما فى حسم الصراع فى الجولات السابقة.

خلع إسرائيل أو إقامة دولتهافى حدود متفق عليها إلى جانب دولة فلسطين.

- ستحل مشكلة فلسطين بالمفاوضات، وبفضل جهود الدول الكبرى.
- يسود سلام بين مصر وإسرائيل.
- سيقف الروس ضدهم.
- ستوافق إسرائيل مضطرة على الحل السلمى بسبب مخاطر الانتفاضة.
- لامستقبل لها وستنقرض خلال سبعين عاما.
- ستعجز عن التوسع بسبب عجزها السكانى.

● مستقبل الوحدة العربية وإسرائيل.

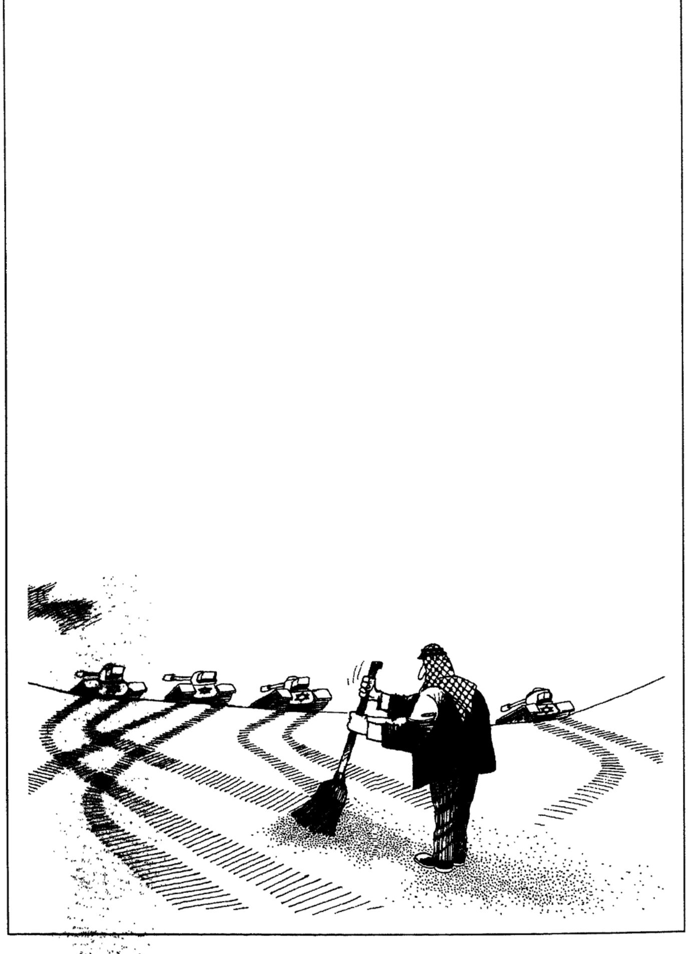
تعى أكثرية الإجابات للتأثير السلبى للوحدة العربية على إسرائيل(فالوحدة من

شأنها تحرير فلسطين) كما أنها (تهدد مصالح إسرائيل والقوى العظمى) و(ستزيح الوحدة إسرائيل عن المسرح العربى) و(ستنجح الوحدة فى إيجاد حل جذرى للقضية الفلسطينية).

ومما يدعو للتأمل حول صورة إسرائيل فى مستقبل الصراع العربى الإسرائيلى لدى الشباب المصرى الجامعى حديث التخرج، هو الرفض النفسى، والواعى أيضا لتطبيع العلاقات مع إسرائيل، أو الثقة فى سعيها الجاد نحو بناء السلام، ومما يزيد هذه النتيجة أهمية، أنها تأتى من قبل (جيل كامب ديفيد) أى على لسان الجيل الذى نشأ وتفتح وعيه فى ظل مناخ الصلح الرسمى بين مصر وإسرائيل، وإنهاء حالة الحرب، ولكن استمرار عدوان إسرائيل وانتهاكها للحقوق العربية ومحاولة تعطيل جهدها العلمى والتكنولوجى، وتهديدها المستمر للسيادة العربية منذ معاهدة السلام (غزو بيروت - تدمير المفاعل النووى العراقى - الاعتداء المستمر على جنوب لبنان - قمع الانتفاضة بكل السبل مشروعة وغير مشروعة - اغتيال الزعماء الفلسطينيين - ضرب تونس.. !) قد وسعت من أزمة الثقة لدى الشعب المصرى تجاه مصداقية السلام الإسرائيلى، كما يمكن تفسير هذه النتيجة - جزئيا - برفض أحزاب المعارضة المصرية للتطبيع مع إسرائيل قبل عودة حقوق الشعب الفلسطينى والجلاء عن الأرض العربية المحتلة وخاصة فى ظل الانتقاد الدائم واللهجة المعادية لإسرائيل فى صحف المعارضة المصرية وخاصة (الأهالى) و(الشعب) و(الوفد) ...

وإذا أضفنا إلى ذلك أن الدراسة قد كشفت عن موقف مناهض للشباب عينة الدراسة من الدور الأمريكى واتهامه بالتحيز لإسرائيل، وعدم العدالة فى موقفها من الصراع العربى الإسرائيلى، واتهام الولايات المتحدة للسعى للتآمر والهيمنة على الإرادة السياسية العربية لأدركنا عمق الدلالة التى تبطن هذه الإجابات، أو التى يمكن استخلاصها منها، وخاصة أن هذا الجيل لم يعش فى أجواء الخطاب القومى فى الخمسينيات والستينيات، ولكن موقفه السابق من إسرائيل والولايات المتحدة يكشف أيضًا عن تأثير الجيل السابق - وبالتالى انتقال الثوابت القومية بين الأجيال - وفى مقدمتها الإيمان بعدالة القضية الفلسطينية، ورفض ما يمثله المشروع الإسرائيلى فى المنطقة، وعدم الثقة فى سعى السياسة الإسرائيلية نحو إحلال السلام بدلا من الحرب، أو استبدال لغة الحوار بلغة القوة.

وتدعو الدراسة إلى مزيد من الدراسات للكشف عن الوعى السياسى لقطاعات وشرائح أخرى من المجتمع المصرى، مع الإشارة إلى نقطة مهمة أخرى وهو ما أكدت عليه هذه الدراسة من الإيمان العميق لدى الشباب الجامعى فى مصر - من خلال عينة الدراسة - بقضية الوحدة العربية، وبعمق الهوية القومية وانتماء مصر العميق إلى محيطها العربى ■



القاهرة ـ يونية ١٩٩٤ ـ ٢٩



حيرة عربى .. و حيرة يهودى

مصطفى الحسينى

قد يجد القارئ فى السطور التالية قدرا مما يشبه السيرة الذاتية لكاتبها ، لكنها فى الحقيقة ليست كذلك، أو أن هذا ليس القصد منها. إنما كان الدافع المباشر لكتابتها عاديا ـ إن جاز التعبير، فقد كتبها كمقدمة ثانية لكتاب سبق أن ترجمه ونشره فى العام ١٩٧١* ، لكن الدافع الحقيقى يتضح من قراره إعادة نشر هذه الترجمة، فقد صدر هذا القرار عن سعيه إلى التفتيش فى عقله وضميره عن حقيقة رؤيته لما يجرى على الصراع العربى / الإسرائيلى من تطورات.

وقد كتبت هذه المقدمة الثانية للكتاب فى شهر فبراير ١٩٩٣، أى قبل أن يتوصل الفلسطينيون والإسرائيليون إلى الاتفاق المعروف باسم «غزة ـ أريحا أولا»، وكان من بين العناصر الرئيسية وراء ما ورد فيها من أفكار واقعة لا تذكرها هذه المقدمة، وملخصها أن كاتب هذه السطور، فى سبتمبر ١٩٩٢ قد تداول مع عضو اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية محمود عباس (أبو مازن) فى فكرة فتح «مسالك» غير رسمية بعضها غير علنى، توازى المفاوضات العلنية التى كانت دائرة فى واشنطن فى ذلك الحين بين الفلسطينيين والإسرائيليين. ويقر الكاتب أنه فى تلك المداولة كان يحبذ هذا المسلك، ويسجل ـ على مسؤوليته ـ أن الفلسطينى الذى كان فى ما بعد هو المفاوض الرئيسى حول الاتفاق المذكور، قد شاركه هذا الرأى، بل وأبدى أنه يستطلع سبلا لفتح مسالك تفاوضية من هذا القبيل.

وما يلى هو نص هذه المقدمة الثانية للطبعة الثانية من تلك الترجمة والتى لم تصدر بعد.

•••

لماذا أعيد نشر هذا الكتاب فى هذا الوقت؟

ربما لا يستوفى هذا السؤال جوابه دون سؤال آخر؛ لماذا ترجمت هذا الكتاب ونشرته منذ أكثر من عشرين سنة؟ فلست مترجما محترفا، بل وقد أقول إننى لا أحب الترجمة، ومع ذلك نقلت إلى العربية كتبا ثلاثة غير هذا الكتاب [1]. وكان دافعى إلى ذلك واحدا فى المحاولات جميعا: يعجبنى كتاب أو يثير اهتمامى إلى حد أن أحس أنه يجب أن ينشر بالعربية، فأحاول إقناع أحد غيرى بترجمته، فإن فشلت فى هذا المسعى، قمت أنا بالعمل وأمرى إلى الله. وبالطبع لم يحدث هذا فى شأن الكتب التى أعجبتنى أو أثارت اهتمامى جميعا إلى حد الرغبة فى أن أراها منشورة بالعربية، وإنما فى هذا العدد القليل منها.

ولقد أقول أيضا إن هذا الكتاب بالذات قد ألح علىّ إلحاحا خاصا، لأسباب عديدة قد لا يكون ـ بينها ـ من صلة سوى المؤلف: إيزاك دويتشر.

بدأت معرفتى بأعمال دويتشر فى النصف الأول من الستينيات، وأذكر أن أول ما قرأته له كانت ثلاثيته عن ليون تروتسكى، ذلك الرجل الفريد من بين قادة الثورة البلشفية الروسية، الذى تمرد على الحصار الذى فرضه يوسف ستالين على حلم الثورة الاشتراكية العالمية وعلى الثورة ذاتها فى روسيا «وطن الاشتراكية فى بلد واحد» حسب الاختيار الذى رآه ستالين اختيارا واقعيا. وهو التمرد الذى جعل مصير تروتسكى النفى ثم الموت غيلة. فى هذه الثلاثية يبدو ليون تروتسكى شخصية رومانسية وتراجيدية من طراز فريد. وقد كتب عنه دويتشر كتابة مؤرخ وفنان، أوفت التاريخ حقه من التوثيق والتقييم، بينما الرومانسية وضاءة وآسرة، والتراجيديا عنيفة وأخاذة.

وكان أن شرعت فى ترجمة هذه الثلاثية، إلى أن «أنقذنى» من هذه المهمة أن عرفت أنها تترجم فى لبنان.

لكن دويتشر استحوذ على قدر منى، فسعيت إلى كتبه الأخرى، وهو هذا البولندى الذى تعلم الانجليزية وعمره يناهز الثلاثين، فكتب بلغة منها لا يكاد يبلغها كثير ممن تربوا على تراثها، لغة تجمع إلى الدقة العنفوان وقوة الإيحاء.

وهو هذا الماركسى الذى أصبح من قادة الحزب الشيوعى فى بلده فى مطلع العشرينيات من عمره، ثم تمرد على الحزب وعلى الشيوعية «الدولية» عندما صدمته ـ التجربة الستالينية، فخرج عن الشيوعية كما هى معروفة واستبقى الماركسية أواستبقته حتى آخر يوم فى حياته، وبغض النظر عن قبول الفلسفة الماركسية أو رفضها أو التحفظ عليها، فإن مفارقة دويتشر تستلفت النظر؛ خروج على الشيوعية «الستالينية» وبقاء على الماركسية. ما يستلفت النظر وموقع المفارقة هو نجاته من «الاستدراج الفكرى» إن جاز التعبير. ففى الحركات السياسية المذهبية يبدأ الخلاف عادة من السياسة، لينتهى تدريجيا إلى تآكل الاقتناع بالمذهب، وفى معظم الأحيان العداء له والانضمام إلى صفوف خصومه، وهو مصير آل إليه الشيوعيون الذين خرجوا على الستالينية جميعا وبلا استثناء يستحق الذكر تقريبا. لكن دويتشر لم يطرق هذا الدرب، بل وشغلته ظاهرة الاستدراج الفكرى هذه، فوضع كتابا عن أبرز من مضوا عليه، وكان عنوانه يلخص رؤيته لهم «هراطقة ومارقون».

وفى العنوان رنين من الستالينية، فلو أن ستالين تناول الموضوع نفسه، ما خرج عنوانه عن هذه المعانى.

وهو هذا اليهودى الذى حيرته يهوديته، تربى تربية تكاد تكون يهودية خالصة وفى بيئة يهودية تكاد تكون مغلقة، وعندما بلغ الثامنة (!) كان قد قرأ أصول الديانة على حاخامات مدينته كراكوفيا ببولندا وأدى امتحان الحاخامية. وفى مراهقته وشبابه الأول كتب الشعر بلغة يهود شرق أوروبا ـ البيدشى، وقرأه على تجمعات اليهود، وكان فى خروجه على الستالينية شىء من هذه اليهودية، فقد اندلع الخلاف من رفض الشيوعيين الستالينيين تحذيراته من خطر النازية على اليهود.

ولا يملك قارئ أعمال دويتشر إلا أن يلحظ ذلك الجهد الذى يبذله كى يبدى تماسكا روحيا وانسجاما، إنما لا يفوته أن فى عمق هذا الذى يبديه جهدا خارقا

لتحقيقه، أى لطمأنة نفسه إلى تماسكه الروحى، وقد وضح هذا فى عنوان هذا الكتاب الذى صدر بعد وفاته: «اليهودى اللايهودى» وليس هو الذى اختار عنوان الكتاب، وإن كان عنوانا لأحد فصوله، وهو لم يكتب ما ضمه الكتاب لكى يكون كذلك، فهى مقالات ومحاضرات وأحاديث إذاعية وصياغة لأحاديث صحفية تفرقت ما بين الأعوام من ١٩٤٦ إلى ١٩٦٧، أى عام وفاته، ثم جمعتها وأشرفت على تحريرها ونشرتها زوجته «تمارا»، وربما كان العنوان الأوفق هو «اللايهودى اليهودى»، فقد خرج دويتشر عن يهوديته خروجا كاملا، أو هكذا اعتقد، وبقى يهوديا. والعنوان تعبير ساطع عن حيرته الروحية.

لذلك عندما سمعت بهذا الكتاب سعيت إليه، وما إن انتهيت من قراءته، حتى راودنى هذا الشعور بأنه يجب أن يتوفر بالعربية.

إنما كان هذا واحدا فقط من سببين رئيسيين لقرارى بأن أترجم هذا الكتاب، إذ يبقى سؤال: ولماذا هذا الكتاب بالذات دون غيره من كتبه؟

والجواب بإيجاز هو أن حيرة دويتشر كانت تقابلها عندى حيرة أخرى، تختلف وتلتقى.

فى ذلك الوقت، آخر الستينيات وأول السبعينيات، كنت فى خضم الخروج من تجربة فى حياتى لها قدرها من الخصوصية وقدرها من العمومية، أى من الاتصال بالحياة العامة.

ودون الخوض فى كثير مما لا تتسع له هذه المقدمة، وليس هذا مجاله على أى حال، كنت فى بداية العام ١٩٦٨، متأثرا بهزيمتنا الساحقة والمهينة فى ١٩٦٧، قد وضعت مهنتى وقلمى (وحياتى الخاصة) جانبا وذهبت إلى الأردن والتحقت بصفوف حركة «فتح» الفلسطينية.

ولم يطل بى الوقت حتى اكتشف أو أدرك أن هذه الحركة التى تحمل هدف تحرير فلسطين «من النهر إلى البحر» حسب التعبير الشائع آنذاك، يموج داخلها بأفكار وتيارات وقوى تصطرع، قد يجمعها هذا الهدف، لكن أيا منها لا يكاد يتضح لديه ما الذى يعنيه بالضبط «تحرير فلسطين»، ولا كيفية تحقيقه بأى معنى من معانيه، وكان مصدر هذا الارتباك يدور فى نهاية المطاف حول مصير السكان اليهود الذين يعيشون على أرض فلسطين فى «دولة إسرائيل»، وكانت التيارات تتراوح ما بين أكثرها سذاجة المرتكنة إلى العموميات: أن فلسطين بلادنا أو أنها جزء من الأرض العربية وأنها حق للفلسطينيين أو للعرب دون غيرهم وأن مصير اليهود الذين يعيشون على هذه الأرض «ليس مشكلتنا». وبين من لا يخفى انشغاله بمشكلة هؤلاء اليهود ودولتهم، فيقول عنهم قائل إن على الدول العربية الأخرى أن تفتح أبوابها وقلوبها لعودة اليهود الذين هاجروا منها، وأن هذا سيوفر للعرب المبرر الأخلاقى لدعوة بقية دول العالم إلى «استعادة يهودهم». ويقول منهم قائل إن اليهود «الآخرين»، أى الذين جاءوا إلى فلسطين من غير البلاد العربية، لن يقبلوا ـ على



جوزيف ستالين

أى حال ـ أن يعيشوا تحت حكم عربى (عندما تتحرر فلسطين)، إلى قائل إنه يجب تصنيف اليهود ليس فقط حسب «أصولهم القومية»، وإنما حسب «أقدميتهم» فى فلسطين، فمن كانوا فيها مستقرين قبل «إقامة الدولة» لهم دون من عداهم حق البقاء... إلى ما لا نهاية من التباديل والتوافيق.

ولم تكن الحيرة أقل فيما يخص الطريق إلى «تحرير فلسطين». كان الشعار الشائع هو أن «الكفاح المسلح هو الطريق الوحيد»، مع التشديد على كلمة «الوحيد»، إلى قائل أن «التحرير» لا يتحقق إلا بوحدة عربية تخنق «الدولة» ثم تجهز عليها، إلى قائل أن «الكفاح المسلح» من أجل التحرير هو الذى سيحقق هذه الوحدة، التى هى القادرة دون غيرها ولا أقل منها، على تحقيق التحرير، إلى قائل إن العرب قد تكرر خذلانهم للفلسطينيين، فليس أمام الفلسطينيين إلا «أن يأخذوا قضيتهم بيدهم» ليحرروا أنفسهم وأرضهم، إلى قائل بأن «التحرير» إنما يعنى «نزع الصهيونية» عن الدولة اليهودية ليسهل إدماجها فى اتحاد عربى لن يلبث أن يستوعب اليهود متفرقين فى بلاد العرب لا متجمعين فى دولتهم، وأن الطريق إلى هذا هو إقناع اليهود من مواطنى الدولة اليهودية أن دولتهم لا توفر لهم الأمن ولن يكتب لها البقاء... أيضا إلى ما هنالك من تصورات السبل والوسائل.

وكان طبيعيا أن يشارك واحد مثلى فى هذا الجدل، خصوصا وأننى «هناك».

وقد كان لبعض أحداث هذه التجربة ما له صلة بقرارى ترجمة هذا الكتاب (وهى صلة أراها الآن فيما كان مختزنا من وعيى الباطن آنذاك).

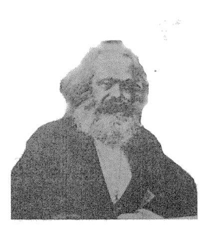
من هذه الأحداث أن المناضل الفقيد (وعلى عهدتى: الفريد) خليل الوزير (أبو جهاد) عضو قيادة «فتح» وافق على

اقتراح تقدمت به إليه، بأن تنشئ «فتح» «مدرسة كادر». وكانت موافقته محاطة بغير قليل من التحفظ الضمنى، فقد اقترح أن نبدأ بدورة تجريبية، أكون وحدى المسؤول عنها، ويختار هو «الدارسين» فيها. واختار مقرا لها بيتا ريفيا متواضعا فى سبنا، واحدة من قرى غوطة دمشق، وعين لنا مسؤولا عن إعاشتنا واحدا من قدامى المجاهدين الفلسطينيين الذين قاتلوا فى حرب ١٩٤٨، عرفناه باسم «أبو أحمد»، وكانت عدتنا ـ غير الإعاشة ـ مكتبة متواضعة وبستان فسيح وقرية يحترم سكانها «المجاهدين». وحدد أبو جهاد للتجربة شهراً واحدا. فإذا اقتنع بنجاحها، دخلنا بها إلى مرحلة تجريبية أوسع. ولقد استنتجت فيما بعد، وعلى ضوء خافت من الملابسات، أن تحفظه كان يرجع إلى عدم حماس أعضاء آخرين فى قيادة تلك الحركة بفكرة «مدرسة الكادر»، كما فهمت أن بعض مراجع عدم الحماس هذا، ضمن أشياء أخرى هو نوع من «القبلية» أو «العصبية» الذى يوجد على نحو طبيعى فى مثل هذه الحركات التى تبدأ سرية، وفى ظروف صعبة تؤدى بها إلى تحالفات متضاربة وإلى عداوات لا تقل تضاربا. وكانت هذه عصبية «القدامى» حيال «المستجدين»، فالأولون هم الموثوق بهم والمجرَّبون. أما الآخرون فـ «الله أعلم بهم». وكنت أنا من «المستجدين». إنما على مستوى أوسع كانت تلك الحركة السرية قد فاجأتها الظروف بنجاح لم يكن فى حسابها، دفع بها إلى العلن، ودفع إليها بسيل متدفق من «المستجدين»

فبعد معركة «الكرامة» فى مارس ١٩٦٨ (٢)، تدفق هذا السيل من المتطوعين، ولم تكن قيادة «فتح» تتوقعه ولا كانت قادرة على استيعابه. كما لم تكن تستطيع رفضه ولا كبحه. وفى هذا السياق فإن إنشاء «مدرسة كادر» يعنى عمليا، إدخال عناصر جديدة، سيكون أغلبها بالضرورة من «المستجدين» إلى مستويات قيادية، وكان طبيعيا أن يثير هذا مقاومة «القدامى».

وبالطبع، كان هناك أيضا ذلك الحرص على «نقاء» فكر الحركة والتوجس من المدخلات الجديدة.

وعندما أقنعت المرحلة التجريبية الأولى «أبو جهاد» بالفكرة؛ إنما ـ فيما استنتج ـ لم تقنع سواه من أعضاء القيادة، انتقلت المدرسة إلى مرحلتها التجريبية الثانية. فأصبح مقرها موقعا إلى الجنوب الغربى لدمشق على الطريق إلى بيروت، فى مقر مصنع مهجور للحلوى يضم مبنيين وبقايا بستان قاحل وفناء فسيحًا وعزلة عن بيئة الحياة العادية. وتقرر أن تستغرق هذه التجربة أشهرا ستة. وأن تصبح مسؤوليتها مشتركة بينى وبين المناضل الراحل سعيد حمامى (٣). ثم انضم إلينا فيما بعد الزميل القديم فاروق القاضى، الذى عرف فيما بعد فى الأوساط الفلسطينية باسم أحمد الأزهرى. كما أوكل إلينا ـ حمامى وأنا ـ مهمة اختيار «الدارسين» من أوساط مراكز إعادة التدريب العسكرى التابعة للحركة، بالإضافة إلى أعضاء الدورة التجريبية الأولى.



كارل ماركس

لكن هذه الدورة لم تكمل عمرها على أى حال، فقد فضتها قيادة «فتح» بعد حوالى ثلاثة أشهر، فى انقلاب خاطف، فى غيبة «أبو جهاد» الذى كان يرعاها ويحميها من المعترضين.

لكن هذه قصة أخرى، وأيضا ليس هنا مجالها.

إنما أروى هذا الجزء من التجربة لعلاقته فى وعيى الباطن بقرارى ترجمة هذا الكتاب.

فقد كان من أسلوب العمل فى المدرسة مزيجا من المحاضرات المثيرة للجدل، فى فروع عديدة من المعرفة، والنقاش الحر المفتوح بلا كوابح، حول الأفكار والأحداث، وتشجيع القراءة على نحو يستهدف تأصيل المعارف وتنويعها وتوسيعها، ومناقشة ما يُقرأ.

وفى العمر القصير لتلك الدورة، بدأ يتوضح عندى مدى الحيرة السائدة. ليس فى صفوف المقاومة الفلسطينية فحسب، إنما التى لابد أن تمسك بخناق كل من يتعرض للقضية الفلسطينية، بدءا من محاولة تحديد ما هى هذه القضية، وليس انتهاء بمن يحاول أن يبحث لها عن حل.

ومن أحداث هذه التجربة أيضا، أنه فى مطلع ١٩٦٩، انتدبتنى «فتح» ضمن وفد لها لحضور مؤتمر الحزب الاشتراكى الموحد الفرنسى، الذى كان يقوده آنذاك ميشيل روكار. وكانت المرة الأولى التى يدعو فيها حزب أوروبى وفدا فلسطينيا لشهود مؤتمره. ورأيت أن أنتهز هذه الفرصة لأختبر بعض حيرتى (وأظنها عندئذ والآن حيرة عامة) وأجرى اتصالا مع بعض عناصر اليسار الإسرائيلى المقيمين فى فرنسا، وكنت قد سمعت بمنظمة إسرائيلية اسمها «ماتسبين» أى «البوصلة». واطلعت على وثائقها الأساسية، كما عرفت أنها تجد قدرا غير قليل من الصدى والاهتمام فى أوساط الشباب فى إسرائيل. وعن طريق زميل

فرنسى رتبت لقاء فى باريس مع بعض من يمثلونها.

إنما ما كنت أحسب أنه سيكشف عنى بعض حيرتى، لم يفعل سوى أن يزيدها عمقا وارتباكا. فهؤلاء الشباب (ماركسيون - تروتسكيون) المعادون للصهيونية ،كانوا يرون حل المشكلة الفلسطينية ومعها المشكلة اليهودية فى الثورة التى ستعم العالم كله ذات حين، ربما وجدت فى هذا تعليقا للمستقبل على المجهول، إنما يبدو أيضا أننى تعلقت بأمل أو وهم أن يستطيع أمثال هؤلاء أن يكسبوا رأيا عاما فى إسرائيل. وقادنى هذا التعلق إلى أمر آخر لن يلبث أن يأتى ذكره.

أما الحدث الثالث، فى تجربتى الفلسطينية، أو قل إنها «الفتحوية»، والذى أحس أن له صلة بالحيرة التى جعلتنى أترجم هذا الكتاب، فهو أنه فى أواخر عام ١٩٦٨، وقبل لقائى مع ممثلى «ماتسبين»، كنت ضمن مجموعة عمل انعقدت فى القاهرة، لصياغة خطاب ألقاه الدكتور «نبيل شعث» (باسم حركة فتح) أمام مؤتمر «نصرة الشعوب العربية»، الذى شهدته القاهرة فى نهاية ذلك العام، وتداولت المجموعة أفكارا متعددة، وتذاكرت أحداثا من التاريخ القريب للفكر السياسى الفلسطينى وفى سياق المناقشة بزغ أمامنا ما اعتبرناه ضوءا ساطعا؛ كانت لجنة تحقيق بريطانية/ أمريكية قد زارت فلسطين فى عام ١٩٤٦، واستمعت إلى شهادات عديدة، كانت من بينها شهادة للقائد النقابى الفلسطينى مصطفى طه، الذى رأى الحل فى إقامة دولة واحدة فى فلسطين تتساوى فيها المصالح والحقوق بين المواطنين، المسلمين والمسيحيين واليهود على السواء، وقد أخذت اللجنة بهذا الرأى فى توصيتها الأولى. وعلى هذا الضوء كتبنا خطابا يدعو إلى أن تكون «فلسطين دولة ديمقراطية علمانية يعيش فيها العرب واليهود على قدم المساواة». وفى اليوم التالى عرضنا مسودة الخطاب على صلاح خلف (أبو إياد) عضو قيادة فتح المسؤول عن الإعداد للمشاركة الفلسطينية فى المؤتمر، فأقره. وعرف هذا فيما بعد بأنه «خط الدولة الديمقراطية العلمانية».

وفى البداية، أحدث الخطاب ما يمكن وصفه بأنه «صدمة إيجابية»، فها هم الفلسطينيون لا يريدون «إلقاء اليهود فى البحر»، بل يريدون التعايش معهم، وترددت لذلك أصداء إيجابية أيضا على نطاق العالم، خصوصا فى أوساط اليهود، وبدت معالم انقسام حوله فى «الوسط السياسى» الإسرائيلى.

لكن هذا كله لم يلبث أن ذهب أدراج الرياح. فدون خوض فى التفاصيل، بقيت البرامج السياسية الفلسطينية والممارسات تعتبر «الكفاح المسلح الطريق الوحيد لتحرير فلسطين»، واستخدمت الحركة الصهيونية ومؤسستها الإسرائيلية الحاكمة هذا «الكلام» لإقناع الآخرين بأن «الدولة الديمقراطية العلمانية» مجرد دعاية ونفاق.

أما الحدث الأخير الذى سأذكره فى هذا الشأن، فهو أننى فى وقت ما من العام ١٩٦٩، كنت ضمن مجموعة عسكرية من «فتح»، قامت بضرب هدف مهم فى إسرائيل بصواريخ «كاتيوشا». وكانت الضربة فى غبشة الفجر، وكان بوسعنا أن نرى بالعين المجردة ما لحق بالهدف من دمار وما حققناه من نجاح. إنما لم تحل السابعة صباحا إلا وكانت الطائرات الاسرائيلية تقصف المدينة الأردنية التى أطلقت الصواريخ من تخومها، وعلى الفور عرفنا معرفة مباشرة فداحة الخسائر التى لحقت بسكان المدينة من المدنيين. ومع نشرة الأخبار الأولى من الإذاعة الإسرائيلية، سمعنا بخسائر اسرائيل، وقالت تلك الإذاعة فيما قالت أن من بين المصابين طفلة رضيعا تمزقت أحشاؤها، ونقلتها طائرة مروحية إلى مستشفى فى وسط اسرائيل. وكان ضمن المجموعة التى نفذت العملية: سعيد حمامى. وما إن طرق سمعه ذكر الطفلة الرضيع، حتى قال فى هدوء كظيم كان يتميز به عند الغضب: لسنا مناضلين، نحن مجرمون وقتلة. تخيل لو أن غارة إسرائيلية أصابت «رشا» أو «مصعب» (طفليه) وقال إن هذه هى نهاية صلته بالعمل العسكرى، ليس فقط ممارسةً، وإنما مجرد التأييد.

وربما كنت فى ذلك الحين أكثر «برودا» أو أقل حساسية من سعيد حمامى. ففهمت غضبه لكننى لم أفهم قراره. فهؤلاء الإسرائيليون يقتلون منا، كبارا وأطفالا، كل يوم، ثم: أليست هذه هى الحرب؟

إنما فيما بعد، أخذت أسأل نفسى إن كانت الحرب هى السبيل؟ وحتى هذه اللحظة لم أصل بينى وبين نفسى إلى إجابة على هذا السؤال.

إنما بقى السؤال يمسك بخناقى ويزيد حيرتى عمقا.

●●●



ليون تورتسكى

أما الأمر الآخر الذى قادنى إليه لقائى مع جماعة «ماتسبين»، فهو أننى بعد أن تركت «فتح» وعدت إلى مصر، شرعت فى وضع كتاب عن «الاتجاهات غير الصهيونية فى إسرائيل». وانتهيت منه ودفعت به إلى واحدة من دور النشر، فقبلت نشره.

إنما بعد ذلك أقلقنى الكتاب، واستبد بى هذا القلق أثناء زيارة قمت بها إلى لندن، فأبرقت من هناك إلى الناشر أطلب ألا ينشر الكتاب. ولم ينشر.

لماذا فعلت هذا؟

كان ما أقلقنى فى الكتاب هو ما أسميه الآن «طابعه المعملى». ففى ذلك الحين كان فى إسرائيل العديد من الحركات السياسية والدينية الصغيرة المعادية للصهيونية، وبعضها يرفض من الأساس وجود دولة يهودية أو دولة لليهود. وتلك الحركات هى التى تناولتها فى ذلك الكتاب. وبعد أن انتهيت منه لم أحصد إلا القلق. إذ أدركت أنه عندما يركز الكاتب اهتمامه ونظره على ظاهرة محددة، فإنها ستبدو للقارئ أكبر من حجمها بكثير. ومهما تحفظ الكاتب إلى نسبية الظواهر والأشياء، فإن قيام هذا الانطباع لدى القارئ وارد وباحتمالات كبيرة. وعندئذ ألا أكون مذنبا بخلق «وهم ما» لدى القراء العرب، وهو وهم له أخطاره البالغة؟ ألا أكون مذنبا بتعليق المستقبل على المجهول كما تفعل جماعة «ماتسبين» وهو ما أخذته عليها؟

وكان وضع الكتاب ثم النكوص عن نشره عنوانا آخر من عناوين «حيرتى العربية» التى تقابل «الحيرة اليهودية» التى أحسستها فيما يكتبه إيزاك دويتشر.

لكننى لم أكن قد قرأت بعد شيئا مما كتبه دويتشر عن إسرائيل أو الصهيونية أو فلسطين أو العرب.

إنما فى ذلك الوقت تقريبا، قرأت له هذا الكتاب، فقررت أن أترجمه لعله يساعدنى على أن أشرك غيرى فيما أعانى من حيرة.

وفى ذلك الحين، كتبت لهذه الترجمة مقدمة [قصيرة تميزت بالتحفظ]. أو قل إنه الحذر، فالكتاب «يساعد على الفهم».

•••

لهذا - إذن - ترجمت هذا الكتاب فى سنة ١٩٧٠.

فلماذا أعيد نشره الآن؟

أبدأ بأن أقول إنها مصادفة، لكن هذا يحتاج إلى تفصيل.

كنت مع مضى الزمن واضطراب الحياة، قد فقدت الكتاب، طبعته الأصلية بالإنجليزية وترجمتى له إلى العربية. لكن أمرا ما - لا أعرفه - جعلنى أتذكره دون أن أتذكر شيئا محددا من محتوياته، أو أنه كان مختلطا بما قرأت فى غيره وممتزجا.

إذ يبدو أننا عندما نستوعب ما نتلقى من أفكار، تدخل فى سياق تفكيرنا العادى، لا مقبولة كلها ولا مرفوضة كلها، ولا تعود تتمايز فيما بينها، ولا فيما ساعدتنا على تكوينه وتشكيله من آراء. حتى يصعب أن نكون قادرين على أن ننسبها إلى مصادرها.

ولذلك، عندما تذكرت الكتاب ألح علىّ سؤال ذاتى: يا ترى ما هى أفكارى المتعلقة بما تناول من موضوعات ترجع إلى هذا الكتاب؛ إثباتا أو نفيا؟ ما الذى ساعدنى هذا الكتاب على قبوله من أفكار وما الذى ساعدنى على رفضه منها؟ على أى نحو أسهم فى صياغة تفكيرى؟ فأخذت أبحث عن نسخة من الكتاب، إلى أن وجدت نسخة من الترجمة وقرأتها. وعند تلك القراءة المتأخرة، كانت قد تغيرت أمور كثيرة.

كانت البيئة التى يجرى فيها هذا الصراع العربى/ الإسرائيلى ويدور، غير البيئة التى كانت سائدة وقت أن ترجمت الكتاب وكتبت له تلك المقدمة المتحفظة والحذرة.

وليس هنا مجال التعرض لما تغير فى هذه البيئة، فمجرد سرد الأحداث والتطورات التى أدت إلى هذا التغير، فضلا عن تحليلها وتصور آثارها، يحتاج إلى كتب عديدة وكثرة من المؤلفين.

لكن ما قد يتسع له المجال هنا هو القول إن الموقف العربى قد أحاط به تغير كبير، من أهم معالمه انحسار موجة القومية العربية أو انكسارها وخفوت الاقتناع بها خصوصا فى صفوف ما تعرف بأنها «النخب السياسية والفكرية». وأن هذا شمل النظرة إلى الصراع ومكانه فى تسلسل الأولويات العربية. وأن الانقسام العربى قد دخلت إليه خطوط فاصلة مستجدة، فى مقدمتها حلول الانقسام على قاعدة من الثروة والفقر محل الانقسام على قاعدة من الراديكالية والاعتدال. وأن الانقسام العربى بصيغته المستجدة قد ازداد عمقا بينما أصبحت أساليب معالجته أكثر خفوتا أو هدوءا، ربما على أساس من القبول المتبادل أو الاعتماد المتبادل. وكان السلام المصرى/ الإسرائيلى الذى وقع متفردا فى تلك الفترة، وأيا كان الرأى فيه قد أصبح من المكونات التى لا يمكن تجاهلها فى بيئة الصراع وأخذ يدرج لكى يصبح (أو هو قد أصبح) توجها عربيا عاما. وكانت حرب ١٩٧٣ التى أنتجت هذا السلام، ثم حرب ١٩٨٢ الإسرائيلية/ الفلسطينية/ اللبنانية، قد أنتجت معا معالم اقتناع عربى بأن الحرب ليست هى الوسيلة المثلى، أو على الأقل أنها ليست الوسيلة الوحيدة أو الفعالة لمعالجة هذا الصراع. وأصبح الجدل يدور حول شروط السلام مع إسرائيل وليس

حول السلام معها من حيث المبدأ. وخرجت من التصور العربى لمآل هذا الصراع أفكار من قبيل «عودة اليهود من حيث أتوا»، ومن قبيل أن يعيش اليهود كأقلية دينية قومية ضمن دولة عربية فلسطينية أو أكبر من فلسطينية. وفتحت الحرب الأهلية اللبنانية العيون العربية وبقسوة شديدة، على أوضاع الأقليات الدينية والعرقية أو القومية التى تعيش وسط الأغلبية أو الأغلبيات العربية على مستوى، والمسلمة على مستوى آخر، والمسلمة السنية على مستوى ثالث، من الأكراد إلى البربر إلى الزنوج، ومن الموارنة إلى الشيعة، وبدأ يدخل إلى الوعى العربى تفكير فى تلك الأقليات يتحول من التجاهل والاستثناء والتسامح إلى الإقرار بالحقوق.

وبالطبع، ليس هذا حصرا لمعالم التغير فى البيئة العربية، وإنما كان هذا التغير يتميز بصفات أساسية ثلاث:

١ ـ أنه شمل الفلسطينيين فيمن شمل من سواهم من العرب. وأقصد بالفلسطينيين هنا المؤسسة الكبرى المعبرة عنهم ـ منظمة التحرير الفلسطينية ـ وبفصائلها جميعا الراديكالية منها والمعتدلة، وما كان «برنامج النقاط العشر» الذى أقره المجلس الوطنى للمنظمة فى عام ١٩٧٤، و«جبهة الرفض» التى اصطفت ضده إلا من مخاض هذا التغير، فقد أقر هذا البرنامج إقامة «سلطة وطنية فلسطينية» على أى جزء من الأرض الفلسطينية يتحقق «تحريره». وكان رفض «جبهة الرفض» يدور حول ما يعنيه هذا بالنسبة لمستقبل الصراع، أكثر مما هو رفض لفكرة «قيام سلطة وطنية فلسطينية» تتوازى مع اسرائيل وتتجاور، وإن كان ظاهر لغة تلك الجبهة يتباين مع ذلك، فالمقياس الأولى بالاعتبار هو أن «جبهة الرفض» تلك بقيت فى صفوف المنظمة وكأنها حزب معارضة برلمانية.

٢ ـ أن هذه التطورات، شأن التطورات التاريخية عموما فى كل زمان وكل مكان وحيال كل قضية، لم تكن متجانسة، لم تكن صفتها الغالبة التحرك التاريخى إلى الأمام ولا الارتداد التاريخى إلى الخلف، كانت تفاعلات حياة يدور فيها ما يدور فى الحياة من زيادة ونقصان، من تقدم وتأخر، من اندفاع وتعثر، من ائتلاف وتضارب، إنما هذه التغيرات أيضا ولدت إحساسا عربيا يكاد يكون شاملا بالتراجع والهزيمة، وشاعت فى التعبيرات العربية كلمات من قبيل «الزمن الردىء»، كما شاع بين العرب تسليم بالهامشية والعجز عن الفعل، وأصبح جدلهم يدور حول تأثيرات التطورات والأحداث وأفعال غيرهم عليهم. وغاب عن هذا الجدل أو كاد، الحديث عن دور لهم أو فعل، شاع التسليم بأننا «موضوع» بلا «ذات». «الذات» هى الآخر ونحن «الموضوع»، وإن دار الحديث عن دور للعرب أو فعل، تدهور إما إلى المثل وإما إلى التصورات فضلا عن الادعاءات. وأصبح الحنين إلى الماضى قريبا كان أو بعيدا حالة نفسية شائعة، أصبحت «السلفية» عامة، وتكاد تكون شاملة، لا تقف عند حد ما يرتكز على الدين، والبديل الشائع لهذه السلفية، إن كان لها بديل شائع، أصبح هو السعى إلى الاستعارة والمحاكاة والنقل عن الغير، والذى هو «الآخر» الذى هو الغرب، والذى كان هو «العدو» حتى وقت قريب، وفى أعمق أعماق الوعى لا يزال، إنما أصبح يبدو وكأنه «عدو محبوب».

٣ ـ أن أيا من هذه التغيرات لم يكن حاسما ولا نهائيا، ولم يزل كذلك، لذلك أراها إلى التقلصات والمخاض أقرب، ولعل فى هاتين الصفحتين الأخيرتين شيئا من معالم الفترات الانتقالية فى التاريخ، أو أن هذا ما بقى لدى من أمل أتعلق به.

لكن المقلق هو شيوع التخلى عن الإرادة كظاهرة اجتماعية وجماعية، الذى يعبر عنه شيوع النظر إلى الذات باعتبارها موضوعا.

وإذا كانت البيئة العربية الحاضنة لهذا الصراع قد تغيرت على هذا النحو (وأكثر وأعقد)، فإن اسرائيل والحركة الصهيونية ويهود العالم، قد أصابهم بدورهم وبالضرورة قدر غيرقليل من التغير، لن أتعرض [هنا] إلا لأقل القليل منه، ففيما يخص إسرائيل، كانت قد دخلت فى تجربة احتلال أرض لا يسلم لها بها مجتمع الدول شأن الأراضى التى أقيمت عليها فى ١٩٤٨. واشتبكت اشتباك حياة أو موت مع عرب غير الذين حاولت وتحاول منذ ١٩٤٨، استيعابهم وعزلهم فى الوقت ذاته، وهى محاولة عزل مزدوجة؛ عن المجتمع اليهودى فى إسرائيل من ناحية وعن بيئتهم العربية من الناحية الأخرى. وأتصور أن ترددها فى ضم ما احتلت من أرض، لا يرجع إلى محاذير الشرعية الدولية، بقدر ما يرجع إلى محاذير التفكير الصهيونى أو العقيدة الصهيونية، وهو ما يعبر عنه الخوف على «يهودية» الدولة، وبقدر ما يرجع إلى حيرة تشبه حيرتنا ونحن ننادى بتحرير فلسطين أمام وضع السكان اليهود فى إسرائيل، وما سياسة التهجير الجماعى المعروفة باسم «الترانسفير» والتى تراود اسرائيل، إلا المقابل الإسرائيلى لفكرة «عودة اليهود من حيث أتوا» التى نادينا بها ذات حين. كما أنه فى هذه التجربة يمثل أمام إسرائيل ما أصبح يعرف باسم «القنبلة الديمجرافية»، أى تفاوت التزايد السكانى الطبيعى بين اليهود والعرب فى إسرائيل وفى الأرض التى تحتل. كما واجهت إسرائيل فى سياق هذه التجربة اهتزاز الصورة التى تحرص على أن تقدم عن نفسها إلى العالم؛ صورة تلك الدولة «الإنسانية»

«الديمقراطية»، كما أن المتغيرات العربية التى ترى فيها كثرة العرب انكسارا وتراجعا، تبدو فى رؤية اسرائيل حبلى ببذور النهوض والتقدم، بدءا من القدرة العسكرية العربية التى عبرت عن احتمالاتها فى حرب ١٩٧٣، إلى قدرة المقاومة الشعبية، أى غير الرسمية سواء فى برود «السلام المصرى/ الإسرائيلى»، أو فى المقاومة اللبنانية أو فى الانتفاضة الفلسطينية، إلى تقدم انتشار التعليم والتخصص العلمى عند العرب بالمقاييس النسبية، إلى ما تراه إسرائيل نضجا وواقعية فى التفكير السياسى العربى، على نحو تراه يضعها فى خطر مواجهة السلام بعد أن تعودت على رؤية نفسها فى مواجهة خطر الحرب، وعلى نحو ما تنبأ به كاتب يهودى فرنسى «مارك هيليل» فى ١٩٦٨.

وبالطبع، ليس هذا كل ما هنالك من تغيرات على تلك الجبهة، فالحركة الصهيونية آخذة بتخفيض مثلها النهائية، فتحل «الدولة اليهودية» محل «دولة اليهود». وتعبر اليهودية العالمية من آن لآخر عن تململها من سياسات اسرائيل أو من مطالبها، ويتوضح مدى الوهم فيما اختارت إسرائيل وقيادتها الصهيونية أن تتصوره من «وحدة روحية» و«ارتباط مصير يهودى» بينها وبين يهود العالم... وغير هذا كثير.

لكن لب هذا التغيير أن ثقة اسرائيل بنفسها، لم تعد كما كانت تبدو. وأن حيرتها أمام مصيرها، أصبحت توازى الحيرة العربية أمام المسألة الفلسطينية، إن لم تكن أكبر.

ولقد جرت هذه التغيرات كلها، وغيرها كثير، ومع ذلك بقى معنا صراع عربى/ إسرائيلى يطلب حلا.

•••

هذا فى الشأن العام.

أما فى الشأن الخاص، أى شأنى، ففى تلك الفترة انتقلت بحياتى مرة أخرى إلى خارج مصر. وفى هذا الانتقال امتزجت ضغوط عامة بأسباب شخصية، لكن ما استطيع قوله هنا إننى قضيت أحد عشر عاما من نهاية ١٩٧٥ إلى نهاية ١٩٨٦ فى غربة إنما لم أغترب، أو حاولت جهدى ألا أغترب. توزعت تلك الفترة ما بين بريطانيا ولبنان والولايات المتحدة الأمريكية على الترتيب وعلى تفاوت فى عدد السنوات. وتخللها سفر غير قليل. وفيها توفر لى احتكاك متفاوت الاقتراب مع ثقافات وحضارات وتجارب وأفكار، تأملتها وحاولت فهمها ما استطعت، وبإيجاز، كان لما جرى علىّ فيها تأثيره الكبير على تفكيرى.

لكن مجمل هذا التأثير لا يخرج عن محاولة أن أستوعب ما يحل بالعالم وبما يخصنا منه من تغيير، ما استطعت. وأن أتوصل فيه إلى ما أعتقد صوابه من استنتاجات. ومجمله لا يخرج عن هذه النتيجة ذاتها وهى أنه أيا كانت التغيرات والتطورات، فهذا الصراع العربى/ الإسرائيلى لم يحل بعد، وأن تصور حله لابد وأن يكون على خلاف ما درجنا عليه وتربينا؛ أى الرفض المطلق لاسرائيل بسكانها، وأن وسائل حله لابد وأن تتغير.

وعاد إلى ذاكرتى ذلك المشروع السياسى القديم الذى أسهمت فى صياغته، مشروع «الدولة الفلسطينية الديمقراطية التى يعيش فيها العرب واليهود على قدم المساواة». وبدأت أفكر فى أن هذا المشروع المفعم بالمثالية والعدل، قد ضاع أدراج الرياح أو دفنته الرمال. ورحت أتأمل ما الذى أدى به إلى هذا المصير. وتوصلت إلى أن قدر المسؤولية الذى يتحمله الصف الذى أنا فيه، يمكن تلخيصه فى أن من يقول بهذه الفكرة، لا يقول فى الوقت ذاته إن «الكفاح المسلح هو الطريق لتحرير فلسطين». فالحرب ليست الوسيلة الوحيدة لحل المشاكل مع من نتصورهم شركاء فى الوطن، لكن هذا هو ما حدث. ولا تغنى أسباب حدوثه شيئا فى تدارك الخسارة إلا بالتعلم من تلك الأسباب. لكن، وفى الوقت نفسه، لم يغب عن تفكيرى أن معالجة هذا الصراع تحتاج إلى مزيج من العنف والسياسة مع دقة النسب فى هذا المزيج، وتغيرها وتفاوتها حسب ظروف الصراع ومجرياته وتطوراته، وأصبح يتردد على تفكيرى مثال المؤتمر الوطنى الإفريقى بقيادة **نلسون مانديلا**، فهو من ناحية قد وضع «الكفاح المسلح» فى مكان بين الوسائل ليس على رأسها فضلا عن أن يكون وسيلة وحيدة، وهو، من ناحية أخرى، رفض التخلى عن العنف، وما زال يرفض حل الجناح العسكرى للمؤتمر رغم وصول المفاوضات لتصفية الحكم العنصرى إلى مراحل متقدمة.

كان هذا هو قدر المسؤولية الذى يتحمله الصف الذى أنا فيه، وهو لا يعفى الآخرين من مسؤوليتهم، على أى نحو وبأى قدر.

وفى ١٩٨٨، حاولت صياغة بعض أفكارى فى مقال لمجلة «الهلال» حول «مستقبل إسرائيل»، واختصار هذا المقال أننى لا أرى لها ـ كما نعرفها وكما هى قائمة ـ أى مستقبل. ولقد أعادت «الهلال» نشر هذا المقال فى عددها التذكارى بمناسبة عيدها المئوى فى سبتمبر ١٩٩٢ [أذكر هذا تسهيلا على من يريد الرجوع إلى المقال].

وفى ١٩٨٩، وكنت فى زيارة طويلة لباريس، وجدت نفسى استجمع حصيلة، مناقشات مطولة، بعضها مع صديقى القديم لطف الله سليمان أمد الله فى عمره، ومعظمها مع صديقة لبنانية يستهوينى ويستفزنى دائما الجدل معها،

فهى تداوم على اعتراض أفكارى على نحو يضيف إليها وينضجها، هى «ليلى غانم». ورغم تمكنها من ناصية ثقافة واسعة، وتمتعها بذهن متوقد تمتزج فيه طاقة فنية لم تجد تعبيرها بعد، فهى - على كرمها - بخيلة أو كسول، نادرا ما تكتب.

المهم. استجمعت حصيلة هذه المناقشات فى مقال طويل، هو بالبيان أشبه، واخترت له عنوانا «من التسوية إلى تحرير فلسطين[٤]». ولا أحتاج إلى القول إن لطف الله سليمان وليلى غانم اعترضا على الكثير منه. وبالطبع لا يحمل أيهما أى مسؤولية عنه. ودفعت بالمقال إلى صديقى وزميلى بلال الحسن، الذى كان يرأس تحرير مجلة «اليوم السابع» على مدى عمرها القصير (حوالى ٨ سنوات)، واقترحت نشره فاتحة لنقاش حول «المسألة الفلسطينية». وإذ كانت المجلة تعبر على نحو غير رسمى عن منظمة التحرير الفلسطينية، فقد رأى بلال أن يبدأ بعرض المقال على بعض قادة المنظمة. وبعد مفاوضات أحسست بما بذل فيها بلال من مشقة، لم ينشر المقال، وبقى طى أوراقى، حيث كنت أتحين فرصة أو مجالا لينشر من منبر فلسطينى، وقد كانت «اليوم السابع»، وكما تبين فيما بعد - للأسف - ملجأ أخيرا.

إنما نشر المقال بعد ذلك، فى صيف ١٩٩١، فى وقت واحد فى كل من «السفير» اللبنانية و«صوت الكويت»، التى كانت تصدر فى لندن.

بعد ذلك خطر على ذهنى هذا الكتاب الذى ترجمته ونشرته منذ أكثر من عشرين سنة.

فلما قرأته تلك القراءة المتأخرة، تراءت لى فائدة إعادة نشره بعد هذا الزمن، فلعل من بعض حكمة إيزاك دويتشر، التى تبدت فى بعض ما تضمنه هذا الكتاب من فصول، أنه لا يرى حلا للمسألة الفلسطينية/ الإسرائيلية إلا أن يكون منصفا للطرفين؛ الفلسطينيين الذين طردوا وأهينوا، والعرب الذين هزموا وأهينوا وانتهكت آمالهم، ولليهود الذين هاجروا إلى إسرائيل، بعضهم بأوهام الحلم الصهيونى وجاذبيته لهم، وبعضهم بعد أن انهارت ثقتهم بالحضارة المسيحية باليهودية الأوروبية، لكن ذهبوا إلى فلسطين أو إسرائيل، ليعيشوا على فتات أفضالها، ويحتموا بنفاق دعمها مقابل أن يكونوا عملاءها وحراس مصالحها. وبعضهم بتأثيرات دينية أو أوهام أسطورية.

وأعتقد - واثقا - أو أننى أتطلع - متمنيا - أن يجد القارئ فى بعض ما كتب دويتشر ما وجدت، وأنه لن يقبل من أطراف أفكاره ما لم أقبل، وسيتحفظ على ما أتحفظ عليه، على خلاف فى المواضع والتأكيدات والتخفيفات.

ولعلنى لم أخطئ ■

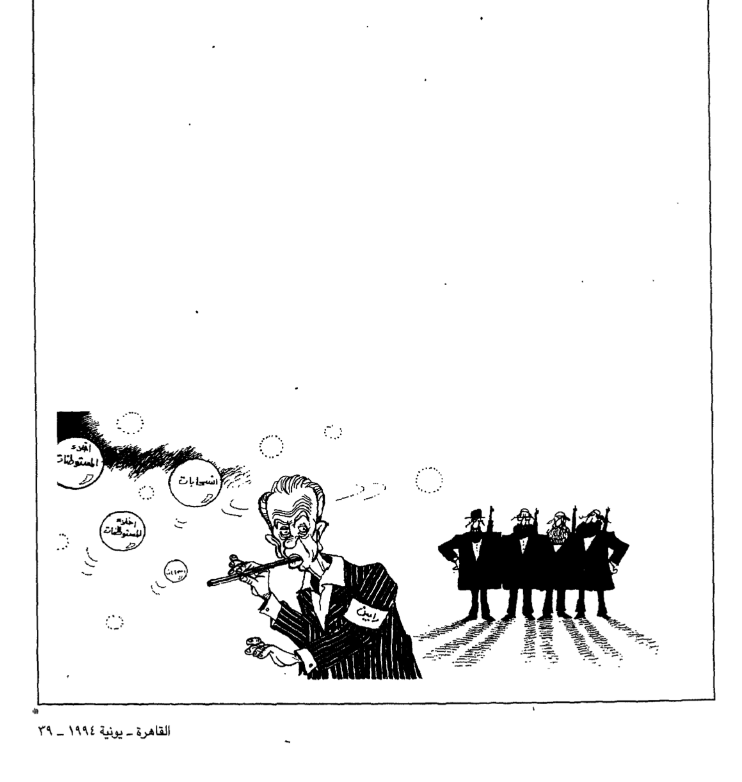
الهوامش:

* الكتاب: The Non - Jewish Jew لمؤلفه إيزاك دويتشر، وقد نشر بالعربية تحت عنوان: دراسات فى المسألة اليهودية.

(١) الكرامة، مخيم فلسطينى تحول إلى قرية يقع فى غور الأردن بالضفة الشرقية شمال جسر الملك حسين (اللنبى)، بعد حرب ١٩٦٧ أصبح «قاعدة ارتكاز» لقوات المقاومة الفلسطينية. شنت عليه إسرائيل هجوما بالمدرعات والطيران، فى ٢١ مارس ١٩٦٨، وأبلى الفلسطينيون بلاء حسنا يدعمهم الجيش الأردنى.

(٢) سعيد حمامى، مناضل فلسطينى اغتيل فى لندن ١٩٧٨، وكان ممثلا لمنظمة التحرير الفلسطينية هناك. ورغم أن قضية اغتياله لم تحل بعد، شأنها شأن أمثالها. إلا أن لاغتياله صلة غير مباشرة بالحدث الذى تتناوله هذه المقدمة، فقد كان تحوله إلى «الدبلوماسية» مترتبا على تلك التجربة. وفى عمله الدبلوماسى تولى مسؤولية الاتصالات السرية مع «شخصيات إسرائيلية» للبحث عن أرضية مشتركة لحل الصراع.

(٣) خلاصة هذا المقال الطويل، إن جاز إجمالها فى جملة واحدة هى أن التسوية التى يجرى السعى إليها يجب أن تكون من خلال إعادة توحيد فلسطين، وعلى نحو يحل المشكلة الفلسطينية ومشكلة السكان اليهود فى إسرائيل، على نحو عادل للطرفين ومتوازن بينهما، ويحفظ لكل منهما هويته وذاتيته المستقلة.


إخلاء المستوطنات
انسحابات
إخلاء المستوطنات
رابين



نظـــرة الأدب الصهيونى إلى العربى الفلسطينى

أحمد عمر شاهين

روائى وكاتب فلسطينى يعيش فى القاهرة

فإذا كانت قد برزت فى السنوات الأخيرة حركات يسارية صهيونية محدودة القوة ، أو مجموعات من المثقفين قليلى العدد ، يمتلكون نظرة راديكالية تناقض المقولات الصهيونية ، وإذا سادت بعض اتجاهات الاغتراب أو العزلة أو اليأس فى بعض النتاجات الأدبية الإسرائيلية والتى تبدو وكأنها انفصال عن الموقف الفكرى الصهيونى ، ورفض لسياسة إسرائيل تجاه عرب فلسطين ، وشبه انحياز إلى الرؤية العربية، فلا يجب أن نعتبر أنهم قد اقتنعوا بوجهة نظرنا وتخلوا عن جوهر الفكر الصهيونى التوسعى . إنما هى حركات واتجاهات نجمت عن نوع من التمرد الداخلى ناتج عن مشكلات الحياة فى مجتمع مضطرب يعانى من وضعه الأمنى ، ويخاف على فكرة الدولة ، ومشروعها الاستعمارى الاستيطانى من الفشل ، أو على أكثر تقدير فإنهم يتخذون هذه المواقف حتى لا يتهموا بالرجعية والعنصرية ، فهم فى أعماقهم ينظرون إلى العربى على أنه مخلوق من الدرجة الثانية أو الثالثة.

وكما يقول **غسان كنفانى** ربما كانت تجربة الأدب الصهيونى هى التجربة الأولى من نوعها فى التاريخ ، حيث يستخدم الفن فى جميع أشكاله ومستوياته، للقيام بأكبر عملية تضليل وتزوير تتأتى عنها نتائج فى منتهى الخطورة ، ومن أولى هذه النتائج وأهمها أنه أدى إلى عملية غسل دماغ جماعى فى كل ناحية من أنحاء العالم ،

استخدمت فيها الوسيلة التى لا يزال الإنسان يعتبرها وسيلة تنوير وتوسيع أفق وكشف حقائق ، فالمرء يقرأ فى التعليقات السياسية اليهودية والغربية جملا تكاد تكون منسوخة عن مواقف وردت فى روايات صهيونية .

ومن الملاحظ أن كثيراً من الكتاب اليهود لم يتناولوا فى أعمالهم عرب فلسطين أو الصراع العربى الصهيونى ، وكأن لا وجود لهؤلاء العرب ولا مكان لهذا الصراع فى أدبهم ، فيوسف عجنون ظلت البلاد التى هاجر منها وحياة اليهود فيها وفى فلسطين المحتلة هى محور أعماله، برغم أنه هاجر أول مرة إلى فلسطين سنة ١٩٠٨ ثم عاش فى القدس منذ ١٩٢٤ وحتى وفاته سنة ١٩٧٠ ، فالعربى من وجهة نظره غير موجود فكيف يتناوله فى أعماله . كذلك «دافيد شيموني» و «جاكوب شتاينبرج» لم يهتما بالكتابة عن العرب أو ذكر فلسطين فى أدبهما إلا نادرا . بينما تركزت أعمال حاييم بياليك وشاؤول تشرنحوفسكى حول تحلل الحياة الروحية لليهود فى الشتات والتطلع إلى فلسطين باعتبارها رمزاً للخلاص ، ثم هناك ما يسمى بأدب «الكيبوتس» ، وهو الذى يصف محاولات صياغة الحياة اليهودية فى إطار تجربة المستعمرات الصهيونية كما يتضح فى أعمال ميليتيس ودايشنستاين ، ثم هناك كتاب لم يتناولوا فى أعمالهم إلا ما سمى بأدب النكبة ، وهو ماجرى لليهود على أيدى النازى ، وهى الأكذوبة التى نفخ فيها كل أديب صهيونى حتى صدقها العالم ، وأشهر من يمثل هؤلاء الكتاب ايتامار يعوز كيست.

أما الكتاب الذين تناولوا الشخصية العربية والصراع العربى الصهيونى فى أعمالهم ، فهناك عدة عوامل أثرت فى مواقفهم واتجاهاتهم ورؤيتهم فى هذا المجال.

أول هذه العوامل هو التزامهم الأيديولوجى بالفكر الصهيونى ، ثم يأتى بعد ذلك الموطن الذى قدموا منه إلى فلسطين ، والمرحلة التاريخية التى عاشوا فيها.

فعلى المستوى الشخصى والاجتماعى، هناك فرق فى التناول بين الكتاب الذين ولدوا فى فلسطين وعاشوا فيها فترة معقولة نسبيا قبل قيام الدولة ، وبين الذين ولدوا وشبوا أثناء قيام الدولة مما يسمون بجيل الصابرا ، أو الذين هاجروا إلى فلسطين من أوروبا أو من دول الشرق . يضاف إليهم أولئك الكتاب الذين لم يهاجروا إلى فلسطين وتناولوا العرب فى أعمالهم بعد زيارات قصيرة إلى فلسطين .

فالكتاب الذين ولدوا فى فلسطين وعاشوا فيها فترة معقولة قبل قيام الدولة، تقبلوا العقلية العربية والبيئة الاجتماعية العربية دون تساؤل ، وعبروا عنها تعبيرا واقعيا لأنهم على ألفة معها منذ الولادة .

أما أدباء جيل الصابرا الذين ولدوا فى فلسطين وعاشوا وحاربوا فى سبيل إقامة الدولة ، فقد تميزوا بموضوعاتهم التى اتخذت صبغة صهيونية بحتة بحكم النشأة والتربية ، ولم تعد فلسطين بالنسبة لهم بلد الهجرة بل الوطن بما يعنيه ذلك من وجود علاقة جدلية بين المواطن وتلك الأرض التى يعيش عليها ، وهم الذين حملوا لواء الأدب المجند بما تعنيه حرفية الكلمة ، ونجد فى كتاباتهم إلحاحا على تصوير العربى فى أبشع صورة ممكنة ، بحيث يبدو ككابوس مزعج مخيف تسيطر عليه نزعات الشر والعدوان ، مهدداً كيان إسرائيل وحضارتها.

وأما الكتاب الذين هاجروا من أوروبا، حيث ولدت القصة العبرية أثناء المجابهة مع العالم الغربى ، فقد حمل بعضهم آراءه المسبقة عن الأغيار وعكسها على العرب دون معرفة حقيقية بالعربى وعاداته وتقاليده وبيئته . بينما الكتاب الذين هاجروا من الدول العربية يظهرون فى أعمالهم كراهية ورفضا للعرب أشد من اليهود الغربيين ، وربما يرجع ذلك إلى ذكرياتهم عن تصرف العرب معهم حين دفعوهم للهجرة إلى فلسطين ، وإلى محاولة إيجاد وتعزيز القاعدة المشتركة التى تربطهم باليهود الغربيين.

أما بالنسبة للكتاب الصهاينة فى الخارج فهم أسوأ الجميع ، فكتاباتهم مجرد تزييف للواقع ودعاية سافرة للصهيونية ، وعداء لكل ما هو عربى تاريخيًا وثقافيًا وحضاريًا.

ربما الأمر الوحيد الذى يجمع بين كل الكتاب الصهاينة حول هذا الموضوع هو استغلال الشخصية العربية استغلالا سلبيا فى أعمالهم حتى عند الكتاب الذين

يتمتعون بنظرة إنسانية ، فهم لا يختارون لقصصهم إلا شخصيات ذات صفات خاصة ـ قروية أو بدوية ـ تحقق أهدافهم، كما أن نظرة التعالى على العرب هى السمة المشتركة بينهم.

بالإضافة إلىٰ ذلك بالطبع التزامهم بالأفكار الصهيونية واعتقادهم بأن العرب سوف يستفيدون من وجودهم فيتحررون من تخلفهم وفقرهم.

كما نلاحظ أيضًا فرقًا واضحًا فى تناول وتصوير الكتاب اليهود للبدو أو الفلاحين أو أهل المدن فى فلسطين . فالبدو ـ رغم النظرة الدونية التى ينظرون إليهم بها ـ إلا أنهم يوصفون بعبارات إنسانية متعاطفة ، وإعجاب بل وحسد لطريقتهم فى الحياة ، وقد رأى فيهم بعض الكتاب امتداداً لأسلافهم فى عصر التوراة ، وقد قال بن جوريون مرة ، عندما كان يتجول فى صحراء النقب ـ ليهوشع مارين قائد منطقة النقب : إنهم يشبهون الفرق الدينية اليهودية القديمة ، وتساءل ألا يمكن تهويدهم؟ كما رأى فيهم بعض الكتاب أنهم يمثلون اليهودى الأصلى القديم الذى تحدثت عنه التوراة والكتب القديمة ، ومن الأفضل أن ينصهر اليهودى الجديد القادم من الخارج فى هذه البيئة . بينما صورهم كتاب آخرون بالعربى التقليدى ساكن الصحراء راعى الجمال الذى تستولى عليه دائما غريزة الثأر والانتقام والشعور بالأصالة وحب الأبهة والاعتزاز .

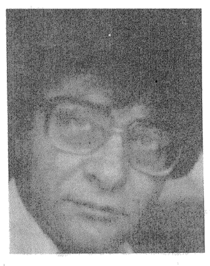
أما الموقف من الفلاحين فقد كان فيه ازدراء لتخلفهم وانتقاد له ، كما كان هناك احتقار وانتقاد لمجتمعهم وعاداتهم وتقاليدهم وحياتهم البسيطة .

وأما أهل المدن فهم الغرماء الغرباء ، أبناء البلاد الذين لابد من مجابهتم دائما، مجابهة ناتجة عن تعايش أقلية وأكثرية، تعايش من طبيعته ألا يكون تعايشا سلميا.

بالرغم من أن العرب كانوا يسكنون فلسطين ومازالوا منذ أكثر من ثلاثة عشر قرنا ، فالصهاينة تجاهلوا هذه الحقيقة ورفعوا شعار «أرض بلا شعب لشعب بلا وطن» ، وكان تيودور هرتزل أول من أعلن ذلك صراحة فى مطلع هذا القرن حين نشر روايته الوحيدة «الأرض الجديدة القديمة»، ففيها يرى أن فلسطين «كانت تستلقى بانتظار اليهود ليعودوا ويصلحوها ويسكنوها» ولا شىء فى الرواية عن الشعب الذى يسكنها .

وكثير من اليهود صدقوا هذه المقولة، وهاجروا إلى فلسطين وهم يتوقعون ألا يروا شعبا يسكنها ، حتى أن الكاتب موشى سيملانسكى حين وصل فلسطين ورأى العرب على الطريق بين يافا وريشون ، تملكه شعور بالغضب ودهش لرؤيتهم ، وكما كتب فى سيرته الذاتية ، تساءل : ماذا يفعل هؤلاء العرب هنا؟ ومثل سيملانسكى كثيرون .

ولكن مادام هناك شعب على هذه الأرض ، فكيف رأى كتابهم هذا الشعب فى أدبهم ؟ رأوا أن العرب بدائيون ، على استعداد أن يتقاسموا رغيف الخبز مع الجائع ، ولكنهم على استعداد أيضا لارتكاب جريمة قتل فى سبيل الحصول على شىء يريدونه ولا يستطيعون دفع ثمنه ، كما يقول سيملانسكى .



محمود درويش

أما يتسحاق شامى ، فيصور العربى فى روايته «انتقام الآباء» بأنه مخلوق خاضع للقدر الذى يحدد مصيره ، فالقسمة والنصيب والقدر دائرة تحيط بالعربى لا يستطيع الخروج منها أو تحديها . كذلك يصور موشى فى قصته «فى النقب» مواقف الفلاحين العرب المنافية للعقل فى استسلامهم للأحداث دون أى محاولة منهم للتحدى والتصدى، حتى الشيخ الذى يتوقع منه أن يثور لما يتعرض له ، يصوره كدون كيشوت ، ويخلص بنتيجة أن العربى يتمتع ببلادة كاملة ، يستسلم للقدر دون مقاومة مما يعوق تقدمه .

أما موشى سيملانسكى ، وربما هو أكثر الكتاب اليهود تناولا للشخصية العربية قبل ٤٨ ، نجده فى مجموعته القصصية «أطفال الجزيرة العربية» ـ يقصد بالتسمية أن عرب فلسطين أصلهم من الجزيرة العربية ـ يتناول القوانين العربية الخاصة بالسلوك الإنسانى ، فيراها بدائية لا تتسامح مع ما تعتبره ظواهر غير عادية خارج الأنماط المقبولة والمألوفة ، كما أن الغرباء عند العرب مرفوضون لا لشىء إلا لأنهم مختلفون عنهم ، كما يرى أن الوجود اليهودى فى فلسطين أمر حيوى للعرب إذا قدر لهم أن يتقدموا ، كما تصور قصصه الفجوة الثقافية والاجتماعية والدينية التى تفصل بين العرب واليهود ، ومع أن هدف المؤلف هو التقريب بين العرب واليهود ، إلا أن مجموعته هذه أدت إلى عكس الهدف الذى أراده . وفى مجموعة أخرى من قصصه ـ عائشة ، عبد الهادى ، الطفل ، تل المحبة ، الفلاحين ، برغش ، ابنة الشيخ ـ نجد العربى سريع الغضب لا يتحكم فى عواطفه ، وفى حالة غضبه يمكن أن يقتل لمجرد التسلية ، كما أنه مستسلم للقدر والأحداث وأسياده من الإقطاعيين والحكام.

وفى رواية ياكوف رابينوفتش «عماس الشومير» يرى فيها أن عرب فلسطين هم فى الحقيقة قبيلة يهودية اعتنقت الإسلام ويجب أن يذوبوا فى المجتمع اليهودى العائد ، بل ويجب إعادتهم إلى اليهودية .

بينما يرى «إسرائيل زارصى» فى قصصه أن العربى جانح فظ ، سارق يسلب جثث الجنود الأتراك الذين قتلوا أثناء تقدم الجيش البريطانى فى فلسطين كما أن العربى أسير شهواته ، تسيرّه وتقيّد عقلانيته ولا يستطيع الإفلات من تلك الرغبات وكأنها قدر محتوم.

وغالباً لم يصور الكتاب اليهود العربى كفرد سواء على صعيد التكوين الجسمى أو العقلى ، بل جاءت معظم أعمالهم تتبع أسلوب التنميط . فالخرافة جزء لا يتجزأ من النفسية العربية ، والخوف الذى بلا مبرر ، والرعب من شىء خفى أو خيالى هو جزء من عالم العربى الداخلى ، وأن أفعالهم وردود أفعالهم ، سواء بوعى أو بلا وعى ، تتأثر إلى حد كبير بالخرافات ، فالعرب سذج ، بسطاء ، وطفوليون.

وعموما فإن الكتاب الذين عاشوا فى فلسطين قبل ٤٨ ، ومارسوا نوعًا من العلاقات مع العرب سواء كانت علاقات اجتماعية أم علاقات مواجهة قدموا أدباً أقل فقدانا للموضوعية ، وإن كان الاختلاف بينهم وبين غيرهم اختلافًا محدود ا، لكنهم لم يستطيعوا أن يسقطوا من تجاربهم فترة طويلة عاشوها كأقلية فوق أرض كتبوا هم أنفسهم عنها ، قبل قيام الدولة ، كبلد مضيف .

منذ حرب ٤٨ وحتى حرب ٦٧ كان معظم الأدب الصهيونى يصوّر العربى على غير حقيقته . وقد أبدى كثير من الكتاب دهشتهم من رفض العرب لليهود، لأنهم ـ أى اليهود ـ يجلبون معهم الحضارة والتقدم والازدهار ويحدثون ثورة حضارية صناعية زراعية اجتماعية ثقافية ، الأمر الذى سيعود على العرب والمنطقة كلها بالفائدة والانتعاش.

لكن العربى حيث يوجد ، يوجد الخراب ، كما تعبر عن ذلك الكاتبة «دبوره عومر» فى قصتها «الحد الذى فى القلب» ، وأن العربى متخلف ابن صحراء محب للانتقام لا ينسى ثأره حتى بعد سنين ويشعر بالفرح والسعادة عندما يثأر، كما يراه «بيسح يار» فى روايته «الانتقام» .

كما أن العربى هو المعتدى دوما على اليهود ، ويرفض أى حل ، ولا يحكم العقل أو المنطق ، بل يلجأ دائما إلى السلاح، وهو عديم الشفقة والضمير ، مخرب ، قاتل ، مجرم ، لا يراعى حرمة المسنين والأطفال ، يستخف بالأرواح وينتهك حرمة الأماكن المقدسة ويستغل ضعف الإنسان ، كما يتضح كل ذلك فى قصة «قصاصو الأثر من الحدود الشمالية» لعوديت بتسير ، وقصة «القائد الأول» ليهودا بن عيزر.

وفى مجموعته القصصية «خريف أخضر» يرى «ناتان شاحم» عند حديثه عن الأسرى العرب ، أن العربى جبان وخائن ومعدوم القيم ، ويفتقد التحديات ومستعد للتعاون مع العدو وعند الضغط عليه ـ بينما يصور موردخاى غور العرب فى الحرب بأنهم سريعو الهرب لا يستعملون سلاحهم بل لعلهم لا يجيدون استعماله.


غسان كنفانى

كما أن العربى غير متحضر وساذج وتنعدم عنده شروط النظافة والمحافظة على صحته وصحة حيواناته التى لا يعرف كيف يعتنى بها ، كما جاء فى مجموعة قصص «بلاد بنات آوى» لعاموس عوز.

ونظرة العربى للمرأة نظرة جنسية مجردة ، والغرض منها إشباع الغريزة الجنسية ، وهو مزواج كما نرى ذلك فى قصص «بنيامين تموز» و «شن شالوم» . كما أنه ـ أى العربى ـ كاذب ومخادع واستغلالى وجاهل وأن جمع المال هو همه الوحيد بغض النظر عن الوسيلة ، وهو يترك أبناءه حفاة عراة دون عناية ويعاملهم معاملة قاسية ، كما جاء فى قصة «الخشخاش المر» لموشيه شامير .

حتى القصص ذات الميول الإنسانية الواقعية التى ظهرت فى هذه الفترة ، مثل قصة «الأسير» ليزهار سيملانسكى ، حيث يأسر اليهود راعيا عربيا ينال على أيديهم ألوان العذاب أثناء التحقيق.

فاختيار المؤلف هنا راعيا ساذجًا يستدر عطفه وعطف القارىء لسذاجته لا لعدالة قضيته ، يبين أن تجاوبه مع الشخصية العربية تجاوباً سلبيًا ظاهريًا ، كما أنه فى روايته «خربة خزعة» يتعاطف مع العرب لكن يبدو غير مؤمن بقضيتهم ، وكل ما يفعله هو إطلاق صرخة رفض ضد التجرد من القيم الإنسانية.

ونرى فى قصة «على حد رصاصة» ليتسحاق أورباز ، جندى إسرائيلى يجد عربياً مختبئاً فى مغارة ، وبمجرد رؤية العربى للجندى فإنه يلقى سلاحه ويستسلم له ، فيقوده الجندى إلى مقر

القيادة ، وأثناء الطريق يتبادلان الحديث، ويثير العربي عطف الجندي الإسرائيلي الذي يتمنى أن يهرب ، لكنه يظل ملتصقا به ، رغم التلميح بإمكانية الهرب، وحين يصلا القيادة يقتل العربي على أيدي الجنود الإسرائيليين .

فالكاتب منذ بداية القصة يثير الشفقة على بطله العربي الذي يستحق العطف لما مر به من محن ، إلا أنه لا يتحرر من النظرة السلبية نحو العرب حين يقول إن الأسير يهوى على قدمي الجندي الإسرائيلي يقبلهما كي يبقى على حياته.

وفى قصة يتسحاق شيليف «حادثة جبرائيل تيروش» يعلق التلميذ اليهودي على كلام مدرسه الإسرائيلي بقوله «إن فى البلاد متسعا لشعبين» ، فيرد المدرس «ليس السؤال كم هى قدرة البلاد على الاستيعاب ؟ وإنما السؤال هل توافق أن يدير شؤونك برلمان أغلبيته من العرب ؟ كذلك العرب لن يوافقوا أن تدير شؤونهم أكثرية يهودية ، والسؤال هنا : من سيكون القوة الكبرى والمؤثرة هنا؟ ويعلق أحد الطلبة : إنك تصور وكأن الصدام أمر مفروغ منه ، فيرد المدرس : الحقيقة هى كذلك . ومن يحاول أن يصور مستقبلا يسوده حسن الجوار مع العرب وحياة سلام وطمأنينة وازدهار اقتصادى ماهو إلا مضلل. .

بعد حرب ٦٧ ، ونتيجة للاتصال بين اليهود وعرب الضفة وغزة ، هال الإسرائيليون أن يروا أعداداً كبيرة من المتعلمين والمثقفين ، وهم الذين اعتادوا أن يسمعوا أن العرب متأخرون ورعاة ، وفوجئوا بأن النهضة التعليمية والثقافية قد شملت كل الفئات ، ومن هنا فقد نشأ ـ كما يقول غانم مزعل ـ اتجاه عقلانى بين أوساط يهودية خاصة عند بعض الكتاب مثل : يشعيا هو لا يفوفتش ، واسحق لائور ، وياعيل غريفين ، ودااليا رابيكوفيتش وغيرهم ، وعبر بعض الكتاب عن مواقف تجاه الحرب فيها بعض الاختلاف عن المواقف السابقة .

ففى قصة «همطمون» لأهارون ميجيد» نجده يميل إلى موقف اللاجئ العربي ضد المرأة اليهودية ، ويحاول إيجاد مبرر لهذا اللاجئ فى كل عمل يقدم عليه ليسترجع بيته . بينما يبين «بنيامين تموز» فى قصته شجرة الزيتون» محبة الفلاح العربي لأرضه وقوة ارتباطه بها ، ومن سطور القصة يتضح أن تموزيرى العربي جزءاً أساسيًا من مناخ البلاد ومناظرها .

ربما من أهم الروايات التى صدرت فى هذه الفترة ، رواية «فى مواجهة الغابات» لإبراهام بن يهوشع سنة ١٩٦٨ ، وقد أثارت ردود فعل كثيرة فى البلاد . فى هذه الرواية يعين شاب يهودى يعد رسالة دكتوراه عن الحروب الصليبية ، حارسا لإحدى الغابات للإبلاغ عن أى حريق يشب هناك . وذلك فى محاولة لإخراج هذا الشاب من معاناته الشخصية وكنوع من التغيير فى حياته. بعد أيام من عمله يتوصل هذا الشاب، وسط خوفه وانزعاجه ووحدته إلى أفكار مفادها أن هذه الغابة وأشجارها الكثيفة لم تقم إلا على أنقاض قرية عربية، هى قرية ذلك الحارس العربي مقطوع اللسان الذى



ثيودور هرتزل

يتجول فى الغابة معتنيا بها ترافقه ابنته الصغيرة . فى حديثه مع هذا الحارس العربي بواسطة الإشارة، يفهم منه أن بيته وقريته هنا تحت هذه الغابة، بمرور الوقت لم يعد الشاب اليهودى يهتم باحتراق الغابة أو عدم احتراقها ، وحين يرى عيدان الكبريت وأعقاب السجائر لا يطفئها، لقد حدث تغير جذرى له، وحينما تحترق الغابة ترتفع أمام ناظرية من جوف الدخان والضباب أطلال القرية العربية ، تولد من جديد بتخطيطات أولية كما فى لوحة تجريدية، وللحظة يخيل إليه أن الغابة لم تحترق، بل إن أشجارها غادرتها فى سفرة طويلة، نحو البحر مثلا ، ويفكر بأن العربي يتكلم إليه الآن بالنار، وبوده أن يقول له كل شيء مرة واحدة، ولكن هل فى إمكانه أن يفهم؟ وحين يأتى المحققون يعتقلونه مع العربي، خاصة حين يتضح أن الغابة حرقت بفعل فاعل، ويضغطون عليه حتى يتهم العربي ، ويصبح الاثنان مضطهدين .

فى هذه الرواية نجد أن العربي أخرس فقد حرية التعبير ، يقطن مكانا قام على أنقاض قريته وأن من يتعاطف معه يضطهد ويتهم بالجنون ، إن المؤلف يريد أن يقول إن النقمة التى ملأت صدور الفلسطينيين الذين شردوا من ديارهم وسلبت أراضيهم، لن تنطفئ حتى لو فقدوا حرية التعبير، وإن كل المساعى لإخفاء معالم قرية عربية (الحق العربي) لن تفلح فى خداع الناس كل الوقت، وإن اليهودى والعربي ضحايا فى النهاية للمؤسسة العنصرية الحاكمة.

وعلى مستوى الشعر، نرى فى هذه الفترة، أن هناك شعراء قد طرأ بعض التغيير على مواقفهم السابقة. فهذا «يهودا عميحاى» فى قصيدته القدس قد تنازل عن مواقفه السابقة وتمكن من رؤية العربي والتمعن فى وجوده بوعى أكثر،

وأقل انسجامًا مع الأفكار والمعتقدات الصهيونية الشائعة، يقول:

وقفت برهة أمام واجهة

دكان عربي، قرب بوابة دمشق

دكان للأزرار والسست والأبازيم

وبكر خيط مختلف الألوان

أخبرته في سري أن أبي أيضاً

كان يملك دكاناً - كهذا - للأزرار والخيط

يصطدم وجدان عميحاى فى القدس بوجود العربى، ذلك الشبيه للسلف اليهوى (أبى)، وإن كان التشابه الذى يلتقطه عميحاى قائماً ليس بين شخص أبيه وهذا العربى، وإنما بين دكان أبيه ودكان العربى، أى قائما على الظروف المحيطة بكل منهما، وليس بالمستبعد أن عميحاى لم تواته الجرأة للتوصل إلى الفكرة الإنسانية الأشمل عن التماثل الأخوى بين أبيه اليهودى وذلك البائع العربى، كما يبدو أن عميحاى لم تواته الجرأة للتعبير عن فكرة الاندماج السياسى أو التخلى عن الصفة اليهودية للدولة بقبول فكرة الدولة العلمانية متعددة الأديان، فاكتشاف عميحاى لحقيقة الوجود العربى تكتمها أغوار نفسه «أخبرته فى سرى» وكأنه لا يملك القدرة على الإعلان عنها:

أخبرته فى سرّى أن أبى أيضاً

كان يملك دكانا - كهذا - للأزرار والخيط

وشرحت له فى سرى، عن عشرات السنين

وأسباب ظروف وجودى هنا، ودكان أبى

هناك رماد، بينما رفاته هنا

ولما انتهيت حان وقت إغلاق البوابات

وشد هو أيضاً المصراع وأغلق الدكان

وعدت للبيت مع كل المصلين

إن عميحاى الذى يكاد يشعر بمبرراته التى تدور حول الاضطهاد الأوروبى لليهود، إذ تترتب عليه شرعية استيطانه للأرض العربية، يكشف عن قسوة المفارقة التى تحملها الكيان العربى فى فلسطين نتيجة لهذا الاضطهاد الذى لم يتسبب فيه، هذه المفارقة التى أصبح العربى ضحيتها الوحيدة. ومع ذلك فعميحاى فى شعره لا يتغلغل فى أعماق المشكل العربى ولا يتقصى جذور المسألة العربية ولا يطرح حلولا لها. ولأنه فى القدس يعلن عن تكتمه لهذه الوجدانيات دون أن يملك القدرة على إعلان رأيه، فالقدس كقصيدة على هذا النحو تمثل موقف عميحاى النقدى لمجتمعه، وفشل هذا المجتمع فى التعامل مع هذا الواقع بكل حقائقه الثابتة وإدانة ميله للتوسع والعدوان التى ستجر عليه الخراب.

وقبل أن نعرض لنظرة الأدب الصهيونى للعربى فى السنوات الأخيرة، يجدر بنا أن نلقى نظرة على الكيفية التى صور بها كتاب صهيانة يعيشون خارج الأرض المحتلة، العربى الفلسطينى فى صراعه مع الكيان الصهيونى. ورغم أن الأدب الصهيونى المكتوب بالعبرية يترجم على نطاق واسع إلى اللغات المختلفة، فإن أثر الكتب والروايات الصادرة أصلا بهذه اللغات خاصة الإنجليزية والفرنسية، يشكل خطورة أكبر فى تكوين الرأى العام العالمى بما يحمله من صورة مشوّهة وغير صادقة للشخصية العربية.

فمثلا رواية كالخروج لليون أوريس، والتى تقدم اليهودى كمقاتل شجاع يحارب شراذم من المتخلفين فى سبيل نشر الحضارة الغربية، لقيت نجاحاً كبيراً ووزعت ملايين النسخ وانتشرت على كل المستويات كتاباً وفيلماً وأغانى مستوحاة منها. كيف قدمت هذه الرواية الشخصية العربية من خلال أحداثها ومواقف شخصياتها؟

العربى ساذج، فقد نجح آرى بن كنعان الذى يقود قوة من البالماخ من إقناع عرب صفد بالهرب من البلاد سنة ١٩٤٨ بقوله لهم: إن اليهود يملكون قنابل ذرية. كما أن العربى يظهر فى هذه الرواية متهمًا بالدهاء والخيانة وحب ارتكاب الجريمة والأخذ بالثأر والغيرة العمياء، كما يبرز المؤلف العرب كأفراد لا قضية لهم وغالبًا هم مأجورون من قبل قوى خارجية ولا علاقة لهم بالأرض التى خرّبوها على مر الأجيال، كما يؤكد المؤلف على التخلف الذهنى والحضارى للعرب والذى شكّل فى رأيه سمة عامة لا يرجى خلاصهم منها، وعنده أن العربى الجيد هو الذى يعتقد أن اليهود هم المخلصون الوحيدون للشعب العربى. ويخلص فى النهاية أنه لو كان عرب فلسطين قد أحبوا أرضهم لما كان بوسع أحد طردهم منها، لقد كان للعرب قليل من الأشياء ليعيشوا من أجلها، وأقل من ذلك ليقاتلوا فى سبيلها.

إن هذه النتيجة التى يصل إليها الكاتب هى مجرد تبرير للتنصل من مواجهة الحقيقة، فالمؤلف المطالب بتبرير طرد العرب من أرضهم يختار إصدار حكم بعدم جدارة العربى بوطن. لقد كتب المؤلف روايته سنة ١٩٥٨، ورغم الانتقادات التى وجهت إليها حتى من كتاب يهود غير صهاينة كفيليب روث مثلا، إلا أنه عاد فى رواية تالية هى «الحاج إبراهيم» سنة ١٩٨٤ ليؤكد مفاهيمه المغلوطة عن الشخصية العربية، وأن العربى إنسان خيالى يؤمن بالخرافات والسحر.. ألم يقدم للعالم ألف ليلة وليلة؟ إنه شخص مزواج، يعامل أبناءه فى قسوة ويعتبر خلفة البنات عارا.. إلخ هذه المفاهيم التى يحب الغرب أن يسمعها ويصدقها عن العربى.

بينما كاتب آخر هو آرثر كويستلر، يقول فى روايته «لصوص فى الليل» سنة ١٩٤٦، إن العرب لم ينتجوا شيئا يستحق المشاهدة إلا كباريهات و«كارتات» بوستال حقيرة من طنجة إلى طهران فى الألف سنة الأخيرة. كما أن لهجته فى الحديث عن العرب تتصف بالاستعلاء، وعنده أن كل كبير عائلة فى القرية العربية تتوجب رشوته إذا احتجت منه شيئا، وأن العرب أكثر الناس قدرة فى التاريخ على تدمير الأرض المزروعة وإحالتها إلى صحراء حيثما ذهبوا، فهم جديرون باسم آباء الصحراء بدلا من أبناء الصحراء.

بينما نجد عند روبرت بن ناثان فى روايته «نجمة فى الريح» أن العربى وقح، ملىء بالكراهية، وتلوح عليه سيماء لا تطاق من الخسة والدناءة، وأنه لم يكن هناك ثمة أرض تزرع فى فلسطين وإنما مجرد صحراء ومستنقعات وفلاحين يتناقصون طوال قرون، نصف أطفالهم يموتون بسبب القذارة، وأن اليهود لم يسرقوا شبرا من الأرض وإنما سرقوا الملاريا والتراخوما وعفن حياة العرب وفقرهم. وإذا خاض العربى معركة فليس لديه أى حافز لها، وإذا مات فإنما فى سبيل حكامه أوفى سبيل النهب، كما أنهم لا يقتلون سوى الأطفال فى حين لا يلحق اليهود أى أذى بالأبرياء. أما «جيمس ميتشنر» فى روايته الينبوع سنة ١٩٦٥، والذى يسرد أحداثها من خلال تعقبه لتاريخ قرية فلسطينية خيالية يسميها ماكور فى الجليل الغربى من قبل الميلاد وحتى منتصف ستينيات هذا القرن، يضمنها شخصيات كنعانية وصليبية ورومانية ويهودية وعربية، ولكنه يخصص لتاريخ العرب فى فلسطين حيزا أصغر مما يخصصه لأية فئة أخرى سكنت المنطقة أو أية سلطة أجنبية حكمتها. وعند تناوله للصراع العربى الصهيونى يقول إن العرب يفرون فى ذعر بناء على أوامر صادرة لهم من القادة العرب، وإنهم إذا حاربوا فهم جبناء، فلقد استطاع ثلاثون يهوديا نصف مسلحين أن يحتلوا عكا ويهزموا حاميتها فى فترة وجيزة، وعنده أن العربى غير قادر على تحمل المسؤولية، فحارس مخازن السلاح فى عكا يهرب الى بيروت تاركا الجنود بلا ذخيرة. كما يرى أن العربى متخلف، ويقارن بين بيت إسرائيلى حديث مزود بالكهرباء وتكييف الهواء، وبيت عربى لاكتب فيه ولا كهرباء، وإنما أوان فخارية وملابس من طراز قرون مضت وطاحونة يمكن أن توجد قبل آلاف السنين ـ وهو أى العربى يعيش حياة قاسية فى قرى أزقتها ضيقة ودكاكينها قذرة.

وفى رواية «كأس الغضب» لآدم غليون نجد أن دور العربى فى مجرى الأحداث خلال الحرب لا يتعدى القيام بعمليات السلب والنهب، ويصور الصراع فى فلسطين على أنه صراع بين رجال العصابات الصهيونية وبين السلطات البريطانية فى محاولة لإغفال دور عرب فلسطين إغفالا تاما فى هذه الحرب. وحين يصف المؤلف رجال المقاومة العرب، يقول «إنهم مرتزقة ممن كانوا قبل حملهم السلاح نشالين وذابحى رقاب محترفين وقوادين ومخربين ومحتالين ومتشردين ولصوص وسجناء سابقين وجميع أنواع السفاحين الذين يتعذر تصنيفهم، وبإغراء الرواتب الجيدة والطعام المجانى والاحتمالات الواعدة بالنهب والاغتصاب والقتل، قام هؤلاء بالانضمام بحماس إلى صفوف المقاتلين المتعطشين إلى الدماء بقدر مماثل».

أما رواية «موسم الشك» لجون كليرى، فقد قدم فيها عدة شخصيات عربية، ولكن لم يسمح سوى لشخصية واحدة أن تعبر عن وجهة نظرها فى الصراع العربى الصهيونى وبإيجاز شديد، بينما يقول أحد مهربى السلاح الإنجليز، «كنت منحازا إلى الجانب العربى فى بداية الأمر، ولكن كلما ازداد تعاملى مع العرب ازددت ضيقا بهم، فهم جميعا يرتابون فى بعضهم، حتى أن بعضاً منهم يكره بعضهم الآخر أكثر مما يكره اليهود، فالعربى لا يفكر ولا يثق بأى غريب، كما أن البؤس والقذارة تغلف حياته، وأطفاله يموتون لقلة الرعاية الصحية والعناية بالنظافة، وعنده أن متعة العربى هى المساومة، لكنها مساومة لا تدل على ذكاء.

وفى رواية «وسط الأسود» لسمث همبستون، يرى أنه لا يوجد شىء يربط بين العرب سوى عقيدتهم ولغة كتابية مشتركة يجهلها كثيرون، فهم قطيع من الأميين.

وفى رواية «برج بابل» لموريس ويست فإن الشخصية العربية تتصف بالغباء والإيمان الأعمى بالقضاء والقدر، والعربى منعدم الضمير يستطيع أن يتغاضى عن أى جريمة لاتصل إلى حد القتل. أما فى رواية ليسترجورن «المجد الأعظم» فإن سبعة من اليهود نصف مسلحين فى سيارة شحن معطوبة غنموها فى معركة مع العرب، استطاعوا أن يكتسحوا بلدة «الجية» قرب المجدل وأن يحتلوها دون أن يفقدوا رجلا واحداً وبسهولة شديدة.

وفى رواية «أحضروا أبنائى من بعيد» لرالف لونستاين، فإن كل الشخصيات العربية فى الرواية عبارة عن جنديين غير نظاميين بقيا فى إحدى القرى بعد أن هجرها أهلها، وهدفهما هو النهب والسلب ولا شىء غير ذلك.

وفى رواية «جرائم نمطية» سنة ١٩٨٧ لوليم باير والتى تتحدث عن الفساد فى الكيان الصهيونى والرشوة

وانعدام الضمير عند بعض الصهاينة ، فإن العربى فى هذه الرواية لا يظهر إلا فى حالتين ، الغلمان العرب الذين يبيعون أجسادهم ويتسكعون على الشواطئ فى منتصف الليالى ، والعصابات العربية من الشباب التى تتعرض للسياح لسرقتهم ، وغير ذلك لا يوجد عرب آخرون .

وهناك مئات الروايات خاصة البوليسية منها ، واسعة الانتشار ، والتى تصور العربى بصفات مشابهة . والملاحظ أن صورة العربى فى هذه الروايات صورة سلبية قاتمة ، سواء فى التعبير عن ظروف معيشتهم أو عقليتهم أو مظهرهم الجسدى أو عوامل تكوينهم النفسية أو عاداتهم الاجتماعية وطريقة معاملاتهم وأخلاقهم ومثلهم العليا وطريقتهم فى الحديث ونسائهم ومؤسساتهم ومعتقداتهم الدينية وتركيب مجتمعهم وقواتهم المسلحة وزيجاتهم وحياتهم العاطفية.

كما يصور العرب فى معظم هذه الروايات بصورة السكان الأصليين المتوحشين ، وهناك محاولة واضحة لاستعمال مصطلحات مستقاة من التجربة الأمريكية لوصف التجربة الصهيونية ، لكسب عطف القارئ الأمريكى على الموقف الصهيونى .

وهؤلاء الكتاب يحشدون فى كتبهم المبررات نفسها التى اعتمدها كل غزاة فى التاريخ ، من التفوق البدنى والذهنى والأخلاقى إلى التفوق الحضارى ، دون محاولة لاستقصاء الحقيقة فى الصراع العربى الإسرائيلى ، فهم ينطلقون من تحيز واضح للصهيونية ثم يقومون بتفصيل صورة العرب والصهاينة والصراع بشكل عام بحيث تتناسب هذه الصورة وتفاصيلها مع ذلك التحيز المسبق . فتصغير العربى واحتقاره ، لا يمكن أن يكون عملا تفرضه ضرورة معركة ساخنة ، بل هو تبرير لطرد العربى من أرضه ورفض مطلق لإيجاد أرض مشتركة يمكن إقامة حوار عليها .

كانت حرب ١٩٧٣ نقطة تحول عند بعض الكتاب الصهاينة ، حيث اصطدم كثيرون بصخرة الواقع ، فتغيرت مواقفهم، فأصبح بعضهم أكثر تطرفا كموشى شامير الذى تحول من اليسار إلى أقصى اليمين مطالبا فى كتاباته بإسرائيل الكبرى من النيل إلى الفرات ، بينما من ناحية أخرى ازدادت الاتجاهات العقلانية الداعية إلى السلام ومقاومة الحرب عند بعضهم الآخر ، كما نرى فى حالة الروائى عاموس عوز الذى تحول من يمينى متعصب إلى ليبرالى متحرر .

لكن من الملاحظ على العموم أن اليهود ذوى الأصول الشرقية بما فيهم الكتاب أكثر عداء للعرب من اليهود الذين أتوا من أصول أوروبية ، وحيث إن اليهود ذوى الأصول الشرقية يزدادون عددا أكثر من ذوى الأصول الغربية ، فمن الطبيعى أن يتضخم المعسكر اليمينى الذى يؤيدونه، لكن هناك ظواهر أدبية تشير إلى اختلاف فى مواقف الكتاب فى نظرتهم إلى العربى وحقه فى فلسطين عن مواقفهم السابقة ، وربما يتضح ذلك فى ثلاثة أعمال روائية ظهرت فى السنوات الأخيرة توضح ما نعنيه .

ففى رواية «ابتسامة الجدى» لدافيد جروسمان صاحب كتاب الزمن الأصفر الذى صدر سنة ١٩٨٧ ، وأحدث صدوره صدمة أصابت الإسرائيليين حين اكتشفوا بعد هذه السنوات الطويلة أن مشروعهم الصهيونى يقوم على أسس من الرمال وأن الشعب الفلسطينى يقف بعناد وقوة ضد جبروتهم ، ويقاوم ويعبّر دون خوف عن كراهيته للمحتل دون أن يرهب آلاتهم العسكرية وهيمنتهم الإدارية وتحكمهم فى أرزاق الناس وحياتهم اليومية ، وأن الفلسطينى مازال ينظر إليهم كمجموعة من الغزاة المتسلطين ستدور الدائرة يوما عليهم .

فى الرواية ، يقع جندى إسرائيلى فى أسر خيال عجوز عربى ، شبه أعمى وشبه مجنون ، يخلق عالمه من قصص الأساطير الخلابة التى يحكيها لنفسه ، وبالتدريج تحف الأساطير بالواقع الذى حوله ، قرية عندل التى يعيش فيها منذ طفولته ، والجيش الإسرائيلى المسيطر عليها ، والجندى الذى يستسلم لحكاياته وحكمته ويحاول الاستعانة به فى حل لغز الكذب الذى تقوم عليه حياته . وكما يقول أحد النقاد ، فإن هذه الرواية هى «رواية عن الصحوة» ، عن غربة جديدة بين إنسان وكل ما آمن به ، إنها مراجعة لمراحل العفن البشرى الناجم عن اتصال الإنسان بالظلم والكذب ، وبحث عن متنفس من خلال الكوابيس هربا من تجربة الاحتلال العنيفة التى تعدى المحتل والواقع تحت الاحتلال فى الوقت نفسه.»

ثم رواية «العاشق» لإبراهام يوبوشع والتى يمكن اعتبارها أهم رواية إسرائيلية صدرت فى السنوات الأخيرة ــ وقد ترجمها إلى العربية محمد حمزة غنايم ــ أحد أبطالها الرئيسيين ، شاب عربى ــ نعيم ــ يعمل فى كراج عند يهودى ، ويقيم عند عجوز يهودية ، وتقع ابنة اليهودى صاحب الكراج فى حبه ، الأمر الذى لا يريده الأب وتريده الابنة.

فى هذه الرواية يعرض المؤلف لثلاثة أجيال يهودية مختلفة تعيش فى فلسطين الآن ولها وجهات نظر مختلفة تجاه العربى الذى هو هنا الشاب نعيم العامل فى الكراج .

العجوز التى يقيم عندها نعيم ، والتى تمثل الجيل المتحفظ والمتعصب ضد العرب ، وهى أم صاحب الكراج ، والتى ترى فى نعيم ولدا لا يؤمن جانبه ، فقد

يكون أحد أعضاء فتح ، وترى أنه لا يحب النظافة فهو يهرع إلى سريره دون أن يزيل الأوساخ التى علقت بجسده ، وتبدأ فى توجيهه وتتقبله على حذر .

والأب ـ صاحب الكراج ـ والذى يمثل الاتجاه نفسه عند العجوز لكن بحدة أقل ، كما أنه يرى أن عجلة العمل فى الكراج لا يمكن أن تسير بدون العربى ، فالعربى قد أصبح ضرورة فى الحياة الإسرائيلية . أما بالنسبة للبنت التى تمثل الجيل اليهودى الشاب فهى أقل تعصبا وكراهية للعرب من الأجيال السابقة ، وتعامل الشاب معاملة الند للند .

والمهم فى هذه الرواية أن مؤلفها ابتعد تماما عن أى تزييف أو كذب فى تصوير صورة العربى ، وقدمه بالفعل بعين إسرائيلية موضوعية .

أما الرواية الثالثة فهى «الطريق إلى عين حارود» لعاموس كينان ـ وقد ترجمها إلى العربية أنطوان شلحت ـ فموضوعها يتخذ تعبيرا جديدا فى إطار الرواية الإسرائيلية المعاصرة ، وتدور أحداث الرواية حول وقوع انقلاب عسكرى يضع حدا للديمقراطية المزعومة فى إسرائيل ، والمؤلف فى هذا لم يبن روايته من فراغ ، إذ إن معطيات الحاضر هى التى أوحت إليه بها .

بطل الرواية ، الإسرائيلى والإرهابى السابق ، الذى تعب من الحرب والعداء لكل من حوله ، يستمع فى إحدى الليالى بعد الانقلاب ، إلى محطة إذاعة تسمى عين حارود الحرة ، فيقرر السفر من تل أبيب إلى عين حارود بحثا عن الديمقراطية وهربا من الإرهاب الجديد ، يلتقى فى طريقه بمحمود الفلسطينى الهارب أيضا من دولة التعصب هذه ، ولكل منهما دوافعه الخاصة فى الوصول إلى عين حارود . يقابلان فى طريقهما جنرالا إسرائيليا وسائقه يهربان أيضا ، ويمرون بسلسلة من المغامرات ، وقبل أن يصلوا إلى هدفهم يعتقلهم قائد المنطقة الشمالية والذى يعجب بالسجل الإجرامى لبطل الرواية الإسرائيلى ، فيقرر الإبقاء على حياته بينما يعدم الآخرين فى قلعة بناها الإنجليز لصد قوات النازى فيما لو نجحت فى الوصول إلى هناك فى الحرب الثانية . فى الرواية مزج بين الرواية السياسية والرواية البوليسية ، كما أنها تكشف بوضوح كبير تداخل الصراع العربى الإسرائيلى فى رحلة طويلة كانت لابد أن تنتهى نهاية مأساوية .

ويرى المؤلف، فى روايته ، أن القضية الإسرائيلية لا تنفصل عن القضية العربية ، والرحلة إلى عين حارود لم يقصد بها أن تكون رحلة جغرافية ، بل رحلة تاريخية يلتقى فيها العربى واليهودى رغم كل العقبات ، ويسيران معا هرباً من مصير مجهول ، والظروف المحيطة هى التى تملى عليهما التعاون ، هذه الظروف هى التى تفرض على العرب واليهود وحدة المصير ، والاعتراف بوحدة المصير يولد التعاون . وفى الرواية يحزن بطلها الإسرائيلى لمقتل محمود ، ويعد بالانتقام له ، لأنه إذا لم ينتقم فلن يصل إلى عين حارود الديمقراطية .

لكن ، لا يبدو فى كتابات الأدباء الصهيانة أى بارقة تؤيد العيش فى دولة ديمقراطية مع العرب، فسامى ميخائيل يقول : «فى اللحظة التى تصبح فيها إسرائيل مجرد دولة ديمقراطية ، سأكون مستعدا للتخلى عن أمتعتى وإعطائها أى عربى وأنقلع من هنا على الفور ، إنى أفضل العيش فى دولة ديمقراطية تعود لكافة مواطنيها فى منطقة أخرى وليس فى هذه المنطقة المصابة بالجنون.»

وفى كتابات بعض الكتاب نجد أنهم يبدون استعدادهم لمحاربة أى جور يلحق بالعربى ، لكن ليس أكثر من ذلك ، فلكى يخلصوا العربى من مصيره فهم على استعداد للمغامرة بمصيرهم الشخصى وليس مصيرهم القومى ، وليست المعركة الأدبية والسياسية التى قامت فى إسرائيل بعد نشر محمود درويش لقصيدته «عابرون فى كلام عابر» ببعيدة ، فحين أحس ، حتى اليساريين ، شبه مساس بكيان الدولة القائم منذ ٤٨ ، قامت قيامتهم ولم تقعد .

وبعد الانتفاضة الشعبية فى الأرض المحتلة ، والتى قلبت كثيراً من المفاهيم لدى عدد كبير من المثقفين اليهود ، فإن كثيرا منهم اعترف بحق الفلسطينى فى أن تكون له دولته وحق تقرير المصير ، لا إيمانا بالحق الفلسطينى ولكن خوفا من انهيار المشروع الصهيونى كله ، وحفاظا على بقاء الدولة اليهودية ، وهذا أقصى ما يقدمه الكاتب والمثقف الإسرائيلى الآن، وهو أقصى ما يمكن أن يناله الفلسطينيون فى هذه المرحلة التاريخية التى تتربع أمريكا على عرشها ■

اعتمدت هذه الدراسة أساساً على الكتب التالية :

ـ الأدب الصهيونى المعاصر بين الإرث والواقع، جودت السعد المؤسسة العربية / بيروت ١٩٨١ .

ـ الأدب الصهيونى بين حربين ، د. إبراهيم البحراوى المؤسسة العربية / بيروت ١٩٧٧.

ـ الحقيقة والرواية ، منير صلاح الأصبحى اتحاد الكتاب العرب / دمشق ١٩٧٨.

ـ تشابك الجذور عن الشعر الإسرائيلى ، أحمد عمر شاهين ، ورضا الطويل ، دار شهدى القاهرة ١٩٨٥ .

ـ الشخصية العربية فى الأدب العبرى الحديث غانم مزعل، دار الجليل / عمان ١٩٨٦.

ـ الشخصية اليهودية الإسرائيلية والروح العدوانية . د. رشاد الشامى عالم المعرفة/ الكويت ١٩٨٦ .

ـ صورة العربى فى الأدب العبرى من ١٩١١ – ١٩٤٨ ريزا دومب ت : عارف العطارى ، دار الجليل ١٩٨٥ .

ـ فى الأدب الصهيونى، غسان كنفانى، مركز الأبحاث الفسلطينية ـ بيروت ١٩٦٧ .

ـ العاشق ، رواية أ . ب يهوشع، ت : محمد حمزة غنايم ، جامعة تل أبيب ودار المشرق ١٩٨٤ .

ـ الطريق إلى عين حارود، عاموس كينان، ت : أنطوان شلحت، مجلة الكرمل، العدد ١٣، لسنة ١٩٨٤ .

ـ فى مواجهة الغابات، أ . ب يهوشع ترجمة خاصة .

- Pattern Crimes William Bayer Villard Books N.Y 1987.

- The Haj heon vris Bantam Books U.S.A 1985.

- The Source James Michener Corgi Books U. k. 1967

وعلى المقالات التالية :

ـ نظرة الأدب الصهيونى للشخصية العربية، أحمد عمر شاهين، مجلة القاهرة، يونية ١٩٨٩ الدراسة تطوير لهذا المقال وإعادة صياغة وإضافات .

ـ نظرة فى الأدب القصصى الصهيونى، أحمد عمر شاهين، مجلة صوت البلاد ١٩٨٤/٦/١٠.

ـ بين العنصرية ودعاوى الديمقراطية، أحمد عمر شاهين ،مجلة صوت البلاد ١٩٨٤/١٠/١٧.

ـ ابتسامة الجدى، فصل ودراسة، دافيد غروسمان، مجلة لقاء صيف ١٩٨٥.

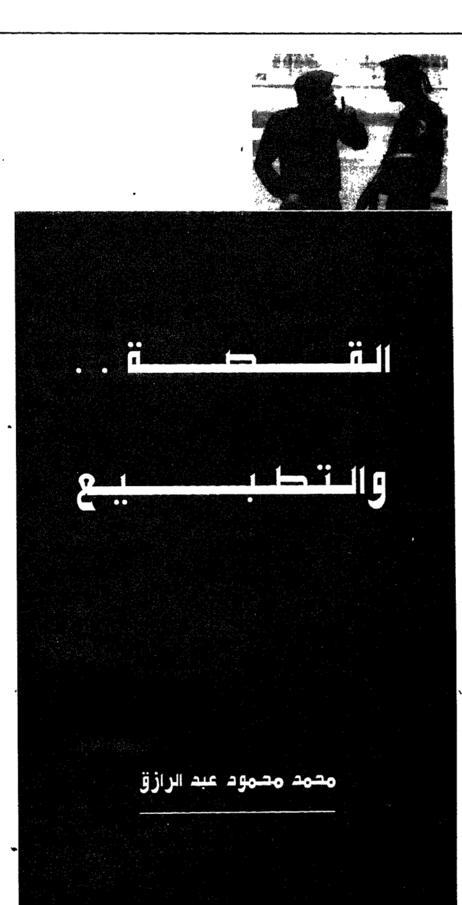
ـ اللقاء الذى كان، ندوة لعدد من الكتاب العرب واليهود، مجلة لقاء صيف ١٩٨٦ .

ـ نقوش عربية على جدار الصهيونية، سامى ميخائيل، مجلة لقاء صيف ١٩٨٦ .

ـ الأدب الإسرائيلى لجيل ٤٨، رشاد الشامى، شؤون فلسطينية مايو / ١٩٧٢ .

ـ نماذج من الأدب الإسرائيلى بعد ٦٧، د . رشاد الشامى، شؤون فلسطينية يونيه ١٩٧٢.

ـ الأدب العبرى المعاصر وتكريس التوسع، د. رشاد الشامى، شؤون فلسطينية نوفمبر / ١٩٧٢ .



القصة .. والتطبيع

محمد محمود عبد الرازق

فالسياسة هى فن تحقيق الممكن. وثمة طريق طويل شاق بين تحقيق الممكن وتحقيق الأمنية. وتتخلق الأمنية فى ضمائرالشعوب. وربما لا تجرؤ السياسة ـ فى مرحلة من المراحل ـ على الحديث.. مجرد الحديث عن الأمنية. لكنها تعتبر ما أمكن تحقيقه خطوة، أو نقطة انطلاق على الطريق الطويل الشاق.

وكانت اتفاقية كامب ديفيد خطوة أو نقطة. قد تكون خطوة قاصرة، أو نقطة غير واضحة للانطلاق، لكننا لا نستطيع أن ننكر طبيعتها. ومن أنكروها يحاولون الآن الوصول إلى ماهو دونها. لقد فهم الرئيس السادات لعبة السياسة الدولية، وأصر على أن يخوض غمارها عله يحرز هدفا جديدا، بعد الهدف المجيد الذى أحرزه يوم سبت النور: السادس من اكتوبر، العاشر من رمضان. ولم يقل مطلقا أن المعاهدة نهاية المطاف ـ (وكما استطعنا أن نلغى معاهدة سابقة، فليس من العسير إلغاء معاهدة لاحقة. وأن التطبيع ـ الذى نصت عليه بنود الاتفاقية أو المعاهدة ـ ليس هو ثمرتها ـ فثمرتها الحقيقية هى استرداد الأرض بالعمل السياسى. واسترداد الأرض شىء، والتطبيع شىء آخر. استرداد الأرض بالعمل السياسى هو البديل المتاح لاستردادها بإراقة الدماء من الجانبين. ولاريب أن حقن الدماء أفضل ألف مرة من إراقتها. والتطبيع عمل شعبى ليس للسياسة دخل فيه. كان السادات بحنكته السياسية يدرك ذلك. ويدرك ـ وهو

يصدر القرار ـ أن التطبيع لايأتى بقرار سياسى، وإنما باقتناع شعبى ويدرك أن تجاربنا مع العنصرية الصهيونية تقف جدارا أسود يحول بيننا وبين أى تقارب مع إسرائيل.ولم يفرض القرار السياسى ـ ذاته ـ وصايته على ضمير الشعب. ولو سار الشعب فى مساره لما أرضت المسيرة صاحب القرار نفسه ـ وهذا فرض جدلى محض ـ فقد كان السادات يتعامل مع «الممكن» وفى ضميره «الأمنية». وقد يغير السياسى الوطنى ملابسه وفق متطلبات اللحظة، فيرتدى الحلة العسكرية فى الاحتفالات العسكرية، والحلة المدنية فى المناسبات المدنية، والجلباب البلدى أثناء إقامته فى قريته.. لكنه لايستطيع أن يلغى ضميره فى أى لحظة. الخائن فقط هو الذى يلغيه.. أو يبدله.

ورفضت القصة التطبيع مع إسرائيل منذ أن طرح منظومته فلقد تعاملت مع الفكر الصهيونى وجها لوجه، ومع السلام الصهيونى وجها لوجه. وعرفت أن العدو هو العدو، سواء ارتدى حلة الحرب أو تسربل بمسوح السلام وإذا أعيته الحيلة عن طريق الحرب، فسوف يعمل لاهتبال الفرص عن طريق السلام، لتخريب اقتصادنا، وتشويه وجهنا الثقافى، وتصفية دورنا فى المنطقة. عندما تعاملت الحكومة المصرية مع إسرائيل فى مجال الزراعة صدرت إسرائيل البذور والأوبئة معا. وعندما تساءلنا ـ فى حيرة ـ عن أسباب ظاهرة الإرهاب، وذهبنا كل مذهب..

أشار الفيلسوف **روجيه جارودى** إلى «الموساد». ويبدى **محمد حسنين هيكل** قلقه الشديد من كثرة المبالغ المرصودة لأغراض البحوث الاجتماعية والسياسية فى مصر «فهذه المبالغ تزيد سنويا على مائة مليون دولار ـ معظمها تقدمه هيئات أجنبية ـ والمشكلة أننا لا نعرف يقينا من الممولون. فنحن نقرأ أسماء هيئات دولية، لكن الأسماء، كما علمتنا التجارب لا تدل بالضرورة على المسميات، ثم إننا لانعرف أين تبدأ المقاصد، ولا نعرف أين تنتهى النتائج، ومانراه هو مجموعات فرق بحث تمسح البلاد بالطول والعرض والعمق، ثم تطالعنا أوراق لاتبدو مساوية للجهد، ثم تنزل أستار النسيان تدريجيا على كل شىء، البحث والباحثين والأوراق المكتوبة، كأنه زر نور لمسه إصبع فاتقد ثم لمسه ثانية فانطفأ. وإذا لم نكن ضد الحقيقة، فلسنا «من أنصار العرى الكامل لمجتمعنا أمام عيون لاتعرف يقينا ما الذى تبحث عنه وتفتش عليه». ونحن فى عصر المعلومات. ووسيلة الفعل السائدة فى أى عصر تؤثر على مافيه. ونحن بلد مستهدف(1).

ولا نعتقد أنه بإمكاننا تجاهل رأى **روجيه جارودى** بعد مذبحة الخليل.حدثت المذبحة فجر يوم الجمعة. وفى صباح الأحد دوت الانفجارات داخل كنيسة «سيدة النجاة» بشمال بيروت أثناء إقامة الطائفة المارونية الكاثوليكية الصلاة لقداس الأحد. ووصف الرئيس كلنتون الانفجار بأنه «عمل شائن ضد الدين والإنسانية، وأنه يهدف إلى تقويض مسيرة الوفاق الوطنى اللبنانية». ويوم وقفة عيد الفطر سمعت سيدة صوت فرملة مفاجئة لسيارة مسرعة أعقبها إطلاق الرصاص على بعض من تصادف وجودهم معها أمام البوابة الأولى للدير المحرق. ورغم أن معظم الآراء تتجه إلى أن الفعل الإجرامى تم بالمصادفة، إلا أننا نرجح تحرك أصابع «الموساد» فى كل من بيروت والقوصية. والهدف واضح بعد إدانة العالم لمذبحة الحرم الإبراهيمى، وهو إلقاء إسرائيل الستار على جريمتها البشعة، بإيهام العالم بأن التعصب الدينى الأعمى ليس وقفا على تكوينها الشاذ. وإنما من إملاء طبيعة المنطقة ذاتها. وربما لهذا السبب أعد لمؤتمر: «حقوق الأقليات فى الوطن العربى والشرق الأوسط» على أن يعقد بالقاهرة، وعندما لفظه التراب المصرى هرب إلى قبرص.وكما هو اضح من جدول أعماله فإن عبارة «الشرق الأوسط» مقحمة فى العنوان. فجميع المشاكل المقترحة تخص دولا عربية، إذ لم يرد بالجدول ذكر لتركيا أو إيران مثلا!!.. كذلك لم تطرح مشاكل الأقليات فى إسرائيل على بساط البحث.. ومشكلات التفرقة بين اليهود الشرقيين والغربيين وبين اليهود لاتخفى على أحد.

والذى تسعى إليه إسرائيل الآن هو تهود المنطقة كلها بجعلها تدور فى فلكها. وكتاب شيمون بيريز وزير خارجية إسرائيل: «الشرق الأوسط الجديد» ماهو إلا «دراسة جدوى» للمشروع الإسرائيلى المسمى: «النظام الشرق أوسطى». وفيه تقوم إسرائيل بدور الرأس المفكر، وعلى العرب أن يمدوها برأس المال والمواد

الخام والأيدى العاملة. وأصدرت إسرائيل نشرة بعنوان: «إسرائيل فى القرن ٢١»، جاءبها: «إن البترول العربى سوف يتدفق مرة أخرى إلى حيفا، والقطن المصرى سوف يغزل وينسج فى تل أبيب، وإسرائيل سوف تملك من الكمبيوتر والتكنولوجيا الحديثة ما يفوق كل مالدى الدول العربية»... «إن القدس عاصمة إسرائيل سوف تكون العاصمة الروحية للمنطقة، يلتقى فيها علماء المسلمين وبطاركة المسيحيين وحاخامات اليهود».

والبين أن الذين يقبلون التعاون مع إسرائيل - عدا الحكومات - هم رجال أعمال وتجار لايعرفون لهم وطنا غير المال، ولا دنيا غير الاستثمار، وحفنة ضئيلة من الكتاب والساسة الذين يسعون إلى المال والاستثمار. أما الشعوب فإنها ترفض رفضاً قاطعاً مجرد التفكير فى البيع والشراء، لقد عجزت إسرائيل عن تحقيق بغيتها عن طريق الحرب، فرأت - أورأى صانعوها - أن تحققها عن طريق اللاحرب، والطريق الثانى يبدأ بالاتفاقيات التى تتحدث عن السلام والوئام، وسط الجماجم والأشلاء والعظام. ولأن القصة القصيرة ضمير العصر، أو هكذا نراها. فلقد رفضت التطبيع قلبا وقالبا، وتبعتها شقيقتاها: الرواية القصيرة والقصة القصيرة جدا.

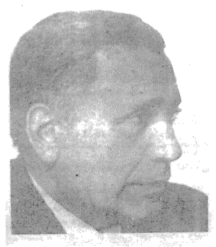
●●●

وأحسب أن أول قصة تصدت لمنظومة التطبيع هى قصة: «إنزل» لرجب سعد السيد، ثمة قصص أخرى كتبها المقيمون فى الثغر الباسم لا نرجعها إلى التأثر بالسيد أو إلى التواصل السكندرى بين الأدباء، وخاصة جماعة عبد الله هاشم، ومنهم أحمد محمد حميدة، وخورية البدرى ومجدى عبد النبى - وسوف نتناول أعمالهم بالدراسة - أو ممن تخرجوا من ورشته ومازالت مياه الود جارية بينهم، أو تخرجوا وانشقوا وإن حرصوا على متابعة أعمال ندوة الجمعة التى يعقدها فى بيته بباكوس، وندوة الاثنين التى يديرها بقصر ثقافة الحرية. وأخبار نشاطاته الأخرى، خاصة فى مجال إصدار مجلة «نادى القصة» ومطبوعاتها.

ولا نرجعها إلى محاولة التكتل ضد نزعة فردية قوامها القاص **نعيم تكلا** ونفر من أصدقائه. أزعم أن عقدهم انفرط، أو - على الأقل - تأثر بتوبة نعيم تكلا، وتبرؤ سعيد سالم منه.

وجه تكلا خطابا إلى رئيس تحرير مجلة : «القاهرة» أعلن خلال توبته، وهو يسرد مسيرته منذ عام ١٩٨١ : وفى صيف هذا العام منذ أكثر من عشر سنوات التقيت لأول مرة بأستاذ إسرائيلى قدمه لى **نجيب محفوظ** هو البروفيسور **ساسون سوميخ** العراقى الأصل اليسارى النزعة والمناصر للحقوق الفلسطينية وللسلام الشامل مع العرب. وجدت عند الرجل اهتماما بكتاباتى أرضى غرورى الأدبى الشاب، وتوطدت بيننا معرفة وصداقة أثمرت نشر مجموعة قصصية لى لدى ناشر عربى بمدينة عكا اسمه عبد الغنى السروجى (قفزات الطائر الأسمر النحيل - دار السروجى - عكا ١٩٨٣، كاتب مصرى وناشر فلسطينى ومقدمة لأستاذ إسرائيلى للأدب العربى صديق لكبار كتابنا متردد عليهم باستمرار ومناصر للحقوق الفلسطينية وعربى الهوى. لم يخطر ببالى قط مايمكن أن يثيره هذا ضدى. كنت أظن أننى أقيم جسرا مع أخوة عرب حرمنا منهم طويلا وحرموا منا. وأن جهدى المتواضع قديم يدعم اتجاه السلام فى إسرائيل الذى نتمنى أن تكون له الغلبة على الاتجاه العنصرى التوسعى العدوانى نوايا حسنة صادقة لايمكن أن يلومنى عليها أحد حتى لو كانت تتضمن أخطاء غير مقصودة اكتشفت تورطى فيها فيما بعد، اكتشفت أننى كنت غافلا عن كثير من تعقيدات الصراع العربى الإسرائيلى التى لايمكن أن تزول آثارها من النفوس سريعا». لم يكن يتصور أن يصير رمزا للتطبيع مع إسرائيل. وأدهشه أن يكون وحده كبش الفداء «وهناك العشرات من الكتاب والأدباء ذهبوا إلى أبعد من مجرد إظهار النوايا الطيبة تجاه عملية السلام، سافروا إلى إسرائيل ومازالوا يسافرون. حضروا المؤتمرات ولبوا الدعوات الكريمة السخية وظهروا على شاشات التليفزيون العبرى يتحدثون عن الصداقة المصرية الإسرائيلية. ولكن أحدا لايجرؤ أن يمس لهم طرفا، وحتى إذا مسهم بمجرد كلمات فهذا لاينال منهم شيئا. نفوذهم فى ازدياد ومكاسبهم فى تضخم(٢).

والتقط **جمال الغيطانى** الكرة، لاتعرف لماذا؟!!.. ونشر بجريدة: «أخبار الأدب» مقالا بعنوان: «عفوا يا أستاذ نجيب» يعتذر به سعيد سالم عن عدم حضوره ندوات محفوظ السكندرية، لأنه يجد نفسه «شديد العزوف عن حضور مجلس الأستاذ إلى أجل مسمى يرتبط ارتباطا وثيقا بواحد من رفقاء رحلة أمريكا عاهدت نفسى ألا يضمنى به

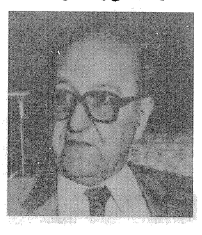


محمد حسنين هيكل

مجلس..». وأصل الحكاية ـ كما يقول ـ إن «صاحبنا» ـ ولم يذكر اسمه ـ نشر منذ عدة أعوام ثلاثة أعمال قصصية بإسرائيل أهاجت ضده معظم الأدباء، بعضهم لمجرد النشر فى إسرائيل، وبعضهم الآخر ردا على تعاطفه غير المبرر مع إسرائيل كما هو واضح من مضمون قصصه التى يتباهى فى إحداها البطل برفرفة علم إسرائيل على أرض فلسطين المحتلة.. ولقد بلغ ببعض منهم أن اتهمه فى شرفه وفى وطنيته (...) والحقيقة أننى لم أقبل من الزملاء هذا الموقف وقد وصل إلى تلك الدرجة من العنف والتدنى، ولهذا فقد التزمت جانب الدفاع عن حقه فى النشر بأى مكان، فضلا عن أننى كنت فى بداية الأمر ـ قبل غزو لبنان ـ ميالا إلى تصديق اتفاقية السلام متفائلا بها، مخدوعا فى مسألة التطبيع التى كان يروج لها أصدقاؤه الإسرائيليون إذ كانوا يجالسوننا فى أكثر من محفل أدبى ـ أتعمد حضوره ـ ويؤكدون لنا حسن النوايا الإسرائيلية...»(٣). وظل على موقفه هذا، حتى فوجئ به يدلى خلال الرحلة إلى أمريكا بآراء وأقوال غاية فى الغرابة جعلته يعلن «بكل صراحة» عن انتهاء علاقته به.

وعمر المقال يربو على ثلاث سنوات سابقة على نشره. ولا نعرف ـ للمرة الثانية ـ لماذا فتش **الغيطانى** فى أدراج مكتبه أودواليبه وأخرجه لنشره فى ذلك التوقيت بالذات؟!!.. ولم يلفت النظر إلى التاريخ الذى ذكره الكاتب موضحا إلى أى سنة ينتمى، كما تقضى بذلك أمانة نشر المعلومة، فبدا كما لو أن «الرحلة الأمريكية» تمت فى «سبتمبر الماضى». يقول سعيد سالم فى مفتتح مقاله: «لايعنى قدوم الصيف عندنا ـ نحن قبيلة الأدباء المقيمين بالإسكندرية ـ إلا شيئا واحدا هو قدوم الأستاذ نجيب محفوظ إلى الإسكندرية واستمتاعنا بمجلسه اليومى الظريف على الشاطئ. هكذا تعودنا منذ مايقرب من عشرين عاما مرت علينا بحلوها ومرها وما تغير بمجلسنا شىء.. إلى أن جاء سبتمبر الماضى ومعه دعوة لزيارة أمريكا موجهة من وكالة الإعلام الأمريكية إلى كتاب ثلاثة كنت واحدا منهم...». أما الكاتب الثالث فيشير إليه سالم بقوله: «رفيقنا الثالث الشهير بالأديب الشاب العميد الحاج الأستاذ فلان الفلانى».

ويشير **تكلا** إلى سنة كتابة المقال،وماطراً على موقف سالم من تغيرات أثناء الرد عليه بالصحيفة نفسها: لأدرى كيف خفى على جريدتكم الموقرة أن هذا المقال إنما هو «طبخة بايتة» عمرها ثلاثة أعوام.إن رحلة أمريكا التى تحدث عنها سعيد سالم تمت منذ أربع سنوات ومقاله كتب منذ ثلاثة أعوام، وقد جرت فى النهر مياه كثيرة وعاد سعيد سالم إلى التردد على ندوة نجيب محفوظ مشاركا فى الحوار حول هذه المسائل المقلقة للراحة التى صارت تؤرق كتاب ومثقفى مصر الحريصين على وحدتها الوطنية. وقد بادرت بالاتصال بسعيد سالم تليفونيا لأقدمه إلى ناشر طبع له كتابين وقد سمعت من سعيد شكرا ولمست منه مودة تجاهى ولطفا، وبعد كل هذا



جارودى

أفاجأ بهذا المقال الذى أفرزه سعيد سالم منذ سنوات وهو يكابد حالة كنا نظن أنه شفى منها.. وماذنب القارئ بأن يرتبك بكل هذه التقلبات النفسية للأستاذ سعيد تجاه صديق أو رفيق رحلة؟..»(٤).

وفى الخامس من ديسمبر ١٩٩٣ نشر جمال الغيطانى فى صحيفته: «أخبار الأدب» قصة **لنعيم تكلا** بعنوان: «حنا النجار» تحمل ذات الهموم التى أشار إليها الكاتب نفسه فى خطابه إلى مجلة: «القاهرة» حين قال: «ومن البداية فرض القلق الوطنى القبطى نفسه على كتاباتى». ولايخفى هذا التوجه بدءا من العنوان الذى يتناص مع شخصية دينية رقيقة مسالمة هى شخصية: «يوسف النجار».ويصور تكلا فى قصته قرية مصرية صعيدية فى زمنين. فى الزمن الأول يتماسك النسيج الوطنى ويشد بعضه بعضا فى تواد وتراحم، يعبر عن سمة حضارية مهمة من سمات الحضارة المصرية. تلك السمة التى حيرت اللورد كرومر فقال بعد مغادرته مصر غير مأسوف عليه:«لا يوجد فرق بين مصرى وقبطى فى مصر، غير أن أحدهما يصلى فى مسجد، والثانى فى كنيسة»ولهذا لم يفلح اللورد كرومر فى زعزعة «الكتلة الحضارية» بنهجه المعروف بسياسة: «فرق تسد». فى الزمن الثانى تغزو القرية بعض الأفكار الغريبة غايتها تمزيق النسج المتين. وعلى الكاتب أن يفتش عن الموساد خلف هذه الأفكار كما نصحنا روجيه جارودى. والكاتب يمتلك ناصية القص، ويعبر عما يريد فى سلاسة ويسر. وإذا كان أعلن توبته ـ ولنا الظاهر ولله السرائر ـ ورفض منظومة التطبيع مع إسرائيل، فإننا نوجه إليه ـ مرة أخرى ـ الكلمات التى سبق أن وجهتها له مجلة «القاهرة» فى ذيل تعقيبها على رسالته: «من المؤكد أنك كلما اقتربت بأقوالك وأفعالك من القاسم المشترك بين المثقفين

٢

المصريين والعرب حول مفاهيم السلام والتطبيع، وجدت قبولا لك ولأعمالك ولحضورك الثقافي.. فليست هناك مواقف نهائية من شخصك أو كتاباتك».

●●●

لا ترجع القصص السكندرية الرافضة للتطبيع إلى التأثر بقصة: «انزل» لرجب سعد الهيد، ولا إلى التواصل بين الأدباء المقيمين بالإسكندرية، ولا إلى محاولة التكتل ضد نزعة فردية مضادة أعلنت تويتها.. وإنما نرجعها إلى المناخ العام الذى ذاق مرارة التجربة مع العدو.. فى الحرب وفى اللاحرب..فى الفتك العسكرى والفتك تحت راية سلام مهترئة. كل قصة من قصص أحمد محمد حميدة وحورية البدرى وحجاج حسن أدول ومجدى عبد النبى لها مذاقها الخاص، ورائحتها المتفردة. كل نحلة تفرز عسلها متأثرة بها امتصته من رحيق. ولقد انطلقت ـ فى الوقت نفسه أقلام أخرى تعبر عن رفضها من زوايا مختلفة فى كافة أنحاء البلاد.

نشرت قصة: «انزل» ـ لأول مرة ـ بمجلة: «القصة» (أبريل ١٩٨٥) ثم أعيد نشرها بآخر أول مجموعة لكاتبها عام ١٩٨٦ .(٥) والقصة تتحدث عن سائق يبحث عن راكب ـ عند الاستدارة الحادة بعد الفندق الكبير أمام سور حدائق قصر المنتزه تهيأله أن شخصا يلوح له. فتح الرجل باب السيارة ومرق إلى داخلها. كان يتنفس بعمق وبصوت مسموع، ومعطف المطر يصدر أصواتا وهو يحك كفيه ببعضهما. نظر فى المرآة العاكسة فرأى قبعة سوداء. فكر فى أن يكون سائحا أجنبيا، واستبشر خيرا. فى اللحظة نفسها سمعه يتكلم بالعربية: «... معذرة.. نسيت أن أقول مساء الخير». واعتبرنا أن تحية المساء زلة لسان من الراكب، فنحن فى الصباح، ثم اتضح أنها زلة قلم من الكاتب. كل الدلائل تشير إلى ذلك.

شخص القصة يعمل بوظيفة كتابية بمجمع المحاكم الذى مازال يعرف حتى الآن بالإسكندرية المحافظة على تقاليدها باسم: «الحقانية» .ويحتم عليه وضعه الوظيفى أن يوقع فى قائمة الحضور قبل الثامنة والنصف. خرج من الجيش يحمل رخصة قيادة. اشتغل لدى أصحاب السيارات الذين يتهمون السائقين بعدم الأمانة. بعد مكابدة سنوات طوال استطاع أن يشترى سيارة بالتقسيط. لا يتصور أحد مدى القلق الذى يقلب كيانه وأيام الشهر تزحف إلى نهايتها دون أن تقترب الجنيهات المقتصدة من قيمة القسط الشهرى. اعتاد ألا يستجيب إلاللرغبات التى تتفق مع طريقه إلى عمله من «الورديان» إلى «ميدان المنشية». كان يفشل فى التقاط الركاب. على مكتبه بسراى المحكمة راجع حساباته فوجد أنه سيضطر لتحويل كل راتبه الحكومى إلى صندوق القسط الشهرى. قرر أن يستجيب لأى طلب. أعطته السيدة التى أوصلها إلى أبى قير أجرا معقولا، غير أنه لايغطى خسارة الرجوع خاليا. هاهى الساعة تقترب من الثامنة وهو يتهادى على الطريق. خلت الطرق من أى راجل.. عند الاستدارة وجد ضالته.



بيل كلينتون

كان الراكب يحدث نفسه وهو يزيل دائرة من غلالة البخار المكثف فوق زجاج النافذة: «الإسكندرية تغتسل.. لا يكفيها البحر.. تستهويها الأمطار». وأخذ يرقب الأمواج والأمطار صامتا. قطعت السيارة مسافة طويلة دون أن يحدد وجهته. سأله السائق فكانت إجابته: «أى مكان بالإسكندرية هو وجهتى». إنه الحنين إذن. كان الرجل مهذبا رقيقا. لم يقل المؤلف ذلك. لكن المرء يشعر به من خلال الحوار والتداعيات: «احتاج الليلة إلى رفيق سكندرى أتكلم معه». طلب من السائق أن يتوقف لحظة خلع خلالها معطفه وطرحه فوق المقعد الخلفى، وفتح الباب الأمامى وجلس بجواره. تمهل السائق فى سيره بناءً على رغبته. إنه هارب من فوج سياحى يقيم فى الفندق. ألغيت جولتهم فى المدينة بسبب تعطل السيارة: «غدا صباحا سنطير إلى الأقصر». أصر على تنفيذ الجولة. معظم رفاقه من كبار السن، ولاتهمهم الإسكندرية كثيرا، خصوصا إذا كانت ممطرة. أخذ يردد مقاطع من ألحان شعبية لاتسمع إلا فى حوارى إسكندرية .راح يفحص الشرائط: «فوق الشوك.. آه.. عبد الحليم.. أهواك!.. صافينى مرة!.. ذكريات الأغانى الأولى الجميلة.. ألست معى أن بداياته أكثر جمالا؟!..». وصلت السيارة إلى «محطة الرمل». كان يريد أن يسير فى شوارع «الأزاريطة» و «كامب شيزار». اقترح السائق أن يمر عليهما فى طريق العودة: «فكرة طيبة.. والآن.. نكمل المسيرة.. إلى عبق ذكريات المكان والوجوه والروائح.. إلى الأنفوشى، و(رأس التين).. ليتك تمر بى فى كل الشوارع والحارات. أريد أن أمشى فى الأزقة القديمة وأشم رائحة السردين المشوى تنبعث من البيوت.. مارأيك فى أن نتناول عشاءنا شواء فى محلات

الأرصفة؟!.. كنت أذكر بعض الأسماء المشهورة. سنجدها.. هيابنا..».. ثم أنزل زجاج النافذة قليلا، فلما تدفقت إلى وجهه خيوط المطر سارع برفعها عابثا كالأطفال.

عرف السائق أنه من مواليد إسكندرية. وأنه غادر مصر عام ١٩٥٦ وهو في العشرين. سأله عن البلد الذي هاجر إليه، وخمن معه إلى أن ابتسم - الراكب - ابتسامته عريضة وهو يقول في هدوء وبساطة «لكي لا تجهد نفسك..أنا إسرائيلي..».. في لحظة واحدة خاطفة استوعب السائق الأمر «وتحركت قدماه» وصرخت عجلات السيارة المتوقفة تنزلق على الأسفلت المبتل. دارت السيارة دورة، وكادت تصطدم - قبل أن تتوقف - بعمود إنارة بعد أن صعدت مقدمتها الرصيف الوسط بطريق الكورنيش.

كان الراكب يتساءل مذعورا، وكان السائق يفتح الباب بجانبه ويسرع - في المطر - إلى الباب الآخر ليفتحه صامتا مكفهر الملامح مشيرا للراكب أن يخرج.

ارتفع صوت الراكب مستنكرا ومحتجا. ابتل شعر السائق ووجهه وملابسه بالأمطار الغزيرة. كان يرتعش كمحموم، وكانت عيناه تبرقان بحدة. امتدت يده وقبضت على كتف الراكب تشده، وكان يأمره بصوت صارخ رافض: انزل!»

هل يقابل الحنين بهذا الجفاء وتلك القسوة؟.. إن الراكب رقيق.. رقيق الحاشية . وحديثه يجعل أي قلب يميل إليه ويتعاطف معه.. الحنين الذي جرفه وهو في أواخر العمر إلى مسقط رأسه، ومرتع صباه، وشاطئ شبابه الآمن:« كان يلتفت إلى الأضواء والمباني وعلامات الطريق. كان صمته غريبا على الجو الذي خلقه في السيارة منذحل بها. نظر السائق إليه. كان شاردا. وملامح وجهه تشي بأفكار محزنة. حسب أن السبب صوت عبد الحليم الشجي، وكلمات الأغنية الرقيقة المعاتبة في حزن..»..

لماذا كل هذا الجفاء وذلك الانفعال إذن، ونحن شعب اعتدنا الحفاوة بالغرباء، فما بالنا بالأصلاء، سواء أكانوا من المواطنين أوالمستوطنين. هل الذي يقف حائلا بينهما هو تجربة الحرب التي مربها السائق، وموت أمه حزنا عليه أثناء أسره؟ لقد اتفقا على أن الحرب عمل غير صالح. قال الراكب الذي لم يكن قد أفصح عن هويته: « الحروب تدمر كل شيء.. السلام نعمة كبيرة». وأمن السائق على قوله قائلا:«لا أحد يحب الحرب». عبارات قصيرة مكثفة مثل طلقات همنجواي.

لاشك أن لهذه التجربة المريرة دخل في موقف السائق. بيد أن الأكثر والأشد تأثيرا، ليس تجربة الأسر الفردية، وليست المعارك الضارية التي يخوضها الفرد ضد عدو غير إنساني.. وإنما التجارب الفردية بعد انصهارها في البوتقة الجماعية، وتشكيلها الوجدان الجماعي. من الممكن أن يتسامح الفرد مع معذبيه، ويغفر لأعدائه، لكنه لايمكن أن يتسامح.. أو يتساهل مع أعداء أمته، ومالحقها على أيديهم من غدر وفتك. والأمة - ذاتها - قد تتسامح مع عدو لها إذا خلد إلى الراحة أو آثر السلام.. لكنها لايمكن أن تتسامح مع عدو يعتبر غيره من الشعوب - في الحرب أو في السلم - مجموعات من السوائم تستحق الذبح والإبادة.



• نعيم تكلا

قد يبدو شخص القصة بلا ذنب أو جريرة، وقد يكون مخلصا في دعوته لنبذ الحرب كيهود **نعيم تكلا** ومن بينهم «البروفيسور ساسون سوميخ العراقي الأصل اليساري النزعة المناصر للحقوق الفلسطينية وللسلام الشامل مع العرب». لكن نعيم تكلا نفسه اكتشف أن القضية أكثر تعقيداً امن أن تتحملها النوايا الحسنة: «نوايا حسنة صادقة لايمكن أن يلومني عليها أحد حتى ولو كانت تتضمن أخطاء غير مقصودة اكتشفت تورطي فيها فيما بعد، اكتشفت أنني كنت غافلا عن كثير من تعقيدات الصراع العربي الإسرائيلي التي لا يمكن أن تزول آثارها سريعا». ولذا فإن تخرصات مثل تخرصات عبد العظيم رمضان من الممكن دحضها بسهولة. فإذا قال إن الشعب الإسرائيلي عبر عن رغبته في السلام بما لايدع مجالا للشك عندما طرد حكومة الليكود وأتى بحكومة العمل» (الأهرام - ١٦ أبريل ١٩٩٤) فإن إدوار سعيد سيقول له - أو غيره - إن عدد الضحايا الفلسطينيين - خاصة الأطفال - في الأشهر الأولى من حكم حزب العمل كان أكبر من عددهم في ظل أي حكومة من حكومات حزب الليكود (الأهرام ويكلي ٢٦ يناير ١٩٩٤).

ويأتي موقف السائق هذا رغم أنه كان في أمس الحاجة إلى مكافأة الراكب. غير أن الحاجة لا تجعل المرء يلغي ضميره، أو يغير جلده. وهذا موقف متفق عليه. ثمة قصة قصيرة جدا بعنوان:«اتفاق» للقاص السوهاجي محمد عبد المطلب تؤكد المعنيين السابقين. فشخوصها من الفقراء غير المحاربين

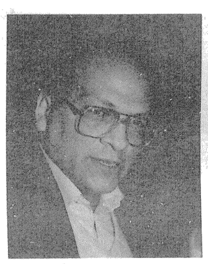
الذين يتحركون بالضمير الجمعى إلى الرفض القاطع. والقصة رغم دلالتها الثرية غاية فى الوضوح بحيث لاتحتاج إلى تعقيب، ويمكن استضافتها كاملة: «كنت بالمقهى. فى مدخلها شاب أجنبى شعره يسقط على كتفيه وأنفه معقوف وملفت للنظر. تساءلت أين رأيت هذه الملامح من قبل؟؟ أثارت انتباهى محاولته فى التفاهم مع الجرسون وهو لايتكلم لغة أجنبية معروفة. ومضت الإجابة فى ذهنى كالبرق. فمثل هذه الملامح رأيتها فى سنوات سابقة لكن فى بذلتها العسكرية فوجئت بأن الجرسون قد أهمله فارتفع صوته متحشرجا ومستدركا: تى..تى. لكنه صمت. وأشار إلى ماسح أحذية فى الركن البعيد من المقهى وعندما اقترب منه الرجل وأوشك على الانحناء على القدمين خرج صوت الجرسون غضوبا وكتوما: هذا كوهين.. يهودى.

اعتدلت قامة ماسح الأحذية بسرعة وتلقائية واكتست ملامحه بالازدراء. رددت بصرى بين الجرسون وماسح الأحذية واكتشفت أن ملامحى أيضا اكتست بسمات الازدراء نفسها.»(٦)

●●●

وينقلنا مجدى عبد النبى بقصته «الرحيل» إلى تجارب وقت السلم.. حتى قبل الولادة السفاح للكيان الصهيونى. والقصة تلتصق بالواقع التصاقا حميما. وهى تسعى إلى الإيحاء من خلاله. وتتحرك فى رقعة تمتد من قلعة «قايتباى» إلى «حارة اليهود». بيد أن كاتبها لايكتفى بتسجيل أسماء الشوارع أو الإشارة إلى المعالم كما يفعل بعضهم للتدليل على انتمائهم السكندرى. مجدى عبد النبى لا يسجل وإنما يعبر، لا يقرر وإنما يصور. ويعجن صوره بإحساسات شخص القصة ومشاعره وهو يؤم المناطق التى كان يؤمها أبوه. وأبوه كان صيادا، ولهذا فهو يتوقف عند «حلقة السمك» ثم يتجاوز «حى الأنفوشى» وينسحب من أمام «أبى العباس» ويلحظ القاذورات المكومة عند أول «وكالة الليمون» ثم يسلك أحد الشوارع الجانبية متجها إلى «حارة اليهود» ويتجاوز محل سمعان القديم بلافتته المتآكلة، ولا يلحظ «الرجل الأنيق وهو يلف سلسلة من الذهب حول إصبعه الممدودة أمام المحل». وسيكون لهذا الرجل شأن فى مسار القصة.

ركب أبوه البحر مع الرجال ولم يعد حتى الآن. وهو يعيش على أمل عودة أبيه. أحيانا يقذف النوارس العاوية بالحجارة لأنه سيعود، وأحيانا يستنطق البحر عله ينبئه بخبر الرجال. والرجل الأنيق صاحب السلسلة الذهبية بدأ يطارده. فهو يطرق بابه ويسأل ساخرا عن أبيه. إنه لايعرف من هو؟.. غير أنه لاينسى تعابير وجهه الصلف وحركة السلسلة الدائرية. وعند البحر يشعر أن أحدا يراقبه. وحين ينظر إلى الخلف يراه يرمقه بتحد، ويسأله مستهزئا عن ميعاد عودة أبيه. وكان لابد أن تتم المواجهة أو المكاشفة، ويعرف أن هذا الرجل هو إسحق بن سمعان «الرهناتى».



جمال الغيطانى

وكانت محلات التسليف على رهونات التى يحتكرها الأجانب، وخاصة اليهود، تنتشر فى أرجاء البلاد وتتركز فى الأحياء والأسواق الشعبية. وكان لها أثرها المدمر فى مسيرة الاقتصاد المصرى لفترة طويلة من تاريخنا الحديث. فأثرى الأجانب عن طريق الربا الفاحش، وخربت بيوت المصريين بالاستيلاء على عقاراتهم ومنقولاتهم فى ظل قوانين الامتيازات الأجنبية. وتنبه عبد الله النديم إلى هذا الخطر فى وقت مبكر، ونبه إليه بحواريته: «المرابى والفلاح». وتأثر كتاب القصة المعاصرة بهذه الحوارية. نذكر منهم محمد رويش فى أول قصة تنشر له بعنوان: «فرح سلامة». وأرادت وزارة الأوقاف أن تحارب هذه الظاهرة فأنشات مايسمى «إدارة القرض الحسن» وكانت تقبل الإقراض على رهونات. وعمل نجيب محفوظ بهذه الإدارة فى فترة مبكرة من حياته الوظيفية. ولك أن تتخيله وهو يستقبل النسوة اللاتى يعرضن مصوغاتهن أو أوانى بيوتهن، والمخلوقات التى كانت رجالا وهى تعرض ماتبقى فى أيديها. ولك أن تتخيله وهو يقرأ على وجه كل كائن بشرى قصة. ولعل هذه المآسى هى التى أثرت أعماله بتلك النماذج الشعبية التى لاتنسى، إلى جانب مؤثرات أخرى معروفة وتقوم البنوك الآن بهذا الدور. ومازلنا نذكر ما قرأناه عن تواطؤ بعض الموظفين مع بعض أثرياء المصادفة، وكيف قدرت رهوناتهم بأعلى من قيمتها، وتمكنوا من الهرب إلى الخارج بما غنموه من البنوك الحكومية، وكأن خراب الاقتصاد المصرى رهين بهذه الرهونات سواء عن طريق الأجانب المستغلين أو المواطنين المنحرفين.

يقدم عبد النبى صورة من هذا الخراب، مشيرا إلى ماسوف ينتهى إليه حالنا لو تركنا الثعابين تسعى فسادا فى دورنا من جديد: «كانت القوارب ترفض

فوق الشاطيء. الرجال يفردون الشباك. يرقصون فى حلقات (...) وبعد لحظات كان سمعان قادما من بعيد. انقبض قلب الرجل. انهزمت التراتيل فى الحلوق. كان يحمل فى يده عدة أوراق وأختام. تسلم أبى إحداها. ابتسم لى. أخفى دمعة اغتالت بقايا البسمة. سار نحو القلعة. جلست على أحد المدافع. مسح الوجه المكدود. أشار على أحد المداخل:

من هنا دخل جيش بونابرته، وسقط البطل الشجاع،.وكأنه بهذه العبارة الأخيرة يشير إلى بدء المحنة الحديثة بعد الاجتياح الأجنبى لأراضينا.

وهاهو إسحق بن سمعان الذى رحل مع أبيه صغيرا يعود إلى الأراضى المصرية شامتا. ويذكّرشخص القصة بفرح المواطنين عند رحيل الأجانب وكأنه يتوعده. وفى النهاية تراود شخص القصة أمنية رحيل إسحق كما رحل سمعان. ويختلط رحيل والد شخص القصة.. برحيل والد إسحق.. برحيل إسحق.. لكن ضحكات الأخير تغتال الأمنية.

مجدى عبد النبى يرتفع فوق الواقع دون أن يتجاوز طبيعته. فهو يرسم سلوكا، ويبدع شخصيات، ويقيم علاقات ترتبط ارتباطا وثيقا بالواقع. ولهذا لم يختل التوازن بينه وبين ما يرمز إليه، رغم أن لكل موقف فى القصة دلالته.. حتى العبارات والأسماء. فوالد شخص القصه اسمه «مجاهد».. غير أن «المجاهد» انكسر: «من بعيد تطفو على السطح تقترب ببطء شديد نحو الشاطئ. تتمهل فى حزن عميق. التقط قطعة الخشب من الماء، قرأ الحروف (مجـ...) الحروف الأخرى انكسرت مع نهاية القطعة الخشبية».

وشخص القصه اسمه «سلامة».. غير أنه يرفض السلامة المدانة: «اتجه صوب المحلات. كان الرجال يخرجون محتوياتها. ينشرونها على الرصيف.رائحة الأسماك تعفنت. كان يقف كالطود ويبتسم بزهو بالغ. يحطمنى بنظراته. السلسلة الذهبية تضوى مع الحركة الدائرية. يعوق خطواتى». ولايخفى ما ترمز إليه السلسلة التى تعوق خطوات شخص القصة. فهى قيد وإن صنعت من ذهب براق، كما أن حركتها كما لو كانت تعيد الزمن إلى الوراء. والقلعة القديمة التى كانت حصنا حصينا أصبحت مزارا سياحيا. ولم تعد مدافعها الصدئة تستعمل إلافى الجلوس عليها.

●●●

عاد مجدى عبد النبى بقصته: «الرحيل» إلى تجاربنا القديمة مع الصهاينة ـ عندما كانوا يعيشون بين ظهرانينا ـ لينذر وقومه إذا ما قرروا إعادة الكرة. أما الدكتورة حورية البدرى فلم تكتف بالنقلة الزمانية، وانتقلت بنا نقلة أخرى مكانية فى قصتها. «راشيل»(٧) لتنذر قومها ـ كذلك ـ كى لا تعيد الكرة. فما فعله الصهاينة مع الشعب الألمانى سوف يفعلوه مع الشعب المصرى. فالمبدأ واحد: الكراهية المتأصلة ـ عرقيا ودينيا ـ لكافة شعوب العالم، والسعى ـ من هذا المنطلق ـ لتدمير العالم وجعله مطية ذلول لهم. وسبق أن ذكرنا قصة التعويضات



إدوارد سعيد

الألمانية لإسرائيل، ومطالبة مناحيم بيجن أنصاره فى مشهد مسرحى أن يقسموا: «إن كنت أنسى ـ فى يوم من الأيام ـ فناء اليهود على «هتلر» فلتتيبس يدى اليمنى».

ولم يخف على الدكتورة البدرى دور إسرائيل فى جلب المواد المخدرة منذ بداية الانفتاح لنهب الأموال الانفتاحية السهلة، وتدمير النفس البشرية الغافلة. يقول الزوج الألمانى: «إنها لم تترك لى شيئا. استنزفتك تماما. حتى الحيلة لم تعد تملكها. بل إنك لاتملك مجرد التفكير المنتظم. أسلمتك راشيل للحقن. وأوصتها عليك فى غيابها. والحقن تؤدى واجبها بأمانة. لكنها ـ ورغم كل شراستها ـ أرحم منك ياراشيل». وهاهى فى طريقها إلى اقتناص المصرى لتستمتع بإذلاله: «يؤمن بأنك إنسانة يمد لك يديه وفكره وتسامحه. تنسجين حولها خيوطك الرقيقة الحريرية. وحين يقع داخل بيتك. فريسة لا حول لها ولا قوة، ستغمدين خناجرك فى كل جزء من جسده وفكره ومشاعره. وستفلحين ياراشيل. فبعض الذى تحملته أنا لايستطيع المصرى مجرد تصوره. خياناتك المتكررة الفاضحة. لن تُخفيها عنه. بل ستحرصين على أن يعرفها أو يكون أول من يعرفها. ستحرصين على أن يشاركك متعتك كما تقولين لى. يشاركك!..».

والخيانة الزوجية ـ هنا ـ رمز لكل الخيانات المتصورة. كما نستطيع أن نقول إن «الإنجاب» من الفتاة الصهيونية رمز لنتيجة التطبيع. وإذا كان النسل ـ طبقا للديانة اليهودية ـ ينسب إلى الأم، فقد خضع فى هذه القصة للأم، وشارك فى إذلال الأب، حتى تمنى أن يبعد عن ابنته أيضا: «ابحث عن بداية. أى بداية بعيدة عنك. وحتى عن سارة ابنتى هذه التى نصفها إنسان والآخر عنكبوتى مثلك». وهذا ما تسعى إليه إسرائيل صراحة: تهويد المنطقة كلها بجعلها تدور فى فلكها، لتستخدمها فى أغراضها.

وحورية البدرى كاتبة متعددة المواهب، فهى تكتب شعر العامية والفصحى، ولها ديوان بالعامية: «أيام فى حضن الليل» ومجموعتان من قصار القصص: «أخرجنى من عينيك» «احتراق قوس قزح» وراشيل فتاة عنكبوتية تلف خيوطها على صيدها فلا يستطيع فكاكا: نقرأ فى مفتتح القصة: «رفع ميللر رأسه قليلا. نظر أمامه. أزاح الشعر المنسدل عن عينيه. لا يوجد أمامه شىء. عاود الانكفاء. آلمه ظهره. مد جسده ومال بالكرسى للخلف. تمطى. فرك رأسه المكدود. يريد أن يفيق لكنه يخشى من سياط أفكاره. الصور تتوالى أمام عينيه. وخياله لايرحم. راشيل. يتمنى لو ينتقم. لكنه لن يفعل. بل لن يستطيع. لايدرى لماذا تخدعه.. قد يكون لخداعها الآن سبب كأى امرأة مخادعة. لكن لماذا كانت الخديعة الأولى؟ لماذا أوهمته بالحب؟ أغرقته بسراب حبها. نسجت حوله خيوطها برقة وعذوبة. لم يشعر إلا وهو داخل بيت العنكبوت. ليس حرا فى حركته. الخيوط تلتف حول كل جزء منه. يحاول الخلاص، لكنه لا يملك سوى الاهتزاز قليلا والنظر إليها ثم يعاود السكون. ينظر إليها. يلقى عليها فى نظرته كراهية كل السنوات السابقة واحتقاره لها.. يذكر أنه كان يضحك فى وقت ما. لكنه الآن كف عن الضحك. كف عن كل شىء. شلت راشيل حركاته حتى البسيطة منها. حتى مجرد انفراج شفتيه عن ابتسامة.. هذه المرأة العنكبوتية لماذا اختارته هو بالتحديد.. إنه إنسان. وفى البداية رأى فيها صورة الإنسان.. رأى حبها له. أوما أوهمته أنه حبها. إنسانة مثله. لا يعيبها كونها يهودية..».

بيد أنها لم تكن مجرد يهودية. كانت صهيونية تحركها الأحقاد التى مالبثت أن أشارت إليها. فى البداية جاءت إشارتها عابرة «لزمن اليهود والكلاب». لمح ظل ابتسامة على شفتيها فظنها ابتسامة «تسامح» بيد أنها كانت ابتسامة «ظفر». وبعد أن أحكمت خيوطها ذكرته «بالأفران». كانت نظرتها غريبة مخيفة، فشعر - لأول مرة - بالخوف منها. أراد الخروج من المأزق. اكتشف أنه مشلول تماما داخل بيت العنكبوت. لم تشفع له ابنته الصغيرة. فى كثير من الأحيان يرى فيها صورة مصغرة لأمها. بل ويراها تعاون أمها فى إذلاله «عندما يكبر ستزج به فى الأفران المختلفة مثل أمها». وأسلحة الصهيونية فى هذه القصة تبدأ بالمدخل الإنسانى الذى يخفى الوجه القبيح للأحقاد العنصرية. وهذا هو ما يجعلنا لانثق بالكلمة، ولا بالعاطفة مادامت تتعارض مع تجاربنا التى خضناها مع عدو غير إنسانى كما سبق أن أوضحنا عند تعرضنا لقصة: «انزل».

وتنتقل الكاتبة الحصيفة نقلة أخرى إلى هدفها، وذلك بتصوير ما يدبره الصهانية لتدمير العالم بأسره ممثلا فى دولتين كان للصهانية احتكاك مباشر بهما. ألمانيا ومصر. والكاتبة بهذا التوجه الثانى تقوم - فى الوقت نفسه - بدور النذير لقومها. تترك راشيل زوجها الألمانى ينعى خطه وتتوجه إلى القاهرة. وتبدأ النقلة بأنباء قرب عودتها من القاهرة بعد إلغاء احتفالات المعبد بقيام الدولة: «من ألغاها طعن راشيل فى صميم انتقامها.. جاءت لتنتقم. تبث خيوطها. تحيط المصريين تغرقهم فى حبها ومودتها وضحكاتها. تغرقهم فى إنسانيتها التى أعرفها جيدا. ثم ماذا ستفعل بهم؟ لها ألف طريقة وطريقة للانتقام. لا ريب أن بعض المصريين سيفهمونها. لا يهمها ذلك. ثمة من لا يفهمون. من سيعتبرونها إنسانة سوية. فيسهل عليها نصب الشباك لهم. إنها تستعد للمواجهة. وستفعل فى المصرى مثلما فعلت فى الألمانى. والألمانى لا يخفى فرحته لاهتمامها باستقبال الضيف الجديد. فإن ذلك يعنى خلاصه. محطما نعم.. لكنه الخلاص.. والبحث عن بداية جديدة: «رغم إشفاقى عليه، فكل ماأريده هو خلاصى. ستمنحيننى الخلاص بمجرد استسلامه لك. وسأهرب. سأنطلق مبتعدا، وقد أتحرر من الحقن اللعينة أيضا. أبحث عن بداية. أى بداية بعيدة عنك..» فهم ذلك حين قالت: «من الأفضل أن نسمى ابنتنا اسما آخر غير سارة، فالمصريون يحبون هذا الاسم».. أدرك أنها قررت الإنجاب من مصرى. البديل فى مصر. والانتقام مستمر..

•••

اعتاد الكرام الكاتبون الافتئات على رموز نجيب محفوظ. فى رواية: «السمان والخريف» جلس «عيسى الدباغ» على أريكة تحت تمثال سعد زغلول، واختفى «الشاب» متجها نحو شارع صفية زغلول، فكثرت الأعمال التى استضافت هذا الرمز. وغير ذلك كثير مثل استناد شخص قصة: «الحاوى خطف الطبق» إلى «جدار أثرى كان يوما ما مبنى لبيت المال وقصرا للقاضى». وعند مراجعتنا للعدد السادس والثلاثين من مجلة: «نادى القصة» السكندرية، ذهبنا إلى أن أحمد محمد حميدة يشترك مع محمد حافظ رجب فى الاستعانة برمز سعد زغلول(8).

يفتتح حميدة قصته بقوله: «ميدان سعد يموج بحشود البشر، فوق الأرصفة والبوتيكات ومداخل البيوت ومتاجر الثياب.. ناس، وجوههم جيرية.. ألمحهم، يحتلون بصرى، وآخرون مألوفو الملامح، كانوا بمستوى عينى..». وفى السياق: «احتبست بالصدر صرخة.. أود لو أطلقها وسط حشود البشر بميدان سعد..». لكننا. والحق يقال - تقبلنا رمز «ميدان سعد

زغلول»عند حميدة دون شعور بالتقليد، لأنه كان جزءا مهما من المكان الذى ارتاده شخص القصة. ويمثل «سرة» البلد، أو «وسط» المدينة. ومن ثم فهو مكان تجمع مهم للغرباء والمواطنين على السواء فى كل يوم. وكان هو - وشارع النبى دانيال - العلامتين البارزتين من حيث المكان. وجاءت إيماءاتهما بطريقة عفوية لا افتعال فيها، بعكس ما حدث مع قصة حافظ رجب: «أشجار اللحم تطرح عظما». فقد دخل محمود درويش دكان الحلاق الأحدب فرأى«سعد زغلول فى إطاره فوق كرسى الحلاقة» وهو تقليد مفضوح غير مبرر. ويصل الأمر إلى حد التسطيح حينما يقول:«سعد زغلول يطل عليه من الشرفة قال مفيش فايدة». فهى عبارة شعبية مستهلكة لم يحسن استخدامها فى مكانها، فكأنه يسرد محفوظاته من المأثورات الشعبية بالمناسبة.

ولا يسلم أحمد محمد حميدة من استعمال الرموز المستهلكة، ممثلة هنا فى «الكتاب» الذى يحمله الراوى أثناء سيره مع صديقه من ميدان سعد زغلول إلى شارع النبى دانيال. وقد انزلق الكتاب فى النهاية من تحت إبطه فركله ركلة دفعت به إلى منتصف الشارع «حيث العربات والمارة». وفى السياق، كان الراوى يتصفح الكتاب أثناء السير. وكان صديقه يحمل كتبا، فمديده وأغلق كتاب الراوى فلا فائدة: «وضعت الكتاب تحت إبطى.. ثقافتنا بين نعم ولا.. حكايات الزمن الفائت عن الفن والأدب.. أمنيات التغير... رسائل كتبت منذ العهد المبهر، حتى بدايات العهد الداعر.. رجال ماتوا فكريا، وجسديا، وآخرون استنزفت دماءهم العقائد والقيم. و«أذيال» صاروا سلعا تباع وتشترى فى أسواق النخاسة..». ولا ندرى ماذا يقصد بعبارة: «ثقافتنا بين نعم ولا»؟.. هل يقصد كتاب غالى شكرى الذى يحمل هذا العنوان؟.. وهل هذا الكتاب تناول الأمور السابق ذكرها؟.. لا أعتقد.. وإن كان هذا مقصده فقد خاب سعيه..

ويبدو أن أحمد محمد حميدة من المؤسسين لمجلة: «نادى القصة»، فقد أصدرت له مطبوعاتها خمسة أعمال: ثلاث مجموعات قصصية هى: «الهجمة إلى الأرض».. «القيظ والعنفوان».. «التائهون» وروايتين هما: «حراس الليل» «الفجر». كما كانت مجموعته: «شوارع تنام من العاشرة» أولى إصدارات سلسلة: «إشراقات أدبية». وقد نشر قصته التى نتناولها بالدراسة مرتين: الأولى فى «نادى القصة» بعنوان: «السفح والقمة» والثانية فى «القصة» بعنوان: «التغلغل». وحاول تفسير ثنائية العنوان الأول بعبارة مبهمة حينما قال الراوى: «الأعماقُ لنا والسطوح.. السفح والقمة». ونحن نميل إلى العنوان الثانى لتغلغل«الوجوه الجيرية» داخل الراوى - إذ إنها أخذت تتكاثر أمام عينيه - وهما لاحقيقة - وتروح وتجىء وتدور حوله حتى ارتقت عيناه غضبا «كغمامة تثاقلت فوق محجرى العينين المفنجلتين ليطبعوهما بالدهشة والغرابة، وكانوا يتسكعون بثقة زائدة وصلف بالغ. ويسيرون بلا مرشد لأنهم يعرفون الدروب والمسالك تماما كما يعرفها إسحق ابن سمعان فى قصة: «الرحيل» لمجدى عبد النبى. يذكر الراوى أنه شاهدهم فى السنترال ومحطة السكة الحديد وبعض دور الصحف. وحاول الهرب منهم إلى أعماق المدينة، لكنهم كانوا يتغلغلون ويكبرون حتى شعر بالضياع فى مدينته: «أين إذن تكون مدينتى؟».

والقصة - كما نرى - كابوسية تحيط بلحظة حياتية إحاطة محكمة. ومن أجل هذا لم يكن هناك مايدعو للحديث عن تفاصيل وجزئيات أحاطت بها النظرة الشاملة، مثل منحة نصف الشهر، وارتفاع أسعار شنط المدارس والمرايل والأحذية فهذه التفاصيل ثرثرات لاتثرى المعنى الكلى الذى وصل إليه الكاتب من عدة زوايا وخاصة عند حديثه عن مألوفى الملامح الذين يواصلون رحلة التفرج البطىءعلى الفتارين: «أبدان تموج، مخلوعة القلوب، تخطف أعينهم ألوان الأردية والأحذية وإعلانات دور العرض السينمائى. وكأن بيوت المدينة الرحبة قد ضاقت بسكانها، فلفظتهم كتلا مكبوتة، متعبة الرءوس، إلى الشوارع، لترقع هنا. ليرفعوا الأعين الحسيرة فوق زجاج الفتارين الزلق، حيث تزلق أرقام المعروضات النظر، يرتعد، فتسقط العيون فوق دهاليز النيون، مكسورة الخاطر، ومألوفة الملامح يواصلون رحلة التفرج البطىء، وترويح النفس بالتسكع تحت أضواء النيون الباهرة..».

كذلك فقد قدم صورة معبرة للجندى المهان أمام المعبد اليهودى: «تقدم جندى الحراسة اقترب بزيه الأبيض، ترك باب المعبد المغلق ودنا من دائرتهم.. تجلت ابتسامة الرضا الودود، ريفية المنبع، فوق وجهه المشرب بحمرة الخجل. توقف بصمت المنتظر لسؤاله، كانوا فى لهو عن تواجده المفاجئ.. نظر أحدهم إليه، ثم تابع الحديث والتطلع إلى قبة المعبد القديم والنجمة السداسية.. تنحنح الجندى لتتجلى لهم قدرته على التواجد (...) يد الجندى ترتفع ببطء، ويد أحد الرجال تمتد ببعض النقود الفكة، توضع فى يد ذى الزى الكالح لينسحب ببطء.

هل تعود يد المستغل الأجنبى هى العليا ويد المواطن المستقل هى السفلى؟!!

●●●

ونعيش مع معصوم مرزوق فى قصته: «رباعيات رجل فقد الهوية» كابوسا مقيتا منذ البداية والقصة تتألف من أربعة مقاطع. فهى «رباعية» وليست

«رباعيات» في المقطع الأول نشاهد «الكاعب الحسناء» على الأسفلت. ربما كانت «مدهونة على الأسفلت» ـ كما ورد بالنص ـ وربما كانت «مدهوسة» والمعنى هنا واحد حتى لو كانت «مدهونة» تصحيحا غير مقصود. و «الطريق يمتد. يمتد.. يمتد..» ويتكرر الفعل «يمتد» ثلاثا في ثلاث فقرات، نشعر معها بالسأم والضيق ولا نجد وسيلة للخلاص. السياج السلكي الشائك على يسار فاقد الهوية لا ثغرة فيه. وأحجار الليل لا تتزحزح. والبحر يتنهد. والزمن يتجمد. والنجوم نصال مشرعة.ودماء الفتاة ترسم خارطة خضراء على الأسفلت الأسود. وفاقد الهوية يسير «وكأن الطريق متوقف» لكنه يمتد.. يمتد.. يمتد..» ويتكور الأسفلت، ويقترب من شخص القصة، فيتدحرج نهدا الفتاة تجاه البحر، ويحاول اللحاق بهما، فيستوقفه مخنث يراوده عن نفسه بعبارة صريحة. وهنا.. يضيف الكاتب التقزز إلى السأم والملل والضيق ويشتبك نهدا الفتاة بالسور السلكي «وأمواج البحر تقفز في رعونة تريدهما». ومطاردة المخنث مازالت مستمرة، رغم اختصار شخص القصة لانحطاطه.. والفتاة تستصرخه» .. واقع مرير يحاصر شخص القصة ولا من نصير يناصره.

في المقطع الثاني يزورون تاريخه: «أحاطوني بأفواههم يقذفون البصاق، تهاويت وإن ظللت واقفا، جلسوا فارتفعت تحتهم المقاعد. نبتت في أفواههم السجائر الضخمة، قفزت من عيونهم الزرقاء السياط، لما استنزفوني جيئ بنائبهم فأعلن قائمة من أسماء اللصوص، العهرة، القوادين، قال أحدهم وهو يخفي ضحكته إنهم أجدادي». وفي الثالث يضل الاتجاه الصحيح: «كنت أعبر وحدي، أجدف بذراعي المقطوعتين على حافتي خوذتي الصلبة، أصارع الموج الذي صعر لي خديه وهو يدفع الشاطئ بعيدا.. بعيدا.». ثم يعرف متأخرا أنه جدف عكس الاتجاه.

وتأتي النهاية المرعبة لكل هذه التخبطات في المقطع الأخير: «أكبر لوحة تعلو أكبر بناية في أكبر شارع داخل أكبر مدينة، كتب عليها بخط عريض (شالوم)، مرسومة حولها غربان محومة في مناقيرها أجساد لأناس رافقوني في الطريق الطويل(..) التصقت الكلمة على مياه المجاري الآسنة التي انسابت عبر المواسير المتآكلة، صبت من كل الصنابير، شربها الناس والأبقار والحمير والأشجار والزهور، فأطلقت الألسنة، لم تعد تنطق إلا (شالوم)، والنجمة ذات الأبواز الستة رقصت بين نهود نساء المدينة ليرضعها أطفالنا، ويبولوا بها فوق رفات قديمة ـ رفات من شطبوا من القاموس شالوم..»..

وعندما يعود إلى حجرته، يجد فوق فراشه خنزيرا «عصب إحدى عينيه بعصابة سوداء مستديرة». طالبه بالخروج فكشر عن أنيابه واندفع نحوه بوحشية، واغتصبه: «خرجت إلى الشارع أعدو مذعورا، وجدت فوق كل ظهور الرجال خنازير تغت. صبهم فأقعيت على ظهري أقهقه.. أقهه.. أقه.. كان تقطيع فعل تغت.. صبهم من هول المفاجأة. أما القهقهة فلاشك أنها قهقهة الذل والقهر، التي لاتقوم بعدها للإنسان قائمة. ربما من أجل هذا لم يكمل شخص القصة فعلها في خاتمتها.. وربما للخزي والعار.■

الهوامش

(١) الأهرام، ٢٢ ابريل ١٩٩٤.

(٢) القاهرة، يونيو ١٩٩٣.

(٣) أخبار الأدب، ١٥ أغسطس ١٩٩٣.

(٤) أخبار الأدب، ٢٩ أغسطس ١٩٩٣.

(٥) رجب سعد السيد، الأشرعة الرمادية، كتاب المواهب، ١٩٨٦.

(٦) الموقف الأدبي، العدد ٨٣، مارس ١٩٨٧.

(٧) حورية البدري، احتراق قوس قزح، مديرية الثقافة بالإسكندرية، يونيو ١٩٨٨.

(٨) القاهرة، أغسطس ١٩٩٣.

(٩) القصة، إبريل ١٩٨٨.

رسالة

السيد الأستاذ رئيس تحرير مجلة القاهرة

تحية من عند الله طيبة مباركة وبعد

فقد استمتعت بقراءة مجلتكم، عدد إبريل ١٩٩٤ رقم ١٣٧ ولفت نظرى أخطاء معينة فى مقال القرآن والإنجيل، إذ وردت آية من سورة البقرة على النحو الآتى: لقد آتينا موسى الكتاب وقفّينا من بعده بالرسل وآتينا عيسى ابن مريم البيان... إلخ. [آية ٨٧البقرة]

وإذا رسُمتْ الآية بالرسم العثمانى للمصحف تكتب آتينا هكذا ءاتينا - أى ألف همزة بعدها ألف. وإذا كتبت بالرسم الحديث كتبت هكذا آتينا أى ألف عليها علامة المدّ ولا تكتب مطلقا أتينا لأن هذا يغير المعنى كما يغيره كتابة كلمة البيان بدلا من البينات.

ووردت أيضا فى نفس الصفحة (٢٣) العمود الثالث آية وكأين من نبى قتل معه ربيون كثير [١٤٦ آل عمران] وواضح أن الكاتبة توخت فيها الرسم العثمانى للمصحف، ولكن الرسم كما ورد فى المقال ناقص وينبغى أن ترسم علامة الألف بين القاف والتاء هكذا قٰتل، وتقرأ قاتل.

كما لفت نظرى غياب علامات الترقيم كلها من الآيات القرآنية وللمصحف الشريف علامات ترقيم خاصة لا تخفى على من يقرأ فيه ورجائى الدقة الكاملة فى كتابة آيات القرآن الكريم، وتتبع أى من طريقتى الهجاء والرسم، العثمانى الخاص بالمصحف الشريف أو الرسم الحديث. شرط أن يكون ذلك صحيحا، حتى لا تلتبس على القارئ المعانى المقصودة.

وفقنا الله وإياكم إلى ما فيه خير العلم والوطن

والسلام عليكم ورحمة وبركاته

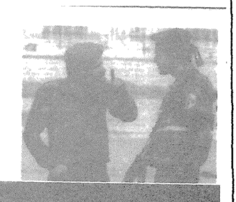
٢٥ / ٤ / ١٩٩٤

المخلص

الدكتور محمد السيد غلاب

أستاذ الجغرافيا بمعهد البحوث والدراسات الأفريقية

جامعة القاهرة



إشاعة الوهم .. نجيب محفوظ في الدراسات الإسرائيلية

عرفة عبده على

في يحاول الباحثون الإسرائيليون إيجاد نقاط التقاء بين الأدبين العربى والعبرى.. أو بالتحديد صياغة «معاهدة سلام» بين الأدبين..! وبالرغم من اعتراف بعضهم بأن نقاط التقاء الشعبين العربى والإسرائيلى وأدبيهما: لا تبشر بأى تقارب أو تفاهم متبادل فى المستقبل القريب !.. إلا أن مفكرى الكيان الصهيونى يحلمون : أن يخلق الصراع فى المنطقة «جيلا جديدا »يعانى مما يسمونه ازدواجية الهوية «يكتب لغة أدبية خاصة هى نتاج "المزج الحقيقى بين الثقافتين العربية والعبرية»..!

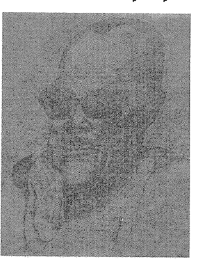
وإذا كانت «التقارير» الأدبية الإسرائيلية الرسمية الخاضعة ، لـ «التوظيف السياسى» تزعم أنها تهدف إلى: «إجراء تعارف بين القارئ الإسرائيلى والأدب العربى».. إلا أنها فى - حقيقة الأمر- تسعى إلى تشكيل موقف القارئ الإسرائيلى إزاء العالم العربى وثقافته، بما يعمق الأفكار النمطية المسبقة المعادية للعرب، وإشاعة «الوهم» لدى القارىء الإسرائيلى بأن الأدب العربى- المصرى خاصة - بعيد عن تناول قضايا المواجهة العربية مع الكيان الصهيونى!.. كما أشار يوسف جفعونى فى مقدمة كتابه: «مكان على الأرض» الصادر عن منشورات معهد «ڤان لير» للأبحاث فى القدس، بالاشتراك مع قسم مناهج التدريس بوزارة التعليم الإسرائيلية، والذى يضم مختارات من القصة العربية المعاصرة، فيقول: «.. عمليًا تحتل المواجهة مع إسرائيل، لدى غالبية العرب

فى الأقطار المجاورة، حيِّزا ضئيلا للغاية، فى تجربتهم الأدبية... ومع البداية المؤملة لمسيرة السلام، رأينا من الضرورى أن نوسع الكوّة التى انفتحت أمامنا إلى حياة جيراننا - إلى ذلك العالم الغريب لكن القريب جدا منا - لنطل عبرها على تجربتهم الأدبية» !

ولقد أسهمت الدراسات الأكاديمية الإسرائيلية فى التعرف على الأدب العربى الحديث والكلاسيكى، ومن أبرز أساتذة الجامعات الإسرائيلية المهتمين بالبحث فى الأدب العربى: مناحيم ملسون، ساسون سوميخ، بيامنتا، صيمح، موريه، شمعون بلاص.. ومنذ عشرات السنين والترجمات الأدبية تتوالى، وشيخ المترجمين الإسرائيليين من اللغة العربية إلى العبرية، هو: «مناحيم كبليوك» - (١٩٠٠ - ١٩٨٨) الذى قام بترجمة عديداً من الآثار الأدبية العربية، على مدار نصف قرن، أشهرها: كتاب «الأيام» لطه حسين، تل أبيب ١٩٣٢، ورائعة توفيق الحكيم «يوميات نائب فى الأرياف» تل أبيب ١٩٤٥، و«اللص والكلاب» لنجيب محفوظ، و«ملوك العرب» لأمين الريحانى..

وأديبنا العظيم «نجيب محفوظ» ذلك الصرح الشامخ الفريد فى تاريخنا الحديث، الذى خرج من قلب القاهرة.. من الجمالية والأزهر والحسين.. من بيت القاضى وقصر الشوق والسكرية وخان الخليلى وزقاق المدق.. ليقف بجوار عمالقة هذا الفن العالمى: من دستوفيسكى إلى بلزاك إلى تشارلز ديكنز، كانت روائعه - المصرية جداً لكنها متميزة بملامح إنسانية شاملة، قد حظيت باهتمام مبكر من الباحثين الإسرائيليين..

ففى عام ١٩٥٤، ترجمت قصته «فتوة العطوف»[1] إلى العبرية، ضمن مجموعة قصص مصرية مختارة بعنوان: «كفيفا مصريت - سلة مصرية» ترجمها: بادوخ موران وقدم لها د. إسحق شموش أستاذ الأدب العربى بالجامعة العبرية، أما أول رواية متكاملة تترجم إلى العبرية، فكانت «زقاق المدق» عام ١٩٦٩ (الطبعة العربية ١٩٤٧) ترجمها: إسحق شرايبر، وأعيد طبعها عدة مرات، عن دار «عام عوفيد» ضمن سلسلة «كتب الشعب».. خاصة وأن قراء العبرية قد انبهروا بلوحات نابضة بالحياة، وبالتفاعل بين شخصيات من صميم الشعب المصرى كالشيخ درويش وحميده وعباس الحلو - قاطنى الزقاق الفقير - وأحداث مصيرية شهدتها مصر خلال الحرب العالمية الثانية.



نجيب محفوظ

وفى عام ١٩٧٠، صدرت عن دار «سفريات بوعليم» رواية «اللص والكلاب» ترجمة: مناحيم كابليوك[2]، متضمنة خمس قصص قصيرة مختارة من مجموعتى: «دنيا الله» و«بيت سيئ السمعة».. (اللص والكلاب صدرت بمصر سنة ١٩٦١).. مرحلة ما بعد الثلاثية، والتى عبر عنها البروفيسور: ساسون سوميخ[3] - أستاذ الأدب العربى بجامعة تل أبيب - بقوله: «بشرت بالتحول المهم الذى طرأ على أدب نجيب محفوظ من الواقعية الاجتماعية إلى أساليب الرواية الحديثة.. باستبعاد المفاهيم التقليدية للواقعية، وخلق لغة جديدة بديلة، باستخدام التكنيك المعاصر المتمثل فى تيار الوعى والإيجاز وسرعة الإيقاع... وكان الروائى الكبير قد واجه حملة نقد ضارية انتهت بمصادرة «أولاد حارتنا».. ومن أجل وجهة النظر الداخلية هذه، قام محفوظ بتوظيف عناصر التصوف الإسلامى - ثيماتيكيًا وبنيوياً - فى طراز جديد، تجلى بشكل خاص فى قصة «زعبلاوى» التى/ تضمنتها مجموعة كابليوك».

وكان البروفيسور: مناحيم ملسون، قد نشر دراسة مهمة فى العام نفسه: ١٩٧٠، بعنوان: «نجيب محفوظ والبحث عن معنى»[4] بدأها بمقدمة عن نشأة نجيب محفوظ - أشهر كتاب مصر المعاصرين - ومؤلفاته من روايات وقصص قصيرة، وما تحول منها إلى أفلام سينمائية، ثم يتناول رواية «اللص والكلاب» ويصفها بأنها: رواية واقعية، تعبر عن معان رمزية مأساوية لوجود الإنسان وظروف

حياته، وقد استأثر هذا الموضوع باهتمام نجيب محفوظ فى إبداعاته التالية، متأثرا ببعض الكتاب الأوربيين، خاصة: كافكا، سارتر وكامو..! وتبرز هذه الرواية - بشكل مباشر - وعى وإحساس محفوظ بالوجود المأساوى للإنسان، وانشغال هذا الإنسان حثيثًا، للحصول على معنى لحياته!

وقد اهتم عدد من العلماء الإسرائيليين، بدراسة نجيب محفوظ وآثاره الأدبية، خاصة فى نهاية الثمانينيات، فقدموا رسائل متنوعة نالوا عنها درجتى الماجستير والدكتوراه، خصصت كلها أو جزء منها للروائى المصرى العالمى، هؤلاء الباحثون لم يقتصر جهدهم على البحث والنشر العلمى فحسب، وإنما قاموا بتقديم إبداعات محفوظ إلى «القاعدة الشعبية» سواء بالترجمة أو بالتحليل، فى المجلات الأدبية أو الصفحات الأدبية بالصحف اليومية، وكثيراً ما نشرت ترجمات لقصص قصيرة أو فصول من رواياته فى الصحافة الأدبية، قبل أن تنشر متكاملة فى مجلدات مستقلة.

ويشير البروفيسور ساسون سوميخ إلى أهم الترجمات وأوسعها تأثير فى أوساط القراء الإسرائيليين، وهى: ثلاثية نجيب محفوظ، رواية الأجيال التى يعتبرها النقاد أروع ما أنتجه الأديب الكبير، بل أهم أثر روائى فى الأدب العربى الحديث، ويضيف: «.. واللغة العبرية هى أكثر لغة فى العالم، تلقيا لمعظم أعمال نجيب محفوظ، ويكفى أنها أول لغة ترجمت إليها ثلاثية القاهرة بأكملها!»(٥)!

وقد صدرت الترجمة العبرية للثلاثية، ضمن سلسلة «روائع الأدب العالمى»، وتولى ترجمتها الأديب الإسرائيلى: سامى ميخائيل (ولد بالعراق سنة ١٩٢٦) وبلغ حجمها ٩٥٠ صفحة من القطع الكبير، عن دار «سفريات بوعليم - مكتبة العمال»، أهم دور النشر الإسرائيلية، وكان صدورها على النحو التالى:

- الجزء الأول: بين القصرين - القاهرة - ١٩٥٦، وفى العبرية صدرت بعنوان «بيت فى القاهرة»، سنة ١٩٨٢.

- الجزء الثانى: قصر الشوق - القاهرة - ١٩٥٧، وفى العبرية صدرت بعنوان «كمال»، سنة ١٩٨٤.

- الجزء الثالث: السكرية - القاهرة - ١٩٥٧، وصدرت فى العبرية بعنوان «الجيل الثالث»، سنة ١٩٨٦.

وقد حظى كل جزء من الثلاثية فور صدوره، باهتمام النقاد الإسرائيليين، فتناولوا بالنقد والتحليل شخصيات الرواية والحياة الاجتماعية والجذور الفكرية لها، وعناصر الفن الروائى واللغوى..

ويشير سوميخ إلى أن أبطال الرواية الرئيسيين: «السيد» ذلك الأب الفاسق المستبد، و «أمينة» الأم وربة المنزل المغلوبة على أمرها، و «كمال» الشاب ذو النزعة الغربية، و «خديجة»، و «عائشة» فتاتا الأسرة، وحشد من الشخصيات الرئيسية والثانوية قد «تركوا انطباعًا عميقًا فى عقول وخيال آلاف القراء الإسرائيليين».. ويضيف سوميخ بأن الثلاثية قد قوبلت بحماس من القراء والنقاد على السواء.. «فقد خصصت لكل صفحة من الرواية: دراسة أو مقال - على وجه التقريب - وأحيانا أكثر من مقال أو تعليق لهذه الصورة الحية، لتلك الشريحة المهمة من المجتمع القاهرى، فيما بين الحربين العالميتين»!


توفيق الحكيم

أيضًا من الروايات الشهيرة التى ترجمت إلى اللغة العبرية: «الشحاذ» القاهرة - ١٩٦٥؛ ترجمة: حانيتا براند، عن دار نشر «بابيروس» سنة ١٩٧٨. و«ثرثرة فوق النيل» القاهرة - ١٩٦٦؛ ترجمة: ميخال سيلع، عن دار نشر «كيتر» سنة ١٩٨٢. و «ميرامار» القاهرة - ١٩٦٧؛ ترجمة: إسحق شنيباوم؛ عن دار «تموز» سنة ١٩٨٣.

أما أهم الرسائل العلمية، التى تناولت أدب نجيب محفوظ، فهى: «**روايات نجيب محفوظ - تقييم**»، **نال عنها ساسون سوميخ، درجة الدكتوراه، من جامعة أكسفورد، بإشراف محمد مصطفى بدوى**، وهى أول رسالة فى دراسة أدب محفوظ، يتقدم بها باحث إسرائيلى..

وقد نشرت هذه الرسالة منقحة فى كتاب بعنوان: «الإيقاع المتغير: دراسة لروايات نجيب محفوظ»(٦) عن دار نشر «بريل» ١٩٧٣. وأطروحة الدكتوراه الثانية، كانت: «لى دين: الأعمال الأدبية لنجيب محفوظ» تقدم بها الباحث الإسرائيلى: ما تتياهو بيليد(٧)، إلى جامعة كاليفورنيا، بإشراف البروفيسور: ج. ڤون جرونباوم، عام ١٩٧٢، ونشرت فى كتاب عام ١٩٨٠، عن دار نشر «نيوبرنسويك» بالولايات المتحدة الأميركية..

كذلك كانت أطروحة محمود غنايم. أستاذ الأدب العربى بجامعة تل أبيب. والتى تقدم إلى الجامعة نفسها عام

١٩٨٩، بعنوان: «تطور أسلوب تيار الشعور في الأدب العربي الحديث» متضمنة فصلا كبيرا عن فن نجيب محفوظ.

وقد ارتكزت الدراسات الأدبية(٨) والفنية والاجتماعية الإسرائيلية، في خضم اهتمامها بأديبنا العالمي، على مناهج بحث حاولت الكشف عن أسلوبه الفني واللغوي، وإبراز الجوهر الفلسفي والخلفيات الاجتماعية والتاريخية والاتجاهات السياسية، وأهم الموثرات التي طرأت على أعماله الأدبية، وبحث مصادر الأصالة الفنية لدى نجيب محفوظ، وتأثير الأدب والفكر الأوروبي، والتراث الإسلامي..

وتجدر الإشارة، إلى اهتمام المسرح الإسرائيلي، بإبداعات أديبنا المصري، فقد ترجمت إلى العبرية مجموعته «تحت المظلة» إلى عدة مسرحيات من فصل واحد، قدمت على عدة مسارح سنة ١٩٦٩، كذلك عرضت رواية «ثرثرة فوق النيل» كاملة على مسرح حيفا سنة ١٩٨٢.

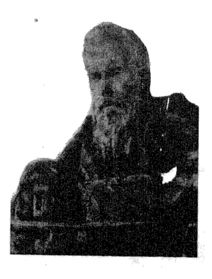
بعد هذا العرض لاهتمامات الباحثين الإسرائيليين، بأعمال نجيب محفوظ وترجمتها وأهم الدراسات النقدية التي تناولتها، أرى من الأهمية، الإشارة في إيجاز، إلى كيفية «استغلال وتوظيف» الآراء والمواقف السياسية لنجيب محفوظ، من جانب الإسرائيليين كعادتهم في البعد عن الموضوعية.. وتزييف التاريخ والوعي الثقافي، بما يحقق أهدافهم، حتى من الباحثين الأكاديميين..!

ففي محاضرة للبروفيسور سوميخ، عن أدب نجيب محفوظ، ألقاها بالمركز الأكاديمي الإسرائيلي بالقاهرة، في مارس سنة ١٩٩٠، وبعد مقدمة أشار فيها إلى أن: الإنتاج الغزير لأعظم روائي عربي في عصرنا الحالي، لم يحظ حتى



أمين الريحاني

وقت قريب، بما يستحقه من الاهتمام العالمي، وأن الإعلان في أكتوبر عام ١٩٨٨ بأن جائزة «نوبل» في الأدب، قد خصصت لأديب عربي، كان خطوة مهمة، لجذب اهتمام العالم نحو أدب - عربي حديث، كما تضمنت الجائزة اعترافا عالميا بأن هذا الأدب المفعم بالحياة - جزء لا يتجزأ من أدب العالم المعاصر، ويضيف «.. وفي إسرائيل، لم يكن جمهور القراء والنقاد - على السواء - بحاجة إلى الجائزة السويدية، ليتعرفوا على نجيب محفوظ وأدبه، فهو أديب مشهور بين الإسرائيليين، ومواقفه الإنسانية والسياسية معروفة للجماهير،



د ستويفسكي

من خلال أحاديثه التليفزيونية والصحفية، التي أوردتها وسائل الإعلام الإسرائيلية في السنوات العشر الأخيرة، أي منذ حلول السلام بين مصر وإسرائيل، وربما من قبل ذلك، حيث كان عدد من قصصه، سواء مترجم إلى العبرية أو في نصها الأصلي، ضمن المقررات الدراسية الأدبية، بالمدارس الابتدائية والثانوية..».

ثم عرض لجهود الباحثين الإسرائيليين، في دراسة وترجمة مؤلفات نجيب محفوظ، مؤكدا أنهم «سبقوا في هذا المجال زملاءهم في أرجاء العالم بسنوات عديدة، بل ربما كانت نشاطاتهم هذه من العوامل التي حفزت أوساطا أدبية وجامعية، في الشرق والغرب، على مزيد من الاهتمام بالأديب المصري الكبير وبالأدب العربي ككل، سواء قبل الجائزة أو بعدها»!!

ثم يضيف: «.. وهذا الاهتمام العظيم، الذي لا يمكن إنكاره، كان باعثه - محفوظ - بشكل خاص، بآرائه المعتدلة في المجال السياسي، وسيذكر الإسرائيليون دائما: أن هذا الروائي العظيم، ومعه كاتب مصري آخر كبير هو المرحوم «توفيق الحكيم» كانا من أوائل المفكرين العرب، الذين جندوا فكرة تسوية الصراع العربي - الإسرائيلي، وقد نشر دعوته من أجل «السلام وإعادة البناء» في بداية السبعينيات، قبل زيارة السادات التاريخية للقدس بعدة أعوام، وعندما تمت تلك الزيارة، بارك محفوظ بشجاعة ودون تردد، عملية السلام ونتائجها، التي تمخضت عن نهاية للحروب بين مصر وجارتها الشمالية»..!!

هوامش:

(١) قصة «فتوة العطوف» لم تشملها مجموعة «همس الجنون» التي جمع فيها نجيب محفوظ معظم قصصه القصيرة المبكرة، وقد

نشرت فى «الرسالة» فى ٤ نوفمبر سنة ١٩٤٠، وفى المجموعة المترجمة للعبرية - كفيفا مصريت - تحتل هذه القصة، الصفحات من ٢٠٩ - ٢١٥ إلى جانب مختارات من قصص أدباء مصريين بارزين، هم: توفيق الحكيم، محمود تيمور، طاهر لاشين، إبراهيم المازنى، عبدالرحمن الشرقاوى، سيد قطب، إبراهيم الوردانى، سعد مكاوى، أمينة السعيد، د. بنت الشاطىء وصوفى عبدالله.

(2) Menahem Kapeliuk : "Haganav ve-ha-klavim" tel-Aviv, Sifriat Po'alim, 1970.

(3) Sasson Somekh : The works of Naguib Mahfouz : Research and Translations in Israel, Bulletin of the Israeli Academic Center in Cairo, no 14, January 1991,PP.17-21

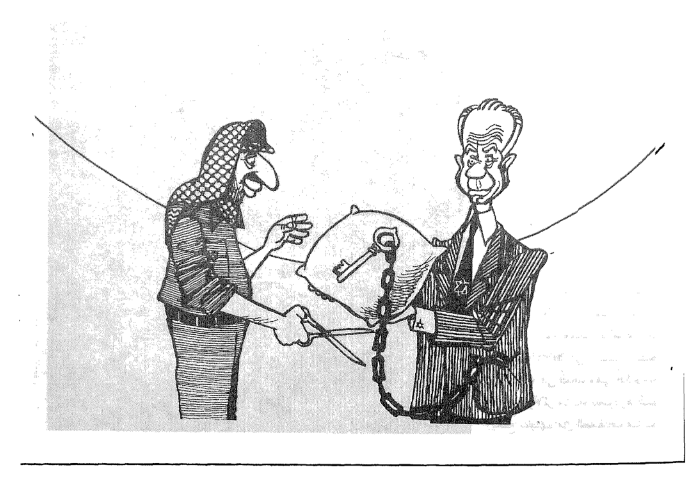
(4) Menahem Milson: "Naguib Mahfouz and thè Quest for meaning" ARABICA, 17 -June 1970, PP, 177 - 178

(5) Sasson Somekh : OP. cit.

(6) Sasson Somekh : "The changing Rhythm : A study of Najib Mahfuz novels, leiden, E.J.Brill, 1973

(7) Mattityahu Peled: Religion My own; the literary works of Najib Mahfuz, new brunswick,1980

(٨) يحرر البروفيسور سوميخ بابا أسبوعيا فى الملحق الأدبى بصحيفة «دافار» بعنوان: «دفتر» يتناول فيه الثقافة المعاصرة، فى إطار صحفى - أكاديمى، وكانت أهم مقالاته، فى الفترة الأخيرة: مئوية الهلال ودور جورجى زيدان فى النهضة الثقافية العربية، دراسة عن أدب نجيب محفوظ. كذلك تجدر الإشارة إلى أن مجلة «لقاء» التى يصدرها المعهد اليهودى - العربى التابع للهستدروت، قد نشرت فى عددها لسنة ١٩٨٧، صفحات من رواية «يوم قتل الزعيم».. كذلك فى المجلة نفسها عدد سنة ١٩٨٨، قدم د. مناحيم ملسون دراسة نقدية وتحليلية لأدب نجيب محفوظ.





سينما الهلاك .. تأصيل المنهجية .. المعرفية فى التعامل مع السينما الصهيونية

أحمد عثمان

قلا شك أن كتاب: «سينما الهلاك» للناقد أمير العمرى حول اتجاهات وأشكال السينما الصهيونية المعاصرة يعد أحد أبرز إصدارات الأعوام الأخيرة على الصعيد السينمائى، ليس لطروحاته السياسية أو لمتابعته الجادة ذات المنحنى التاريخى - التحليلى - الوصفى للنتاجات الفيلمية، ولكن لتحديده «مصطلحه» المتعامل معه، فى حنكة وروية، مما يذكرنا بمقولة ڤولتير قبل مائتى عام: «عليك بتحديد مصطلحك قبل التحدث معى».

وذاك يتضح، أساسًا، فى مقدمته التفسيرية، حيث استسهل بعضهم قراءة الدوريات والمطبوعات السنوية، واستخلصوا منها ما قد يتواكب مع فكرهم - إن وجد - القاصر سياسيًا، فإن وجدوا فيلمًا بطله يدعى «ديڤيد» تعدى الأمر من يهودى إلى صهيونى مرّة واحدةً، ولايكفى - فى هذا الصدد - عدم مشاهدتهم للفيلم.

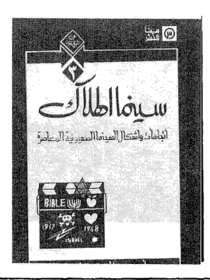
هذا الخلط بين ما هو دينى (يهودى) وبين ما هو أيديولوچى (صهيونى)، شوش معرفيًا دقة المصطلح، وكذا المفهوم المتعامل معهما، فكان الخطاب مشوها: عدم القدرة على التفرقة بين الفيلم الفلكلورى والفيلم الصهيونى مثالا وليس حصرا، الأول يصور حياة وتقاليد اليهود فى بعض المجتمعات، مثلما هو الحال فى «الشتل»Shetl فى روسيا القيصرية و«الجيتو» فى ألمانيا وهى أفلام محدودة القيمة والأثر ما دام تصويرها لليهود لم يخلع عليهم من الصفات ما يجعلهم

يتميزون كثيراً عن غيرهم من البشر، أما الآخر/ السينما الصهيونية فهى ليست فقط السينما التى يصنعها السينمائيون اليهود فى إسرائيل ولكنها السينما التى يصنعها اليهود وغير اليهود فى إسرائيل أو خارج إسرائيل وتتبنى بشكل مباشر أو غير مباشر الدعاوى الصهيونية وتبرر قيام إسرائيل وتدعم استمرارها على ما تتبناه من كل إنكار للوجود الفلسطينى وتدعو الرأى العام إلى التعاطف مع الصهيونية، وقد تستخدم هذه السينما ما يسمى بالتراث اليهودى أو خصوصية «المعاناة اليهودية .. من أجل تصوير إسرائيل كملاذ طبيعى أمام يهود العالم».

بين دفتيه ، يحتوى الكتاب على تسعة فصول، بخلاف المقدمة والملاحق: رسالة حب من كيرك دوجلاس إلى إسرائيل ، فشل اقتراح ريد جريف بمقاطعة إسرائيل ، مقابلة مع كلود لانزمان ، مقابلة مع المخرج رودلف فان دنبرج ، وفلسطين فى الجريدة السينمائية ، وبقدر ما أنها شهادات بقدر ما هى - فى مجموعها - وثيقة تاريخانية - حسب المفهوم البوبرى ، نسبة إلى كارل بوبر - لمسار وآليات السينما الصهيونية .

فى فصله الأول : « البحث عن الجذور » يناقش تفصيليًا مصطلحى السينما اليهودية والسينما الصهيونية ، فيما يشير فى الفصل الثانى : « هوليوود والسينما » إلى كون يهود هوليوود يترددون كثيراً فى إبداء تعاطفهم مع القوى والمنظمات المناهضة للفاشية حتى لا توجه إليهم تهمة محاولة الزج بالولايات المتحدة فى الحرب ضد الألمان فى أوروبا وحتى لا يتهموا بالولاء ليهودى الخارج أو فى أفضل الأحوال بازدواجية الولاء، غير أن الحرب العالمية الثانية شهدت انحسار هذه الرؤى وبدء انتشار الدعاية الصهيونية، وأبلغ دليل على هذا التعاظم الدعائى ما فعله جاك وارنر (صاحب ومؤسس شركة وارنر) حين طلب من العاملين والفنانين اليهود فى شركته أن يتبرعوا بنسبة من مرتباتهم لـ«صندوق الإغاثة اليهودى المتحد، وكان يهددهم بالطرد من العمل إذا لم يستجيبوا له .

حول مسرحية «الهلاك» لجيم آلان، كانت أغلب صفحات الفصل الثالث: «سينما الهلاك»، إذ عرض أحداثها وردود أفعالها بناء على متابعته الذاتية لبرامج التلفاز اللندنى واستناداً إلى الطبعة اللندنية المترجمة (منشورات الخطاط، لندن ١٩٨٧)، إلا أنه وبالمقارنة تعد ترجمة شفيق مقار وتزويدها بالعديد من الملاحق والوثائق والشهادات غير المتوفرة فى الكتاب، تعد - حقًا - هى الأدق والأشمل (طبعت ونشرت ترجمة شفيق مقار مسلسلة بمجلة: «الدستور» اللندنية.) . تبين «الهلاك الأبدى» كيف أن بعض القادة الصهيونيين تعاونوا مع النازيين (إيخمان خصوصًا.) أثناء وقبل الحرب العالمية الثانية، ويعلق مكسيم، رودنسون حولها: «والواقع أن جيم آلان عندما طرح ذلك الالتقاء بين مصالح الصهيونيين والنازيين فى مسرحيته (وقد أجاد صياغة ذلك الالتقاء كخلفية للحدث) فعل ما فعلته أنا وكثيرون غيرى، فأبان عن أن أعداء السامية الألمان والصهيونيين كان لهم هدف مشترك هو دفع اليهود الأوروبيين صوب الهجرة إلى فلسطين.» (ترجم المقال شفيق مقار)، وهو نفس ما يؤكده العمرى حين يذكر مقولة الزعيم الصهيونى/ شابلن كلوسنر: «إننى على قناعة أنه من الواجب إجبارهم على التوجه إلى فلسطين»، محللا - عبر خطابها - مفهوم «و» الأفلام الصهيونية زمن النازية: «تندرج فى إطار الأفلام الصهيونية الأفلام التى تصور الحرب العالمية الثانية وتتبنى التحليل الصهيونى الذى يقول إن الهدف الأساسى من الحرب كان القضاء على اليهود وإن الحلفاء من دول الغرب فضلوا البقاء مكتوفى الأيدى أمام ما كان يقع من اضطهاد ضد اليهود (...) من أجل تحقيق الهدف السياسى المعلن بعد الحرب وهو تأسيس دولة يهودية فى فلسطين.» «واكتفوا بتصوير الأمر على



اعتبار أنه كان صراعا بين اليهود «الطيبين» والألمان المسيحيين «الأشرار»، وهو موقف متميع وقاصر ويساهم بوعى أو دون وعى فى خدمة العقيدة الصهيونية التى تعتمد على ترويج الأساطير الغامضة لتكريس فكرة العداء الأبدى لليهود فى الشتات، وكذلك لانتناسى، فى هذا الإطار، كون الربط بين الهولوكست وإسرائيل بأى شكل من الأشكال فى السينما يجعل من العمل السينمائى عملا صهيونيًا بالضرورة، ويتجلى هذا المفهوم فيما يلى من أفلام: «ليزا» (١٩٦٢) لفيليبدون، «تذكر الحب» (١٩٨٣) لجاك سميث، و«ديفيد» (١٩٧٩) لبيتر ليلتال.

«إمبراطورية المرايا» عنوان الفصل الرابع، يعنى بها إمبراطورية شركة «كانون» Canon السينمائية، إمبراطورية مناحيم جولان ويورام جلوباس، هذه الإمبراطورية - الظاهرة التى شغلت أوساط صناعة السينمائى فى العالم كله بظاهرة الصعود الغريب والمريب، يعرضها من خلال نشأتها - مسيرتها - زوالها... مع تحليل مختصر لبعض ما أنجزته: «السفير» (١٩٨٤) للمخرج /ج.بى ثومبسون، «قوة دلتا» (١٩٨٦) للمخرج /مناحيم وبولان (وهو نفسه مالك الشركة. وللعلم، كان أحد قادة الضربات الجوية على مصر أثناء العدوان الثلاثى.)، وكلاهما يتناولان الشرق الأوسط بسخرية لاذعة، تقارب العنصرية المتطرفة التى يتبنيان أيديولوجيتها.

فولتير

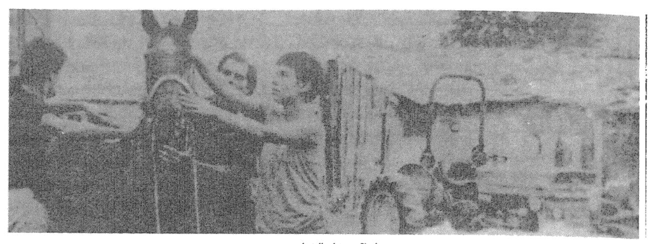
فى الفصل الخامس: «بريسترويكا صهيونية»، وبعد أن يتعرض لوضعية كل من اليهود فى الاتحاد السوڤيتى والتشريعات السينمائية بها حيث يحظر النظام السياسى (قبل البريسترويكا) عرض أى إنتاج يشجع الدعاوى العنصرية والقومية والشوڤينية والصهيونية، كما جرى الحال عند منع عرض فيلم: «القوميسار» من إخراج/ ألكسندر أسكولدوف فى العام ١٩٦٧ (عرض الفيلم بعد عشرين عامًا بمهرجان لندن السينمائى وبعده بعام فى مهرجان القاهرة السينمائى، دورة ١٩٨٩.)... منع عرضه لأنه يضع روسيا فى مواجهة اليهود باعتبارهم شعبا آخر له هويته الثقافية المختلفة وتاريخه الخاص سواء تحت الحكم القيصرى أو الاشتراكى، ثم يسرد الأفلام، مع تحليل موجز، ذوات الإنتاج المشترك بين الاتحاد السوڤيتى وإسرائيل وأهمها فيلم: «جواز سفر» للسوڤيتى/ چيورچى دانيليا...

وفى دراسة مطولة، هى الفصل السادس، لأفلام المخرج الهولندى/ رودلف ڤان دنبرج (بالكتاب، ضمن الملاحق، مقابلة مطولة معه.)، حملت اسم: «الذات والآخر»، يخلص، وذلك فى بداياتها، إلى أن الموضوع الذى يؤرقه يتمثل فى البحث عن الهوية اليهودية ومغزاها، عبر أفلامه: «سال سانتين»، «الباستيل»، «مكان الغريب».

«كيف يمكن لسينما لقيطة متشرذمة أن تصنع لها أنماط تسلية خاصة بها، وأن تستنبط لها معادلات وعلاقات لانظير لها فى واقع الأمر فى أعماق المجتمع نفسه؟»، هكذا يؤرخ فى الفصل السابع: «الخروج من الظل» للسينما الإسرائيلية، أشكالها واتجاهاتها، منذ بدايتها حتى ظهور أفكار اليسار الإسرائيلى على الشاشة، متفقًا فى ذلك



لقطة من فيلم « لهيب فى الرماد » الإسرائيلى

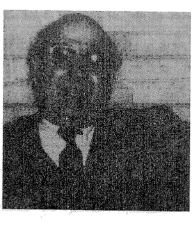


لقطة من فيلم الخماسين

مع ما طرحه حاييم برشيط: «... ولكن بالنسبة لعوز وآخرين مثله فى الجماعات اليسارية الصهيونية من حزب العمل حتى حركة السلام الآن، تبدو المشاعر التى تربطه باليمين اليهودى المتطرف أقوى من أى ميول إيجابية تجاه الفلسطينيين... ويتذبذب هذا الاتجاه حول الموضوعات المركزية مثل حق تقرير المصير للفلسطينيين أو الطبيعة الكولونيالية للمشروع الصهيونى..»، كما يتبدى فى أعمالها: «خربة خزعة» (١٩٧٨) لرام لومى، «الخماسين» (١٩٨٢) لدانييل فاكسمان (أول فيلم تناول بشكل مباشر الشخصية الفلسطينية كطرف رئيسى فى الصراع)، «وراء القضبان» (١٩٨٤) لأورى باراباش وغيرهم.

حول تجربة المخرج الإسرائيلى/ آموس جيتاى، يدور الفصل الثامن: «زوال الحلم القديم»، فى أفلامه: «أسطورة سياسية» (١٩٧٧)، «بيت» (١٩٨٠)، «وادى» (١٩٨١)، «يوميات حملة» (١٩٨٢)، «استر» (١٩٨٦)، «برلين - القدس» (١٩٨٩)، ويلخص آراءه فى مقولة اقتبسها منه: «أعتقد أن فكرة الحلم الصهيونى لم تعد لها الأهمية نفسها التى كانت لها فى الماضى، الآن علينا أن نواجه الواقع بشكل جديد. هناك نوع من التحدى وهناك جيل جديد يتوجب عليه التوصل إلى حلول عملية وهذا يستوجب العثور على حلم جديد.»... جيتاى، أى نعم معارض للصهيونية وممارساتها داخل إسرائيل، يحلم بمبدأ الحوار والتعايش السلمى، ولكنه: هل تصل معارضته إلى حد رفضه وجود إسرائيل؟ سؤال أهمس به فى أذن أمير العمرى... ولذلك، بالتأكيد، لاتتعدى نطاق الخلاف بين ما هو متخيل وبين ما هو واقع حقاً.

أما الفصل الأخير: «التقاط الأشلاء»، فهو دراسة تحليلية لفيلمى: «أحلام محطمة .. التقاط الأشلاء» (١٩٨٧) لبول سكوفيلد و«الحقول الخضراء» لاسحق يوشيرون مستخلصاً بالنسبة للأول: «...



مكسيم رودنسون

ومع ذلك، تبقى الميزة الأساسية لهذا الفيلم فى كونه يجعل المشاهدين يدركون بوضوح أبعاد المأزق الذى تعيشه إسرائيل بعد أربعين عامًا على تأسيسها حيث فشلت فى أن تتجاوز كونها مجرد كيان تحت التأسيس أو هيكل هش قابل للانفجار (...) ولعل التعايش الممتد حول تعريف اليهودى فى دولة قامت على أساس «اليهودية» دليلا كافياً على هشاشة البنية الاجتماعية والسياسية فى إسرائيل»، فيما يعد الآخر أول فيلم إسرائيلى روائى طويل يعكس أثر الانتفاضة على المجتمع الإسرائيلى ويعبر عن العجز والتمزق وانهيار القناعات الذى أصبح الطابع الغالب على هذا المجتمع، فضلا عن نوع من الحيرة التى يشعر بها السينمائيون الإسرائيليون من أبناء جيل «الصابرا».

مما سبق، اتضح تركيزى على تناول الكتاب، من ناحيته المفاهيمية - الاصطلاحية - المعرفية، مستندا إلى سرديته التاريخية، فعلى الرغم من كون فصوله نشرت فى عدد من المطبوعات العربية، على فترات متباعدة، إلا أنها مترابطة، مبنية على افتراضات علمية، لايطوع استنباطاته بناء على آراء مسبقة واهية، لايخلط بين الدينى والسياسى، مما ساعده على عدم إطلاق الأحكام

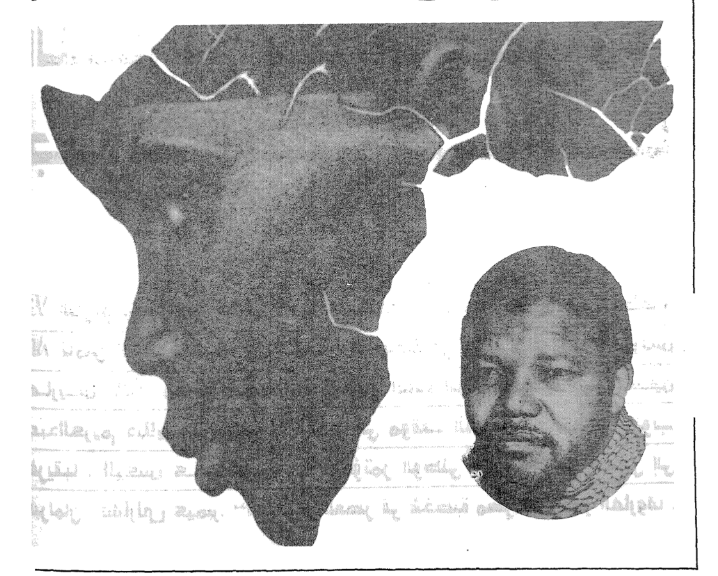
القاطعة والآراء التعصبية الجاهلة، خاصة عندما تعرض لإشكالية تواجد اليهود فى السينما، فليس معنى وجود بطل يدعى «ديفيد» فى أحد الأفلام، على أن الفيلم يهودى وبالتالى - فوراً، ومرة واحدة - صهيونى، أى يتعدى الأمر إلى اعتبار ديانة صانع الفيلم - أو مجرد كونه يحمل اسماً «مشكوكاً»، فى يهوديته - دليل على «صهيونية» الفيلم... فهل كان فاسبندر أو شابلن - يهودياً من جهة الأم، واليهودى يتبع ديانة أمه أساسًا كما فى التوراه والتعاليم اليهودية - أو وودى آلن صهيونيين؟ أو حتى فى رده على مؤامرة اليهود فى السيطرة على صناعة السينما، إذ إنها، فى الحقيقة فكرة يروج لها اليهود المتعصبون أنفسهم بغرض المبالغة فى إظهار قوة تأثيرهم وعظمة نفوذهم.

حقًا، يعد الكتاب صفعة فى وجه الجهالة السائدة، الجهالة العنصرية، جهالة البيانات والشعارات الزائفة، فى نبرة هادئة تحترم «المصطلح» وتوقره، وتضعه فى المصاف الطبيعى بدلا من العاطفة - الاجتزائية، التى تجنح - برغم دوافعها الطيبة - إلى التوافق مع آليات الخطاب الصهيونى العنصرى. ■



التاريخ يتغير من جنوب أفريقيا

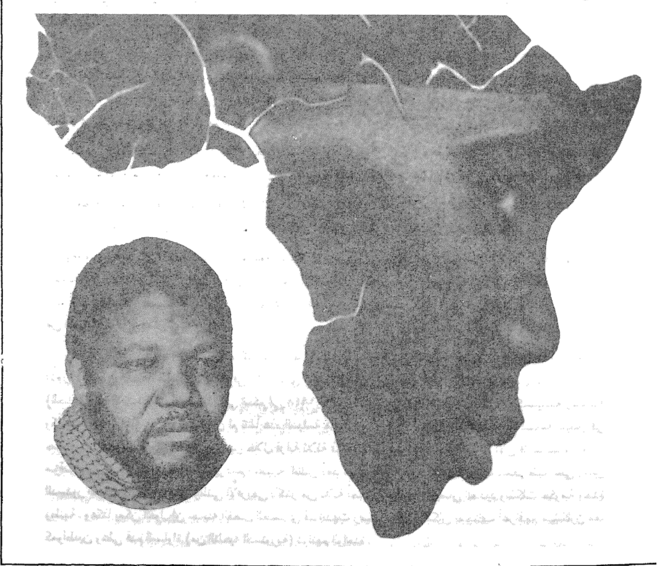
التاريخ يتغير



ملف من اعداد

خليل كلفت

من جنوب أفريقيا





حدث تاريخى:

أخيرا.. وبعد تاريخ طويل بشع (منذ وصول الهولنديين إلى هناك فى ١٦٥٢)، وصراع طويل مرير (تأسس المؤتمر الوطنى الأفريقى فى ١٩١٢)، ومفاوضات شاقة (طوال ٤ سنوات منذ إطلاق سراح نلسون مانديلا فى ١٩٩٠)، وانتخابات ديمقراطية (٢٧ أبريل ١٩٩٤ والأيام التالية)... تنتهى «رسميا» سياسة الفصل العنصرى فى جنوب أفريقيا كسياسة رسمية ودستورية ظلت تقتضى، منذ وصول الحزب الوطنى (الحاكم قبل الانتخابات الأخيرة) إلى الحكم فى ١٩٤٨، أىْ منذ قرابة نصف قرن، أن يعيش الأوروبيون (البيض)، والبانتو (الأفارقة السود)، والملونون (المتحدرون من آباء بيض وأمهات سود)، والآسيويون (الهنود)، فى مناطق منفصلة، وأن يذهبوا إلى مدارس منفصلة، وأن يتعبدوا فى كنائس منفصلة - وكل هذا وغيره فوق أرضية تاريخية من الانفصال الجذرى بين تقدم وثروة البيض وتخلف وفقر وحرمان السود، بين هذين العالمين المتجاورين داخل بلد واحد: عالم الرأسمالية العالية التطور فى مناطق البيض والعالم الثالث (أو «الرابع») فى مناطق أو معازل السود.

إننا نبتهج مع كل من ابتهجوا فى كل مكان فى العالم ونحن نشهد نهاية **الأبارتهيد** أىْ الفصل العنصرى كسياسة. وما لم تقع نكسة لا يمكن استبعاد مجيئها من داخل جنوب أفريقيا، من جهات عديدة متربصة، لتضع حدا لهذا التطور ولتعيد عجلة التاريخ، وإنْ مؤقتا، إلى الوراء، سيكون قد تم قطع خطوة مهمة على طريق تحقيق أمل من أعز آمال كل من ناضلوا فى كل مكان فى هذا العالم ضد نظام الفصل العنصرى.

على أن بريق الحدث التاريخى، هذا الانتصار المحدد لكن المهم، لا ينبغى أن يخطف أبصارنا أو يعمى بصائرنا إلى حد فقدان الموضوعية الضرورية للوصول إلى إدراك واضح لطبيعة وحقيقة وأبعاد ما حدث فى جنوب أفريقيا.

والحقيقة أننا فى أزمنة رديئة، وهذه الأزمنة تمنع بحكم التعريف تحقيق انتصارات كاملة أو حتى شبه كاملة، وإن كانت تنطوى مع ذلك على آليات تنتهى بنا إلى حالة من الاستعداد النفسى لإسقاطات وأوهام بلا حدود.

وما من شك فى أن الفصل العنصرى بوصفه سياسة وأيديولوجية رسمية ود ستورية مباشرة تتبناها الدولة ينتهى الآن رسمياً غير أن هذا لا يعنى فى حد ذاته نهاية كل فصل عنصرى، فعلى أو قانونى، كما أنه لا يعنى بطبيعة الحال، ومن باب أولى، القضاء على العنصرية بكافة أشكالها فليس الفصل العنصرى سوى شكل واحد من أشكال العنصرية وإن كان من أكثرها بشاعة وتدميرا.

وهناك بطبيعة الحال ذلك التراكم التاريخى الطويل للفصل العنصرى الفعلى والقانونى والذى بدأ منذ وصول الأوروبيين إلى تلك المنطقة من العالم فى ١٦٥٢، أى منذ ثلاثة قرون ونصف القرن. وعندما وصل الحزب الوطنى (الحاكم قبل الانتخابات الأخيرة) إلى الحكم فى ١٩٤٨ وتبنى **الأبارتهيد** (الفصل العنصرى) كسياسة رسمية وكأيديولوجية نوعية وكأساس دستورى لم تنشأ هذه السياسة من فراغ بل كانت امتدادا بأشكال جديدة لسياسة البيض فى حكم وعزل وفصل السود وغير الأوروبيين خلال قرابة ثلاثة قرون سابقة على ذلك التاريخ. أما الآن فلدينا دستور جديد مؤقت يفترض أن يحل محله دستور دائم بأغلبية الثلثين بعد خمس سنوات وجرت انتخابات ديمقراطية على أساس الدستور المؤقت وفاز المؤتمر الوطنى الأفريقى بأكثر من ثلاثة أخماس مقاعد البرلمان الجديد وتشكلت حكومة وحدة وطنية. وهكذا يمكن القول إن سياسة الفصل العنصرى قد انتهت رسميا ما دام السكان بمختلف أعراقهم سيشكلون معا كمواطنين وعلى قدم المساواة (من الناحية الدستورية) دولتهم الواحدة.

لكن هل تبشر نهاية الفصل العنصرى كسياسة وأيديولوجية للدولة بنهاية قريبة للفصل العنصرى بتراكمه التاريخى الفعلى (والذى كان قانونيا أيضا ومنذ البداية) طوال قرون؟

سوف نرى من خلال متابعة هذا التقديم وبالأخص من خلال قراءة المقالات المترجمة هنا أن التفاؤل الشديد فى هذا المجال لا أساس حقيقيا له.

جمهورية كونفيدرالية تحت سيطرة البيض:

من البديهى أن كل تفكير فى تحويل جمهورية جنوب أفريقيا إلى دولة ديمقراطية عادية من الطراز الغربى تقوم على مبدأ المساواة فى الحقوق بين مواطنين ينطوى على عقدة مستعصية تتمثل فى أن هذه الدولة تتناقض مع مصالح الأقلية البيضاء كما يفهم قادتها العنصريون هذه المصالح. مثل هذه الدولة قد تفكر فى إعادة بناء الحياة الاجتماعية والاقتصادية انطلاقا من التأميم أو حتى انطلاقا من تطبيق نظام ضريبى جديد ملائم لمثل هذا الهدف. و«الضحية» فى كافة الأحوال هى المصالح الاقتصادية للأقلية البيضاء والتى تحتكر ثروات البلاد. بل يمكن أن يتحول مجرد البقاء الآمن لأقلية تضطهد السكان الأصليين على مدى القرون اضطهادا لا هوادة فيه ولا رحمة إلى مشكلة مستعصية فى حالة سيطرة المضطهدين (بفتح الهاء) على الدولة. وأمام هذه المخاوف المنطقية للبيض وبالأخص لقادتهم من السذاجة أن نتوقع أن تقبل الأقلية البيضاء فى جنوب أفريقيا ومهما كانت الضغوط أو الأهداف بدولة ديمقراطية لمواطنين متساوين فى الحقوق. وباستبعاد مثل هذه الدولة من خيارات الأقلية البيضاء لا يبقى أمامها، بافتراض استحالة استمرار النظام السابق نفسه، سوى أحد أمرين: إما السعى إلى تقسيم البلاد وإما تفريغ الدولة الموحدة من مضمونها كدولة عادية.

ولا نريد أن نقف طويلا عند فرضية استحالة استمرار النظام السابق نفسه. ذلك أن مصلحة الأقلية البيضاء فى الإصلاح ترتبط بتفادى ويلات نظام الفصل العنصرى وبالرغبة فى الحصول على جوائز التخلص منه. وهكذا يمكن القول إن الأهداف من وراء الإصلاح تتمثل فى:

١ ـ تصفية النضال الوطنى الأفريقى بكافة أشكاله.

٢ ـ العلاقات الطبيعية مع البلدان المجاورة باعتبارها «المجال الطبيعى» للنمو والسيطرة.

٣ ـ العلاقات الطبيعية مع العالم بعد إلغاء العقوبات الدولية بسبب سياسة الفصل العنصرى.

وفى ظل موازين قوى مواتية لقوى الاستعمار والرجعية فى كل مكان فى العالم وغير مواتية للشعوب ولحركات التحرر الوطنى بدا للأقلية البيضاء أنه لا مناص من الإصلاح لتفادى النتائج السلبية لسياسة الفصل العنصرى وللحصول على جوائز إلغائها، استغلالا لموازين القوى العالمية المواتية، واستغلالا لانهيار أوضاع الدول الأفريقية المجاورة، واستغلالا أيضا لواقع أن حركة التحرر الوطنى فى جنوب أفريقيا بقيادة المؤتمر الوطنى الأفريقى بعيدة تماما (بحكم ضعفها العسكرى وبحكم تداعى حلفائها إقليميا وعالميا) عن أن تكون فى أوضاع تسمح لها بأىّ قدر من التشدد، أى استغلالا لواقع أن المؤتمر الوطنى الأفريقى سيكون مستعدا، شأنه فى ذلك شأن غيره من حركات التحرر الوطنى فى بقية أنحاء العالم، للركض وراء الفرصة الأخيرة، وراء تسويات الأزمنة الرديئة التى تنذر بأزمنة أكثر رداءة، وراء هذا الشر الذى لابد منه حسب تعبير السيد جوسلوفو الزعيم التاريخى للحزب الشيوعى لجنوب أفريقيا والمستشار الرئيسى لنلسون مانديلا، انطلاقا من أن الشعب الأسود لا يملك الوسائل اللازمة للإطاحة بالسلطة، ولأنه لن تكون لأى حرب أهلية طويلة الأمد نتيجة سوى أن تقود البلاد إلى الدمار (لوموند ديبلوماتيك ـ عدد يناير ١٩٩٤، مقال پيير بوديه).



فما هو الخيار الذى كان ممكنا ومرغوبا من جانب الأقلية البيضاء والذى كان وراء مبادراتها ومفاجآتها التى لم تنقطع منذ سنوات؟

رأينا منذ قليل أن الدولة الواحدة ذات الأهلية الكاملة والسيادة الكاملة والتى يحكمها المقهورون على مر القرون كانت مرفوضة بطبيعة الحال من جانب الأقلية البيضاء. ولم يكن أمامها سوى أمرين: إصلاح يعطى شكل هذه الدولة مع تفريغها من أهليتها وسيادتها وسلطتها كدولة أو السعى إلى تقسيم البلاد. وهنا ينبغى أن نلاحظ أن السيطرة مع التقسيم والفصل كانت تمثل إطار سياسة الفصل العنصرى. أى أن هذا التقسيم الذى يحمى البيض داخل مساحاتهم الشاسعة وثرواتهم الواسعة وصناعتهم المتقدمة، ويعزل السود داخل مساحاتهم وجيوبهم الضيقة وبؤسهم الشديد، مع إدخال هذا التقسيم فى إطار دولة واحدة تضمن السيطرة للبيض، هو نقطة الانطلاق قبل التسوية الأخيرة.

ولا غرابة فى أن أى حل قابل للنقاش كان ينطلق من الحفاظ على هذا التقسيم المقدس. التقسيم بالتقسيم المباشر إلى دولة للبيض ودولة أو دول للسود والملونين والآسيويين، أو التقسيم من خلال الدولة الموحدة شكلا والمقسمة بحكم الأمر الواقع لحماية المناطق البيضاء من تجاوزات أية دولة كاملة الأهلية، ولحرمان المناطق السوداء والملونة والآسيوية من امتداد برامج التطوير الحقيقى إليها على أيدى أية دولة تملك الوسائل الضرورية لمثل هذا التطوير.

وبطبيعة الحال كان كلا الاتجاهين (اتجاه التقسيم المطلق واتجاه التقسيم مع السيطرة من خلال دولة مشلولة) قائمين داخل الأقلية البيضاء (وبعض حلفائها). أما اتجاه الدولة المركزية الموحدة فكان بطبيعة الحال اتجاه المؤتمر الوطنى الأفريقى الذى تخلى عنه أمام معارضة الحزب الوطنى ومختلف القوى السياسية والاجتماعية الممثلة للأقلية البيضاء.

وقد طالبت اتجاهات بيضاء يمينية متطرفة بأن تصل سلطات المقاطعات إلى حد تحييد الحكومة كذلك بمقاطعة مستقلة، «بوطن قومى»، للأفريكانز.

وكان شعار تحالف الحرية (الذى تشكل فى أكتوبر ١٩٩٣ كائتلاف يوحد جبهة شعب الأفريكانز والحزب المحافظ وحركة إنكاثا و«إدارات» بانتو ستانات كوازولو، وبوفوثاتسوانا، وسيسكاى) هو شعار **حق تقرير المصير غير القابل للتصرف لكل شعوب جنوب أفريقيا.**

غير أن الحل الذى جاء به الدستور المؤقت الذى جرى إقراره فى ٢٢ ديسمبر ١٩٩٣ هو الذى حظى فى نهاية المطاف بموافقة القوتين الرئيسيتين: الحزب الوطنى (الأبيض) والمؤتمر الوطنى الأفريقى ثم بموافقة أحزاب أخرى أبرزها إنكاثا فيما بعد. وهذا الحل هو الذى يحقق فى الواقع مصالح الأقلية البيضاء، ويحيطها بكافة الضمانات من خلال «دويلات» مستقلة ذات سلطات واسعة تضمها جمهورية كونفيدرالية فى حقيقتها لأنها كرئاسة وحكومة مجردة من السلطات والوسائل مع ضمان السيطرة لإحدى هذه «الدويلات» أى «دويلة» البيض بحكم الأمر الواقع، أى بحكم سيطرتها على معظم مساحة البلاد وعلى ثروات واقتصاد البلاد وبحكم جيشها القوى الذى يلعب دور الجيش «الفيدرالى» فى حقيقة الأمر.

وحسب الدستور المؤقت (انظر مقال بيير بوديه حول كثير من المعلومات الخاصة بهذه النقطة) فإن «الأقاليم» التى سوف تسمى من الآن فصاعدا «مقاطعات»، ستكون لها سلطات تنفيذية فى عدد كبير جدا من المجالات: الزراعة، التعليم الابتدائى والثانوى، الصحة، الإسكان، الحكومات المحلية والتنمية الحضرية، التجارة، الشرطة. كما ستكون لها سلطات واسعة فى المجال المالى.

وقد جرى إضعاف السلطة التنفيذية وفقا للنظام المعقد الذى أعده خبراء الحزب الوطنى. فرئيس الدولة سيكون إلى جانبه نائبان أحدهما يمثل أحزاب الأقلية (بشرط حصولها على ٢٠ ٪ على الأقل من الأصوات)، وستعمل الرئاسة «بالإجماع». وكما كان متوقعا فقد تم تشكيل حكومة وحدة وطنية ونتائج الانتخابات هى التى تفرض منح حقائب وزارية لكل حزب يحصل على ٥ ٪ من الأصوات. ومثل هذا الاقتسام للسلطة قد يصيب الحكومة بالشلل.

وهكذا نجد أنفسنا إزاء مقاطعات ذات سلطات واسعة ودولة «كونفيدرالية» مشلولة بحكم واقع أن سلطات المقاطعات إنما تتسع على حسابها وبحكم قلة مواردها وبحكم عجزها عن اتخاذ أية إجراءات اقتصادية جذرية وبحكم أنها تتمثل فى رئاسة جمهورية يقيد النائبان ونظام الإجماع دورها وفى حكومة متعددة الأحزاب وبالتالى حكومة وحدة وطنية وبالتالى مهددة بالعجز عن اتخاذ قرارات. ومقابل هذه الدولة التى قد يصل نفوذها إلى أغلب مناطق أو مقاطعات السود والملونين والآسيويين، لكنه لن يصل أبدا إلى مناطق البيض، والتى لا تتمثل سلطات مقاطعاتها غير البيضاء فى حقيقة الأمر إلا فى عجزها الحقيقى وحرمانها من الموارد وانطوائها على بؤسها الأزلى، مقابل هذا نجد المنطقة البيضاء سليمة كما هى باقتصادها وجيشها لم تقم فى الواقع سوى بإلقاء عبء حكمها «للمناطق» وحماية أمنها من «المناطق» على كاهل قوى كانت هى ذاتها عبئا على أمنها وبالأخص المؤتمر الوطنى الأفريقى وفى مقابل هذا التنازل عن العبء ضمنت لنفسها ليس فقط استقلال وحماية مصالحها بل كذلك سيطرتها على الدولة الجديدة بحكم القوة الاقتصادية والعسكرية المتفوقة بلا منازع وبحكم القيود الدستورية والواقعية على هذه الدولة الجديدة، كما ضمنت التعاون الواسع النطاق مع عالم إنما كان يعارض سياسة معلنة، وسيكفيه أنه جرى الآن إلغاؤها.

هل هناك مستقبل آخر؟

لقد وصل الهولنديون إلى جنوب أفريقيا فى ١٦٥٢ وأعادوا تسمية رأس العواصف (كما سماه قبلهم بزمن طويل أوروبيون آخرون) برأس الرجاء الصالح. وحتى منذ ١٦٦٠ (أى بعد وصولهم إلى هناك بثمانية أعوام) نجدهم يصدرون فرمانات مثل منع دخول غير الأوروبيين إلى منطقة رأس الرجاء الصالح إلا بغرض التجارة (وسوف تتوالى الفرمانات والقوانين والدساتير التى تكرس التمييز العنصرى والفصل العنصرى إلى أن يصبح الأبارتهيد سياسة وأيديولوجية رسمية للدولة منذ ١٩٤٨)، ونجدهم يتفوقون بسهولة على الهوتنتوت والبوشمان الذين سيختفون من جنوب أفريقيا تماما، ونجدهم يتوسعون شمالا منذ سبعينيات القرن الثامن عشر وهناك يلتقون شمالى وشرقى نهر «جريت فيش ريڤر» بالبانتو (السكان الأصليين) وتندلع الحروب بين البوير (الهولنديين والذين سيكون اسمهم فيما بعد الأفريكانز) والبانتو طوال مائة سنة وهى أشبه ما تكون بالحرب بين المستوطنين البيض والهنود الحمر فى أمريكا. ولكنهم لا ينجحون نجاح غزاة العالم الجديد فى الإبادة الكاملة أو شبه الكاملة للبانتو.

وهكذا يكون لدينا الهولنديون (البوير ـ الأفريكانز) وسيأتى من أوروبا مستوطنون آخرون من موظفى الإدارة الاستعمارية البريطانية لجنوب أفريقيا، ولدينا البانتو الذين وصل إليهم الهولنديون (أخيرا. فى أواخر القرن ١٨) واختفى السكان الأصليون الآخرون (الهوتونتوت والبوشمان) «ومن هؤلاء وأولئك، من الآباء البيض والأمهات المحليات، ستنشأ ذرية من الملونين، وسيأتى التجار والصناع الآسيويون أو الهنود لتستوطن البلاد جماعة ثقافية أخرى أيضا.

وفى خطوط تتقاطع مع كل هذا التنوع العرقى والثقافى، ومع الانقسامات الاجتماعية والطبقية، نشأ انشطار على الأرض الواحدة وفى البلد الواحد بين عالم رأسمالى متقدم لكن أبيض أيضا وعالم ثالث أو رابع لكن غير أبيض (أسود أو ملون أو آسيوى)؛ وكما استحال تآخى الجماعات العرقية والثقافية المتباينة بفضل أنانية الرجل الأبيض، استحال اندماجها



فى اقتصاد واحد بفضل احتكار الرجل الأبيض لإنجازاته الاقتصادية لجعلها سلاحا للسيطرة والاستغلال وليس سلاحا للحياة الكريمة المشتركة التى تتآخى فيها الشعوب وتتطور. وهكذا يبدو الأبيض والأسود، الشرق والغرب، الشمال والجنوب، الرأسمالية وما قبل الرأسمالية، العالم الرأسمالى المتقدم والعالم الثالث المتخلف، يقفان ليس عبر القارات والمحيطات، ليس فى مشارق الأرض ومغاربها، بل على أرض واحدة، على أقل من مليون وربع مليون كيلومتر مربع، على مساحة لا تزيد كثيرا عن مساحة مصر، وإن كانت من أغنى بقاع الأرض، هكذا يبدوان يقفان متباعدين وكأن كل شىء يدفعهما إلى هذا التباعد، بعيدا عن كل حل إنسانى، وبعيدا عن كل تثاقف صحى.

وهذا المشهد، العنيد عبر القرون، ينطق بحقيقة أن التنافر كامن فى النظام الرأسمالى وفى أنانيته وفى كافة شروره. والآن... ونحن على أعتاب القرن الحادى والعشرين، القادم فى أزمنة رديئة، حدث شرخ فى الجدار يتمثل فى هذا الانتصار المحدد ضد الفصل العنصرى لكنه لا يمس النظام الرأسمالى من قريب أو بعيد. فهل هناك مستقبل آخر تتآخى فيه هذه الشعوب عبر نضال مشترك، سياسى وإنسانى وثقافى ضد كل ما قهر هذه الشعوب بما فى ذلك الشعب الأبيض ذاته؟

هل هناك مستقبل آخر تعيش فيه شعوب جنوب أفريقيا ليس فقط بدون الفصل العنصرى كعقيدة وليس فقط بدون الفصل العنصرى كفلسفة وليس فقط بدون الفصل العنصرى كحماية من الغرق فى مستنقع العالم الثالث أو من انتقامه وبالتالى كضرورة للسيطرة عليه، بل كشعوب تهنأ جميعا بالحرية والرفاهية باعتبارهما حقا لكل شعب ولكل إنسان وللبشر جميعا؟

الحقيقة أن كل ذلك يمثل قضايا مستقبل طويل من المعاناة والنضال. أما الآن فإننا نشهد على الأقل شيئا بسيطا جدا لكن بالغ الأهمية رغم كل شىء: إنه هذا الاعتراف الرسمى من جانب الشعب الأبيض بأن هؤلاء السود الذين اضطهدوهم وحاربوهم وأبادوهم وعزلوهم وفصلوهم واستغلوهم فى كافة الأحوال بشر مثلهم ومن حقهم أن يتمتعوا مثلهم بحقوق دستورية وانتخابية متساوية، ورغم أن الاعتراف الرسمى لا يعنى بعد الواقع الفعلى فلا مفر بأن نعترف بدورنا بأن هذا الانتصار على الفصل العنصرى، أن هذا الاعتراف ببطلانه، أن هذا الاعتراف بالمساواة بين هذه الجماعات الثقافية والإثنية المتباينة سيكون أو يمكن حقا أن يكون بداية وعى جديد وضمير جديد لدى البيض ولدى السود على حد سواء.

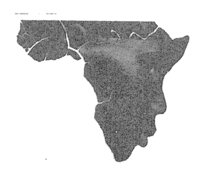
وسيجد القارىء هنا وعلى الترتيب هذه المواد المترجمة:

مقال لورنس هاريس عن تأمين الفصل العنصرى للسلطة الاقتصادية فى جنوب أفريقيا، ومقال كريستين عبد الكريم ديلان عن المهمة الضخمة التى تنتظر السلطة الجديدة والتى تتمثل فى متطلبات الإصلاح الاجتماعى والاقتصادى فى المناطق غير البيضاء (وهذان المقالان مترجمان عن «**لوموند ديبلوماتيك**» عدد أبريل ١٩٩٤)، ومقال أليكس كالينيكوس عن خلفيات التبدل فى موقف الحزب الحاكم فى جنوب أفريقيا، ومقال تشارلى كيمبر عن خلفيات قبول المؤتمر الوطنى الأفريقى لمثل هذه التسوية (وهذان المقالان مترجمان عن المجلة البريطانية «**سوشاليست ريفيو**» الشهرية البريطانية عدد أبريل ١٩٩٤). ■

خ. ك



جنوب أفريقيا ـ الفجر الجديد
رسم بالكمبيوتر للفنان / سامى بخيت



تأمين الفصل العنصري

تحت ضغوط متعددة، أكثرَ زعماءُ المؤتمر الوطني الأفريقى من التنازلات ذات الطابع السياسي بحيث إن سلطة الأغلبية السوداء ستكون بالغة الضعف. والأدهي من ذلك أن كل شىء قد تم ترتيبه مسبقا فيما يتعلق بالسلطة الاقتصادية لقد تم تأمين إقامة الحواجز وإغلاق الأبواب دون الوسائل المالية اللازمة للإمساك بزمام الأمور - الأمر الذي يعرقل بشدة مشروعات إعادة البناء التي أعدها المؤتمر الوطني الأفريقي. والحقيقة أن الأبارتهيد الاقتصادي لن يختفي قريبا.



للسلطة الاقتصادية فى جنوب أفريقيا

لورنس هاريس

أستاذ الاقتصاد بكلية الدراسات الشرقية والأفريقية بجامعة لندن.

فى الفترة من ٢٦ إلى ٢٨ أبريل ١٩٩٤، سيقوم ملايين السود بالتصويت فى الانتخابات للمرة الأولى فى جنوب أفريقيا. وأخيرا ستكون للبلاد حكومة يختارها بحرية مواطنون لن يعودوا سوداً، أو بيضاً، أو ملونين، بل سيكونون ناخبين متساوين فى الحقوق. وسيصبح السيد نلسون مانديلا رئيسا للجمهورية؛ كما أن أغلب أعضاء البرلمان وأعضاء الحكومة سيكونون منتمين إلى المؤتمر الوطنى الأفريقى. وسيكون على الأقلية البيضاء أن تتخلى عن سلطة مورست بوحشية وبلا شريك.

غير أن الأمور لن تكون بمثل هذه البساطة. وعندما يظهر السيد نلسون مانديلا ووزراؤه المنتمون إلى المؤتمر الوطنى الأفريقى على المسرح العالمى بوصفهم الممسكين بالسلطة السياسية فإنهم لن يمارسوا أية سلطة تقريبا فى مجال الاقتصاد ولن يكون بمستطاعهم تقريبا أن يغيّروا أوضاع حياة شعبهم. وفى هذا المجال، على الأقل، ستواصل النخبة البيضاءحكم البلاد.

وشأنه فى ذلك شأن كل حركات التحرر، ارتبطت شرعية المؤتمر الوطنى الأفريقى باقتناعه الراسخ بأن السلطة السياسية سوف تؤمّن له السيطرة على الاقتصاد وتسمح له بالتالى بتحسين الوضع المادى للشعب. ولم يشغل تحويل الهيكل الاقتصادى سوى مكان ثانوى بين مطالبه الأخلاقية والسياسية: كان طريق التحرر يمّر عبر حق الانتخاب وعبر إلغاء الأشكال القانونية للتمييز العنصرى. على أنه ما دام الأبارتهيد ظل يمثل نظاما اقتصاديا تمثيله لغير ذلك على الأقل فقد استندت شرعية المؤتمر الوطنى الأفريقى كذلك جزئيا إلى الإمكانية المستقبلية لامتلاكه للسلطة الاقتصادية.

وكان يبدو من جهة أخرى أن تقاليد جنوب أفريقيا تبرر مثل هذا التحليل. والواقع أن نظام الأبارتهيد، بعكس الصورة التى أعطاها لنفسه باعتباره نظام المشروع الحر والسوق، أقام اقتصادا خاصا لعبت فيه الدولة دورا مسيطرا. وحتى بداية الثمانينيات، كانت القطاعات الرئيسية للصناعة ملكية للدولة، وكانت

المشـروعـات والأسـواق منظمـة بأدق تفاصيلها، بينما كانت الصناعات الرئيسية المرتبطة بالقطاعات المنجمية والطاقة تحت حماية الدولة. وحتى إذا كان المؤتمر الوطنى الأفريقى لم يقم فى المنفى بإعداد استراتيجية اقتصادية فقد كان بوسعه فى هذه الحالة أن يأمل فى أنه سيكفيه الاستيلاء على السلطة ليحقق السيطرة على الجهاز الاقتصادى. غير أن نهاية نظام ووصول قوى سياسية جديدة إلى الحكم لا يشكلان أبدا انتقالا بسيطا للسلطة. ففى جنوب أفريقيا كما فى كل مكان آخر اقتضى ذلك تحويلا لشكل الحكم استوجب أربع سنوات من المفاوضات الدستورية المعمقة. والواقع أن النظام الاقتصادى وكذلك السلطة التى تنبع منه قد تبدلا إلى حد أن مسئولى المؤتمر الوطنى الأفريقى سوف يكتشفون، فى اللحظة التى يجلسون فيها خلف مكاتبهم فى بريتوريا، أن مفاتيح الاقتصاد إنما توجد فى مكان آخر.

تلك محصلة استراتيجية وقائية أرادها النظام القديم، حتى إذا كان للظروف الخارجية دور فيها. والحقيقة أن البيض ذوى الامتيازات فى جنوب أفريقيا، بقيادة نخبتهم السياسية والاقتصادية، فعلوا كل ما هو ضرورى لئلا تكون السيطرة على الثروات وعلى السياسة الاقتصادية فى أيدى الدولة ولجعلها فى مأمن من كل إشراف سياسى.

شلّ الحكومة المقبلة

هروب الرساميل هو الوسيلة الأكثر مباشرة لتفادى خطر التأميم أو خطر فرض الضرائب ورغم واقع أن البنك المركزى لجنوب أفريقيا يتمتع بنظام فعال للغاية لرقابة النقد فقد تضاعفت التحويلات المالية إلى الخارج منذ عدة سنوات. وهناك تقديرات بأن صادرات الرساميل بلغت ٥٠ مليار دولار بين ١٩٧٠ و١٩٨٨، وحسب معلومات كشف عنها البنك المركزى فإن هجرة الرساميل تتسارع. وفيما يتعلق بالشركات الضخمة التى تقع مقارّها فى جنوب أفريقيا فإنه لا يكفيها استثمار رأسمالها فى الخارج. ولكى تحمى نفسها من القرارات الاقتصادية التى قد تتخذها الحكومة الجديدة التى ستتمخض عنها الانتخابات فقد كان من الضرورى أيضا أن تصبح هذه الشركات ملكا لشركات أجنبية. كذلك فإن الشركات عبر القومية لجنوب أفريقيا، مثل أنجلو أميريكان أو رمبرانت، نجحت خلال السنوات الأخيرة فى تأسيس شركات فى أوروبا ستكون مالكة لكافة أسهمها خارج جنوب أفريقيا.

وفيما كان رأس المال الخاص يقوم بإعادة توطين نفسه، قامت الحكومة البيضاء (التى ظلت، حتى تأسيس المجلس التنفيذى للانتقال فى نهاية ١٩٩٣ المسيطرة على السلطة بلا منازع) بإعادة هيكلة الدولة بحيث يجرى الحدّ من قدرة الحكومة القادمة على التأثير على الأنشطة الاقتصادية وفى دولة جنوب أفريقيا، كان النمو الاقتصادى مرتبطا إلى حدّ كبير بالاستثمارات الحكومية الضخمة فى المشروعات الرئيسية للقطاع العام، مثل **إسكون** (إنتاج الكهرباء) أو **ساسول** (المنتجات الكيماوية، بوجه خاص). وفى الآونة الأخيرة، انطلقت الحكومة البيضاء فى تطبيق برنامج للخصخصة يستهدف وضع هذه المشروعات فى مأمن من السيطرة المباشرة للحكومة الديموقراطية الجديدة. وبذلك انخفض القسم الذى تسيطر عليه الدولة من الاقتصاد انخفاضا كبيرا. فى الوقت ذاته، تم تحويل المؤسسات العامة إلى وكالات؛ الأمر الذى منحها المزيد من الاستقلال. وأخيرا، وليس بلا صلافة، منح الموظفون ذوو الأصل الأوروبى لأنفسهم مزايا خاصة، حيث سيكون بوسعهم الحصول على معاشهم بمعدل أفضل مع مواصلة العمل فى الوقت ذاته. وسيؤدى هذا الترتيب إلى زيادة أمن ومداخيل الموظفين، وإلى ترك أزمة فى صناديق المعاشات للحكومة المقبلة.

وقُرْب نهاية السنة الماضية وفيما كانت المفاوضات الدستورية تتجه إلى إصابة الهدف، ظهر عنصر جديد فى استراتيجية النظام فى سبيل الاحتفاظ بالسلطة الاقتصادية: إضفاء الطابع المؤسسى على استقلال البنك المركزى. ومستلهمة اتجاها عالميا، أعلنت العقيدة القديمة الجديدة أن السياسة النقدية مسألة أخطر من أن يجرى تركها للمسئولين السياسيين؛ وسيكون من المفضل بالتالى أن يعهد بالسياسة النقدية دستوريا إلى بنك مركزى يتألف من محافظين غير منتخبين. وفى جنوب أفريقيا، يرتدى هذا التغيير دلالة خاصة: كان البنك المركزى ولا يزال معقلا محافظا، أشد سرية من المعاقل الأخرى وكذلك أقل انفتاحا على الحقائق السياسية الجديدة(١). وحالما تؤثر معدلات الفائدة وتعادلات سعر الصرف والتسهيلات الائتمانية تأثيرا مباشرا فى الاقتصاد بمجمله فإن استقلال السياسة النقدية سيهدد إلى حد كبير بإضعاف وسائل التأثير الاقتصادى للحكومة القادمة. وقد أثارت هذه المشكلة، من جهة أخرى، مناقشات داخل المؤتمر الوطنى الأفريقى وفيما بين مستشاريه الاقتصاديين قبل التوصل إلى تسوية مؤقتة فى سبيل إحراز تقدم فى المفاوضات الدستورية.

والحقيقة أن هذا الإضعاف للسيادة الديمقراطية لا تنفرد به جنوب أفريقيا: العديد من بلدان العالم الثالث تخلت عن مسئولياتها الاقتصادية من خلال اتفاقات يتم التفاوض عليها سرا مع صندوق النقد الدولى والبنك الدولى. وبهدف تقييد

أيدى الحكومة المقبلة، سارت دوائر الأعمال فى جنوب أفريقيا فى نفس الطريق. غير أنه على العكس من أغلب عملاء صندوق النقد الدولى فإن جنوب أفريقيا ليست بلدا من بلدان العالم الثالث يضعه خلل هائل فى ميزان مدفوعاته فى وضع ميئوس منه. على العكس تماما: منذ أزمة الديون فى ١٩٨٥ وتأجيل الدفع (الموراتوريوم) الذى أعقبها، استطاعت جنوب أفريقيا أن تسدد قروضها بفضل فوائض ميزان مدفوعاتها بالذات وهى ليست مدينة إلا بمستوى من أضعف مستويات المديونية لكافة البلدان ذات الأوزان المشابهة. وهكذا إذن فبافتراض أن مشاريع إعادة البناء لدى الحكومة الجديدة تستتبع عجوزات كبيرة فى الحساب الجارى (وهذا غير متوقع)، سيكون من الممكن تماما تمويل هذه العجوزات بمساعدة الأسواق المالية الدولية دون أن تكون هناك أية حاجة إلى اللجوء إلى قروض صندوق النقد الدولى وفقا للمعايير المعتادة. ورغم ذلك فإن المسئولين الاقتصاديين والسياسيين قد تصرفوا بحيث يحكم منح قرض جديد على القادة المقبلين للبلاد بالخضوع لإشراف صندوق النقد الدولى. وهكذا جرى التفاوض فى ١٩٩٣ على الإقراض على سبيل تسهيل التمويل التعويضى.

ومن المفارقات أن النخبة القديمة فى الوقت نفسه الذى كانت تناور بهدف الاحتفاظ بالسيطرة على مفاتيح الاقتصاد فقدت كل مبرر للخوف على ثروتها: الواقع أن المؤتمر الوطنى الأفريقى لا يملك أىّ برنامج جذرى يستهدف تحويل الاقتصاد، أو مراقبة الشركات الخاصة، أو إعادة توزيع الثروة. ورغم أنه عمل فى إطار تحالف وثيق مع الحزب الشيوعى فى جنوب أفريقيا واتحاد النقابات العمالية لجنوب أفريقيا فإن برامجه لم تشر، إلى الآن، إلى أقل معاداة لعالم الأعمال.

ولم يكن هذا ملحوظا فى بداية الأمر. وحتى إطلاق سراح السيد نليسون مانديلا، فى فبراير ١٩٩٠، كان سكان ضواحى بريتوريا، وجوهانسبورج، والمدن الإقليمية، يرون فيه رأس رمح الشيوعيين، والعنصر المحرك الذى انطلق من الكفاح فى سبيل الحقوق السياسية ليشعل ثورة اجتماعية. وكانت الحكومات الغربية تشاطرهم هذا الرأى: هكذا شنت مسز مارجريت ثاتشر هجوم حفاوة إزاء بوتيليزى زعيم الزولو حتى عندما كانت تعامل المؤتمر الوطنى الأفريقى بازدراء.

ولكن المؤتمر الوطنى الأفريقى لم يكن لديه فى الواقع، خلال سنوات المنفى، أية استراتيجية اقتصادية، بل كان بوسع المرء أن يتساءل ما إذا كان قادته لم يفعلوا كل ما كان بمستطاعهم فى سبيل منع أن تمضى الأمور على نحو مختلف. وكان ما يقوم مقام البرنامج لديه هو ميثاق الحرية وهو نص أساسى تم إعداده فى ١٩٥٥ أثناء ذلك التجمع الديمقراطى الكبير والفريد والذى تمثل فى مؤتمر الشعب. وفى هذا الميثاق، وإلى جانب إعلانات المبادىء المؤيدة لحقوق الإنسان، كانت هناك سلسلة من التوجهات الكبرى ذات الطابع الاقتصادى والاجتماعى.

وعندما تم إطلاق سراح السيد نلسون مانديلا، كان أغلب أعضاء المؤتمر الوطنى الأفريقى يعتقدون بالتالى - وكان هذا ما يخشاه القادة البيض - أن عددا من الخطط كالتأميم، وتعزيز نظم الرقابة، وإعادة توزيع الأراضى، سرعان ما ستوضع موضع التطبيق، وفقا للمبادىء التى أعلنها ميثاق الحرية: **«الثروة القومية لبلادنا (...) سيتم ردُّها إلى الشعب؛ الثروات المنجمية، والبنوك، والصناعات، ذات المركز الاحتكارى ستصبح ملكا للشعب بأسره؛ كافة التجارات والصناعات الأخرى ستُوضع تحت الرقابة (...) وستُوزع كافة الأراضى على أولئك الذين يفلحونها تفاديا لأخطار المجاعة والجوع إلى الأرض».**

أساس أيديولوچى جيد الإعداد

ومنذ انخرط المؤتمر الوطنى الأفريقى فى المفاوضات مع السلطة البيضاء، منذ أربع سنوات، فإنه لم يجعل هذه الأهداف (الواردة فى ميثاق الحرية) من عناصر التفاوض على الإطلاق. ويتهيأ مسئولوه لقيادة بلاد ستستمر فيها الأمور كما كانت من قبل. وأمام هذا التغيير المفاجئ للاتجاه يمكن لرد فعل ذى طابع يسارى أن يتحدث عن «الخيانة» أو «الاستسلام». غير أنه فى هذه الحالة الخاصة لا معنى لهذه الاتهامات مادامت تضع الآليات التى سوف يتشكل من خلالها مستقبل جنوب أفريقيا أمام ورطة لا مخرج منها، لأن منظور تحويل جوهرى للنظام الاقتصادى والاجتماعى لم يجر إسقاطه سهوا: لقد جرى إقحام هذا المنظور بصورة منهجية طوال جدال محتدم وسلسلة تأثيرات مدروسة بقدر ما هى فعلية، وقد جرى كلا الأمرين على هامش المفاوضات الرسمية.

وفى ١٩٩٠، عندما صار من الجلى أن المؤتمر الوطنى الأفريقى (الشرعى منذ ذلك الحين) سيصل إلى السلطة، استولى على الشركات الضخمة التى تسيطر على جنوب أفريقيا الشعور بأن هناك خطرين سيهددان رفاهية البلاد: من جهة، التأميم؛ ومن جهة أخرى، الأمل المتفجر فى إجراء تحسين لدخول السود. ولمنع هذين الخطين جرى شنّ معركة أفكار، مستلهمة جزئيا من مثال المجمعات (الشركات المتعددة النشاطات)

الأنجلو أمريكية التى أرادت، عبر آليات المساهمة والمشاركة، إثبات أن الرأسمالية ليست كما يدعى اليسار. وظهرت «سيناريوهات» مستقبلية تستند إلى معطيات اقتصادية ويجرى تقديمها فى شكل سهل الإدراك للغاية لتصبّ فى استنتاج فولاذى: سيكون تحقيق زيادة فى الإنتاج الشرط المسبق لكل تحسين لمستوى معيشة السود، ولن يكون بالإمكان زيادة النفقات العامة، وبوجه عام سيكون المستقبل رهنا باطمئنان دوائر الأعمال. ومن ثم جرى نشر هذه السيناريوهات بين مسئولى المؤتمر الوطنى الأفريقى، والنقابات، وقادة الرأى. وقام مديرو المشروعات الجنوب - أفريقية والأجنبية بتنظيم كافة الاجتماعات والمؤتمرات اللازمة فى سبيل تحقيق أوضح إدراك للأخطار التى ستشكلها التأميمات على اطمئنان المستثمرين.

وانتشرت فى بيئة خصبة تلك الأطروحة التى زعمت أن جنوب أفريقيا أفقر من أن ترفع مستوى معيشة السود وأنه لا ينبغى عمل أى شىء يمكن أن يثير مخاوف دوائر الأعمال. وعلى أىّ حال فقد كان المؤتمر الوطنى الأفريقى حركة تحرر وطنى متعددة التيارات، ولم تزعم ذات يوم أنها ملتزمة بالمبادىء الاشتراكية. حتى الحزب الشيوعى، القوى النفوذ للغاية داخله، بدا متأثرا بخطاب أرباب العمل: فى مارس ١٩٩١، أكد لنا أحد قادته فضلا عن ذلك أن المسئولية الرئيسية لحزبه ستكون احتواء أمانى العمال؛ وأعلن آخر، أثناء اجتماع لاقتصاديى الحزب، أن التأميم لن يكون فى جدول الأعمال (حتى إذا ظل احتمال حدوثه متوقعا من جانب النصوص الاقتصادية للمؤتمر الوطنى الأفريقى).

والحاصل أنه بدا أن الوضع الدولى يؤكد حجج دوائر الأعمال. فقد بدا أن انهيار النموذج السوفيتى - الذى كان يرجع إليه القادة الشيوعيون لإيضاح الصورة التى سيكون عليها اقتصاد جنوب أفريقيا - إنما يبرهن على تفوق المشروع الخاص. كما أن أزمة الاشتراكية الديمقراطية فى السويد والدنمارك تضعف مركز العناصر غير الشيوعية فى المؤتمر الوطنى الأفريقى والتى توقعت أنه سيكون من الممكن، بفضل دولة رفاهية قوية، تحسين مستوى معيشة السكان.

ومجردا على هذا النحو من استراتيجية اقتصادية حقيقية (مثل أغلب حركات التحرر الوطنى)، دخل المؤتمر الوطنى الأفريقى فى بداية التسعينيات فى سلسلة من المباحثات الاقتصادية التى انتهت إلى تقارب هائل فى وجهات نظر مجموع المسئولين السياسيين. واليوم يوافق الجميع على أن الأولوية للنمو الاقتصادى، وأنه يحتاج إلى مشروعات تصديرية تنافسية، وأن إصلاح المسكن، والصحة، والتعليم، يتوقف بدوره على تنمية الإنتاج. أما المسألتان الأكثر تعقيدا، وهما مسألة التأميم ومسألة إعادة التوزيع الواسعة النطاق للأراضى، فلا مكان لهما تقريبا فى وثائق المؤتمر الوطنى الأفريقى. ونحن لا نجد فيها كذلك مشروع إنشاء وزارة أو هيئة مسئولة عن تخطيط الاقتصاد. وحسب إعلاناته فى ديسمبر ١٩٩٣، ليس لدى المؤتمر الوطنى الأفريقى نية لإعادة هيكلة المجمعات العملاقة التى تسيطر على الاقتصاد، ولا لفرض شروط التنافس عليها.

وقرب نهاية العام الماضى، صبّت المشاريع المرتبطة بالمؤتمر الوطنى الأفريقى وباتحاد النقابات العمالية بجنوب أفريقيا فى ثلاثة أنماط من البرامج. برنامج الاستراتيجية الصناعية وهو عبارة عن دراسة قطاعية للسياسات التى من شأنها أن تساعد على النمو. و(مشروع) مباشرة العمل الديمقراطى والذى سيكون بمثابة إطار للسياسة الاقتصادية الكلية، وهو عبارة عن دراسة معدة بناء على طلب مجموعة البحث الاقتصادى الكلى. وأخيرا مشروع لبرنامج إعادة البناء. والحقيقة أن الاستقبال الإيجابى الذى أعدته الصحافة الليبرالية الجديدة باللغة الإنجليزية لهذه المشاريع الثلاثة يرمز بكل جلاء إلى مدى الاتفاق القائم بين المؤتمر الوطنى الأفريقى وحلفائه، من جهة، ودوائر الأعمال، من جهة أخرى.

أما كُتّاب الافتتاحيات الذين حيرهم مدى ضآلة المادة التى يعيبونها على البرنامج الذى قُدِّم لهم فقد كان عليهم أن يلجأوا إلى أحد العناصر المقدمة من جانب مجموعة البحث الاقتصادى الكلى، وهو ذلك الخاص برفض استقلال البنك المركزى، وكأن الفكرة ينبغى وفقا لها أن يصبح هذا الأخير ملكا عاما وخاضعا لإشراف الدولة لا تتفق مع ممارسة مألوفة فى عدد من البلدان الغربية.

مجادلات داخل الحزب الشيوعى

رغم تقارب وجهات النظر بين المسئولين السياسيين، تواصل دوائر الأعمال ارتيابها إزاء أولئك الذين هم، فى نظرها، ساسة. فضلا عن ذلك، بقدر ما يعد المؤتمر الوطنى الأفريقى والمنظمات الأخرى للتحالف ضد الأبارتهيد تكوينات ديناميكية، من وجهات نظر بالغة التنوع، يغدو الخط السياسى لمسئولى المؤتمر الوطنى الأفريقى عرضة لإعادة النظر. والحقيقة أن اتحاد نقابات عمال جنوب أفريقيا وبعض المنظمات الأخرى المنتمية إليه قد طالبت باستراتيجية ذات طابع اشتراكى، بل طالبت، فى بعض الحالات، بتأميم الصناعات الرئيسية.

ويذعن بيان الحزب الشيوعى(٢) أمام ميول المنتمين إليه مانحا دورا للملكية الجماعية وللرقابة الديمقراطية للصناعة أكثر مما تفعل قيادة ذاتها. وحتى داخل المؤتمر الوطنى الأفريقى ذاته فإن المشاريع التى أعدّها مسئولو إدارة الاقتصاد والتخطيط جرى تعديلها فى اتجاه أكثر جذرية من جانب المندوبين المنتخبين(٣).

وفى سياق هذه الأوضاع، ارتأت دوائر الأعمال أنه سيكون أكثر فطنة القيام بتفريغ الدولة من محتواها الجوهرى. فالاتفاق الدستورى سيتكفل بأن يغدو المؤتمر الوطنى الأفريقى مكتوف اليدين: ستستند الحكومة إلى أساس من اقتسام السلطة ولن يكون بالإمكان تبديلها قبل خمس سنوات. وفضلا عن ذلك، يكاد يكون من المؤكد أن مسئولين بيضا عن الاقتصاد اصطنعوا لأنفسهم، منذ حوالى عقد من الزمان، صورة التكنوقراط،سيحتفظون بمركز نفوذ: هناك، على سبيل المثال، السيد ديريك كيز، الذى أصبح وزيرا للمالية بعد فترة من النشاط فى مجال الأعمال، والذى سيحتفظ على الأرجح بمنصبه. أو أيضا السيد كريس ستالز، محافظ البنك المركزى لجنوب أفريقيا، الذى استطاع توطيد علاقات جنوب أفريقيا مع البنوك العالمية رغم العقوبات الدولية، والذى سيقتضى الأمر بقاءه بدوره فى منصبه.

وفى نهاية شهر أبريل الجارى، سيسيطر شعور بالابتهاج عندما تنتقل السلطة بين أيدى شعب جنوب أفريقيا وأيدى حكامه. غير أنه فى الوقت الذى سيتساءل سود هذه البلاد عما إذا كانوا قد ورثوا السلطة الحقيقية فإن دوائر الأعمال فى كل مكان فى العالم سوف يتنفسون الصعداء ■

إشارات

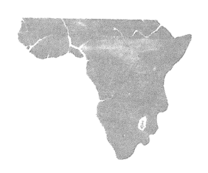
١ ـ إلى ذلك الحين، لم يكن البنك المركزى مستقلا بنص الدستور لكنه لعب دورا هجينا. كان هذا البنك هو المؤسسة الوحيدة تقريبا من هذا النوع فى العالم لأنه كان عبارة عن شركة يتم تسعير أسهمها، المملوكة للقطاع الخاص، فى البورصة ويتم تعيين أعضاء مجلس إدارتها، وكذلك محافظها، بقرار من رئيس الدولة. على أن حريته فى المناورة كانت تتوقف، بوجه عام، على علاقات القوى بين المحافظين والوزراء.

٢ـ Building Worker's Power for Democratic Change, Umsebenzi Publications, Johannesburg, janvie1992.

٣ـ قارن، بهذا الشأن، مع الفصل المخصص للسياسة الاقتصادية فى وثيقة:

" Ready to Govern: ANC Policy Guidelines for a Democratic South Africa"

وهى الوثيقة التى أقرها المؤتمر العام للمؤتمر الوطنى الأفريقى المنعقد فى الفترة من ٢٨ إلى ٣١ مايو ١٩٩٢، والبرنامج المطروح للمناقشة وكان قد نشر فى ٢٧ أبريل ١٩٩٢.



مهمة ضخمة فى انتظار

إعادة البناء الوطنية

كريستن عبد الكريم ديلان

صحفية تعمل فى باريس

قد يصل عدد سكان جنوب أفريقيا إلى ٣٧٫٧ مليون نسمة (وسيصبحون ٤٧ مليونا فى سنة ٢٠٠٠)، منهم ٧٥٪ من السود، و١٣٪ من البيض، و٩٪ من الملونين، و٣٪ من الهنود. وبأغلبيتهم الساحقة، يشكل السود، داخل هذه البلاد، «عالماً ثالثاً»، بالغ التخلف (لا يتلقون سوى ٢٧٪ من الدخل القومى)، وفتياً (٤٦٪ منهم تقل أعمارهم عن تسعة عشر عاما)، ونافد الصبر، بعد سنوات من النضال ومن الحرمان من كافة الحقوق الأساسية. وخلال السنوات الخمس التى سيكون على الجمعية التأسيسية المنبثقة عن صناديق الاقتراع فى ٢٧ أبريل أن تحول فيها الدستور المؤقت الراهن إلى الدستور الدائم، سيتعلق الأمر بالنسبة للمؤتمر الوطنى الأفريقى وحلفائه الحزب الشيوعى واتحاد نقابات عمال جنوب أفريقيا والحركة المدنية بأفضل تحقيق لبرنامج إعادة البناء والتنمية الوطنية المتمحورة حول خمسة أهداف رئيسية: إشباع الحاجات الأساسية، وتنمية الموارد البشرية، وبناء الاقتصاد، ومقرطة الدولة والمجتمع، وتطبيق البرنامج(1).

ويشرح السيد چاى نايدو، رئيس اتحاد نقابات عمال جنوب أفريقيا وعضو قيادة المؤتمر الوطنى الأفريقى، الأمر قائلا: «**يتمثل أحد أهم الأهداف فى أن نضمن لغالبية الناس الذين جرى استبعادهم من الحياة الاقتصادية، والاجتماعية، والسياسية، لهذه البلاد إدخالهم الآن فيها بطريقة تسد حاجاتهم**». وبكلمات أخرى فإن المطلوب هو القضاء على انشطار البلاد إلى قسمين، من خلال حلول سريعة بخصوص الإسكان، والصحة، والتوظيف، والأبنية التحتية الصحية، والتربية. ويمثل الأفريقيون ٩٥٪ من أصل ١٨ مليون نسمة يعيشون تحت خط الفقر، ٦٠٪ منهم فى حالة فقر مطلق. ويبقى ما بين ٨ و٩ ملايين من الأشخاص على قيد الحياة بفضل الإعانة الاجتماعية. وفى حين يمثل السود ٦٤٪ من السكان العاملين فإنهم لا يشغلون إلا

١٥٪ من الوظائف المهنية، أو شبه المهنية، أو التقنية.

ومن المتوقع تطبيق سياسة تقتضى منح الأولوية لتوظيف السود، غير أن هذه السياسة ستصطدم فى الحال بالمستوى الهزيل للتدريب، وحتى بالأمية (٤٨٪ للأفارقة مقابل ١٪ للبيض) وستستلزم تطبيق برامج ضخمة للتدريب وكذلك تحويلا جذريا للتعليم. كما سيكون على هذا البرنامج للتوظيف أن يأخذ فى اعتباره حاجات النساء، أوّل ضحايا الأبارتهيد، والشباب، وأن يتم إدراجه فى إطار مترابط للتنمية الشاملة.

ستون ألف مالك عقارى يحتكرون ٨٧٪ من الأراضى

ومشكلة الإسكان حاسمة كذلك. والواقع أن المدن السوداء الكبرى من كروسرود إلى كيبتاون، من سويتو والإسكندرية إلى جوهانسبورج، إذا اكتفينا بتلك الأوسع شهرة، وخاصة المناطق الواسعة لملاك الأراضى بوضع اليد حيث تصطف أكواخ الصفيح على امتداد كيلومترات، كما هو الحال فى خايليتشا فى الكاب أو أومجاپابا إيتاندا ـ كونجو فى ديربان، الواقع أن هذه المدن والمناطق تعطى فكرة عن العمل الضخم الذى ينبغى القيام به. وسيكون من اللازم بناء مليونين من الوحدات السكنية فى غضون خمس سنوات. وينبغى أن نضيف إلى ذلك التهيئة اللازمة لملايين المساكن فى المدن السوداء وكذلك الأبنية التحتية الصحية.

ووفقا لتقرير لبنك تنمية جنوب أفريقيا، والذى تعتبر تقديراته أقلّ من الحقيقة، لا يستفيد ٤٠٪ من ٢٢ مليونا يشكلون سكان المدن إلا من الحد الأدنى من أنابيب المياه والصرف الصحى، وهو «حد أدنى» لا يتوفر فى مناطق «المساكن غير الرسمية». وأخيرا، فى المناطق الريفية حيث يعيش الآن ١٦ مليون نسمة، هناك ١٤٪ فقط فى متناولهم «مراحيض محسّنة»، و٥٣٪ فى متناولهم مياه صالحة للشرب. وفيما يتعلق بالكهرباء، لا يزال ٦٥٪ من سكان جنوب أفريقيا محرومين منها. وعلى سبيل المثال فإن ١٩٠٠٠ مدرسة (٨٦٪) و١٧٠٠٠ مركز صحى للسود لا تزال محرومة منها.

ويأمل واضعو برنامج إعادة البناء فى تنمية مجتمعات جديدة بالقرب من مواقع الإنتاج، والمراكز الاقتصادية، والمراكز الصحية والتربوية، من أجل إعادة خلق نسيج اجتماعى متماسك، مع أخذ الجانب البيئى والمناخى فى الاعتبار. والواقع أن أكثر من ثلثى مساحة البلاد لا تتلقى سوى ١١٪ من الأمطار، كما أن السدود والأبنية التحتية لتنظيم المياه مرتّبة وفقا لاحتياجات المناطق التى يستثمرها أو يقطنها البيض. وهناك مشكلة كبيرة أخرى هى أن الإصلاح الزراعى يمثل من جهة أخرى واحدة من أخطر الصعوبات التى سيكون على القادة المقبلين حلها. هناك ـ ٦٠ ألفا من الملاك البيض يمتلكون ٨٧٪ من الأراضى المزروعة ويؤمّنون ٩٠٪ من الإنتاج.

وحسب «المؤسسة المدينية»(٢)، يعيش ١١ مليون نسمة من سكان المناطق الريفية تحت خط الحد الأدنى للفقر، معظمهم من النساء. وفى كافة القطاعات، تكون الاختلافات ملحوظة مع السكان السود المدينيين. وهكذا فإن معدل وفيات الأطفال بالنسبة للسكان السود بلغ، خلال الثمانينات، ٢٠٤٪ فى جراهامستاون الواقعة فى المنطقة الريفية، مقابل ٢٧٪ فى جوهانسبورج(٣). ولم يعد من الوارد تأميم الأراضى الزراعية أو تطبيق نظام جماعى عليها كما نادى ميثاق الحرية، برنامج حركة التحرر الوطنى والذى أقره فى ١٩٥٥ مؤتمر الشعب فى كليبتان: يكفل برنامج المؤتمر الوطنى الأفريقى كافة أشكال الملكية. مع ذلك، تبقى كثير من المسائل بلا حل لفرط تعقيد الموقف الذى خلقته قوانين الأبارتهيد فى هذا المجال. وسيكون على الإصلاح العقارى على كل حال أن يستند إلى مبدأين: إعادة توزيع الأراضى السكنية والإنتاجية على أولئك الذين يحتاجون إليها لكنهم لا يملكون وسائل الحصول عليها ـ إعادة الأراضى المصادرة إلى أولئك الذين صودرت منهم. وتتعلق صعوبة أخرى بفقر البيانات الرسمية الخاصة بملكية الأرض.

التلمظ على خامات معدنية

يتمثل قطاع آخر حاسم لإعادة بناء البلاد فى قطاع المناجم الذى يشكل، مع البنوك والمالية، القطب المسيطر لاقتصاد جنوب أفريقيا، والذى يتركز مع ذلك فى أيدى أربع شركات (أنجلو أميريكان، وجينمين، وأنجلو فال، وجولد فيلدز) وشركتين حكوميتين سابقتين (ساسول وإسكور)، والذى تصب فروعه فى كافة مجالات الاقتصاد. وهذه الصناعة المنجمية، المصنفة فى عداد تلك الأكثر غنى فى العالم، لا يزال يغلب عليها إنتاج الذهب، الذى يمثل ٧٠٪ من الصادرات المنجمية و٨٠٪ من الدخول. وفى ١٠ فبراير الماضى، أعلن السيد نلسون مانديلا، فى بروتوريا، أمام المؤتمر الوطنى لاتحاد نقابات عمال المناجم القوى النفوذ، أن: «**الخامات المعدنية لجنوب أفريقيا ستكون ملك للدولة**»، فأثار بذلك عاصفة من الذعر.

ثم اتهم (**مانديلا**) السيد دى كليرك بأنه باع ملكية الحقوق المنجمية للشركات بثمن بخس تحسّباً للتغييرات التى لا مفر منها بعد الآن (اقرأ مقال **لورنس هاريس**). وكما هو الحال بالنسبة

للأرض فإن التأميم ليس واردا. وفى رأى السيد جاى نايدو: «**لا ينبغى النظر إلى التأميمات باعتبارها الأداة الرئيسية. وكان علينا أن نعترف بالواقع. لكننا نعتقد أن هناك دورا بالغ الأهمية تلعبه الدولة فى القطاعات الرئيسية للاقتصاد**». وهكذا فإن «مقرطة» القطاع المنجمى ستمر عبر إقامة مؤسسات داخلة فى إطار تشريع لمكافحة التروستات وفى إطار آليات قانونية. كما أن من المتوقع التعامل مع هذه المواد الأولية محليا.

كيف سيتم تمويل هذا البرنامج لإعادة البناء؟ يعتمد الحكام المقبلون على الموارد الموجودة، التى سيكون من الواجب ترشيد استخدامها وفقا للأهداف والمبادىء المعلنة. وهناك تفكير فى إعادة هيكلة للميزانية وكذلك فى إعادة تنظيم للنظام الضريبى.

وبالإضافة إلى ذلك، سيتم حثّ القطاع الخاص على تمويل مشاريع، خاصة فى مجال المساكن. ويرى عالم الأعمال سوقا ضخمة جديدة تنفتح أمامه، سواء داخل البلاد أم فيما وراء الحدود، ويبُدى تفاؤلا ظاهرا. وفى الغرفة التجارية سجل «مؤشر الثقة» أعلى مستوى له منذ ١٩٨٨. كما ترصد الميزانية الأمريكية التى قدمها السيد وليام كلينتون إلى الكونجرس اعتمادا خاصا قدره ٢٥٠ مليون دولار لتعزيز الاستثمارات الأمريكية فى جنوب أفريقيا.

ويقول السيد جاى نايدو: «**الاستثمارات الأجنبية ينبغى قبل كل شىء أن تجد هنا بيئة مستقرة. إننا نقدم لهم سوقا مفتوحة تماما، ولا تزال متخلفة. غير أننا (كما يوضح) لا نريد مستثمرين ينتهكون حقوق شعب جنوب أفريقيا، إننا نريد استثمارات مضمونة وبالأجل الطويل**».

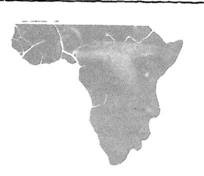
وكما نرى فقد تم استخلاص دروس التاريخ. يقول جيريمى كرونين، أحد قادة الحزب الشيوعى، هذا التنظيم الحاضر بقوة فى مجموع عملية المفاوضات الراهنة: «يمكن إجراء مناقشات جميلة حول الليبرالية، أو الاشتراكية، أو الاشتراكية - الديمقراطية. ولن يكون أىّ نظام من هذه النظم ممكنا إذا لم يكن هناك أوّلا، فى جنوب أفريقيا، إقامة حد أدنى لنظام ديمقراطى. حقا لقد دقت ساعة التغيرات، غير أن هذه «الواقعية» سيكون عليها أن تحمل ثمارها بسرعة بالغة لأن الوضع الاجتماعى متفجر الآن■

إشارات:

١ - Marcro- Economic Research Group (MERG), Making Democracy Work: A Frame Work for Macro-Economic Policy in south Africa, Johannesburg, 1993.

٢ - Urban Foundation, Rural Development: Towards a New Framework, Policies for a New Urban Future, 1991.

٣ - Centre for Health Policy, A National Health Service for South Africa, part 1 and 11, ANC Health Departmrent avec l'aide de l'OMS et de L'UNICEF, A National Health Plan four south Africa.



خلفيات التغير فى موقف

التاريخ يتغير
من جنوب أفريقيا

الحزب الحاكم فى جنوب أفريقيا

أليكس كالينيكوس

قد شهد التاريخ القريب العديد من الانقلابات المفاجئة والدرامية. لكن قلة منها فقط كانت تشكل مثل ذلك المشهد المذهل الذى اتخذه التحول الذى مرت به جنوب أفريقيا. ففى غضون أقل من خمس سنوات انتقل الحزب الوطنى الحاكم من الدفاع بالقوة عن الأبارتهيد، نظام السيطرةالعنصرية، الذى أنجزه خلال أربعة عقود من وجوده فى السلطة، إلى المشاركة فى انتخابات تقوم على أساس صوت واحد للشخص الواحد. وكنتيجة للتسوية التى وافق عليها كل من الحزب الوطنى والمؤتمر الوطنى الأفريقى فإن هذين التنظيمين اللذين كانا يشتبكان فى حرب بينهما بالفعل على مدى عدة سنوات سيخدمان معا فى حكومة واحدة.

ما الذى جعل الحزب الوطنى، بقيادة ف . و . دى كليرك، يخطو هذه الخطوة المجهولة العواقب؟ من الناحية الجوهرية كانت الأزمة العميقة فى مجتمع جنوب أفريقيا هى التى واجهت دى كليرك عندما تسلم رئاسة الدولة فى أغسطس ١٩٨٩ . فمن جهة، كانت انتفاضات المناطق غير البيضاء الكبرى فى ٨٤ - ١٩٨٦ قد أظهرت أن الأغلبية السوداء لم لم تعد مستعدة للعيش فى ظل الأبارتهيد. ولم تعط حالة الطوارئ التى كان قد فرضها سلف دى كليرك، أى ب . و.بوثا، فى يونيو ١٩٨٦، للنظام سوى فسحة قصيرة من الوقت. فبحلول ١٩٨٩ كان التنظيم الجماهيرى والنضالية الجماهيرية يزدهران من جديد.

وكان يشكل أساس انتفاضات أواسط الثمانينيات - وتلك التى كانت قبلها فى ١٩٧٦ و ١٩٨٠ - تغير هيكلى فى اقتصاد جنوب أفريقيا. ومع انتقال السود بصورة متزايدة إلى الأعمال الماهرة لذوى الياقات الزرقاء وذوى الياقات البيضاء تعاظمت قوتهم الجماعية كعمال. وكانت النقابات العمالية المستقلة - المنظمة بصفة رئيسية من خلال اتحاد نقابات عمال جنوب أفريقيا - مكوّنا حاسما من مكونات نضالات أواسط الثمانينيات وكانت العامل الرئيسى فى دعم المقاومة السوداء أثناء حالة الطوارئ.

ومن جهة أخرى، دفعت الأزمة السياسية الرأسمال العالمى إلى اتخاذ قرار بحجب الثقة عن جنوب أفريقيا. وعجّل خطاب مشئوم لبوتا يرفض فيه المفاوضات مع المؤتمر الوطنى الأفريقى فى أغسطس ١٩٨٥ بالهروب الواسع النطاق للرساميل. وكانت جنوب أفريقيا عاجزة عن جمع القروض الأجنبية المطلوبة لتمويل أىّ شىء أكثر من معدل النمو الأكثر بؤسا. وبعد استلام السلطة سرعان ماأدرك دى كليرك أن الطريق الوحيد لإعادة اجتذاب المستثمرين الأجانب إلى جنوب أفريقيا يتمثل فى تحقيق تسوية سياسية مع المؤتمر الوطنى الأفريقى، القوة المسيطرة فى صفوف المقاومة السوداء.

كانت مثل هذه الصفقة تعنى تفكيك الأبار تهيد ومنح صوت واحد للشخص الواحد. لكن دى كليرك كان يأمل فى أنه بالإمساك بالمبادرة واستغلال يد المساومة الأقوى نسبيا (فى أواخر الثمانينيات كان ميزان القوة العسكرية لا يزال لصالح النظام بصورة ساحقة) سيكون بمستطاعه أن يحقق مساومة مواتية لكبار رجال الأعمال البيض، وهم أهم أنصاره.

وهكذا فاجأ دى كليرك العالم - والمؤتمر الوطنى الأفريقى - فى فبراير ١٩٩٠ برفع الحظر عن التنظيمات الرئيسية للمقاومة وإطلاق سراح نلسون مانديلا. وفى المفاوضات اللاحقة ضغط الحزب الوطنى من أجل دستور من شأنه تقييد سلطة الأغلبية فى برلمان منتخب ديمقراطيا عن طريق نقل معظم المسئوليات إلى المقاطعات فى ظل نظام فيدرالى، وعن طريق فرض حكومة ائتلافية دائمة تتشكل من الأحزاب الرئيسية. وفى الوقت ذاته، تعامى دى كليرك، على أقل تقدير، عن حكم الإرهاب الذى تنظمه إنكاثا وحلفاؤها من قوات الأمن فى المناطق غير البيضاء - وقد وضعت هذه الحملة المؤتمر الوطنى الأفريقى فى موقف الدفاع وأضعفت منظماته المحلية.

هل نجحت هذه الاستراتيجية؟ نعم ولا. فلاشك فى أن دى كليرك بالغ فى الاعتماد على قوته فسمح بانهيار الجولة الأولى من المحادثات المتعددة الأطراف فى مايو ١٩٩٢ بسبب مطالبه الخاصة بحق ڤيتو للبيض. وفى الوقت ذاته، أدى العنف فى المناطق غير البيضاء إلى حركة ارتجاعية مفاجئة فى صفوف الأغلبية السوداء. وجاءت نقطة التحول فى أبريل ١٩٩٣ عندما اغتيل كريس هانى، زعيم الحزب الشيوعى لجنوب أفريقيا والذى يعدّ بطلا بين مناضلى المؤتمر الوطنى الأفريقى، على أيدى اليمين الأبيض المتطرف.

وقد أظهر الانفجار الهائل للغضب الشعبى الذى أعقب ذلك فى آن معا مدى التأييد الذى يتمتع به المؤتمر الوطنى الأفريقى وكذلك دوره الذى لاغنى عنه فى ضبط ذلك الغضب. ويقول باتى ڤالدماير فى **الفايننشيال تايمز** إن مقتل هانى: «حوّل بصفة دائمة... ميزان القوة لصالح المؤتمر الوطنى الأفريقى». وكان دى كليرك مضطرا إلى قبول تسوية دستورية لم تعط على وجه الإجمال الضمانات الراسخة للسلطة البيضاء والامتياز الذى ظل الحزب الوطنى يضغط من أجله.

وفى الوقت ذاته يتمثل سبب من الأسباب وراء واقع أن من الواضح أن رجال الأعمال البيض غير منزعجين لغياب هذه الضمانات فى أنها لا تبدو ضرورية. ومنذ فبراير ١٩٩٠ بذل مانديلا وبقية قيادة المؤتمر الوطنى الأفريقى جهودا خاصة من أجل طمأنة الرأسمال المحلى والأجنبى إلى أنهم لا يعتزمون إجراء أىّ تغييرات اجتماعية واقتصادية جذرية. وقد أظهر مَسْح لآراء ١٠٠ من كبار زعماء رجال الأعمال نشر فى جوهانسبورج فى **ويكلى ميل أند جارديان** فى ديسمبر الماضى أن ٦٨٪ منهم أيدوا مانديلا باعتباره أول من يفضلونه رئيسا للجمهورية، ويدل هذا المسح على أن تلك الجهود كانت ناجحة.

فضلا عن ذلك، بدا أن التطورات التى جرت منذ إقرار مسودة الدستور فى نوفمبر ١٩٩٣ تعمل لصالح الحزب الوطنى. فقد قرر تحالف الحرية - وهو ائتلاف متنافر من اليمين الأبيض المتطرف وزعماء مواطن متباينة - مقاطعة انتخابات أبريل. وكان وراء هذه الاستراتيجية التهديد المبطن بالعنف - من جانب الفاشيين من أتباع حركة مقاومة الأفريكان (البيض)، وربما من جانب المتعاطفين العسكريين مع الجنرال كونستاند ڤيلچوين، زعيم جبهة شعب الأفريكان والرئيس السابق لقوات دفاع جنوب أفريقيا، وقبل كل شىء، من جانب أنصار حزب الحرية إنكاثا الممثل لقبائل الزولو.

وأشارت استطلاعات للرأى إلى أن إنكاثا لم تحظ إلا بتأييد أقلية حتى فى الناتال حيث يقطن أغلب الأفارقة الناطقين بالزولو. غير أن لدى إنكاثا تنظيما جماهيريا هائلا تم بناؤه بعون قوات الأمن ويدعمه جهاز الدولة فى موطن الكوازولو الذى يسيطر عليه زعيم إنكاثا جاتشا بوثيليزى. وفى الشهور السابقة للانتخابات كانت هناك تقارير عديدة تؤكد أن فرق إنكاثا، التى تدربها وتسلحها جبهة شعب الأفريكان، تم نشرها فى كل مكان فى الناتال لعرقلة الانتخابات.

وردّت قيادة المؤتمر الوطنى الأفريقى على ابتزاز تحالف الحرية عن طريق عرض سلسلة من التنازلات عليهم بهدف

إقناعهم بالاشتراك فى الانتخابات. وجرى تغيير الدستور الجديد لمنح سلطات أكثر للمقاطعات، ولتعزيز سلطة ومكانة ملك الزولو، ولضمان قيام «وطن» أبيض يتمتع بالحكم الذاتى - كل هذه التدابير التى كانت ملائمة لهدف دى كليرك المتمثل فى الحد من سلطة الأغلبية السوداء فى «جنوب أفريقيا الجديدة». وعلقت **الويكلى ميل آندجارديان** بقولها: «للمرة الأولى سيكون بوسع الحزب الوطنى الآن أن يدعى بعض «الانتصارات» على مائدة المفاوضات».

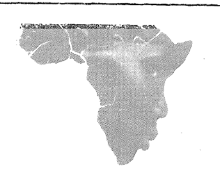
ولحسن الحظ أثبتت الجماهير السوداء كيف يمكنها أن تسترّد فى الشوارع ما فرّط فيه زعماؤها على مائدة المفاوضات. ففى أوائل مارس، قبل الانتخابات بستة أسابيع لاغير، أطاح العصيان الشعبى بلوكاس مانجوبى رئيس موطن البوفوثاتسوانا.

وكان مانجوبى ومستشاره الرئيسى روان كرونچى، الوزير السابق فى النظام الروديسى العنصرى الأبيض السابق، بوصفهما عضوين قياديين فى تحالف الحرية، يرفضان السماح بالانتخابات فى البوفوثاتسوانا. غير أن الحركة التى بدأت كإضراب للموظفين العموميين، خشية أن يحاول مانجوبى سرقة معاشاتهم، تطورت إلى انتفاضة عامة تطالب بإعادة إدماج البوفوثاتسوانا فى جنوب أفريقيا والمشاركة فى انتخابات أبريل. وانضم الطلبة وبقية العمال إلى الموظفين العموميين فى الشوارع.

وعندما تمرد جنوده وشرطته طلب مانجوبى اليائس من ڤيلچوين أن ينقذه. وأصدر ڤيلچوين أوامره بالقتال لعدة آلاف من اليمينيين وبصفة رئيسية من الجناح شبه العسكرى لحركة مقاومة الأفريكان. وبفضل التأييد الشعبى، تمكنت قوات دفاع البوفوثاتسوانا من رد الفاشيين على أعقابهم، وقتلوا فى سياق ذلك أحد «چنرالات» حركة مقاومة الأفريكان.

ووجدت قوات دفاع جنوب أفريقيا نفسها مجبرة على التدخل لاستعادة «النظام» لكن لقاء التخلص من مانجوبى وإعادة إدماج البوفوثاتسوانا فى جنوب أفريقيا.

وتثبت انتفاضة البوفوثاتسوانا أن خدعة أقصى اليمين يمكن كشفها. ولاشك فى أن بوثيليزى خصم أقوى من مانجوبى، غير أنه سيكون لامناص، عاجلا أو آجلا، من مواجهة استئساده وسفاحيه - بالقوة بالتأكيد تقريبا - إذا كان لجنوب أفريقيا أن تحصل على أى نوع من المستقبل الديمقراطى. على أن الانتفاضة كانت تنطوى على درس أساسى أكثر. مرة أخرى كان العمال والشباب السود هم الذين دفعوا سرعة التغيير - كما فعلوا طوال الثمانينيات ثم من جديد بعد اغتيال هانى. فمتى يحصلون على قيادة سياسية تعتمد على قوتهم وشجاعتهم بدلا من السعى إلى كبحهم؟■



المؤتمر الوطنى الأفريقى

التــاريخ يتــغــيــر
من جنوب أفـــريقـــيـــا

من الســــجن إلى البـــــرلمان

تشــارلى كــيــمــبــر

قد ينتظر عندمـــا يفـــوز المؤتمر الوطنى الأفـريقى فى انتـخـابات جنوب أفـريقـيـا فى نـهـاية هذا الشـهـر (أبريل الماضى - المترجم) سيكون ذلك انتصارا لكل شـخـص ناضل ضـد الأبار تهـيـد (سياسة الفصل العنصرى). إن الحـزب الذى أعلن الحـزب الوطنى الحـاكم أنه سيـجـرى «سـحـقـه باعـتـبـاره حـزب الإرهابيين» سـيـصـبح هو الحكومـة. وستكون هزيمة العنصـريين مـدعـاة للابتـهـاج الحقيقى. لكن مانوع التغيير الذى سيأتى به نلسون مانديلا والمؤتمر الوطنى الأفريقى للأغلبية السوداء؟

كان المؤتمر الوطنـى الأفريقى، الذى تم تأسـيـسـه فى ١٩١٢، تحت سـيطرة الزعـمـاء التقليديين - الشـيـوخ القبليين - والمثـقـفين الذين أغـضـبـتـهم السـيطرة العنصـرية المتـزايدة للبـيـض. وكـانوا يريدون بوجه خاص أن ينظموا صفوفهم ضد إلغاء حق غير البيض فى عضوية البرلمان، وضد الإعداد الذى كان يجرى على قدم وساق لإصدار قانون للأراضى يحـدد الملكيـة السـوداء بـ ١٠٪ من مساحةالبلاد.

وعلى مـدى ٣٥ سنة شدّد زعـمـاء المؤتمر الوطنى الأفـريقى على «القـيم المسـيـحـيـة»، واللاّعنف، والمعـاداة المسـمـومـة للشـيـوعـيـة. وكـان أسلوبهم المفضل لمقاومـة العنصرية يتـمـثل فى تقديم الالتماسات إلى الحكومة البريطانية لإقرار المساواة. وكمـا هو متـوقع لم تلق تلك الالتـمـاسـات أىّ اسـتـجـابة.غـيـر أن المؤتمر الوطنـى الأفـريقـى ظل مـخلصـا لمبادئه. وباعـتـبـاره هيابا ومـهـذباً، أدار ظهره للاضطرابات العمالية المتنامية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى. واستخدم أصحاب مؤسسات التعدين والرأسماليون زعـمـاء المؤتمر الوطنى الأفريقى بصـفـة مـتكررة فى إقناع العـمـال بالتـخلى عن الإضـــرابات لصـــالح التـــفـــاوض و «الانضباط».

مـثل هذا التنظيم، لو أنه لم يتـحـول، كـان لا مناص من أن يموت فى أعـقـاب الحـرب العـالمـيـة الثـانيـة. ذلك أن أعداداً كبيرة من العمال السود كان قد تم تعيينهم فى المصانع وأحسُّوا بقوة جديدة. وأظـهـر إضـــراب عـــمـــال المناجم فى ١٩٤٦

بوضوح، رغم هزيمته، وجود مزاج جديد في صفوف العمال المنظمين. بالإضافة إلى ذلك حارب الآلاف من السود في حرب كان من المفترض أنها ستجلب الحرية. وبدلا من ذلك عادوا ليجدوا الإعداد الجاري على قدم وساق للتطبيق الكامل لسياسة صارمة تماما للفصل العنصري - الأبارتهيد.

وطالب جيل جديد من الزعماء بأساليب جديدة للنضال وبروح جديدة للمقاومة. «لم نعد ذاهبين لنتسوّل، إننا ذاهبون لنأخذ»، هذا ماقاله أحد المتحدثين في اجتماع للمؤتمر الوطني الأفريقي في ١٩٤٩. وبفضل هذا التبدل الخطابي استطاع المؤتمر الوطني الأفريقي أن يظل تنظيماً قابلا للحياة. وقد شنّ سلسلة من الاحتجاجات الجماهيرية الملتزمة بمبدأ اللاعنف والمنظمة بهدف اجتذاب السود من كافة الطبقات إلى النضال من أجل الديموقراطية.

وخلال الستينيات والسبعينيات واجه المؤتمر الوطني الأفريقي قمعا صارما من جانب الدولة بل جرت إبادته بالفعل في أنحاء عديدة من البلاد. ولم يجر إحياؤه إلانتيجة للتنظيم العمالي المتعاظم في أوائل السبعينيات والتمرد الطلابي في سويتو في ١٩٧٦ - رغم أنه لم يقُدْ لا الإضرابات ولا الانتفاضة. وبحلول التسعينيات كان قد توطد برسوخ باعتباره القوة الرئيسية المعادية لسياسة الفصل العنصري، محليا وعالميا على السواء. والحقيقة أن التضحيات البطولية لمناضليه (رفض قادته أن ينحنوا أمام السجن، والتعذيب، والموت) كانت تعني أن الأكثرية الساحقة لسود جنوب أفريقيا كانوا يتطلعون إليه ليجلب الديمقراطية.

غير أن المؤتمر الوطني الأفريقي ظل حركة وطنية (قومية) أكثر منها اشتراكية. وكان يشدد على المفاوضات أكثر من الثورة كطريق للوصول إلى الحرية. وقد ألحّ على ضرورة الاحتفاظ بالسُود من كافة الطبقات في حركة واحدة وكذلك على أن تعتدل الطبقة العاملة في مطالبها من أجل الحفاظ على هذا التحالف.

وطوال تاريخه في الآونة الأخيرة ظل المؤتمر الوطني الأفريقي يقوم بألعاب بهلوانية. فمن أجل تأمين التغيير من حكم وحشي إلى حكم مقيد، كان مضطرا إلى أن يقوم على الأقل بتعبئة قدر من قوة الجماهير والعمال. والحقيقة أنه ما كان بمستطاع المؤتمر الوطني الأفريقي أن يصل على الإطلاق إلى مائدة التفاوض لولا الإضرابات، ولولا المظاهرات الضخمة، ولولا التهديد بالإطاحة ليس فقط بسياسة الفصل العنصري بل كذلك بالرأسمالية.

غير أنه في الوقت نفسه كان زعماء المؤتمر الوطني الأفريقي يخشون دائما أن تخرج الأمور من أيديهم، وألاّ تكترث الجماهير بزعمائها عندما يؤون أوان وَقْف الاحتجاجات وبدء الانتخاب لبرلمان يعمل داخل رأسمالية يقودها السود.

ومنذ إطلاق سراحه في ١٩٩٠ ظل نلسون مانديلا يقوم ببراعة بهذه الألعاب البهلوانية. وقد نجح في تركيز اهتمام المؤتمر الوطني الأفريقي على المباحثات مع الحكومة ولم يسمح لشيء بأن يعترض الطريق إلى تسوية مع دي كليرك. غير أنه استخدم أيضا ضغوط العمل الجماهيري لتحسين شروط التسوية وللعمل كصمام أمان لإحباط غضب المناضلين الذين عانوا كثيرا جدا وطويلا جدا. وحقق مانديلا المأثرة الرائعة المتمثلة في أن يظل الزعيم الأسود الأكثر شعبية بكثير وكذلك في أن يكون الرئيس المفضل لأكثرية ساحقة من رجال الأعمال.

وفي بعض اللحظات الحاسمة. تعرضت زعامة مانديلا لتوتر خطير. وبعد مذبحة بويباتونج في يونيو ١٩٩٢ والتي لقي فيها ٤١ شخصا مصرعهم رميا بالرصاص أو تقطيعا بالسواطير على أيدي أعضاء المجموعات الإرهابية التابعة لإنكاثا بمساندة قوات الأمن، طفا إلى السطح كل نفاد الصبر مع بطء سرعة التغيير. وهنا قام مانديلا، الذي انتقده الشباب على تصرفه «مثل الحمل بينما تذبح الحكومة شعبنا»، بوقف المباحثات. ودعا أنصار المؤتمر الوطني الأفريقي في النقابات العمالية إلى إضرابات. غير أنه حالما انتهت حالة الطوارىء استؤنفت المفاوضات.

وتمثلت محنة أقسى بكثير في مقتل كريس هاني زعيم المؤتمر الوطني الأفريقي والحزب الشيوعي منذ سنة. وضمت الإضرابات العفوية والمظاهرات الضخمة الملايين. وكانت البلاد بأكملها في حالة غليان. وأصابت الحركة بالقشعريرة أولئك الرأسماليين الذين كانوا قد ترقبوا انتقالا مستقرا نسبيا من رأسمالية الفصل العنصري إلى رأسمالية يقودها المؤتمر الوطني الأفريقي.

غير أنه، كما كتبت **البيزينيس ويك الأمريكية**:

لقد نجح المؤتمر الوطني الأفريقي في اختبار للقيادة... ذلك أنه وسط الاضطراب كان نلسون مانديلا هو الذي لعب دور رجل الدولة. فعلى مدى ثلاث ليال في الفترة الرئيسية للتليفزيون طالب بالهدوء. وقد بدأ زعماء الأعمال يقدرون دور المؤتمر الوطني الأفريقي تقديرا عاليا.

قامت الشركات بتغطية نفقات كثير من جوانب جنازة كريس هاني. ودفعت شركات التعدين الكبرى بصورة مشتركة أكثر من ١٤٠ ألف جنيه استرليني لهذا الغرض بينما قدمت شركة كوكا كولا المياه الغازية مجانا. ويفسر الأمر مسئول تنفيذي كبير في قطاع التعدين قائلا:

«على دوائر الأعمال أن تقوم بتعزيز مركز ذلك القسم من قيادة المؤتمر الوطني الأفريقي الذين يناضلون في سبيل تحقيق انتقال مستقر نسبيا».

ويشتمل البيان الانتخابي للمؤتمر الوطني الأفريقي على عدد من الوعود الجذرية تماما. فهو يتعهد بطرح برنامج أشغال عمومية تستخدم ٢,٥ مليون شخص على مدى السنوات العشر المقبلة لتوفير المنازل، والمياه، والكهرباء، والمستوصفات، والمدارس، والطرق. ويقول إنه سيكون هناك تخفيض ضريبي لكل من يكسب أقل ٨٠٠ جنيه استرليني في الشهر (الأغلبية الواسعة من السود) وإلغاء ضريبة القيمة المضافة على السلع الأساسية.

على أن زعماء المؤتمر الوطني الأفريقي أوضحوا بكل جلاء أنه لن يكون هناك أيّ هجوم على الرأسمالية. وفي حديث إلى المزارعين البيض ألحّ مانديلا على أنه ليس هناك ما يخشونه من حكم المؤتمر الوطني الأفريقي وأنه لن يحدث تأميم لأراضيهم.

وقال لرجال الأعمال في لندن «أصدرنا قانون استثمار يضمن أنه لن يكون هناك تجريد من الملكية أو الاستثمارات. وسيكونّ من حق المستثمرين الأجانب إعادة حصصهم وأرباحهم إلى بلادهم». وفي الشهر الماضي قال بالوجوردان منسق سياسة التعدين والطاقة في المؤتمر الوطني الأفريقي إنه لم يجر التفكير في تأميم شركات التعدين أو حقوق التعدين. وهناك حديث عن أن ديريك كيز، وزير المالية الحالي، وكريس ستالز، محافظ البنك المركزي، سيطلب منهما البقاء في منصبيهما بعد الانتخابات.

أدت هذه التنازلات الخطيرة للرأسمالية وكذلك القلق المتزايد بشأن مقدار ما سيحصل عليه من الحكومة الجديدة إلى موتمرات نقابية عمالية عديدة ناقشت فكرة حزب عمالي منفصل عن المؤتمر الوطني الأفريقي. وطالبت نقابة عمال الملابس والنسيج بجنوب أفريقيا والتي تصل قوتها العددية إلى ١٧٠ ألف عامل اتحاد نقابات عمال جنوب أفريقيا بقطع علاقاته مع المؤتمر الوطني الأفريقي بعد الانتخابات. وضد نصيحة قيادتها صوتت النقابة الوطنية لعمال التعدين والتي تصل قوتها العددية إلى ٢٢٠ ألف عامل لصالح النظر في تأسيس حزب عمالي وقطع الصلات مع حكومة وحدة وطنية بقيادة المؤتمر الوطني الأفريقي.

لا يعني أيّ شيء من هذا أن العمال لن يصوتوا لصالح المؤتمر الوطني الأفريقي. فقبل كل شيء آخر ليس هناك بديل جماهيري. وفضلا عن ذلك فإن الكثير من العمال سيرغبون في أن يروا المؤتمرالوطني الأفريقي في موضع الاختبار في الممارسة العملية قبل أن يفكروا في التخلي عنه.

على أن هذا يعني حقا أن العمال قد بدأوا بالفعل في الانتقال من السؤال عن كيف يمكن التخلص من الأبارتهيد إلى السؤال عن نوع المجتمع الذي سيعقب الانتخابات. وسوف يظل المؤتمر الوطني الأفريقي كما كان دائما ـ حركة قومية يسيطر على قيادتها السياسية أشخاص يريدون أن يروا رأسمالية سوداء. وبالنظر إلى الأعمال الضخمة المطلوبة لتحسين مستويات معيشة السود فإن سياسات المؤتمر الوطني الأفريقي ستصل على الأرجح إلى مأزق في المستقبل القريب نسبيا.

وقد لا يمّر وقت طويل قبل أن نرى الإضرابات الأولى التي يقوم بها العمال مطالبين بما هو أكثر مما يمكن أن تكون حكومة للمؤتمر الوطني الأفريقي مستعدة لتقديمه. وعندما يحدث ذلك فإن احتمالات نشوء تيار اشتراكي حقا سوف تتزايد بشدة

وفي سبتمبر الماضي ألقى نلسون مانديلا خطابا لافتا للنظر. وفيما كان يخاطب مؤتمر اتحاد نقابات جنوب أفريقيا وضع أوراق مذكراته جانبا في نهاية خطابه وأعلن:

«كم مرة عملت حركة التحرر الوطني سوية مع العمال ثم خانت العمال في لحظة الانتصار؟ هناك أمثلة عديدة لذلك في العالم. فقط عندما يقوم العمال بتقوية تنظيمهم قبل وبعد التحرير فإنه يمكنكم أن تنتصروا. أما إذا استرخت يقظتكم فإنكم ستجدون أن تضحياتكم كانت عبثا. أيدوا المؤتمر الوطني الأفريقي فقط طالما قام بتسليم السلع. أما إذا لم تقم حكومة المؤتمر الوطني الأفريقيّ بتسليم السلع فإنه ينبغي أن تفعلوا بها نفس ما فعلتموه بنظام الأبارتهيد».

وهو محّق تماما عندما يشير إلى عيوب الحركات المشابهة للمؤتمر الوطني الأفريقي. والمهمة التي ينبغي القيام بها هي بناء تنظيم اشتراكي يمكنه أن يقدم بديلا عنه. ■



تلخيص العصر

من الطغيان إلى الثورة

قا هذا موضوع الفصل الثانى والعشرين (جـ٢ ص ص٥٣٦ ـ ٥٩٩).. وعنوانه أيضًا باختصار، يستكمل به ما بدأه فى الفصل السابق.. عن تطور نظام الحكم فى مصر.. وتركزه فى قبضة الفرعون.. .. مع اختلاف تسمية الحاكم.. عبر العهود، يستهلها بمعاودة تحليل «جغرافية مصر الاجتماعية» (ص٥٣٦)، مع التفصيل فى تحليل أيكولوجية المجتمع المصرى.. كمجتمع هيدرولوجى.. نواته النيل، مستندًا إلى متتابعته الواردة فيما سبق من سطور، مع التركيز على تطور دور الحكومة.. وكيفية تسممها بالطغيان (..بدأت الحكومة كوسيط بين الإنسان والبيئة.. وهمزة الوصل بين النهر والفلاح.. هى ضرورة ـ فكرة وأجهزة ـ للتكامل الأيكولوجى، ضرورة كما هى نتيجة.. تتطور لتنتهى عاملا جغرافيًا.. بكل معنى الكلمة، ص٥٣٩)، أى أن الحكومة عامل أيكولوجى أصيل، تستمد شرعيتها من عدالة التوزيع.. فالعدل كما يقول رفاعة الطهطاوى أساس العمران(ص٥٤٠)، ثم يضاف إليها وظيفة حماية العمران.. ومن هنا (عدالة التوزيع + الدفاع) تنبثق ضرورة أن تكون مركزية.. فى تتابع تنفرد به مجتمعات الأنهار.. خاصة من يتعرض منها للفيضان، ولب المركزية هنا أن المياه مؤممة.. يملكها الجميع.. فكيف يمكن بغير المركزية أن تدار.. وأن يحمى العمران من الغزو والفيضان؟ (.. ذلك إذن توجيه البيئة الفيضية.. وتأثيره السياسى.. وهو توجيه طبيعى وصحى وحكيم، ولا علاقة بينه وبين الانحراف للطغيان، فإذا وقع.. فلابد أن نبحث عن الأسباب،ص ٥٤٦).

ويعود فى بحثه عنها للجذور.. إلى بداية تكوين «النظام الاجتماعى المصرى» (ص٥٤٦)، مستهديًا فى تحليله بثلاث نظريات، النظرية الإقطاعية، النظرية العبودية النظرية الآسيوية (ص٥٤٩). منتهيا إلى ارتباط تجذر الطغيان فى مصر.. بتحول ملكية الأرض بعد المياه. إلى الحاكم (الذى أصبح يملك الأرض وما عليها.. والكل يخضع له خضوعًا مطلقًا كاملا. ص٥٥٢)، وكان لابد أن يتبع ذلك تكييف هيكل النظام.. بما يناسبه ويحقق مقاصده، وهكذا نبتت البيروقراطية (ص٥٥٦) من الأوتوقراطية،



فى شخصية مصر

عمر الفاروق

وأحاطت ذاتها بقداسة الكهنة (٥٥٧).. وبرجال الجيش (٥٥٨).. وبطبقة عليا غير أرستقراطية.. مرتبطة بالفرعون (٥٥٩).. وتكاد هذه التحالفات القديمة أن تشكل صلب هذا النظام.. الذى بقى بعد ذلك عشرات القرون.

وقد ضاعفت أحادية النظام الاقتصادى المصرى (الزراعة).. من تصلب هذه البنية الإقطاعية (... فنظرًا لأحادية البيئة النيلية.. فقد حد ذلك من نمو طبقة من التجار والصناعيين.. بدرجة يمكن أن تنافس الإقطاع المتسيد، ص٥٦٦)، ويضيف.. (.. وليس من الصعب أن ننتهى من هذا.. إلى أن مصر لم تستغل موقعها الفريد كما ينبغى وركزت أساسًا على الموضع، ولو فعلت فلربما تغير تاريخها وشخصيتها بعد ذلك، أى أن الانطواء الزراعى القابع داخل قوقعة الموضع.. كان من عوامل استمرارية الأوتوقراطية واستشراء طغيانها، وبعبارة أخرى لو أن مصر ركزت أكثر على استثمار الموقع كما ينبغى.. لأنقذها الموقع من نتائج تحريف الطغيان وتشويهه لإمكانيات الموضع، ص٥٦٧)، وبذا يذكرنا بمعادلة القوة المصرية (الموضع × الموقع) كأساس لتقدمها.

ويفسر الطغيان الداخلى.. وقوع مصر المتكرر الطويل تحت سيطرة الاستعمار، فحين ينهزم النظام.. تسقطه مصر.. وتستبدل طغيانا بطغيان، بل وسرعان ما يتحالف الطغيان الخارجى.. مع الداخلى.. فى معظم الأحيان.

(الأتراك مع المماليك على سبيل المثال، ص ٥٦٧)، ومع انقطاع الصلة بين الحكام والمحكومين..لا تجاوز المسألة تغيير نظام بنظام، دون أن يعنى ذلك التهوين من قدرة الشعب المصرى على التصدى فى الحالين، فتاريخه سجل حافل بالهبّات والثورات.. ولكن بطريقته الخاصة على مر التاريخ (.. ذلك لأن مصر بحجمها جسم ضخم لا يتحرك باندفاع متهور.. بل بدفع محسوب، ولذا فإن ثوراتها الشاملة.. وإن كانت قليلة العدد نسبيا.. إلا أنها فاعلة حين تقع ومحطمة.، ص ٥٦٨)، وهكذا ينفى أن يكون الطغيان قرينا.. مصر الاجتماعية.. (ص ٥٨٠) بل هو ضد روحها الكامنة، وضد روح المكان Geniusloci ، ولا يجاوز كونه انعكاسا لطبيعة Zeitgeist عصر من العصور، عرفته المجتمعات البشرية.. كل فى مرحلة معينة.. بأدرانه تصاب، هو إذن لا يعبر عن روح المجتمع المصرى، ولا يمكن أن توصم روحه الوادعة وأصالته المنظمة.. بأنها استجابة فطرية.. لما عرفته من طغيان.. فى فترة طويلة من تاريخها (.. لا حتم جغرافى إذن فى الطغيان، ص ٥٨٣)، وإنما هى انحراف السلطة المركزية عما عهد إليها به، هذا عدا ما أضافه الغزو الأجنبى والاستعمار، أما الأصل.. أى المجتمع المنظم.. فالديموقراطية روحه، قوامها عدالة توزيع المياه والأرض بين سكانها، ديموقراطية سياسية واجتماعية واقتصادية معا فى آن..) ص ٥٨٤ - ٥٩٩، وبذا يحدد من الخصائص.. ما يفسر التاريخ البعيد والقريب.

ورغم إقراره الموضوعى بما يمكن أن يخلفه الطغيان والاستعمار.. من رواسب وشوائب (ص ٥٨٤) فى شخصية المصرى ومجتمع المصريين، إلا أنه يتصدى لجملة من «النظريات الخاطئة» (ص ص ٥٨٦ - ٥٩٣) .. تسعى لدمغ

تلخيص العصر فى شخصية مصر



شخصية مصر فى الضميم، وبعد ما يستقرىء التاريخ.. يقرر (.. غير أن الحقيقة التاريخية التى تثبتها مرارا وتكرارا تجربة ألفى سنة.. ما زالت مستمرة معنا حتى اليوم، وهى أن كبرى الآفتين ليست الاستعمار الأجنبى.. ولكنه الحكم الداخلى المطلق.. إنه وجه مصر القبيح، ص ٥٩٥)، وهى الحقيقة التى سوف يستند إليها بعد ذلك فى كثير مما يلحق من الفصول، بالإضافة إلى ما حدده منها فيما سبق من فصول، يظهر ذلك على الخصوص فى الفصلين (٢٣، ٢٤، جـ ٢)، وذلك حين يعود إلى تحليل شخصيته السياسية عبر العصور، متسائلا فى أولهما (.. كيف تحولت مصر من أول إمبراطورية فى التاريخ .. إلى أطول مستعمرة عرفها التاريخ؟. ص٦٠٣)، وتقتضيه إجابة السؤال خوض غمار قرابة أربعين قرنًا من الزمان، يتابع فيها دورات الازدهار والانتكاس بالتفصيل، دون أن يكف عن إجراء المقارنات الموحية بين مصر وغيرها من قوى العالم القديم، وحين يتوصل إلى إجابته.. تظهر كنظرية (تخلف الموضع عن الموقع، ص٦٤٢) صالحة دائمًا للتفسير (.. لقد تكشف المعمور المتمدد عن قوى جديدة.. وقواعد أرضية وبشرية من مقياس أضخم من المقياس المصرى، وقد وجدت هذه القوى أن المفتاح يرقد دائمًا فى أرض الزاوية.. تلك مصر، ومن هنا أصبحت قبلة الغزاة، ونظرًا لأن وزن موضعها لم يعد يسعفها إزاء هذه القوى الأكبر جرمًا.. فقد وقعت مصر فريسة لها، بمعنى آخر.. إن الانقلاب الذى حدث فى مصير مصر.. هو أن خطر موقعها قد زاد كثيرًا عن قوة موضعها، لقد تخلف الموضع عن الموقع.. ولم يواكب تطوره، ولم تعد إمكانيات الأول التقليدية.. ترقى إلى متطلبات الثانى الباهظة، ص٦٤٣).. تخلف الموضع عن الموقع إذن إجابته. وهى أيضًا نظريته الثرية بلا جدال.

ويطبقها بعد ذلك فى الفصل الرابع والعشرين (ص ص٦٥٤ ـ ٦٨٩).. الذى يخصصه للاستعمار الأوروبى الحديث متابعًا علاقاته مع مصر.. منذ الحملة الفرنسية، فالاستعمار البريطانى (٦٥٩) وتزايد نسبة الأجانب (٦٦٧).. وتأثيره فى المجتمع المصرى، وفى الجوانب الاقتصادية المختلفة (وبالنسبة للأجانب فإنهم كانوا وظلوا مجتمعًا مغلقًا. منقولا بجذوره وبيئته.. ومناخه الحضارى والاجتماعى، باختصار جزر أوروبية فرضت على الأرض المصرية قطعة من أوروبا فى مصر.. التى لم تصبح على أية حال.. قطعة من أوروبا ص٦٧٤)، وبقدر مايظهر هذا الفصل استمرارًا لسابقه.. ومجالا لتطبيق نظريته، فإنه يمهد أيضًا للفصل اللاحق له (٢٥ ص ص٦٩٠ ـ٧٧٧.) ويخصصه لدراسة «**شخصية مصر الاستراتيجية**». متوجًا بها الباب الخامس من الجزء الثانى من كتابه وبه يكون قد أفرد ستة فصول كاملة

(٢٠ ـ ٢٥).. أى مـــا يزيد على ٤٠٠ صـفـحـة (ص ص٣٦٣ ـ ٧٧٧) لدراسـة شخصية مصر السياسية.

فماذا يقصد من عنوان هذا الفصل **«شخصية مصر الاستراتيجية»..** على وجه التحديد؟

(.. الآن وقـد درسنا مـراحل وأدوار تاريخ مـصـر الجـيـوبوليـتيكى.. مـا بين إمبراطورية ومستعمرة، وحللنا معانيها ودلالاتهـا، نحن فى مـوضـع يسـمح لنا بالتـعـمـيم بعد التـخـصـيص، لننفـذ إلى أعماق شخصية مصر الاستراتيجية ككل وكإقليم من الخارج، ولنحدد جوانب القوة والضعف فيـها، ثم لنضع مصر كقوة سياسية فى الميزان.. بما فى ذلك دورها ووزنـها السـيـاسى، ثم أخيـرًا.. لنقيم ونقنن أركان وقواعد استراتيجية مـصـر من الداخل، حـتى نصل من ذلك جميعًا إلى مؤشرات للعمل المستقبلى.. تفيد فى تخطيط أهدافه.. لاسيـمـا فى الصــراع المصـيــرى مع إســرائيل ص٦٩٠).

ومرة أخرى.. وليست أخيرة .. يضع قـاعــدة (الموضع × الموقع) أسـاسًـا لتحليلاته وتفسيـراته، باعتبارها لب شخصيـتهـا الاسـتراتيجية.. مـحل الدراسة.. (..الحقيقة العظمى فى كيان مصـر.. ونقطة البدء لفهم شخصيتها الاسـتـراتيجـيـة .. هى اجـتـمـاع مـوقع جغرافى أمثل مع موضع طبيعى مثالى، وذلـك فــى تـنــاسـب أو تــوازن نــادر، ص٦٩٠)، ويفـيض فى إثبـات ذلك.. من زوايا جـديدة، تحلل دوائر القــوة فى المناطق المحيطة.. مسجلا هذه الحقيقة (..مصر كانت دائمًا مركز دائرة وقطب قـوة.. ولم تنزلق إلا نادرًا لتـصبح على هامش دائرة أخرى، وبحكم مـوضـعـهـا (السـهل المـتنع) ومـوقـعـهـا (الصـعب الممتنع).. فإنها تصعد منحنى القوة كقوة إقليمية، إذا ما وظفت إمكانيات موضعها

ـ إذا كان آفة الدين رجاله، فإن الحل هو رجل الدين المثـقف، المطلوب طبقـة عصرية من رجل الدين هى رجل الدين المثـقف، أى المثـقف ثقـافـة مـدنيـة، وضـعيـة، علمـيـة، علمـانيـة، رجل الدين العلمـانى وعـالم الدين العلمانى.

جمال حمدان

وموقعها جميعًا، فذلك مفتاح الماضى مثلما هو دليل المستقبل، ص٦٩٣).

وتحت عنوان «خــريطة الخطر» (ص٦٩٣)، يتابع ماتعرضت له مصر من أدوار الغزو والاستعمار (.. لقد عاشت مــصــر دائمًـا أو غــالبًـا فى خطر..)، ويتناسب الخطر الخارجى تناسبًا طرديًا مع أهميـة الموقع، ولم يكن ذلك سلبيًا.. فقد نضـجت شخصـيـة مصر بقـدر ما تعـرضت له، وهـو يحـمـل دوائر الخطر وحلقاتها.. ويدلل عليها عبر تاريخها، متوصلًا إلى عدد من الخصائص يراها دائمة، من أهمها العلاقة الاستراتيجية العضوية بين مـصـر والشام (ص٦٩٨) وبذا فـإن الدفـاع عن مـصــر يبـدأ من طوروس (ص٦٩٨).

ويسـتـغرقـه بعد ذلك تحليل وتفنيد عـدد من النظريات الخـاطئـة (ص٧٠٣)، من قـبـيل نظرية «أطول مسـتـعـمـرة» (ص٧٠٤)، ونـظـريـة الـنـضـج المـبـكر والشـيـخـوخـة المبكرة (ص٧٠٦)، ونظرية المقـاومـة السلبـيـة (ص٧٠٧)، ونظرية الشعب غير المحارب (ص٧١١)، ونظرية «جناية الموقـع » (ص٧١٤)، تفنيـدًا قـويًا يثبت به خطأها وصواب ضدها.

وفى اتجـاه تحليل «مـصــر كـقـوة سياسية» (ص ٧١٦)، يتابع وزنها عبر تاريخـهـا، مـحددا ذبذباته وارتفـاعـاته وانحـداراته، مـسـتندا إلى مـعـادلتـه الأساسية (الموضع × الموقع)، حيث إن من شأن تنمية موارد الموضع والموقع أن ترفع بداهة من المحصلة، ولقـد حـققت مصر بالنسبة لشق المعادلة الأول خـلال القرن الماضى ما دعمه حقا، سواء فى مــجـال الزراعــة (ثورة الرى الدائم ص ٧٤٠) التى بلغت نهايتها بالسد العالى، أو الصناعة التى قطعت فى مضـمـارها شـوطا لايسـتـهـان به، وذلك «خـريطة الخطر» المحيطة بهـا.. والتى لاتكف عن محـاولة إجـهاضـهـا وتبديد تراكمـاتها، سواء من جانب الاسـتعمـار العـالمى أو إسرائيل، وفى الوقت نفسه فإنها رغم ما حققته.. فقد كان العـالم المتقدم ينمو بمعدلات أكبـر.. تضـاعف المسافة بينه وبينها (.. لقد كانت مصرطوال العصر الحديث.. فعليا وفى حدذاتهـا فى نمو مطرد.. حـجـمـا ووزنًا وقـوة وسكانًا وتحضـرًا وتمدنًا، بيد أنهـا كـانت تجد نفـسـهـا فى تناقص وتراجع وتخلف مطرد، لالشيء سوى أن العالم كان ينمو

خارج كل حدود.. ص٧٣٩)، وبالنسبة للموقع. فقد ملكت مصر موقعها باستعادة القناة، وبذا يمكن إحلال (السد العالى + القناة) محل معادلة القوة المذكورة، باعتبارهما أعلى ما حققته مصر فى تاريخها الحديث.

وتحت عنوان سياسة مصر الخارجية (ص٧١٧) يقرر (..إن تكن الجغرافية وراء السياسة مقولة صحيحة، فلعل سياسة مصر الخارجية تعكس شخصيتها الاستراتيجية.. ربما أكثر مما تعرف دولة أخرى (ص٧١٧)، ومن ثم يتابعها ويقسمها (.. يمكن أن نتعرف على ثلاثة مراحل رئيسية من السياسة الخارجية المصرية، تمثل فى جوهرها أبعادًا جغرافية فى الدرجة الأولى، وبالدقة أبعادا متوسعة متزايدة على التعاقب: مرحلة السياسة المحلية، مرحلة السياسة الإقليمية، مرحلة السياسة العالمية، ص ص٧١٨ ـ ٧٢٣)، وبعد تحليلها تاريخيًا وجغرافيًا وجيوبولوتيكيًا ـ يستخلص ما يسميه أجرومية أو قواعد سياسة مصر الخارجية فى خمسة مبادئ أو قوانين.. تدور تباعًا حول العلاقات والمحاور الآتية (القوة والعزلة أولا، العزلة والعرب ثانيًا، العزلة والاستعمار ثالثًا، العزلة والتحجيم رابعًا، المجال الطبيعى..)، وتوضح درجة **ثقل العزلة**.. فى هذه الأجرومية، وتمثل بالطبع الوجهة السلبية فى السياسة المصرية الخارجية، ومنها يخلص إلى قاعدته الأساسية فى هذا الشأن (.. تتناسب قوة مصر السياسية تناسبًا عكسيًا مع درجة عزلتها وانغلاقها داخل حدودها، وطرديًا مع مدى انطلاقها خارج حدودها، ص٧٢٣).

وفى متابعة شائقة لدور مصر ووزنها فى المراحل أو الدوائر الثلاث.. منذ القرن التاسع عشر عامة، وما بعد الحرب العالمية الثانية خاصة.. يتوصل

تلخيص العصر فى شخصية مصر



إلى ما يسميه المجال الطبيعى (ص٧٢٦)، ويتمثل فى العالم العربى على وجه التحديد (.. والبعد الأمثل لسياستنا الخارجية هو البعد الإقليمى الذى يرادف العالم العربى..).

وكما يضع الخطوط تحت مسألة العزلة، يضع مثلها تحت الدائرة الإقليمية من دوائر سياستها الخارجية، وبالذات المجال العربى منها (.. ويتحدد دور مصر ووزنها فى الدوائر الإقليمية بعامة.. والعربية بخاصة، ص ٧٤٣) ويتابع دورها تاريخيا حتى المرحلة المعاصرة التى يرى مصر فيها وقد تدهورت.. ليس من حيث الدور وإنما من حيث المكانة أيضًا، ويعود بتدهور المكانة إلى البترول، وبتدهور الدور إلى الصلح مع إسرائيل (ص٧٤٤)، ويضيف إلى أهمية استعادة مصر لدورها الإقليمى.. مجموعة من الأسس يراها بمثابة قواعد دور مصر السياسى (.. لا أمان ولا مستقبل لمصر إلا بالقوة الذاتية، القوة العسكرية والمادية والاقتصادية، سواء على مستوى الموضع أو الموقع، سواء فى الداخل أو الخارج، ص٧٤٠)..

ولا ينتهى الموضوع عنده بذلك.. بل يعاود طرحه من زاوية جديدة.. تحت عنوان «قواعد استراتيجية»..(ص٧٤٦)، يحاول الإلمام فيها (بتركيب مصر الجيوستراتيجى)، مستهلا ذلك بإثبات ما ينطوى عليه هذا التركيب من عناصر قوة البر والبحر معًا، ويتحلل عمقها الاستراتيجى (ص ص٧٤٧ ـ ٧٥٥)، ومنتهيًا إلى ما يسميه «مفاتيح مصر الاستراتيجية» (ص ص٧٥٥ ـ ٧٧٧)، ويحددها بداية فى (سيناء فى الشمال الشرقى ومرمريكا فى الشمال الغربى، والنوبة فى الجنوب. ص٧٥٥)، غير أن سيناء تستأثر بجل اهتمامه، حيث يخضعها لدراسة مستفيضة، توظف كافة المعلومات عنها لزاويته الجيوستراتيجية المختارة، مع الربط عضويًا بينها وبين القناة ووادى النيل، وفيما يلى بعض أهم ما أورده فى هذا المجال.

● (..لم يترك الفراغ العمرانى سيناء.. أرضًا جاهزة لمعركة العدوان وملائمة لأغراضه فقط، ولكنه تركها نهبا للأطماع الاستعمارية الآن وفيما مضى، وبصفة عامة يمكن القول إنه كان هناك دائمًا عدو ما يشكك بطريقة ما فى مصرية سيناء.. ويطمع فيها بصورة ما.. بالضم.. بالسلخ.. بالعزل أو بغير ذلك. لن نذكر هنا البيع أو الإيجار..) ج٢، ٧٧٣.

●● (.. من الوجهة الاستراتيجية البحتة.. فلم يعد معنى لأن يتوقف ارتباط سيناء بمصر الوادى عبر القناة .. على كوبرى سكة حديد قابل للتدمير.. ثم للتدمير بعد إعادة البناء، لابد من سلسلة أنفاق تحت القناة تحمل شرايين المواصلات مثلما تنقل المياه، فمثل هذه الأنفاق تعد مجازيًا بل عمليا، بمثابة إعادة تحقيق للاستمرارية والوحدة الأرضية بين الوادى وسيناء ولرقعة

مصر الجغرافية السياسية عمومًا.. رغم وجود القناة..) جـ٢ ،ص٧٧٧.

●●● (اهتبلت إسرائيل فرصة النكسة لتحقيق خططها القديمة والموضوعة لوراثة القناة نهائيًا، ومعروف أن إسرائيل كانت تهدف دائمًا إلى سرقة موقع مصر الجغرافى، وتحلم بأسر تجارة المرور منها وتحويلها إليها..) جـ٢ ص٨٠٦.

●●●● (.. القناة محكوم عليها بالخطر..«الراجع»..، وموقعنا مهدد أبدًا وبانتظام بالإجهاض والشلل الجزئى ما بقيت إسرائيل، ومن ثم يصبح المبدأ الاستراتيجى الأول فى نظرية للأمن المصرى هو مرة أخرى: دافع عن سيناء.. تدافع عن القناة ـ تدافع عن مصر جميعًا، ولاضمان بالتالى إلا بذهاب العدو، غير أن هذه قضية متروكة للمدى البعيد) جـ٢ ،ص٨١٠.

ويقرر فى الخلاصة (.. وعلى هذا نستطيع.. وفى الختام أن نعبر عن الموقف الجيوستراتيجى كله فى إيجاز.. فى سلسلة من المعادلات الاستراتيجية على النحو التالى:

ـ من يسيطر على فلسطين.. يهدد خط دفاع سيناء الأول.

ـ من يسيطر على خط دفاع سيناء الأوسط.. يتحكم فى سيناء.

ـ من يسيطر على سيناء.. يتحكم فى خط دفاع مصر الأخير.

ـ من يسيطر على خط دفاع مصر الأخير.. يهدد *الوادى*.

وهذه بالضبط نواة نظرية الأمن المصرى (ص٧٧١) فى صياغته الأخيرة.

فإذا كان وجود مصر يستند إلى هاتين الدعامتين:

* الموضع.. ومحوره النيل.. بكل ما أدى إليه من اقتصاد وعمران.

* الموقع.. فى هذه الزاوية نادرة المثال من العالم.. ورمزها قناة السويس.. فما هى درجة صلابة الدعامتين؟ وما هى درجة متانة مايعلوها من بناء؟.

«العلمانية هى العقلانية بلا زيادة ولا نقصان، وضد العلمانية هى ضد العقلانية، بينما الدين الإسلامى دعوة إلى العقل وعلى أساس العقل»..

جمال حمدان

الأساس والبناء

يخصص الباب السابع من الجزء الثانى لدراسة «البناء الحضارى والأساس الطبيعى» (ص ص٧٨١ ـ ١٠١٨)، ويتضمن ثلاثة فصول (٢٦، ٢٧، ٢٨)، ويخصص أولها لدراسة «موقع مصر الجغرافى»، ويأتى الثانى تحت عنوان «هبة النيل»، ويكمله الثالث بعنوان «ضبط النيل»، يمهد لها جميعها بمقدمة قصيرة، يستهلها بهذا السؤال الموحى (.. ما الأساس الطبيعى لبنائنا الحضارى الشامخ الذى أقمناه عبر العصور، بكل محمولاته من غطاء عمرانى وكيان اقتصادى إلى تراث مادى وهيكل اجتماعى؟.

هل هو يقوم على أرض صلبة بحيث تتكافأ قوة الأساس substructure مع عظمة الصرح superstructure وما هى نقط القوة والضعف فيه؟ (ص٧٨١).

ويحدد من بعد سؤاله طريقه بسؤال آخر (.. ما طبيعة ونوعية العلاقة فى كياننا البشرى بين الحضارة والبيئة، وبين المصنوع والمطبوع وبين التاريخ والجغرافية ؟، وتأتى الإجابة فى معادلة بسيطة (.. تستمد مصر أساسها الطبيعى من عنصرين جوهريين.. الموضع والموقع، الموضع هو الوادى المعمور المزروع بموارده وإنتاجه، والموقع يتمثل فى تجارة المرور.. وتلخصه وتلخصها الآن قناة السويس غير أن هناك زواجا جغرافيًا آخر كاملا ووثيقًا وليس يقل خطرًا بين النيل والبحر المتوسط، وقد أثمر هذا الزواج الجغرافى السعيد مصر.. أم الأمم.. أم الحضارة.. أم التاريخ.. أم الدنيا، ص٧٨٢)، غير أنه يحدد من فوره نقطة الخطورة (..إن الكيان المصرى يستمد أصوله من مصادر خارج الحدود سواء فى ذلك الموضع أى الوادى الزراعى، أو جانب الموقع أى تجارة المرور، ص٧٨٣)، وبذا يضع يده على صميم دراما شخصية مصر.. وينطلق منها إلى تحليلاته.

قلب العالم

وكما سبقت الإشارة.. فإن الفصل الأول من هذا الباب يخصصه «لموقع مصر الجغرافى»، واضعًا فوقه عنوانا (قلب العالم) وتحته عنوانا (عبقرية الموقع)، ويستهله بما يسميه معادلة الموقع..(إنها لاتمتاز فقط بالموقع المركزى المتوسط فى قلب الدنيا القديمة، ولابالموقع المدخلى أو موقع البوابة فحسب، ولكن أيضًا بالموقع العقدى البؤرى، ص٧٨٤)، ويقتضيه تفسير ذلك رحلة طويلة، تبدأ بتحليل الموقع

الجغرافى الطبيعى (ص٧٨٤)، ومقارنة الموقع والموضع(ص ٧٨٧) وتذبذب الموقع (ص٧٨٨)، ودورات الموقع وأدواره (ص٧٩٠)، منتهيًا إلى دور القناة.. باعتباره الدور الأخير (ولكنه وحده ثورة كاملة، ص٧٩٦)، فبالنسبة لمصر.. (كان أبسط معنى للقناة أنها جددت شباب موقعها الجغرافى، ص٧٩٧)، ويتابعها بإسهاب منذ بدايتها الأولى (.. قد لا نبالغ كثيرًا إذا قلنا إن تاريخ مصر الحديث المفعم المتضاغط.. إنما هو فى التحليل الأخير تاريخ القناة، ص٧٩٨)، ويربط بينها وبين الاستعمار العالمى (ص٧٩٩)، ثم بينها وبين البترول (ص٨٠١)، وبالخطر الإسرائيلى (٨٠٥)، ويحذر من الخطر الإسرائيلى الراجع، ويؤكد معادلته بأن من يدافع عن سيناء يدافع عن القناة، وبعبارة أكثر مباشرة (..لا أمان لقناتنا ولاضمان بالتالى لموقعنا الجغرافى إلا بذهاب العدو (ص٨١٠).

● **القناة وبدائلها**

وبعد ذلك وإلى نهاية الفصل دراسة موضوعية للقناة، وتحليلا دقيقًا لبدائلها المطروحة ويطلق عليها التحديات الثلاثة (ص٨٢٨)، وتتمثل فى (متغيرات البترول، خطر الأنابيب، الناقلات العملاقة ص ٨٣٣، منتهيًا إلى (..أن كل الأخطار التى يمكن أن يتعرض لها موقع مصر عارضة ومفتعلة.. وليست نابعة من طبيعته، ص٨٧٥)

وفى الفصل الثانى من هذا الباب (هبة النيل).. يتناول الشق الثانى من معادلة الوجود المصرى..، أى الموضع، ويستهله بمقولته (.. مصر هى النيل)، ويعدد ما يسميه «بالمزايا العشر» (ص٨٧٨) للنهر، بمعنى المقومات الطبيعية التى تجمعت له من منابعه لتؤدى به فى النهاية إلى مصبه فى مصر، ومن أهمها بطبيعة الحال (ثنائية

تلخيص العصر فى شخصية مصر



المنابع، الماء والطمى)، ويلخص ذلك كله فى (.. كما تتركز كل قوة مصر فى وادى النيل.. تتركز كل قوة حوض النيل فى مصر، ٨٩١).

وتحت عنوان «بيئة الرى المثالية» (ص٨٩٢).. يقرر(.. وها هنا وعلى وجه التحديد.. نصل إلى جوهر الوجود المصرى وصميم كيان مصر وأساسها الطبيعى، فمصر ليست فقط بيئة فيضية متداخلة نموذجية، وإنما هى النموذج المثالى لتلك البيئة الجغرافية، وهنا يجرى مجموعة من الحسابات الطريفة يجسد بها النهر، فهو يعادل من حيث المكافئ المطرى ٩٥ بوصة، وتبلغ جملة مسطحه المائى ربع مليون فدان، يضاف إليها نصف مليون آخرلشبكة الترع بمستوياتها والمصارف (جملة أطوالها ١٢٥ ألف كم ص٨٩٥)، بما يعادل ثمن جملة الأراضى الزراعية (٦مليون فدان)، فإذا ما أضيف إليها بحيرتا ناصر والريان.. لبلغت مساحة المسطحات المائية المتصلة به أكثر من ٢ مليون فدان، أى أن أكثر من ربع مساحة الوادى هى مسطحات مائية، ومن ثمة يضيف لمسة عميقة إلى موضع مصر (.. إن الماء والطين يتلازمان ويتقاسمان أرض الوادى وثيقًا فى الداخل.. مثلما يتلازم الطين والرمل من الخارج، ص٨٩٥)، ثم يتبعها بأخرى (.. بيئة مصر مطبوعة superimposed على اللاندسكيب الطبيعى، لايكاد شبر منها يخلو من بصمات أصابع الإنسان أو لايتشبع بعرقه، ص٨٩٧).

غير أن لموضعها مشكلاته أيضًا، هذه يحددها ترتيبًا.. فى أن مصدر وجوده يأتيه من خارجه، كما أن مائية هذا المصدر ترتبط بالمناخ البعيد المتذبذب.. الذى ينعكس فى دورات فيضانه على مر عضورها (..تراجيديًا بالفيضان ص٩٠٣..)، هذه التى يقننها فيما يسميه «النبض الهامشى» (ص٩٠٩)، بمثابة قانون أيكولوجى marginal vibrance لأن وقعه أوضح ما يكون فى هوامش المعمور منها فى قلبه (.. بما يدل على أن النهر ضابط إيقاع جوهرى للعمران فى مصر الفيضية،ص ٩٠٩).

ويتابع فى رحلة تاريخية طويلة «عملية استزراع مصر» واتجاهاتها (ص ص٩١٠ ـ ٩١٩) يختمها بأن نهاية قانون النبض الهامشى قد ارتبط بثورة الرى الدائم فى مصر.. وأن «السد العالى» قد وضع نقطة ختامه بالفعل.

ولأن السؤال الأساسى فى هذا الباب.. هو عن الدعائم الطبيعية للبناء الحضارى فى مصر، فإنه ينتقل إلى تحليل متانة دعامته الطبيعية الوحيدة.. كما تتمثل فى مياه النهر، وذلك تحت عنوان «الماء والسياسة» (ص٩٢٤)، حيث يناقش الماء «كسلاح سياسى»، محددًا لب القضية فى هذه العبارة (.. كقاعدة عامة يرى البعض أن دول المصب.. مثل مصر.. هى بالضرورة فى الموقف الأضعف جغرافيًا. فى حين أن دول

المنبع فى الموقف الأقـــوى، ص٩٢٥)، ويتابع هذه القضية تاريخيًا بصفة عامة.. وفى مرحلة الاستعمار بصفة خاصة، وبالأخص (السياسة البريطانية المخططة العامدة للإكثار من السدود والخزانات والمشاريع المائية والزراعية فى السودان، ص٩٢٨)، وخاصة خزان سنار وجبل أولياء (.. بما يمكن من التحكم فى إيراد مياه النهر، ص٩٢٩)، عدا ما يثار أيضًا بشأن منابع النهر فى أثيوبيا، ويتصدى للقضية مستندًا إلى الحقوق القانونية التى تكفلها اتفاقيات توزيع مياه النيل بين دول الحوض من ناحية، وإلى ضمانات الطبيعة (ص٩٣١) من ناحية ثانية، هذه التى تتمثل فى ثنائية المنابع أولا، وفى استحالة كبح المياه الحبشية ثانيًا (٩٣٢)، وفى أن الطبيعة قد وزعت هباتها (المطر + النهر) بعدالة بين دول الحوض الثالث، بحيث يظهر دور النهر محدودًا للغاية بالنسبة لدول المنابع الوفيرة المطر بالفعل، بما يحقق ما يسميه «الكفاية الطبيعية» للجميع (ص٩٣٦)، ومن ثم يحدد استراتيجية مصر المائية فى (مبدأ حسن الجوار + وحدة المصلحة بين دول الحوض + السد العالى)، وبتوضيح متانة هذه الدعامة الطبيعية الثانية (الموضع) بعد أن أوضح متانة الأولى (الموقع)، ينهى هذا الفصل.

وبعد ذلك.. لايعدو الفصل الثالث من هذا الباب (ضبط النيل) أن يكون فصلا مكملا لما سبقه، يحلل فيه أسس البناء الحضارى أو الصرح.. الذى شيدته مصر فوق دعامتين راسختين، وتحت عنوان «تطور الرى المصرى» (ص٩٤٤) يتابع مراحل الفن الزراعى.. فى رحلة تاريخية كدأبه، تبدأ من فجر التاريخ فى مصر، حيث يحددها فى مراحل أربع (ص ص٩٤٥ ـ ٩٦٧)، يضيف خلالها

وليكن هذا أيضا دور المسيحية العربية على وجه العموم فالأقلية المسيحية فى العالم العربى خاصة والعالم الإسلامى عامة هى جسور طبيعية ممهدة وممددة بين الإسلام والمسيحية والغرب والعرب، لنوظف أقلياتنا لتحصين غالبيتنا، ..

جمال حمدان

العديد من اللمسات إلى قسمات شخصية مصر (الرى الصيفى، مرحلة الترع بلا قناطر، مرحلة الخزانات والقناطر، خزان أسوان..)، منتهيًا إلى السد العالى (٩٦٨) الذى يخضعه إلى دراسة مستفيضة كموضوع شبه مستقل، يبدأ معه منذ ولد كفكرة، منتقلا إلى تحليل موضعه (٩٦٩)، ثم مائيته(٩٧١)، ثم هندسته (٩٧٣)، ثم نتائجه (.. السد واللاندسكيب ص٩٧٧)، هذه التى يحددها فى ثلاثة (نظام النهر، البحيرة الصناعية، نمط العمران، ص٩٧٧)، ويفصل فى نتائجه المادية والاقتصاديه (ص٩٩٨).. مبتدئًا بتقرير (.. النتائج الإيجابية لاتقل بالطبع عن انقلاب كامل..)، مثبتًا ذلك هيدرولوجيًا وزراعيًا وكهربيًا، أما آثاره الجانبية (ص١٠٠١) فيلخصها فى معادلة واحدة (.. أن السد قد استبد بمجاعة الماء.. مجاعة الطمى..) بكل ما يترتب عن الأخيرة.. من مشكلات تدهور الخصوبة وتآكل السواحل والنحر ونقص المادة اللازمة لطوب البناء ـ وهجرة السردين (ص١٠٠١)، ومن ناحية غير مباشرة.. فالسد قد جعل من مياه الترع الرائقة مرتعا للنباتات.. التى تفقده نحو ٤٠٪ من مياهه (١٠٠٢)، كما أنه لا يحمى مصر من خطر الفيضانات العالية (وإن كان مفيض توشكى قد تكفل بهذه المشكلة)، وكذلك فإن ما يوفره من مياه.. يدفع إلى الإفراط فى الرى (ص١٠٠٣)، كما أدى إلى تفاقم مشكلة الصرف.. بسبب كما سبق (الإفراط فى الرى + اختفاء الفيضان ميكانيكيًا + نوعية المياه كيفيا)، ويقترح مواجهتها بتدعيم نظام الصرف، وتقوية قناطر النهر، وجسوره، والانتهاء، من مفيض توشكى، والتخصيب الصناعى للتربة، وحماية سواحل الدلتا من التآكل (ص ص١٠٠٣ ـ ١٠٠٨). كما يقترح إنشاء قناة جانبية لاستعادة الطمى (١٠١١)، وفى المحصلة وتحت عنوان «السد فى الميزان». يرى بأن (السد هو قمة الرى الدائم.. وهو بهذا قمة مزاياه مثلما هو قمة عيوبه، ولهذا فكما أن السد نفسه ليس الكلمة الأخيرة فى الرى المصرى، فإن المستقبل وحده هو الذى سيقول الكلمة الأخيرة، والحكم النهائى فى أمر السد، ص١٠١٨).

وبذا ينهى الفصل الأخير (الثامن والعشرين) وكذا الباب السابع.. والجزء الثانى من كتابه الكبير.

ثالثًا: شخصية مصر الاقتصادية:

بهذا يعنون الجزء الثالث (٩٧٣ صفحة) من كتابه الكبير، والتكامل مفتاحها.. من بعد (البساطة + التجانس).. بالنسبة لشخصيتها الطبيعية والبشرية.. على الترتيب، يضعه فى باب واحد (الثامن، ص ص١١ - ٩٧٣)، ويصنفه إلى ثمانية فصول (من ٢٩ إلى ٣٦)، يخصص الأول منها لتحديد خصائص خريطة الاقتصاد المصرى.. كما أسفرت عنها تطوراته وتغيراتها.. منذ عهد محمد على.. ومشروعه الاقتصادى الكبير، ويخصص **للزراعة المصرية** ثلاثة فصول.. (ص ص١٧٦ - ٥٣٨).. عدا ما سبق منها فى الجزء الثانى.. تحت عنوان التجانس المادى (فصل ١٦، ص ص٥٩ - ١٦٦)، رصيدًا يعود دائمًا إليه، ويخصص **للصناعة** فى مصر.. أيضًا ثلاثة فصول.. تتيح دراستها بقدر مناسب من التفصيل، من حيث التطور والتوزيع والتركيب الهيكلى والمشكلات، ثم يخصص الفصل الأخير.. للثروة المعدنية وصناعة التعدين.

والتكاملية عنده فى المعنى الأخير.. لاتقتصر على تكامل عناصر البنية الاقتصادية فى المكان.. أى من حيث التوزيع، بل هى تتواصل بالتطور عبر التاريخ، وتتوثق وظيفيًا بتبادل المزايا والاستثمار.. وإضافة القيمة للزراعة بالتسويق والتصنيع، كما تترابط عضويًا مع غيرها من مقومات الشخصية المصرية.. تتبادل التأثر والتأثير.. داخل الإطار الحضارى العام، هى إذن تكاملية متشعبة ممتدة.. جغرافيًا وتاريخيًا ووظيفيًا وعضويًا .. فذلك ما يعنيه.. ويسعى لإثباته فى هذا الجزء من مشروعه العام.

تلخيص العصر فى شخصية مصر



ولا تختلف معالجته لشخصية مصر الاقتصادية عن شخصيتها البشرية، وتتفق نظرته إليهما من حيث استنادهما إلى قاعدة طبيعية.. شكلت خصائصهما الأساسية، بما يعنى أساسًا مشتركًا لها جميعها، كما لا تختلف أدواته التحليلية.. كما تتمثل فى المتابعة والمقارنة التاريخية، على طول منحنيات تكشف عن بداياتها وتحدد محصلاتها، متضمنة ذبذباتها وتغيراتها، وما تنطوى عليه من نقاط الضعف والقوة، هى أيضًا لاتختلف من حيث نحت الصياغات الرامية إلى تلخيص نتائجها.. فى عبارات مشحونة بفكره، بمثابة أوتاد يرتكز عليها ويعود إليها، وهى أخيرًا لاتختلف من حيث الرؤية النظرية العامة.. الهادفة إلى التوصل لمحاور التوازن بين مكونات هذه الشخصية بما يسمح لطاقاتها أن تتفاعل وتتواصل وتتصاعد.. دون أن تختل علاقاتها أو يتهتك نسيجها.

وبقدر ما استوعبت مقولته الأساسية عن «التجانس».. عناصر شخصية مصر البشرية وأبرزت مضمونها، بقدر ماعبرت مقولته الأساسية فى هذا الجزء عن «التكامل».. واتسقت مع عناصر شخصيتها الاقتصادية ، والواقع أنه لم يستغن عن التجانس إطلاقًا.. بل جعل منه قاعدة للتكامل لاغنى عنها، ومن هنا فإنه يستهل تحليله لشخصية مصر الاقتصادية بعنوان له دلالته (جـ٣ ص١٣) عن «الأساس الطبيعى» للاقتصاد المصرى.. باعتباره لحن القرار فى عمله كله، مرددًا عبارة تكررت كثيرًا عن أحادية بيئة مصر المعمورة.. مضيفًا إليها (.. وقد انعكس هذا على الاقتصاد المصرى فكان هو الآخر أحاديًا زراعيا..) وبذا تتكامل أيضًا نظريته العامة عن شخصية مصر من الجذور الطبيعية (النهر والبيئة الفيضية).. إلى الجذع البشرى (الريف).. إلى الفروع والثمار، وبعد أن يطمئن إلى سلامة البناء.. ينطلق إلى التفصيلات.. متابعًا التغيرات الكمية والنوعية، ومحددًا المحصلات الراهنة.. ومشيرًا إلى مقومات تطويرها فى الختام.

أبعاد التطور الاقتصادى:

كما سبق فإنه يخصص الفصل الأول من هذا الجزء (فصل ٢٩ ص ص١٧ - ١٧٥).. لما يعنونه «بخريطة الاقتصاد المصرى»، يبتدئها بقراءة «تطور الاقتصاد الحديث»..، يمهد لها بتحديد خصائصها التى ارتبطت بها منذ وجدت.. وحتى بدأت تطورها الحديث (... جوهر الزراعة المصرية تاريخيًا.. يتمثل فى كونها معاشية Subsistence Ecnomy أى غذائية كسائية، ثم هى مغلقة اكتفائية.. تهدف لتحقيق الكفاية الذاتية.. وليس التبادلات التجارية، ص١٣)، وكانت التجارة محدودة.. قد أضعف منها.. ضرائب الدولة المركزية.. التى كانت تنزح النسبة الكبرى من فوائضها.. إلى مخازنها

لتحقيق أهدافها، ورغم ما أفضى إليه ذلك من إعاقة النشاط التجارى والصناعى، إلا أنه قد حقق نوعًا من التوازن.. كفل لهذا المجتمع الوجود والاستمرارية التاريخية (.. إن الاقتصاد الزراعى يبقى بلا شك.. الأساس المادى الصلب لقوة مصر التاريخية.. ورخائها وتفوقها، وكونه اكتفائيا هو نقطة قوة.. ولا يجوز أن يعد نقطة ضعف.. كما يظن الذين ينظرون غير منصفين بمنظور اليوم، ص١٤)، وسيعود إلى هذه النقطة عندما يناقش قضية الكفاية الذاتية.. التى تعد الآن من أهم مشكلات مصر، غير أن استمرارها كنقطة قوة.. يجب أن يقترن بتنميتها وتطويرها.. وتنويعها ومضاعفة فوائضها، بحيث تؤدى إلى دوائرها التكاملية، هذه التى تتمثل فى دائرة الصناعة الوطنية.. ودائرة التجارة الخارجية، دون أن يكون ذلك على حساب الكفاية، أى دون أن يختل التوازن بين الدوائر الاقتصادية الثلاث للزراعة (الكفاية + التجارة+ الصناعة)، ويعود إلى معادلته الأساسية (الموضع × الموقع) فى شخصية مصر، حيث يرى أن مصر (لم ترتفع تمامًا إلى مستواها. من حيث استغلال موارد الموقع.. بالتجارة أساسًا.. إلى القدر الذى وصلته بالزراعة فى استثمار موارد الموضع، ولو قد فعلت لتغير اقتصادها.. وبالتالى كيانها جذريا، ولعاشت تاريخها منذ وقت مبكر على ساقين من الزراعة والتجارة.. بدلا من ساق الزراعة الأحادية، بل ولانفتح بذلك وبعد ذلك أيضًا.. مجال الصناعة.. كما حدث فى أوروبا، ولتغير باختصار كل تاريخها ومصيرها على الأرجح، ص١٦).

بهذا يضع يده على جذور المشكلة الاقتصادية المصرية المعاصرة؛ وإذا كانت مصر قد دخلت منذ القرن الماضى.. مرحلة من التطور الجذرى..

هذا شعار المسلمين للمسيحيين، أساس التعايش السلمى بين الديانتين هو الاعتراف المتبادل، الاحترام المتبادل، الإخاء المتبادل، ديانتان وعالم واحد، ثقافتان وحضارة واحدة، نحن معا ووحدنا فقط الذين صنعنا الحضارة القديمة والحديثة .

جمال حمدان

فإنها جاءت متأخرة.. فضلا عن أنها اضطرت (لاقتراض اقتصادها الحديث من أوروبا، ص١٦).. مما سيؤدى رغم المحصلة الإيجابية.. إلى مشكلات متفاقمة كما سيأتى.

والآن.. وقد بدأ الاقتصاد الحديث منذ أوائل القرن الماضى.. مع انقلاب الرى والزراعة... فهل يمكن تقسيمه منذ بدأ إلى مراحل متمايزة؟، ويجيب.. (..يمكن أن نقسمه إلى ثلاث مراحل: مرحلة الاقتصاد الانقلابى.. نسبة إلى انقلاب محمد على، فالاقتصاد الاستعمارى.. مع الاستعمار البريطانى والاقتصاد الثورى.. مع ثورة يوليو، ص١٧)، وقد أدت جميعها إلى تغير الاقتصاد المصرى تغيرًا جذريًا.. يصفه بأنه (..يكاد يصل إلى حد الانقلاب الكامل، ص١٧)، ويفيض بعد ذلك فى تحليل خصائص كل مرحلة منها، ويحدد فى سياقه.. ما يعتبره نقطة التحول الكبرى فى تاريخ مصر الاقتصادى.. تلك هى (الحرب العالمية الثانية وما تلاها، ص١٨)، هى الحد الفاصل بين ما يسميه الاقتصاد القديم.. بما فيه عصر محمد على وما أعقبه من تغيرات شملت الزراعة والتجارة، وحتى نقطة التحول التى يبدأ بها الاقتصاد الجديد.. ومحوره الصناعة، ويكثف تحليلاته ومتابعاته (الاقتصاد القديم أولًا.. كان اقتصاد زراعة أساسًا، وزراعة محصول واحد، بهدف الكفاية ثم التصدير منذ عصر محمد على تحديدًا وصناعة محدودة، صناعة بلا معادن تقريبًا، وارتد الاقتصاد زراعيًا فحسب.. ولكنه اكتفائى تمامًا.. معظم المرحلة الاستعمارية. أما الاقتصاد الجديد.. فيكاد يكون الآن اقتصاد صناعة أولا.. وزراعة فى المحل الثانى، وزراعته زراعة تصنيع بدلا من التصدير، إلا أنها غدت بعيدة جدًا عن الكفاية، أما صناعته فصناعة إحلال محل الاستيراد، ولأول مرة صناعة وتعدينًا معًا.. لاصناعة بلا معادن، ص١٩)، وتنطوى هذه الفقرة المكثفة.. على جملة المنحنيات التى يتابع عليها تطور الاقتصاد المصرى، ويستند إليها فى معظم تحليلاته التالية.. فى

فصول الباب الثامن من كتابه، ويعود إلى هذا الاقتصاد الجديد فى سياق آخر، يكشف فيه عن مقوماته وعيوبه..

.. ويتلخص جوهر الاقتصاد الجديد فى أنه جمع لأول مرة بين ثلاثة أبعاد أساسية: الزراعة الكثيفة ذات المحاصيل الجديدة التجارية، والصناعة الحديثة على أسس عصرية عريضة، ثم أخيرًا التجارة الخارجية التى تربط بين الزراعة والصناعة، وتربطهما بالسوق العالمية الجديدة، وبذلك كله لم يعد الاقتصاد المصرى أحاديًا بصورة معوجة تمامًا مثلما كان من قبل، كما كان فى ذلك بداية ارتباط الاقتصاد المصرى كله بالاقتصاد الغربى أو الأوروبى العالمى (جـ٣ ص٢١).

فإذا أضفنا إلى هذه الثلاثية الأساسية.. ثلاثية البترول وثروته التى احتلت صدارة الاقتصاد كله، ثم تحويلات المصريين الوافدة من خارج الحدود، فضلا عن موارد السياحة، لصح أن نقول إن شجرة الاقتصاد المصرى المعاصر.. إن لم تكن بمثابة شجرتين توءمين، فإنها أجدر أن تشبه بالنخلة: الزراعة جذورها، والصناعة ساقها، والتجارة فروعها، بينما البترول والتحويلات والسياحة عراجينها. (جـ٣، ص١١١).

وبوجه عام فإن هذا الاقتصاد الجديد بجوانبه.. كان على ضخامته أشبه بقطاع عصرى فرض فرضًا على قاعدة اقتصادية تقليدية عتيقة، بلا علاقات عضوية وثيقة تمامًا، ولذلك كان اقتصادًا ثنائيًا Dual Economy بمعنى تعايش صرح عصرى مع قاعدة عتيقة.. فى حالة تجاور أكثر منها حالة تفاعل (جـ٣ ص٢١).

هذا البناء الضخم يعانى من الأساس إلى الصرح العديد من العيوب والثقوب والشروخ والشقوق بعضها

تلخيص العصر فى شخصية مصر



موضعى ثانوى وبعضها عميم خطر، ولكنها فى مجموعها تتركه مخلخلا، وبعض هذا الخلل كامن فى تركيب وهيكل الاقتصاد نفسه، وبعضها تراكمى فى تطوره ونموه غير المتكافئ أو المتوازن، غير أنه على الجملة يترك الاقتصاد كله زاخرا بالمتناقضات والتشوهات والتقلصات الغريبة، (ص١١١)، هذه التى تفاقمت مع التحول الحاد المفاجئ.. بالانفتاح فى سياسة الدولة الاقتصادية العامة، ويؤكد الصورة (.. وجماع ذلك فى المحصلة العامة، هو أن مصر تحولت ببساطة من الإقطاع القديم إلى الرأسمالية الفردية، عبر مرحلة انتقالية من رأسمالية الدولة أو الاشتراكية الحكومية) ويتخذ من هذا الميراث المعقد المتناقض.. مدخلا كما سيأتى.. لتحديد مشاكلها الاقتصادية العديدة.

والواقع أنه يوجه عنايته فى الفصل الأول من جزئه الرابع (فصل ٢٩ ص ص١٧ ـ ١٧٥)، إلى تغيرات الاقتصاد المصرى.. بعد ثورة يوليو بصفة خاصة (مرحلة الاقتصاد الثورى، ص٤٤)، فبعدما ينتهى مما قبلها، يتوجه لها.. بفقرة مكثفة تكشف نظرته ومدخله.. ثم يتابعها تفصيلا.. (ففى الاقتصاد.. كما فى السياسة.. جاء يوليو بمعطيات جديدة، أقلها ما تحقق.. وأكثرها ما تحقق عكسه، بحيث انقلبت هى على نفسها، وانتقلت من النقيض إلى النقيض تمامًا، ص٤٤)، ويضيف.. (لكنها لاتخلو مما يجعلها موضوعيًا.. شبه ثورة اقتصادية حقيقية بمعنى ما، ص٤٥). ويقسمها إلى مرحلتين (الانطلاق والانزلاق.. بديلاً عن الانغلاق والانفتاح، ص٤٦)، على طرفى النقيض، تشغل كل منهما نصف المرحلة تقريبًا، ويحدد إيجابيات الأولى.. فى سعيها نحو الاستقلال الاقتصادى (ص٤٧)، ومحافظتها على الأمن الغذائى والصناعى (ص٥٠)، واعتصامها بالاستقلال المالى (ص٥١)، وهى بذاتها سلبيات المرحلة الثانية، مدعمًا مقولته بالمؤشرات الإحصائية.. المستندة إلى أرقام الجداول، كما يتخذ من الإصلاح الزراعى فى المرحلة الأولى (ص٥٧) مقياسًا يجرى عليه مقارناته، ويربط ما بين دور البترول العربى وبين التحول للمرحلة الثانية (الانفتاح).. أو الانحراف نحوها على حد تعبيره.......

... من المحقق أن البترول العربى ـ ممثلا فى تحويلات المصريين العاملين فى دوله، فضلا عن تأثيراته وانعكاساته وعدواه هو الذاتية، خاصة بعد طفرة عائداته الخرافية منذ ١٩٧٣، كان أكبر عامل خارجى منفرد أثر فى الاقتصاد والمجتمع المصرى مباشرة وغير مباشرة، مثلما كان أكبر عامل منفرد فى توجيه ـ أو إن شئت فقل تحريف ـ سياسة مصر الخارجية تجاه العدو الإسرائيلى، وبوضوح أكثر.. البترول العربى عامة هو أكبر سبب فى انحراف السياسة المصرية خارجيًا نحو السلام،

وتحويلات البترول العربى خاصة هى أكبر سبب فى انحراف الاقتصاد داخليا نحو الانفتاح.

وعلى الجملة.. فإن البترول العربى بحد ذاته وبتحويلاته.. قلب كيان مصر رأسًا على عقب وحتى النخاع مرتين، من الخارج ومن الداخل.. أفقيًا ورأسيًا، خارجيًا: إذ قلب مكانة مصر فى العالم العربى من الصدارة والعروبة والصراع.. إلى الصلح والعزلة والعراء، وداخليًا: حيث قلب جزئيًا نظام الطبقات وترتيبها الاجتماعى، فجعل بعض عاليها وسطها، وبعض وسطها سافلها، وبعض سافلها وسطها أو عاليها، ص٦٥).

ومع «**الإصلاح الزراعى**» كمؤشر إيجابى عن المرحلة الأولى، **ودور البترول** كمؤشر سلبى عن المرحلة الثانية، يجرى نوعًا من المقابلة المقارنة بين التنمية الصناعية الإنتاجية، واستهلاكية الانفتاح الاقتصادى (.. ففى عصر أصبحت فيه القوة الصناعية هى نواة وعتاد وزناد القوة الاقتصادية الضاربة، كان من الضرورى تحقيق الأمن الصناعى كجزء من الأمن الاقتصادى العام، ولعل هذا يفسر الإصرار على إقامة نواة للصناعة الثقيلة بحسبانها أساس الصرح الصناعى برمته، جنبًا إلى جنب مع القطاع العام كصاحب الدور القيادى فى التنمية جميعًا. ورغم أن الاستقلال الصناعى الكامل أو شبه الكامل لم يكن واردًا، فإن القطاع العام الجديد مع بداية التخطيط ـ على علاتهما ـ أثبت قيمة كبرى حين ساعد بصورة عملية على صمود مصر سياسيًا واقتصاديًا بل وعسكريًا.. فى وجه الضغوط الخارجية العنيفة.. خاصة بعد هزيمة يونيو.. جـ٣ ص٥١).

ورغم أن سياسة الانفتاح إنما فرضت لتنشيط ودفع الاقتصاد الوطنى

التعليم..

ـ فى كل الدنيا ـ أوروبا وأمريكا أيضًا ـ هناك الآن وحتى اليوم وكان هناك دائما تعليم دينى خاص، تخصص لقلة محدودة جدًا من المتعلمين لتغذية الجهاز الدينى (أى الكنيسة) وهناك طبعًا من التعليم المدنى الكاسح ويشمل ٩٩ ٪ من المتعلمين لأنها علوم الدنيا أى الحياة.

جمال حمدان

فى مجمله، فإن سياسة الباب المفتوح والإغراق بالاستيراد، وتشجيع القطاع الخاص والرأسمالية الوطنية ورأسمالية الشركات متعددة الجنسيات.. أصابت الصناعة الوطنية والقطاع العام.. بنكسة خطيرة على أقل تقدير، أبسط مظاهرها مخزون الراكد الصناعى الذى قدر بنحو ٣ ـ ٤ آلاف مليون جنيه، كما انعكس فى تراجع كثير من خطوط الصناعة المحلية فى التصدير بما فى ذلك حتى غزل القطن ومنسوجاته، وحتى القليل من الصناعات التى دخلها الانفتاح اتجه إلى الصناعات الكمالية ولا نقول الطفيلية كالغازيات والمرطبات، بالمقارنة إلى الصناعات المهمة كالنسيج والسكر والحديد، بينما هرول أكثره إلى النشاطات غير الصناعية أصلا، كالأعمال التجارية والخدمات العامة.. سريعة الربح والعائد جـ٣ ص ٥٥ ـ ٥٦).

وتحت عنوان «أزمة مصر الاقتصادية».. التى يصفها بأنها تبدو (.. مثل كومة معقدة من الخيوط المتشابكة.. ص١١٩)، ثم يحصرها فى خمس مشاكل محددة:

- الانفجار الاستهلاكى (ص١١٩).
- التضخم: الإنتاج والدخل القومى والفردى (ص١٢٥).
- الديون الخارجية (ص١٣٠).
- المرافق والخدمات (ص١٣٥).
- الغلاء (ص١٣٦).

وبعدما يتابع كل مشكلة منها تاريخيا وتحليليًا ورقميًا.. يضع عنوانه الختامى فى هذا الفصل (مفاتيح الأزمة ص١٤٦)، مقررًا.. (.. ورغم كل ما سبق ذكره.. فإن أزمة مصر الاقتصادية قابلة للحل.. وذلك فى إطار سياسة قاطعة صارمة.. تهدف إلى تعظيم الإيجابيات وتحجيم السلبيات فى الهيكل الاقتصادى الراهن، تعظيم الادخار والاستثمار والإنتاج والدخل القومى والفردى إلى الحد الأقصى، وتحجيم الإنفاق والاستيراد والاستدانة، ويمكن أن نضيف الأسعار بل والسكان إلى الحد الأدنى ص١٤٩)، ويؤكد (.. تستطيع

مصر أن تضاعف دخلها القومي مرات.. وذلك بالتصنيع الكامل لكل زراعتها وخاماتها وإنتاجها.. بالإضافة إلى الخدمات العليا..)، وهكذا يجعل من التصنيع المفتاح الرئيسي لحل الأزمة، مدعمًا ذلك بمقارنة دالة بين الوضع في مصر.. وبينه في كل من الصين واليابان (ص ص١٦٠ ـ ١٦٤)، ويضيف إلى التصنيع.. المجال السياحي (ص ١٦٨)، وتطوير التجارة.. وخاصة في مجال النقل البحري (ص ١٧٤)، وغير ذلك مما يضيفه تباعا وتفصيليا فيما يعقب هذا الفصل من فصول.

الزراعة المصرية:

يفرد الفصول الثلاثة التالية (٣٠، ٣١، ٣٢، ص ص ١٧٦ ـ ٥٣٧) للزراعة المصرية وحدها، يغطي بها تغيرات مُركّبها المحصولي أولا، ثم تكثيفها مكانيا ونمو متوسطاتها الإنتاجية (التوسع الرأسي) ثانيًا، ثم تغيرات مساحتها (التوسع الأفقي).. ثالثًا، مستندًا في تحليلاته إلى ما سبق تحديده.. من منحنيات التطور الاقتصادي العام.. في مقوماته ودوافعه، سواء منحنى التطور من الاقتصاد المعيشي.. إلى اقتصاد الفائض والتراكم، أو منحنى تغير المرتبة بين الزراعة والصناعة.. في الإطار الهيكلي.

ويأتي الفصل ٣٠ (ص ص ١٧٦ ـ٣٥٠).. تحت عنوان «الزراعة المصرية.. من الخريطة إلى التخطيط »، ويعني بذلك تطور الزراعة المصرية من التلقائية الحرة التي عرفتها مصر طوال تاريخها، لا تضبطها سوى ظروف بيئتهاوحدها.. وبها تشكلت عضويا وأيكولوجيا معًا، إلى نوع من التخطيط الموجه في إطار سياسة عامة توضع لها، تحدد مساحات محاصيلها ونوعيتها.. بدرجات متفاوته،

تلخيص العصر في شخصية مصر



كما تضع لها السياسة التسويقية لبعضها.. في أعلى درجات تداخلها.. في إطار تنظيمها، ويبدأ تاريخيا مع ثورة يوليو.. التي جعلت من التخطيط القومي بعدًا ثالثًا في سياساتها للتنمية (ص ٤٦)، والواقع أن الخط الفكري للفصل يتمحور حول مقومات الاستمرارية الأيكولوجية في الزراعة المصرية من ناحية، ودوافع تنظيمها في إطار خطة عامة.. من ناحية ثانية، ومن ثم دار موضوعه حول المركب المحصولي.. باعتباره مرآة عاكسة.. لمحصلة الاستمرارية والتنظيم معًا، ومن ثم الكشف عما تنطوي عليه هذه المحصلة.. من مشاكل مزمنة بسبب الاستمرارية أو طارئة متفاقمة.. بحكم التنظيم سواءً كفكرة أو أجهزة.

وبعد متابعة قصيرة.. لتغير المركب المحصولي في مصر التاريخية إلى عصر محمد علي وما بعده، يفيض في متابعة تغيراته في العقود المنصرمة الأربعة، ويتمثل أبرزها في إعادة ترتيب مكوناته (.. تراجع القمح، وتقدم القطن والذرة والقصب والأرز والبستانيات، واستمرار البرسيم كقاعدة.. يستند إليها هرم الزراعة المصرية بأسره، ص ١٨٣)، ويضيف.. (.. كقاعدة عامة يمتاز المركّب المحصولي المصري بقدر معتدل من المرونة، ومنذ اتخذت هيكلها الأساسي.. فإن عناصرها تدور حول متوسطها التقريبي لكنه يتعرض منذ السبعينيات.. لما يشبه الشذوذ الانحرافي عن هذه القاعدة.، ص ٢٠٧)، ويعود ويقيم وضعها في نظرة شاملة (.. إن أبرز ما يميز المركّب الزراعي قيم متغيرة.. إن لم نقل متذبذبة، تضع الزراعة المصرية جميعا في حالة سيولة وانصهار بالغة A state oF Flux .. تجعلها في مفترق طرق حقيقي وربما تاريخي بحيث لا يمكن التنبؤ بهيكلها في المستقبل المنظور) ويخصص نظرته بالنسبة للسبعينيات: (.. ثمة مع ذلك.. خاصة في العقد الأخير، تطورات واضحة وقيم متغيرة في مساحات المحاصيل المختلفة، وفي أهمياتها النسبية، تشي في مجموعها بانقلاب صامت في الزراعة المصرية والواقع أن زراعتنا تمر حاليا بمرحلة مخاض وتطور وتغير حرجة بقدر ماهي حاسمة، وربما تتسارع وتتصاعد أكثر في المستقبل القريب، ولا ينبغي في كل الأحوال لقربها منا أو لقربنا منها أن تغيب عن عين الباحث الملاحظ، ويكمن السد العالي بالقوة أو بالفعل خلف هذه المرحلة، ولكن جزئيا فقط، فرغم أنه أحدث ثورة كاملة في الري، إلا أن ثورة مماثلة وعلى المستوى نفسه في الزراعة نفسها لم تواكبه ، ص ٢٠٧)، بل إنها تعرضت لثورة مضادة.. أصابتها بما يسميه «الشذوذ الانحرافي» عن دورها الأساسي، ويعود بهذا الشذوذ إلى

سياسة الدولة الزراعية.. من إخضاع محاصيل بعينها للتسعيرة الحكومية، وفرض نظام التسويق بالتوريد، مما أدى إلى تهرب الفلاح من زراعتها (.. إنها ليست محاصيله.. بل محاصيل الحكومة، ص ٢٠٩)، ومن ناحية ثانية.. فقد حدث تحول (من زراعة الألياف إلى زراعة الأعلاف) استجابة لقوى الطلب الاستهلاكى المتنامية على اللحوم.. فى عصر الانفتاح، مقترنة لذات الأسباب

(.. بموجة غامرة من التحول إلى المحاصيل البستانية.. لتحقق ربما أكبر ربحية متاحة فى مجال الزراعة، ص ٢١١)، يدل على هذا التحول.. (أنها تحقق نحو ١٠ أمثال القطن أحيانا، ص ٢١١)، ويضع على الفور الخطوط تحت المشكلة الأم فى الزراعة المصرية.. وتتمثل فى (.. اشتداد قصورها عن حد الكفاية الذاتية، وخاصة الكفاية الغذائية، وبرزت بحدة مشكلة الفجوة الغذائية، وتحولت مصر لأول مرة فى تاريخها الحديث.. وربما تاريخها كله.. إلى دولة مستوردة للغذاء والحبوب، بل لقد وصل الاعتماد على الخارج إلى نصف حاجاتنا الغذائية، وإلى نحو ثلاثة أرباع استهلاكنا بالذات.، لقد انتفى الأمن الغذائى مثلما انتهى الاستقلال الاقتصادى..) وسيعود إلى هذه المشكلة تكرارًا وبالتفصيل.

الموارد الرعوية والأسماك :

وتقتضيه مشكلة الغذاء.. أن يتابعها بالنسبة للموارد الرعوية والأسماك، فمصر فقيرة فى مواردها الحيوانية..

(..مصر بالجغرافية ليست دولة رعى ومراع، ص ٢٥٧)، ومن الناحية الاقتصادية.. فقد كانت النظرة لإنتاجها الحيوانى.. على أنه مجرد مكمل ثانوى.. أو تذييل للزراعة والإنتاج الزراعى، غير أنها تغيرت فى عقود السنين الأخيرة.. (.. لقد تضاعفت كثافة الحيوان بالنسبة إلى المساحة الزراعية.. خلال ربع القرن الأخير تقريبًا، من ٤١ رأسا لكل ١٠٠ فدان سنة ١٩٤٥، إلى ٧١ رأسًا فى ١٩٨١..) ويعقب (.. غير أن هذه الزيادة لا تعكس نمو الثروة الحيوانية.. بقدر ما تعكس جمود الرقعة الزراعية، ص ٢٥٧)، والأهم أن الفارق بين الإنتاج والاستهلاك.. يعكس استمرار انخفاض الكفاية الذاتية (.. والمشكلة الغريبة والمزعجة حقًا.. أن من الأوفر اقتصاديًا أن نستورد ما نحتاجه من الإنتاج الحيوانى.. من أن ننتجه، ص ٢٥٩)، ويقدم الحل فى سياق آخر (.. والمفتاح الصحيح.. أن مصر إنما جعلت لتكون مزرعة دواجن عظمى poultry farm، أكثر منها مزرعة حيوان dairy farm، ص ٣٣٥).

وبالنسبة **للموارد السمكية** (.. فرغم تضاعف إنتاج مصر خلال العقدين الأخيرين.. إلا أنه لايزال دون إمكاناتها واحتياجاتها، ص ٢٦١)، وبعد ما يتابع إحصائيا تطور إنتاجها فى السنين الأخيرة يقرر.. (.. ومن الواضح فى النهاية أن مصر رغم كل سواحلها وبحارها ونهرها وبحيراتها، غير سماكة)، أى فقيرة جدًا فى الثروة السمكية بالمستوى العالمى، فإنتاج الفدان المائى عندنا ٢٠٠ كجم سنويا مقابل ٨ أطنان فى بعض الدول فى الخارج.

ومن هنا فإن الأمل فى توفير الغذاء البروتينى الرخيص الغزير معقود على الأسماك فى الدرجة الأولى، غير أن هذا لا يتأتى إلا بتثوير الإنتاجية وظروف الاستغلال وفتح أو غزو مصايد جديدة، والاتجاه الآن هو إلى التوسع فى مزارع الأسماك، خاصة حقول الأرز كالصين، ومن الممكن أن يصل إنتاجها إلى مثل إنتاجنا الحالى على الأقل، ويرى البعض أننا نستطيع وينبغى أن نستزرع ١٥٠ألف فدان بالمزارع السمكية، مع استخدامها فى الوقت نفسه كمزراع للأرز، تعادل مليون فدان مساحة محصولية، وتنتج ٢٥٠ ألف طن سمكًا سنويا، قابلة للزيادة، وفى مشروع آخر أن يستزرع السمك فى مليون فدان أرز دفعة واحدة، بمحصول قدره ١٠٠ كجم للفدان سنويا، وهناك أخيرا فكرة لإنشاء أحواض سمكية معلقة على طول امتداد ضفاف النيل لتربية مكثفة واقتصادية ورخيصة، وخاصة على ضفاف بحيرة ناصر، حيث يمكن للأخيرة وحدها أن تغل ٨٠ ـ ١٠٠ ألف طن سنويا، ص ٢٦٢).

ـ ليكن أقباطنا هم همزة الوصل أداة الربط ورابطة الصداقة بين المسيحية والإسلام كما بين مصر والغرب.

جمال حمدان

ويعود إلى القضية المؤرقة (قضية الكفاية الذاتية) ويشبعها تحليلا وتفصيلا إلى نهاية الفصل (ص ص ٢٦٣ ـ ٣٥٠).

من الكفاية إلى العجز:

- إنه لا يكف عن وضع الخطوط أسفل قضية (الكفاية الذاتية) .. خاصة الغذائية، محددًا خطورتها فى أن مصر تستورد نصف احتياجاتها الغذائية إجمالا، وثلاثة أرباع احتياجاتها من القمح تقريبا، بينما كانت تقليديا وحتى الحرب العالمية الثانية تتمتع عادة وعامة بالكفاية الذاتية فى معظم محاصيلها، مع فائض قل أو كثر للتصدير، وهى إذ فقدت كلية هذه الميزة.. فقد ضاعت أيضًا فرصتها بالعودة إليها، إذ تحولت إلى دولة مستوردة للغذاء نباتيًا وحيوانيًا بصورة مخيفة (ص ٢٦٣)، إنه الشذوذ الانحرافى الذى سبق وحدده.. ويؤكد مرة أخرى متسائلا (.. والسؤال الآن.. من أين وكيف نشأت هذه الفجوة الغذائية؟ ص ٢٦٥).

تتعدد بالطبع الأسباب يتصدرها اختلال العلاقة بين الإنتاج والاستهلاك (.. أوبين الزراعة والسكان ص ٢٦٤)، فقد تعرض الإنتاج الزراعي للجمود.. بحيث لم يعد معدل نموه السنوى يجاوز ٣ ٪ فى الفترة الأخيرة، بينما يتزايد استهلاك الغذاء كل عام بمعدل ١٢٫٥ ٪ على الأقل (ص ٢٦٥) ، وبعد الجمود تأتى نقطة الضعف الثانية فى الزراعة متمثلة فى اختلال المركب المحصولى، نتيجة اختلال النظام السعرى برمته، مما دفع ويدفع بالمركب إلى التحيز الطاغى إلى محاصيل معينة من جهة، ويخلق اختناقات حادة فى محاصيل بعينها من جهة أخرى (ص ٢٦٥)،

تلخيص العصر فى شخصية مصر



ويعود الاختلال إلى تزايد التوجه نحو محاصيل العلف المرتبطة بإنتاج اللحوم والألبان، وكذلك إلى المحاصيل البستانية، فى مقابل الهروب من المحاصيل المسعرة عشوائيا، وغير العادلة، والتى لا تؤدى ـ حتى القطن ـ إلا إلى هامش ربح ضئيل، خاصة هذه التى تشتريها الحكومة من الفلاح بنصف سعرها فى السوق، وبذا لم يعد المركب المحصولى يعبر تعبيرًا حرًا طبيعيًا وصحيا وتلقائيا تمامًا عن القوى الجغرافية السوية، بقدر ما يعبر عن قوى اقتصادية غير قويمة أو سوية (ص ص ٢٦٥ ـ ٢٦٨ جـ ٣).

وبالنسبة للسكان.. تتعدد أيضًا ظواهر الاختلال، يتصدرها الانفجار السكانى، وتطور أنماط الاستهلاك، والهجرة من الريف، والانفجار الاستهلاكى المرتبط بالبترول (ص ص ٢٦٨ ـ ٢٧٨ جـ ٣)، وتعد القرية المصرية نموذجًا للمشكلة بأكملها .. وأيضًا لظواهر الاختلال (... ولعل أسوأ ما يعبر عن موضوع أزمة القرية المصرية الراهنة.. هو تحولها من وحدة منتجة تقليديا .. إلى وحدة مستهلكة باطراد، فبعد أن كانت القرية تغذى نفسها والمدينة ـ الاستهلاك المحلى والصادر إلى الخارج ـ أصبحت تستورد بعض غذائها من المدينة، والمدينة تستورده لها كما لنفسها من الخارج، بما قد يتيح تقسيم تاريخنا الاقتصادى الحديث من حيث الكفاية الغذائية إلى ثلاث مراحل عامة وعريضة: مرحلة فائض غذائى وتصدير إلى الخارج، ثم مرحلة اكتفاء تقريبا مع تصدير.. ولكن لا إلى الخارج.. وإنما من القرية إلى المدينة، ثم أخيرا مرحلة العجز الغذائى والاستيراد من الخارج للمدينة أولا .. ثم لكل من المدينة والقرية على حد سواء، ص ٢٨٠).

فما حجم هذه الفجوة الغذائية الآن؟

إنه يقدر هذه الفجوة بشتى أساليب التقدير، بالأثمان والأحجام والعلاقة بين الصادرات والواردات (ص ص ٢٧٠ ـ ٢٧٧)، ثم يوجزها فى أبسط صورة ممكنة بما يسميه المساحة المستوردة .. حيث يقدرها بما يعادل المساحة المزروعة فعلا.. أى أن مصر تحتاج إلى مساحة زراعية تعادل مساحتها الراهنة، كى تسد فجوة عجز إنتاجها الغذائى عن كفايته (ص ٢٧٧).

ومن بعد.. فما هى الحلول المطروحة لحل المشكلة؟.. وما هى احتمالاتها؟

تأتى مناقشة هذه الحلول والاحتمالات تحت عنوان «أمل المستقبل» (ص ٢٨٦) ويستبعد منها القمح بداية (إذ لا أمل زراعيا، ولا جدوى اقتصاديا فى تحقيقه على أية حال ص٢٨٦). بل ويضيف إليه بقية الحبوب (.. الكفاية فى الحبوب مستحيلة تقريبا.. ولعلها غير مطلوبة عمليا، ص ٢٨٨) مفسرًا، ذلك

بارتفاع تكلفة إنتاجها.. بالمقارنة مع غيرها، ومن العبث إهدار أرض مصر الخصيبة فى زراعتها، والأولى زراعة غيرها العالية الثمن.. بما يمكن من شرائها واستيرادها.. مع تحقيق وفورات كافية، ثم يرتب ما يراه ممكنا ومحببا، ويتمثل فى التوسع الرأسى الذى يمكن أن يسد الفجوة الغذائية (الحبوب) بمقدار النصف (ص ٢٨٨) .

ويضع الخطوط سميكة أسفل «**ترشيد الفاقد**» (ص ٢٨٩)، حيث تهدر مصر بسببه مايعادل بضعة ملايين من الأفدنة المحصولية (ص ٢٩٠)، ويعدد بالوعات الفاقد وأسبابه، بداية من سوء التخزين..إلى القوارض من الجرذان.. ولصوص البشر (ص ٢٩٢)، ويقيمه كميا بالنسبة لكل محصول على حدة ، متابعا عملية إنتاجه من بذره إلى حصاده، ومن الحقل إلى السوق أو الصومعة، ومن بعد يقرر (.. وكصورة عامة جامعة.. ثمة تقدير حديث لفاقدنا الغذائى والزراعى.. يغطى الإنتاج المحلى والمستورد على السواء، **فالأول**.. يضيع منه ويتلف ١٠ ٪ على الأقل، حسب هذا التقدير، ويمكن تقدير فاقد الحبوب بقرابة المليون طن، والقصب مثلها، وجملة المحاصيل الغذائية النباتية بحوالى ٣٫٨ مليون طن، أما الإنتاج الحيوانى والسمكى.. فلا يقل فاقده عن نصف مليون طن، وبذا تبلغ جملة فواقد مصر من الإنتاج المحلى بقرابة ٤٫٣ مليون طن سنويا، بخلاف قيمة النواتج الجانبية والثانوية لتلك المحاصيل، عدا الواردات الغذائية.. التى لا تفلت هى الأخرى من الفاقد والتبديد، ص ٢٩٣).

وتبعا لخطته.. يأتى ترشيد الفاقد.. قبل تخطيط الزراعة (.. ذلك الفاقد الذى

.. وهذا ماحدث بمصر تماما كان التعليم الوحيد هو التعليم الدينى الأزهرى التقليدى بكل بساطة لأنه لم تكن هناك علوم علمية وضعية.. ولم يكن هناك «علم» ولم يكن هناك «عصر العلم» ، كان هناك فقط عصر الدين وعلم الدين.

جمال حمدان

يسخر من عملية الإنتاج نفسها، مثلما يسخر من عملية تخطيطه.. قبلها أو بعدها، حيث يبدو معها كمن ينفخ فى قربة مثقوبة، ص ٢٨٩)، ومن ثم يأتى عنوانه « **التخطيط الزراعى**» .. (ص ٢٩٣).. تاليا لتوصيته بترشيد الفاقد كما سبق.

التخطيط الزراعى:

نظريا.. فإن قضية التخطيط للزراعة المصرية.. قضية معقدة مزمنة، أشبه بمعادلة متعددة الأطراف ومتشابكة، ولكنها باعتبارها قضية أمن قومى تستحق المحاولة، فى إطار من الاستراتيجية العملية المباشرة (..وتطبيقيا فإن لب استراتيجية الزراعة تتلخص فى التعظيم Maximisation والإنتاج، يعنى تحقيق أكبر قدر من الاستثمار والاستغلال للمواد المتاحة بأكبر طريقة اقتصادية ممكنة سواء ذلك كما أو كيفا ، سلعيا أو نقديا، داخليا أو خارجيا، وبصيغة مكثفة وأكثر تحديدا، فإن المطلوب هو الكيف قبل الكم فى الزراعة، أكبر محصول من أقل مساحة أكبر إنتاج حيوانى بأقل علف ، وأكبر عائد بأقل تكلفة.

ويستدعى هذا الهدف تطبيق المبادئ الأساسية الثلاثة المقررة فى استغلال الأرض وتخطيط الموارد عموما.. وهى الاستغلال الأعظم maximum use والاستغلال الأنسب optimum use والاستغلال المتعدد multiple use،وبهذا الشكل تتحدد عناصر تخطيطنا الزراعى فى أربعة تتداعى منطقيا كما يلى: (ص ٢٩٦)

* تخطيط الهيكل المحصولى.
* التوسع الرأسى.
* تخطيط الأرض.
* التوسع الأفقى.

ويستغرقه تحليلها فى إطار مبدأ عام يقرره (.. ينبغى أن تكون البوصلة الموجهة.. هى كيفية تحقيق الحد الأقصى من العائد الحقيقى والقيمة المضافة إلى الاقتصاد القومى، وهذا يعنى الحد الأقصى من اثنتين.. الكفاية الذاتية الغذائية والصناعية فى الداخل ، والكفاءة التصديرية فى الخارج، وهذا بدوره يعنى الحد الأقصى من الحبوب الغذائية، والحد الأقصى من المحاصيل التجارية.. على الترتيب، ص ٢٩٩)،

ويؤكد أركان استراتيجية التخطيط الزراعى فى (.. التكثيف + التتجير + التصدير + التصنيع)، ويوضح(..التكثيف بالحد الأقصى من التوسع الرأسى، والتتجير commer-cialisation بالتوجيه إلى المحاصيل النقدية السوقية التجارية.. بدل المعاشية، والتصدير.. بالتوجه إلى السوق العالمية .. لتصريف تلك المحاصيل التجارية الثمينة؛ والتصنيع بالحد الأقصى من تحويل الخامات الزراعية إلى منتجات مصنعة لتصديرها بأعلى ثمن، فضلا عماينتج عنها من توسيع فرص العمالة داخليا، مع الحد الأدنى من تصدير المحاصيل والسلع الزراعية خاما..، ص ٣٠١).

ويعود فيخصص للتوسع الرأسى والأفقى الفصلين التاليين فى عنوان متصل يجمع بينهما، فالأول (فصل ٣١ ص ص ٣٥١ ـ ٤٣٨).. يأتى تحت عنوان (من التوسع الرأسى..) ويكمله الثانى (فصل ٣٢ ص ص ٤٣٩ ـ ٥٣٧) (.. إلى التوسع الأفقى) .. اتساقا مع تتابع استراتيجيته.. ومع نظريته التكاملية.. السارية، دون أن يغيب عنه فى أيهما ما سبق وضعه من فروض أيكولوجية محددة، وما انتهى إليه من مقولات عن شخصية مصر الاقتصاديّة التاريخية.. من حيث الاستمرارية وانقطاعها، وما حدده من قسمات إيجابية ومتكلسة جامدة، وما توصل إليه من مشكلات وما اقترحه لها من حلول.. مستندة إلى أوتاد صلبة.. من تخليل التاريخى المكانى الإحصائى.. معا.

تلخيص العصر فى شخصية مصر



من التوسع الرأسى..

يعرِّفه (.. قد لا نقصد أكثر أو أقل.. من مدى تكثيف الإنتاجية فى وحدة المساحة، أى التكثيف الزراعى ببساطة،ص ٣٥١)، ويتابع تاريخيا المسألة.. ثم يوثقها إحصائيا.. بمعامل التكثيف الزراعى (ص ٣٥٢).. منتهيا إلى (.. الزراعة المصرية على درجة عالية من التكثيف فعلا.. تصل بها إلى أن تعد بحق نوعا من فلاحة البساتين Gardining، ص ٣٥٣)، دفع إليها ضيق المساحة المتاحة فى الوداى والدلتا معا، فهل ثمة إمكانية لاتزال فى تكثيفها؟

والإجابة.. نعم .. لقد تكثفت عبر تاريخها إلى طابقين من الزراعة فوق القطعة الواحدة..، والمطلوب الآن تكثيفها إلى ثلاثة طوابق (ص = ٣، س = ١٨ مليون فدان).. حيث ص تساوى التكثيف، و س تساوى جملة المساحة المزروعة بها(ص ٣٥٣)، وذلك تمشيا مع إمكانات السد العالى الذى لم تستثمر بعد كافة عوائده كما ينبغى، على أن يخصص الطابق الثالث للمحاصيل الغذائية من القمح والأرز والبقوليات.. خاصة الفول والعدس (ص ٣٥٤)، على أن يقترن ذلك بالوصول بالإنتاجية إلى حدها الأقصى.. وتقليل الفاقد إلى حده الأدنى، وتتوالى توصياته.. عن الأسمدة وطرق الرى ونوعية التقاوى.. ومقاومة الآفات.. ثم الحصاد وتخزينه وتسويقه، ليس لها ككل.. وإنما لكل محصول على حدة (ص ص ٣٥٤ ـ ٣٧٥)، بل وبعدها.. حين يعرض لمشكلة الملوحة والقلوية فى التربة المصرية (ص ٣٨١) وكيفية علاجها، وتحسين الصرف، (٣٨٤).. والميكنة (٣٨٨) وكهربة الزراعة (٤٠٧) حتى يصل إلى قوارض الأرض (٤١٥).. ويعرضها تحت عناوين موحية (الرمل ضد الطين، القوارض الداخلية، الميت ضد الحى، وباء التجريف، مصر المنكمشة، ص ص ٤١٥ ـ ٤٢٨)، باعتبارها جميعها أهم ما يواجه تكثيف الأرض.. وأصلا يبددها ويبدده، و كما يرى أن ترشيد الفاقد يسبق التخطيط للإنتاج.. فإن المحافظة على المساحة.. تسبق تكثيفها.. ، ومن هنا يطالب.. بوضع دستور للأرض.. يحمى أستخداماتها (ص ٤٢٩)، وبالتخطيط الصارم للنمو السكنى.. (ص ٤٣١).. سواء فى القرى أو المدن، ويختتم فصله بالتخطيط الصناعى.. (٤٣٤) فى اتجاهى دمجها بالزراعة من ناحية، وإعادة توزيع وحداتها خارج الزمامات المزروعة من ناحية ثانية (تصحير الصناعة ص ٤٣٥).. وسيعود إليها تكرارا فيما يلى من فصول هذا الجزء. وفى الجزء الرابع أيضا من كتابه.

إلى التوسع الأفقى

يأتى تاليا للتوسع الرأسى فى خطته.. (لأن الكل يكاد يجمع على أن التوسع الرأسى فى خطته.. فو المنفذ المباشر لتوسعنا الزراعى، أولا لأنه لا يتطلب كالأفقى إنفاقات رأسمالية

ضخمة، ولأنه لاحد لإمكاناته ولا سقف له ثانيا..)، إذن فأهم ما يواجه التوسع الأفقى.. ارتفاع التكلفة، وضيق مجالاته المتاحة فى الوادى والدلتا معا، ويستدرك فى مقدمة هذا الفصل (٣٢ص ص ٤٣٩) ويقرر (.. غير أنه يظل هناك رصيد له) فضلا عن أهميته الفائقة للتخطيط الإقليمى برمته، وتبعا لمنهجه.. يتابع المسألة تاريخيا.. وصولا إلى بداياتها، منتهيا إلى وضع خريطة احتمالاتها القائمة.. ويحددها فى (شمال الدلتا، الهوامش الصحراوية للوادى، الساحل الشمالى الغربى، شرق الدلتا، ضفاف قناة السويس، الواحات المصرية، ص ٤٤١).

ويفيض فى تحليل كل منطقة منها.. متوصلا إلى تقرير لب مشكلاتها(..يتوقف الأمر كله على الماء، ص ٤٤٥)، ومن ثم يعرض لمصادره الطبيعية فى مصر.. عرضا نقديا لطرق استخدامها.. والإهمال شبه التام لبعضها (مياه النهر ص ٤٤٨، مياه الصرف ٤٤٩،المياه الجوفية ٤٥٠)، ويجمعها تحت عنوان «الموارد المتاحة» (ص ٤٥١) ويقدرها بنحو ٦٠ مليارا يمكن أن تزيد إلى ٨٠ مليارا.. حالة ترشيدها.. ورفع كفاية مصادرها معا، ومن بعد يحلل منحنى العلاقة بين الاحتياجات والاستهلاك.. تبعا لتوزيعها فى قنواتها الرئيسية (الزراعة، الصناعة، العمران)، مطالبا بإعادة رسم استراتيجية المياه فى مصر.. تبعا لاقتصادياته من ناحية، واتساقا مع مواردها منه من ناحية ثانية، وبالنظر إلى أزمة المياه العالمية.. من ناحية ثالثة (٤٥٤).

وتحت عنوان «مسح إقليمى» يعود إلى خريطة احتمالات التوسع الأفقى

.. ولكن الدين ليس علما بالمعنى المفهوم لكلمة علم.. والتعليم الدينى هو تعليم تخصيصى، خاص جدا لقلة محدودة، وتعد خصيصا لوظيفة محدودة هى الجهاز الدينى، وقديما حين لم يكن هناك سوى التعليم الدينى والعلوم الدينية.. لم يكن هناك تعليم إلزامى للجميع، بل كان التعليم استثناء لقلة محدودة جدا فى مجتمع ٩٩ ٪ منه جاهل إذن حتى التعليم الدينى فى أيام ـ عز أيامه ـ كان تعليم القلة المتخصصة جدا لوظيفة خاصة جدا.

جمال حمدان

بالتفصيل (ص ص ٤٦٢ ـ ٥٣٧).. أى إلى نهاية هذا الفصل، مؤكدا جدارتها.. وبأنها نواة إعادة التخطيط الإقليمى لمصر كلها.

وبهذا تنتهى فصوله الثلاثة المخصصة للزراعة المصرية، وينتقل من مجالها فى الفصول الثلاثة (٣٣، ٣٤، ٣٥، ص ص ٥٣٨ ـ ٨٥٥) التالية.. إلى «الصناعة المصرية» .. وحدها، بل إن الفصل الأخير من هذاالجزء.. كما سيأتى.. عن الصناعة أيضا.. مما قد يكون مؤشرا عن وزنها فى نظريته التكاملية كلها.

مصر الصناعية:

بهذه التسمية العامة يعنون الفصل الأول (٣٣ ص ص ٥٣٨ ـ ٦٤٦) من ثلاثيته أورباعيته عن الصناعة فى مصر، ويخصصه لصورتها العامة.. قبل أن يحلل تفصيليا نوعياتها، بمثابة اللحن الافتتاحى لها....، يستهله بمقولته (.. مصر بطبيعتها لا تنقصها المقومات الأساسية للصناعة الحديثة..)، وتقتضيه هذه المقولة إثباتها.. جغرافيا واقتصاديا وتاريخيا.. بطول صفحاته، مستخدما مجموعة من العناوين الدالة المكثفة.. من قبيل (.. بين الوفرة والندرة ص ٥٥٢، نقط القوة والضعف٥٥٢، مشكلة الجدارة الإنتاجية ٥٥٤)، يناقش فيها هذه المقومات فى إشارات مركزة.. ينتهى منها إلى أن مصر (.. تملك أساسا طبيعيا لا بأس به.. لقاعدة صناعية متوسعة، يمكن أن ترتفع إلى صرح.. لا يقل عن الدول الصناعية المتوسطة، كما تملك بالفعل بناءً صناعيا لا يستهان به.. وإن لم يزل بعد فى مرحلة بدء الانطلاق،أما أن هذا الصرح ملىء بالثقوب والعيوب حاليا.. فذلك من

خصائص مرحلة البداية التى عرفتها معظم الدول الصناعية المتقدمة الآن، على أن المطلوب هنا والآن اختزال هذه المرحلة بأسرع ما يمكن، جـ ٣ ص ٥٥٤).

وبعد تحليل التوطن الصناعى تحت عنوان «الخصوصية المصرية» (ص ٥٥٨)، يحدد ما يطلق عليه خصائص الصناعة المصرية العشر (ص ٥٧٨)، وذلك كما يلى بإيجاز: (ص ص ٥٧٨ ـ ٦١٦).

* سيادة الصناعات الزراعية.
* صناعة استهلاكية لا رأسمالية.
* صناعة خفيفة لا ثقيلة.
* صناعة اكتفاء لا تصدير.
* صناعة مصنعة لا صناعية.
* التكامل الرأسى والأفقى.
* التنوع والتركز الشديدان.
* التركيز الحجمى.
* التركيز الجغرافى.
* مناطق لا أقاليم صناعية.

تلك إذن هى قسمات مصر الصناعية.. فماذا عن أنماطها المكانية؟..

وتبعا لحسابات معينة يحددها فى (.. قرص الدلتا ص ٦١٦، خيط الصعيد ٦١٩، منطقة القاهرة الصناعية ٦١٩، منطقة الإسكندرية ٦٢١، خط الاستواء الصناعى ٦٢٥)، حيث يقرر عنها إجمالا بعد ذلك (.. تلك إذن فى صورتها التفصيلية نوعا خريطة مصر الصناعية، ولا شك أن أبرز ملامحها ومعانيها هى التحولات الأساسية فى المركب الصناعى والنمط الجغرافى على حد سواء، إن خريطة جديدة لمصر تتخلق تحت ناظرينا فى مجال الصناعة، بقدر ما تقتحم

تلخيص العصر فى شخصية مصر



مصر عالم الصناعة الحديثة، إن مصر تتغير صناعيا، مثلما وجدناها تتغير زراعيا، وبدلا من الصناعات المعاشية والتقليدية الأولية أو البسيطة، حلت أحدث الصناعات العصرية المتطورة، الاستهلاكية والخفيفة والثقيلة على السواء، وبدلا من ذرات أو حبات الصناعة المتواضعة المبعثرة هنا وهناك، أصبحت هناك أحجار صناعية ضخمة، مناطق صناعية كاملة متكاملة ، كالخلايا العارمة المضطرمة بالحياة الصناعية، جـ ٣ ص ٦٣١)

ومن فوره يضع يده على نقطة الضعف الرئيسية فى هذا البناء (.. إنه لم يأت من أسف متوازنا على مستوى الوطن أو متكافئا على مستوى أقاليمه، ص ٦٣١)، ومن ثم يفرغ لها بقدر من التركيز تحت عنوان (خريطة جديدة.. ولكن بالكاد..)، هى خريطة جديدة حقا ولكنها تفتقر إلى عدالة التوزيع .

(اللاإقليمية ضد الإقليمية ص ٦٣٤)، وهى تستعيض بالتخطيط القومى عن الإقليمى.. لحساب المركزية العاتية.. مخلفة الأقاليم وراءها.. وقد فقدت وفوراتها.. أو نزحت إلى خارجها بشتى الأساليب، وبذا يصل التركيز إلى نقطة الانعكاس (ص ٦٣٧).. وعندها يتحول التركيز إلى تخمة فانفجار، فضلا عما ينتج عنها قبلها من تضاعف نمو الكبير.. وتطامن الصغير (المبدأ الألومترى allo-metric ص ٦٣٧)، وتعمق الفجوة بين العاصمة والمدن الكبرى والأقاليم، مطالبا آخر الأمر بإعادة التوزيع، مدعما طلبه بما يبرره (.. وعلى مستوى الواقع العملى، إذا عدنا إلى جسم الصناعة المصرية و«لحمها الحى»، فإن من الثابت أن كثيرا جدا من صناعاتنا الراهنة، أغلبها فى الواقع، يمكن ويحسن ويجب نقله إلى مواقع أخرى دون إبطاء ودون هزة فى الكيان الصناعى، بل وبمكاسب وأرباح لا حد لها اقتصاديا واجتماعيا، قوميا وإقليميا، وقد حاول البعض حصر هذه الصناعات القابلة للحركة أو التحريك، ولكن عبثا.. لأن القائمة تكاد تشمل كل صناعاتنا إلا أقل القليل، ص ٦٣٨).

بل ويقترح قائمة بالمواقع الجديدة مستندا فى ذلك إلى مبادئ (الخلخلة de concentration واللامركزية de cent ralisation وتدريج المركزية subconcentration ص ٦٣٩)، ومفندًا عوائق المسافة والحجم والتفتيت pul-verisation وغير ذلك، منتهيا إلى ما يسميه تصحير الصناعة (ص ٦٤٤) .

(.. فإذا ما اتفقنا على هذه الخطة وتلك الصناعة من حيث المبدأ، وهى فى الواقع مسألة مصيرية بالنسبة لمصر، فإن مشكلة الصناعة عندنا تغدو وهى أكثر من مجرد مشكلة مناطق مأزومة

محرومة ضد مناطق متخمة مكتظة، ولا تعود قضية بعشرة ريفية ضد تشتيت إقليمى، ولا مسألة تريف الصناعة ضد تصنيع المدن حيث (.. لم تعد حياة المدن بالضرورة وظيفة لدرجة النمو الصناعى ، بل أصبح ممكنا فى ظل حضارة اليوم أن تقوم مدن ضخمة بغير صناعة كبيرة، أو على الأقل أن يسبق نمو المدن الضخمة التنمية الصناعية، ويمكن للصناعة أن تلحق بها وتصحح التوازن، باختصار .. لابد أن نعتبر المدنية المرتفعة بلاتصنيع نمطا جديدا من أنماط الحضارة المعاصرة.. ونتيجة طبيعية للتكنولوجيا الحديثة.).. كلا إذن ليست ضد المدن ، والمشكلة من قبل والحل من بعد أيضا وأساسا.. هى تصحير الصناعة.

أجل تصحير الصناعة.. أى نقلها إلى الهوامش والتخوم الصحراوية إلى أقصى حد ممكن عمليا واقتصاديا وإنسانيا، ذلك هو الشعار القائد المطلوب الآن، ليس فقط إنقاذا واستنقاذا للأرض الزراعية التى تغتالها الصناعة - وغير الصناعة - ولكن أيضا إنقاذًا للصناعة نفسها ولغيرها من التكدس المدمر هنا والتفتيت المخرب المجدب هناك ، ج٣، ص‌ص٦٤٢ – ٦٤٦، ولحسن الحظ فإن خطة مصر الطبيعية برمتها قد جعلت لمثل هذا التخطيط بحذافيره،، ص ص ٦٤٤ - ٦٤٦)، وبهذه الدعوة ينهى فصله.

.. ثم حين أتى عصر العلم.. العلم الطبيعى والوضعى.. إلخ وأصبح التعليم العام لعموم الشعب ومحو الأمية.. وكان مستحيلا أن تنصرف الأمة جميعا، إلى التعليم الدينى غير المنتج فكان التعليم المدنى منطقيا وحتميا وضرورة حياة واستجابة لطبيعة الأشياء، قبل كل شئ.

جمال حمدان

الصناعات الأم:

شبكة الصناعة فى مصر.. أشبه بشجرة.. والزراعة أمها، منها بدأت وبها نمت.. وتكاثرت العائلة، ومهما تعددت جذورها.. وتباعدت أصولها.. فستبقى الصناعات الزراعية أقدمها.. وأشدها رسوخا وتوطنا، وإذا كانت البيئة قد أتاحت موارد أخرى.. كونت أيضا عائلاتها.. الأكثر ثراء منها ربما.. إلا أنها تدنو من الأم من حيث درجة أيكولوجيتها الثابتة المتوازنة، ومن هنا يأتى عنوان هذا الفصل (٣٤، ص ص ٦٤٧ - ٧٤٤) وأيضا منهجه فى ترتيب الدراسة النوعية لهيكل خريطة صناعات مصر الراهنة.. (.. أما عن تسلسل العائلة.. فستبدأ من الصناعات ذات الأصول الزراعية أساسا، وتتقدم إلى الصناعات ذات الأصول المعدنية أساسا، فبعد النسيجية والغذائية.. تأتى الكيماوية فالبناء كحلقتى وصل.. تؤديان إلى الصناعات المعدنية فالهندسية، حيث تلحق بهما فى النهاية الصناعات التعدينية.. مع الثروة المعدنية، ص ٦٤٨).

الصناعات النسيجية:

تحتل بين الصناعات الزراعية الحديثة.. قاعدة الهرم، ترتبط بالقطن.. وتشغل فى الصناعة مثل موقعه بالنسبة للزراعة.. وهما معا حجر الأساس وركن الزاوية، سبقت غيرها.. وتوطنت وتركزت.. ثم انتشرت فى الدلتا والوادى.. وقدمت المثل، وخاصة من حيث درجة تركزها فى العاصمتين القاهرة والإسكندرية.. اللتين لا يقل نصيبهما منها عن ٥٠٪ كما أن هذه الصناعة تستوعب وحدها بين ثلث ونصف العمالة الصناعية فى مصر كلها (٦٤٩)، وبعد الانتشار المنشود.. فإنها تتسم بتنوعها.. وكثرة وحداتها من حيث العدد، تتضمن وحدات مجمعة ضخمة بالمقياس العالمى، كما تتضمن غيرها من الوحدات الصغيرة.. نتجت عن انتشارها، ويعود اتجاهها نحو الضخامة.إلى متطلباتها من التكامل الرأسى والأفقى بدرجة فائقة (.. فهى لا تقتصر على الغزل والنسج فقط.. وإنما تمتد إلى أشكالها التابعة.. من سجاد وكليم ولباد وحبال وغيرها، ص ٦٥٠)، وتسهم وحدها بقرابة ثلث قيمة الإنتاج الصناعى فى مصر جميعا.. وكانت تلك النسبة هى الأولى بين قطاعات الصناعة كلها (٦٥١)، وتتألف خاماتها من (القطن، الصوف، الحرير، الكتان).. وأضيفت إليها الألياف الصناعية مؤخرا.

ويتابع كل خامة منها تاريخيا.. فى سياق من المقارنة.. المدعمة بالجداول المتتابعة (ص ص ٦٥٢ - ٦٥٦)، ثم يتناولها نوعيا فى صورتها المعاصرة، مبتدئا بالقطن (٦٥٦) بعملياته المتعددة (الحلج، الكبس، الغزل، النسج)، وأيضا نمط انتشار وحداتها (.. هذه التى ترسم خطا من الشمال إلى الجنوب.. أى نحو الصعيد.. بلا ارتداد تقريبا، وذلك من بعد تركزها فى الإسكندرية والمحلة وكفر الدوار فى مرحلة، ص ٦٦١)، اتساقا مع مقتضياتها من الجفاف المناسب لها.. إلى جانب عوامل بشرية مساندة، ورغم أنهاتستهلك نحو ٦٠٪ من جملة إنتاج مصر من القطن الطويل التيلة وتصدر بقيته، فقد اتجهت منذ عقود قليلة إلى استيراده بنوعية منخفضة من السودان والهند.. فى نوع من الموازنة بين استمرار تصديره.. تلبية للطلب العالمى، وبين متطلبات نموها، والمنشود (..التصنيع التام له فى مصر.. فى إطار الهدف النهائى لسياسة من الألياف إلى المنسوجات.. أو تصنيع الخامات المصرية من ألفها إلى يائها، ص ٦٦٣)، خاصة مع تطور التكنولوجيا.. وتصاعد أرباح السلع المصنعة.. فى مقابل تذبذبها وهى خامات أو نصف مصنعة.

وتحت عنوان«أحسن قطن وأسوأ صناعة» (٦٧٩).. يلخص متناقضة القطن فى مصر زراعة وصناعة.. ويتابعها فى بعديها من وجهة النظر الاقتصادية، وخاصة من الناحية التسويقية داخليا والقدرة التنافسية خارجيا، وينتهى منها إلى التوصية بالتوسع فى استيراد الأقطان قصيرة التيلة الرخيصة.. وتصنيعها، والتوسع فى تصدير الأقطان طويلة التيلة الغالية (ص ٦٨٥)، وتخليط صناعتها بالألياف

تلخيص العصر فى شخصية مصر



غير الطبيعية (٦٨٧)، والتوسع فى صناعة الملابس إلى أقصاها (.. من الحقل إلى المستهلك.. ولانقول الملابس الجاهزة أو الموت، ٦٨٨).

ثم يعرض للصناعات الغذائية (٦٩٢ - ٧٤٤) .. أى إلى نهاية الفصل، حيث يتناولها من حيث خصائصها العامة (ص ٦٩٣) تاريخيا وجغرافيا، ثم نوعيا.. مبتدئا بصناعة السكر.. مطلقا عليه «قطن الجنوب» .. تلخيصا لتركز زراعته وتوطن صناعته فى الصعيد.. فضلا عما تعنيه التسمية من قيمته الاقتصادية وتعدد جوانبه، ويحقق اتفاق مناطق زراعته مع مصانعه.. توليفة اقتصادية مناسبة، كما يتسق توزيع معامل تكريره.. مع أسواق الاستهلاك والطلب (.. يعنى توطن بالسوق، ص ٧٠٢)، وتتحدد مشكلته فى قصور إنتاجه عن تلبية الطلب (.. فى غضون سنوات معدودة.. سوف نستورد من السكر قدر ما ننتج، ص ٧٠٧)، ومن هنا توصيته بالتوسع فى زراعته فى الأراضى المستصلحة من ناحية وبالتوجه المكثف نحو سكر البنجر.. من ناحية ثانية (٧٠٨).

ومن صناعة السكر.. إلى صناعة إعداد الحبوب (٧١٢)، وتتضمن (طحن الحبوب، ضرب الأرز، الكسر والرجيع، النشا والجلوكوز، الزيوت النباتية (٧١٦)، الحلوى والمشروبات (٧٢٢)، السجاير (٧٢٦)، حفظ الأغذية (٧٣٠)، تعبئة الأسماك (٧٣٧)، صناعة الألبان (٧٣٨)، الأعلاف الصناعية (٧٤٢)، ويتابع كل منها من حيث التوزيع الجغرافى، وعدد الوحدات والعمالة والتسويق.. وغير ذلك.. مما يغطى جوانب اقتصاديات المشروع الصناعى.. منهجيا وموضوعيا معا، ومنها ينتقل إلى فصله التالى(٣٥، ص ص ٧٤٥ - ٨٤٥) إلى مجال صناعى مختلف.

من الصناعات الزراعية إلى المعدنية :

يبدأهابالصناعات الكيماوية.. ويقدمها (إن انفجار الصناعات الكيماوية يعد أبرز معالم تطور الصناعة المصرية فى العقود الأخيرة الأربعة، ص ٧٤٥)، وتضم مجموعة عريضة من المواد الوسيطة اللازمة لغيرها من الصناعات، ومن ثم فهى (وسيلة وغاية فى آن واحد)، ويصنفها إلى (الغازات والسوائل واللدائن والجوامد الصلبة، وتنقسم إلى مجموعتين عريضتين.. الكيماويات الأساسية والكيماويات المركبة، ص ٧٤٦)، وتضم كل منهما العشرات من النوعيات المصنعة، وتتسم لأسباب اقتصادية بتركزها فى القاهرة والإسكندرية.. عدا الأسمدة، وتبعا لمجموعتيهايتابعها تفصيليا.. داخل الإطار المنهجى لاقتصاديات المشروع الصناعى.. كما سبق، يستهلها

بالكيماويات الأساسية (٧٤٩)، وبعدها الأسمدة (٧٥٧)، ثم صناعة الورق (٧٦٩)، فالخشب الصناعى (٧٧٤)، فصناعة الجلود والأحذية (٧٧٦)، ثم الصابون والمنظفات الصناعية (٧٧٨)، وبعدها صناعة الأدوية (٧٨١)، ثم المطاط والبلاستيك (٧٨٣)، ثم ينتقل إلى مجموعة أخرى متكاملة.. هى «صناعات البناء» (٧٨٦)، وتضم الأسمنت والطوب الطفلى والرملى، والجبس، وغيرها من توابعها.. مثل الخزف وأخوته (٨٠٤) والحراريات والزجاج (٨٠٧) ويختتم بالصناعات المعدنية فصله. (ص ص ٨٠٨ - ٨٥٤).

الصناعات المعدنية :

ويصنفها بداية إلى (الصناعات التكريرية.. التى تشمل الصهر والتكرير، والصناعات التشكيلية النهائية وتعنى المنتجات المعدنية (ص ٨٠٨) التى تتضمن أساسا الحديد والصلب ثم الألومونيوم.. وأخرى هامشية من النحاس والزنك والرصاص وغيرها، وبالطبع فإن صناعة الحديد والصلب.. تستغرق جل عنايته، ويتابعها تاريخيا (قبل الصناعة الثقيلة، ٨٠٩) وبعدها (٨١٠)، ثم يحللها اقتصاديا.. وخاصة من زواية موقع المصنع (حلوان) ومناجم خاماته، ويجرى مقارنة سريعة بين هذه الصناعة وصناعة الألومونيوم.. ينتهى منها إلى (.. أن كليهما صناعة خاسرة اقتصاديا، إذ تحقق سنويا خسائر جسيمة.. تتعدد أسبابها، ومن ثم تحتاج إلى ترشيد شديد (٨١١).

ويفيض بعد ذلك فى دراسة صناعة الحديد والصلب (ص ص ٨١١ - ٨٣٢)، وتحت عنوان (استراتيجية الموقع، ص ٨١٢)، يعقد مقارنة دالة وشيقة بين أسوان وحلوان كموقعين شهدا مولد هذه الصناعة ونموها، ينتهى منها.. إلى

(.. أنه وإن بدا موقع حلوان موفقا للغاية.. فقد كان ذلك نتيجة المصادفة الحسنة.. وليس لحكمة التخطيط المستقبلى، المصادفة الجيولوجية التى أتت بحديد البحرية وغاز أبو الغراديق.. فى الزمان والمكان المناسب كليهما تماما، بل فى اللحظة الحرجة والبقعة المواتية.. لحلوان دون غيرها، ص ٨١٦)، ويتابع مرحلته الأولى فى أسوان، ثم مراحله التالية، مختتما دراسته لها بعنوان «النمو المستقبلى» (ص ٨٢٩) ويقدم توقعاته استنادا إلى إمكانات الصناعة.. وقدرتها على تحقيق الكفاية الذاتية، مقدرا أن الاستهلاك المتوقع سنة ٢٠٠٠ يقارب ٣٠ مليون طن، لن تحقق الخطة الموضوعة منها سوى نصفها، فإذا كان الإنتاج الفعلى فى سنة ١٩٨٠ لا يجاوز ٥ر١ مليون طن.. فإن هذا يعنى أن الخطة الموضوعة تهدف إلى مضاعفة الإنتاج بعشرة أمثاله فى عقدين فقط (من ٥ر١ مليون سنة ١٩٨٠ إلى ١٥ مليون سنة ٢٠٠٠) بمايعنى إضافة ٥ مجمعات للصلب إلى الحالية، وتتعدد الروايات حول ذلك.. تبعا لتعبيره (ص ٨٣٠).. على أن إنشاء مجمع الدخيلة سنة ١٩٨٥.. قد يكون بداية.. ولعل وعسى.

ويأتى دور صناعة الألومنيوم (ص ص ٨٣٢ - ٨٤٢)، ويتابعها تاريخيا تبعا لمنهجه ، ثم اقتصاديا من زواياها المتعددة، يناقش خلالها قدرته التنافسية (وهى عالية لشدة نقاوته) وتكلفته (وهى عالية أيضا لاعتمادها على الطاقة الكهربائية حيث تستهلك ٢٥٪ من الكهرباء المباعة للصناعة فى البلد كلها، ص ٨٣٧)، ويطالب أخيرا.. بالتوقف عن تصديره نصف مصنع، وبالتحول إلى تصنيعه كاملا، بما يستوعب التكلفة ويحقق ربحية عالية، (ص ٨٣٧).

وتأتى عائلة الصناعات الهندسية (ص ٨٤١)، وتتضمن الميكانيكية (ص ٨٤٣)، والماكينات (٨٤٨)، والصناعات الكهربائية (٨٥٠)، وبها ينهى فصله، بعد أن يشبعها تحليلا تبعا لمنهجه.

صناعة التعدين :

هذا هو العنوان الثانوى لهذا الفصل (٣٦ ص ص ٨٥٥ - ٩٧٣)، أما عنوانه الرئيسى فهو «ثروتنا المعدنية»، ويستهله بهذه العبارة المكثفة (..نقرر بصيغة التوكيد.. أن ثورة معدنية مؤثرة قد حدثت فى مصر فى العقود الأخيرة من تاريخها، ص ٨٥٥)، ويقتضيه إثبات ذلك نوع من المتابعة التاريخية والإحصائية..، يقرر بعدها أن هناك فى مصر مرحلتين.. (ما قبل المعادن.. وما بعدها.. ص ٨٥٦)، ومن هنا تميز هذا الفصل عما سبقه.. من الفصول الثلاثة المتصلة بالصناعة وحدها، هذا فصل الموارد المعدنية أولا.. ثم الصناعة ثانيا.

وينتهى تحليله لما قبل الثورة المعدنية وما بعدها.. إلى تحديد أبرز خصائص الخريطة المعدنية الراهنة.. فى هذه الثلاثية القاعدية (ص ٨٦٠) المتمثلة فى (الحديد + الفوسفات + البترول).. والتى اكتشفت بكميات اقتصادية مناسبة، بما قد يعد باعثا على معاودة التنقيب عن غيرها.. من الموارد المعدنية.. والتى بقيت طويلا ثروة مهملة، وتحت عنوان خريطة معدنية جديدة (ص ٨٦٤) - يتابع توزيعاتها وتطورات إنتاجيتها، كما يحدد مناطق الثقل المعدنى (سيناء وعلى جانبى خليج السويس + وسط وجنوب الصحراء الشرقية + خط الواحات فى

الصحراء الغربية)، بما يكوّن شبكة تعدينية متكاملة، تحيط بالوادى.. حيث يمكن تصنيع ما تنتجه، وتحت عنوان المركّب المعدنى (ص ٨٦٨).. يتابعها نوعيا.. ويصنفها إلى خماسية المعادن الأساسية (البترول، الفوسفات، الحديد، الفحم، المنجنيز) ثم مجموعة المعادن الثانوية.. وهى ثمانية.. النحاس والنيكل والرصاص والزنك والقصدير والكبريت والأحجار الكريمة والذهب، ثم مجموعة الصخور الصناعية من الكاولين والطين والرمال والجبس والتلك وغيرها، وأخيرا.. مجموعة المعادن النادرة.. من اليورانيوم وغيره، ص ٨٦٩)، وبعدما يحدد الخريطة والمركب المعدنى، ينتقل إلى الدراسة المسهبة لكل معدن منها على حدة، يستهلها بالفوسفات (٨٧٠) ثم الحديد (ص ٨٧٩)، ثم الفحم (٨٨٢)، ثم الصخور الصناعية (٨٨٧)، فى دراسة منهجية تبدأ بالتوزيع فالإنتاجية وتنتهى بالاحتياطى المحتمل.

وينال «البترول» جل عنايته.. فيفرد له الصفحات (ص ص ٨٩٠ - ٩٧٣).. أى إلى نهاية هذا الفصل المعدنى، يتناول خلالها التطور التاريخى لإنتاجه (ص ٨٩٠)، ثم تطوراته النوعية.. من البر إلى البحر (٩٠١) ومن الزيت إلى الغاز (٩٠٣)، ويتعمق فى اقتصادياته (بين الإنتاج والاستهلاك والفائض، ص ٩٠٤)، منتقلا إلى صناعته (٩١٢).. صناعة التكرير أولا، ثم شبكة الأنابيب (٩٢١) كعنصر مكمل يتصل بنقله، ويحلل إحصائيا العلاقة بين منتجاته واستهلاكها (٩٢٥) ويعود إلى جغرافية الحقول (خريطة متغيرة، ص ٩٣١)، مع دراسة مسهبة لحوض خليج السويس (٩٣٦)، ولاتفوته مرحلة استنزافه من إسرائيل بين ١٩٦٧ - ١٩٧٣، ويختتم هذا

تلخيص العصر فى شخصية مصر



الفصل بدراسة لإمكانات حوض الصحراء الغربية (ص ٩٦٦) باعتباره أفق المستقبل البترولى لنا، وبه ينهى هذا الفصل كما سبق.. ومعه الباب الثامن.. الذى استغرق الجزء الثالث من كتابه.

رابعا: شخصية مصر الحضارية

تتعدد مفاتيح الجزء الرابع من كتابه.. الذى يخصصه لدراسة «شخصية مصر الحضارية» (٦٦٦ صفحة)، فهو ليس «**البساطة**» وحدها.. كما فى جزئه الأول (شخصية مصر الطبيعية)، أو **التجانس والوحدة**.. فى جزئه الثانى.. (شخصية مصر البشرية)، أو **التكاملية**.. بالنسبة لجزئه الثالث (شخصية مصر الاقتصادية).، تعددا يعود إلى تنوع موضوعاته وتشعبها، وإلى تشابك جوانب شخصيتها الحضارية، وأيضا إلى اتصاله بالأجزاء السابقة عليه.. يستكملها ويتوجها، ومن هنا.. فإن لكل فصل به مفتاحه الذى يخصه.. يعنونه به مباشرة، ويلقى بدلالته على فصول أخرى سبقت.. كما يستمد منها ما يوضح المعنى، وستكون هناك إشارة إلى هذه الصلة مستمرة.

ويتكون هذا الجزء (ص ص ١٣ - ٦٦٦) من ثلاثة أبواب (٩، ١٠، ١١)، تعقبها القائمة الببلوجرافية لكتابه كله(ص ص ٦٦٧ - ٩٧٧)، موزعة بين المراجع العربية (٢٤٥ عنوانا) والأجنبية (٧٩١ عنوانا)، وجملة فصوله سبعة.. ثلاثة للباب التاسع (فصول ٣٧، ٣٨، ٣٩)، ومثلها للعاشر (٤٠، ٤١، ٤٢)..أما الأخير الحادى عشر.. ففصل واحد.. (٤٣)، وبهما ينهى الجزء وكتابه كله. (٤أجزاء، ١١ بابا، ٤٣ فصلا)، يربط بينها ما يحاول تجميعه من سمات مصر الحضارية (المركزية + تعدد الأبعاد + الاستمرارية والانقطاع).. كمحصلة لعمله كله.

خريطة المجتمع المصرى

بهذا يعنون الباب التاسع (الأول من هذا الجزء، ص ص ١٣ - ٣٩٨)، قاصدا أن يحيط هذا العنوان الفضفاض بما يريد طرحه.. وأن يكمل ما سبق عرضه منها.. ويبلورنتائجه، ويشتمل كما سبق على ثلاثة فصول، يخصص اثنين منها لمتابعة موضوع سكان مصر (ص ص ١٣ - ١٣٠).. وتحليل مشكلتها.. واستعراض الحلول المقدمة لها (ص ص ١٣٠ - ٢٥٠)، أما ثالثهما.. فيخصصه لمدينة القاهرة تحت عنوان «مركزية رغم الامتداد.. قاهرة مصر» (ص ص ٢٥١- ٣٩٨) مكثفا لموضوعه.. بمثابة مفتاحه، وبذا تفصح مكونات الباب.. عن توجهه لدراسة «السكان + العاصمة».. باعتبارهما بنية وبوصلة خريطة المجتمع المصرى.. كما يعبر عن ذلك العنوان الرئيسى للباب، وتستند الفصول

الثلاثة.. إلى ما سبق وروده فى الجزء الثانى من الكتاب (فصل ١٧).. تحت عنوان التجانس العمرانى (ص ص ١٦٦ ـ ٢١١، جـ ٢)

كثافة بلا هجرة

يتابع تحت هذا العنوان.. ماسبق له بذره عن نمو وكثافة السكان فى مصر.. باعتبارهما وراء تجانس الغطاء البشرى بها، ويضيف إليهما زوايا متعددة.. تمهد لعرض المشكلة، ويتحدد ما أضافه فى دراسته المسهبة عن زوايا التركيب الديموجرافى لبنيتهاخاصة، يستهلها بما يسميه الثورة الديموجرافية (ص ٣٣).. من حيث جذورها ومراحلها وأسبابها، كما يحدد ديناميـاتها فى (الزيادة الطبيعية ص ٥٥، ضوابط المواليد ص ٥٦، ضوابط الوفيات ص ٦٠، خريطة الحياة وفرص الموت ص ٨٦، التركيب الجنسى ص ٩٢، تركيب السن ص ١٠٥، خريطة الأعمار ص ١٠٩)، وذلك فى صياغات كمية دقيقة.. تستند إلى جداول التعدادات المصرية المتتابعة (١٨٨٢ ـ ١٩٧٦).. أى طوال قرابة قرن من الزمن، بل ويتابعها بعد ذلك.. تبعا لحسابات معينة منتهيا إلى (.. لقد أضافت مصر إلى نفسها فى ربع القرن الأخير.. أكثر مما أضافت فى قرن وثلث قبلها، لقد أضافت إلى نفسها مصر ثانية.. ص ٥١)، لقد تضاعف سكان مصر من ٢٣ مليونا سنة ١٩٥٦ إلى ٤٦ مليونا سنة ١٩٨٢، وتنمو بعدها بمعدل ١٫٥ مليون نسمة كل سنة (ص٥٢).

وحين يأتى دور الكثافة (ص ١١٦).. يضيف إليها تفصيليا دواعيها وأسبابها.. متمثلة فى (الأرض والماء + الرى + نمط الزراعة والتركيب المحصولى)، متابعا مراحلها وتغيراتها، ويقرر بشأنها (.. إن السكان حبيسة الوادى، والوادى حبيس الصحراء، والوادى أصبح قالبا حديديا لافكاك منه procrustean bed.. والسكان أصبحت مصندقةemboitée، ومن ثم يتحول برمته من زجاجة مغلقة.. إلى عنق زجاجة مختنقة مثلما هى مسدودة، ص ١١٧)، والنتيجة الحتمية أن التعدادات السكانية المتعاقبة.. لا تفعل سوى أن ترفع الكثافة بصورة آلية من عقد إلى عقد.. إلى أن تبلغ مستواها الخطير الراهن (.. وهكذا مرة أخرى.. على المستوى الديموجرافى.. بعد الطبيعى والمائى والزراعى والاقتصادى نجد مصر جوهريا كثافة لا مساحة، ص ١١٧)، وهنا يكمن لب المشكلة.

ويختتم الفصل بما يسميه بروفيل مقارن (ص ١٢٩)، يجرى عليه عددا من المقارنات الموحية الدالة.. بين مصر وبريطانيا واليابان.. من حيث مقومات الكثافة ودواعيها فى كل منها، منتهيا إلى وجود درجة من التقارب بينها، خاصة من حيث تتابع مراحل النمو الديموجرافى، وإن تفاوت من حيث التوقيت والمدى، بما قد يفيد فى مجال التوقع السكانى المستقبلى، وبهذا البروفيل ينهى فصله.

المشكلة والحل؟

كما سبق فإنه يحدد مشكلة السكان فى مصر.. فى الكثافة المفرطة.. وليس تركيبها الديموجرافى بصفة خاصة، ويضيف إلى الكثافة هنا.. فى الفصل (٣٨ ص ص ١٣١ ـ ٢٥٠).. الهجرة بأنواعها (الداخلية، الداخلة، الخارجة)مع الاهتمام بالأخيرة منها خاصة.. باعتبارها مخرجا، وبالنسبة للاولى.. أى **الداخلية** بين مناطق مصر ذاتها.. فهى ظاهرة قديمة ومستمرة بها، قد تمثل الحل الطبيعى للكثافة.. بما تؤدى إليه من إعادة توزيع السكان بينها.. بصورة حرة تلقائية معا.. وتبعا لقوى الطرد والجذب السارية، ولكنها أفرطت بحيث أدت إلى تركز حضرى مفرط (الإفراط ثم فرط التركيز).. ونجم عنها ترييف المدن، بما زرعته من جيوب الفلاحين وأنصاف الريفيين بها، وأمست أحجامها دليلا على تورمها وانتفاخها، وبذا انقلبت من ظاهرة صحية.. إلى مرضية مزمنة، وهى على كل حال بسبب الكثافة.. وضيق الوادى وتكدسه وبلتاه معه، وتصاعد النمو السكانى وتفجره، تقصر عن حل المشكلة السكانية المتفاقمة. أما الهجرة **الداخلة**.. فإنه يقرر بشأنها (.. فى الأغلب الأعم من تاريخ مصر.. لم تصدر الرجال.. وإنما الحضارة وأعمالهم، بل و كانت بانتظام مصبا لهم، لم تكن مصر بعبارة أخرى.. منطقة هجرة خارجة، على العكس كانت بوجه عام منطقة هجرة داخلة، فبقدر ما كانت منبعا للحضارة.. كانت مصبا للبشر، وفيما عدا ذلك.. فإذا كان ثمة هجرة قوية عرفتها أو مارستها مصر.. فهى الهجرة الداخلية بين أجزائها المختلفة، كثافة الهجرة الداخلة، ضعف الهجرة الخارجية، قوة الهجرة الداخلية، تلك إذن هى السمات الأساسية تاريخيا فى تركيب الهجرة فى مصر، ص ١٣١)، ومن هنا يوجه اهتمامه للثالثة.. أى الهجرة الخارجية وحدها.. خاصة بعدما فرضت نفسها حديثا.. كظاهرة شديدة البروز ومؤثرة، ومن ثم يفرد لها مساحة واسعة من صفحات هذا الفصل (ص ص ١٣٥ ـ ١٩٠)، أما بقيتها..(١٥٠ ـ ٢٥٠) فيخصصها **للمشكلة السكانية**.. بأبعادها وحلولها.

تلخيص العصر في شخصية مصر

الهجرة الخارجة

يمهد لها بنبذة قصيرة عن الهجرة الداخلة، هذه التى تعرضت لها تاريخيا.. من جيرانها وغيرهم ويشير إلى ما سبق له تتبعه فى الجزء الثانى من كتابه (فصل ١٩ ص ٢٥٥ ـ ٣٥٨).. من اجتذابها لهجرة عناصر بشرية متعددة، منتهيا إلى أنها قد شهدت فى العقودالأخيرة.. خروج معظم من وفد إليها بعد الاستعمار البريطانى واستقر بها، ويسميه الخروج الأبيض.. (ص ١٣٤).. باعتباره أوروبيا فى معظمه.. بعد سنة ١٩٥٦ خاصة..، كما يرصد (..وهذا هو الأهم إرهاصات الخروج المصرى.. وبوادر الهجرة الخارجة بعيدة المدى، والمحصلة.. أنه فى الوقت نفسه الذى رحلت فيه الجاليات الأجنبية عنها، تحولت هى نفسها إلى الهجرة الخارجة، بعد الهجرة إلينا.. أصبحت الهجرة منا.. انقلاب تاريخى بأى مقياس، يفتح صفحة جديدة تماما فى كتاب مصر، ص ١٣٥)، ولايدع رصده دون أن يؤكده، ويضيف مفسرا هذه الحقيقة التاريخية فى تاريخ مصر السكانى، مضيفا لمسة لها دلالتها إلى شخصيتها بعامة (.. إن مصر بلد جعل للهجرة من.. لا إلى، للهجرة الخارجة لا الداخلة، وإذا كان العكس تماما هو ماحدث تاريخيا و كأمر واقع، فإن العكس تماما هو التعبير الحق والواجب عن شخصية مصر الكامنة الحقيقية، ذلك أن البديل الوحيد عن الهجرة من مصر المتناهية الرقعة الزراعية هو، كلما زاد عدد سكانها عن قدراتها الطبيعية والاقتصادية القصوى المزيد من تعظيم الإنتاج، أى التوسع الرأسى، إلى أن تأتى النقطة التى لا مزيد عليها من التوسع، وعندئذ تتحتم الهجرة إلى الخارج، وإلا فإنه انخفاض مستوى المعيشة باطراد إلى خط الجوع ونقطة ماتحت الصفر أو الآدمية ثم المجاعة فحاجز الموت جوعا فى النهاية، جـ ٤، ص ١٤٢)، وإذا كانت الهجرة الخارجة قد تأخرت... فربما يكون ذلك مع الكثافة الطافحة.. من أسباب (طمس الشخصية المصرية السوية.. كما حدث، ص١٤٢).



ومن هنا ترحيبه بها.. وتوقعاته الإيجابية لها.... (.. إننانعيش الآن انقلابا حقيقيا وتاريخيا فى عملية، أكاد أقول فى عقلية الهجرة المصرية، فلأول مرة فى تاريخنا الحديث، وربما فى تاريخنا المعروف، تخرج من مصر موجة هجرة بالجملة، تنتشر فى إطار جغرافى عريض، صحيح أنها حديثة ليست دائمة .. بل مؤقته.. لكنها متجددة، ويبقى بعض الوقت كى نحكم على طبيعتها النهائية،إلا أنها غالبا جاءت لتبقى، بل لعلها لا تعدو مجرد البداية، وطلائع مد مستقبلى أعظم، جـ ٤ ص ١٤٢).

وبعد توصيفها يصنفها كعادته إلى مراحل ثلاث (جنينية، تكوينية، انفجارية)، وقد بدأت الثالثة مع منتصف السبعينيات، حيث وصل الخروج المصرى إلى أعلاه، مثل كرة ثلج مليونية، بل وقفزت بين ٧٣ ـ ٨٣ إلى ٥ر٣ مليون ، وبصيغة نسبية إلى مجموع سكان مصر، تحرك حجم الهجرة من ٣ر.٪ سنة ١٩٦٥ إلى ٧ر٣ ٪ سنة ١٩٧٦ إلى ٧٪ أى نحو الضعف سنة ١٩٨٣ (ص ١٥٣)، وكما لا تكاد أسرة فى أى مدينة أو قرية أو عزبة.. إلا ولها عضو مغترب فى الخارج، فقد كونت تجمعاتهم المتزايدة فى العالم العربى أكثر من مصر صغرى Litlle Egypt فى عدد من دوله، (جـ ٤ ص ١٨١)، وبذا لم يعد المصرى يمكن أن يوصف بأنه قعيد بيته seadentee، وتضع نهاية تصوره إنسانا نباتيا مغروس جذره فى طمى النيل (..درس الهجرة والمهجر بعبارة أخرى هو أن الإنسان المصرى هجرى لا ميلادى فحسب، ص ١٨٣)

ورغم حماسه الفائق للهجرة (.. التى ينبغى أن تتضاعف أضعافا، جـ ٤ ص ١٨٤)، ليس فقط كمساهمة فى حل مشكلة مصر السكانية، وإنما كانطلاقة نحو العالم المعاصر البالغ السيولة والديناميـة)، لكنه لايطلق دعوته دون محاذيرها، ويخضعها للدراسة النقدية تحت عنوان «الهجرة فى الميزان» (ص ص ١٨٤ ـ ١٩٠)، ويضيف إلى ماسبق من إيجابياتها (.. إن الهجرة هى أحد الجوانب المشرفة فى ثروة مصر البشرية، وإذا كانت فى معظمها مادة خاما لا تزال، فإنها بالتعليم والعلم والتكنولوجيا جديرة بأن تتحول إلى سلعة تصدير مصنعة رابحة ورائجة، وبذلك وحده يمكن تعظيم الهجرة المصرية إلى الخارج إلى أقصى حد، وهذا التعظيم قد يأتى ـ دون تناقض ـ

بتحجيمها، تحجيمها بتخطيطها لا بتقييدها، وتخطيطها كيفيا لا كميا..)، وهو يتجاوز ما أحاط بها من حساسيات وتشوهات، بل ويستخلص من ذلك إيجابياته(بأن الهجرة قد أعادت تقديم العرب إلى العرب عامة.. ومصر إلى العرب خاصة، وذلك بعد طول ابتعاد فى عصر الاستعمار..)، ويتصاعد بالفكرة ويرى فى الهجرة المصرية (.. أداة مجسمة من أدوات عملية تمصير العرب..)، كما يراها تجربة عملية فى تطبيق الوحدة العربية (.. فإن التجربة كابح واقعى للأوهام، مثلما هى حافز منبه ضد أخطار الإقليمية الضيقة..)

أما صيحته التحذيرية فتتلخص فى سؤاله عن «مستقبل الهجرة»، مبعثها وما اصبح يحيطها من شكوك عميقة مقلقة (.. فبينما كانت أوائل السبعينيات هى بداية المد، بدت أوائل الثمانينيات وكأنها بداية الجزر وربما تنفجر فقاعتها فى التسعينيات، ذلك الانفجار المدوى الذى سيكون له نتائجه وآثاره التى تفوق خطر فرقعته ودويه، ص ١٧٦)، ويرى بضرورة الإعداد والاستعداد من الآن لعودة الطيور المهاجرة، وترتيب الاتفاقيات مع دول البترول على جداول زمنية تدريجية لعملية التسريح الحتمية، حتى تخف صدمة التيار الراجع والتوازن الجديد إلى الحد الأدنى .. وإلا (.. فإن متاعب خطيرة متفجرة لابد من انتظارها) غير أنه يجدد دعوته إلى رفع مستوى العمالة المصرية.. بحيث تبقى دائما محل الطلب فى الأسواق الخارجية وليس بالضرورة الأسواق البترولية.

وهكذا بعد تقليب الهجرة الخارجة على وجوهها.. يصل إلى المشكلة الأم.

المشكلة الأم:

والآن يصل به المطاف إلى «مشكلتنا السكانية». (.. هى واحدة من أخطر ملامح الكيان المصرى المعاصر، إنها المشكلة الأم.. حتى ليصح أن نضعها قاعدة عامة فى كل مشاكلنا.. فتش عن السكان ص ١٩٠). ويبدأ بتشخيصها تحت عنوان «سباق السكان والموارد» (ص ١٩٠)، مستخدما مؤشرات (الفرد والأرض + الفلاح والأرض + الكفاية الغذائية + اتجاه الدخل)، منتهيا إلى تشبيهه بسباق السلحفاة والأرنب(١٩٦)، السلحفاة للموارد والسكان للأرنب بالبداهة.

أما أعراض المشكلة فتتمثل فى (العمالة والبطالة+ الريف والزراعة + المدن والتحول المهنى + هجرة العقول + دولة الموظفين + مستوى المعيشة + التغذية والمركب الغذائى + الصحة والمركب الباثوجينى).

منتهيا إلى إثارة سؤال مهم حول معنى الإفراط السكانى؟.. باعتبار أن الإفراط يبدأ حين يختل التوازن بين السكان والموارد.. فهل حدث ذلك فى مصر؟ وما هى نسبة الإفراط فوق الحجم الأمثل بالضبط؟ وتقتضيه هذه الأسئلة تقديم وجهات النظر المختلفة حول الموضوع (ص ص ٢٢٠ ـ ٢٢٧)، حيث يقرر أن لب القضية كمية وكيفية معا.(.. أناس أكثر مما ينبغى .. من نوعية أقل مما ينبغى، ص ٢٢٧)، وتحت عنوان «حلول أربعة» (ص ٢٣٤) يقدم تصوره العام لحل المشكلة:

*** إعادة توزيع الدخل:**

(لابد من إعادة توزيع الدخل القومى توزيعا عادلا على الجميع، فهذا من شأنه أن يخفض من الاستهلاك غير العادى وغير العادل للطبقات الغنية الطفيلية من ناحية، ومن ناحية أخرى يرفع مستوى معيشة الطبقات المعوزة، بما يؤدى فى النهاية إلى خفض معدلات نموها سكانيا، ص ٢٣٦).

*** زيادة الدخل القومى:**

(.. أيا كان الفاعل والمفعول به بين طرفى المعادلة، فلابد من الاستناد إلى استراتيجية للتنمية، وليس من حق أحد أن يدعو إلى غير ذلك من حلول.. قبل أن يرتاد ويستنفذ الحل الاقتصادى تماما، ص ٢٣٦).

*** الهجرة:**

(.. من المؤكد أنها قد ساهمت بعوائدها فى حل المشكلة السكانية.. أو تخفيفها، ولا مجال للخوف من سلبياتها، وبالحجم المناسب لن تؤثر فى الاقتصاد المصرى مطلقا.. ص ٢٤٠).

***ضبط النسل:**

(.. واقع الأمر.. أن ضبط النسل.. مفتاح تخطيطنا القومى لحل المشكلة، ص ٢٥٠).

وإذا كانت المشكلة السكانية.. هى مشكلة مصر بعامة، فإنها تتمثل فى أعقد تداعياتها فى عاصمتها القاهرة، هذه التى تجسد فى حد ذاتها.. مشكلة مصر الثانية، ليس فقط من حيث ما تعانى هى منها، بل وأيضا فيما يؤدى إليه تضخمها من مشاكل.. تصيب القطر كله، ومن ثم يتوجه بعد السكان لها.. (فصل ٣٩ ص ص ٢٥١ — ٣٩٥).

المركزية العاصمية

(قاهرة مصر).

يفسر بالمركزية الجغرافية تفرد موقع القاهرة، فهى تقع عند رأس الدلتا.. عقدة مصر العظمى (.. مقدمة خاصرة الوادى بكل معنى، تؤدى كل الطرق

تلخيص العصر في شخصية مصر



إليها، عنق الزجاجة، عنق مصر، مركز الثقل الطبيعى هندسيا، ونقطة الارتكاز ميكانيكيا، ومركز الثقل بشريا، ص ٢٦٥)، وبذا يفصح عنوان الفصل عن دلالته، وتغدو هذه الدلالة مدخله لدراسة القاهرة.. وكشف خصائصها الناجمة عنها، على أن القاهرة.. ليست وليدة الجغرافية فقط، بل هى من اختيار التاريخ أيضا، فرغم تغيوات موقع عاصمة مصر عبر تاريخها، فقد استقطبتها رأس الدلتا عامة.. قرابة ٢٥٠٠ سنة متقطعة.. بما يعادل نصف تاريخ مصر(ص٢٦٥).

ومع تعدد مناهجه.. إلا أنه يتخذ من التحليل المكانى محوره.. يفسر به مركزيتها الصارمة.. كخاصية أساسية دعت لظهورها.. وتخللت نسيجها.. وأفضت إلى إيجابياتها وسلبياتها فى المحصلة.. لها ولمصر كلها، ومن ثم يصدرها.. ويجعل منها العنوان الرئيسى لفصلها، ويصيغها فى مقولة مكثفة (مركزية رغم الامتداد) تخص القاهرة، كما أن لها دلالتها العريضة عن جانب مهم من شخصية مصر الإقليمية.. (.. لعل من أبرز ملامح شخصية مصر، المركزية الصارخة طبيعيا وإداريا وحضاريا، وهى صفة متوطنة مزمنة حتى اليوم..)، يفسرها ويتابعها (.. وترقد الطبيعة بوضوح خلف هذه الظاهرة، فنحن ابتداء إزاء مركزية مورفولوجية، أى تركيبية، أى جغرافية صريحة، فتبلور الوادى الضئيل داخل شرنقة الصحراء الشاسعة.. وتجسمه حول النيل، يجعله جسما ملموما ونسيجا ضاما، ص ٢٥١).

ولكن هذا التجسم حول النيل.. يحمل داخله امتدادا.. يجعل من مصر المعمورة (مسافة لا مساحة ص ٢٥١)، فالصعيد يفتقر إلى قلب طبيعى، يجعل منه امتداده الخطى طولا بلا عرض، أحادى الحركة والتوجه، لا تتميز فيه نقطة عن أخرى، وكذلك الدلتا التى تخلو من بؤرة حاسمة، فلئن كان بها حزمة من خطوط طبيعية على المحور الشمالى الجنوبى، متمثلة فى فروعها وترعها، فإنها تعدم أى محاور طبيعية عرضية تتعامد عليها، وتؤدى إلى عقدية طبيعية Nodality فعالة (ص ٢٥٢)، وقد اتسق مع هذا الامتداد والانسياح.. توزيع العمران والمواصلات.. مؤكدا صورتها العامة (.. الصعيد كالدلتا تقريبا.. هذا خط بلا بؤرة.. وهذه رقعة بلا عقدة). وهكذا يفسر عنوانه.. «مركزية رغم الامتداد».. ويوضحه، منتقلا إلى مقولته الثانية (تكاد القاهرة تلخص كيان مصر البشرى) حيث هى بحكم موقعها المركزى بين الدلتا والصعيد.. تستمد سكانها بتوازن معقول من كل أقاليم الدولة، وبالتالى تؤلف بحق عينة ممثلة لمصر (ص ٢٦٩)، بل هى تلخص كيانها الطبيعى أيضا، بل إنه الأسبق، فالقاهرة مروحية الشكل، ضيقة طولية فى الجنوب، وهذا هو هيكل الأرض السوداء فى مصر عموما، هى إذن تختزل شكل مصر الجغرافى أيضا، بل هى فوق ذلك تختزل تاريخها فى تركيبها، حيث تقع بين قوسين معلقين من التاريخ القديم.. الفرعونى غربا والإسلامى شرقا، فى حين ترقد المدينة الحديثة فى القاع المنخفض بينهما، هى ثالثا إذن (.. خير نقطة فى مصر تختزل تاريخها، ص ٢٦٨).

ولأن المركزية تورث الحجم.. فقد نمت القاهرة وأفرطت فى تضخمها، من مدينة مليونية سنة ١٩٢٧ بنسبة ٨٪ إلى جملة سكان مصر، إلى أكثر من ٥ مليون سنة ١٩٧٦، دون حساب هوامشها العشوائية، وفاضت خارج كردونها (٢١٤كم٢)، وافترشت عمليا قرابة ٢٩٠٠ كم٢، متضمنة إقليم العاصمة المدنى بمعناه الواسع، وفراغاتها المحيطة، والقرى والعزب القريبة، وأجزاء من بعض المراكز الريفية فى الجيزة والقليوبية، هذه التى دخلت أو أوشكت ضمن نسيجها المتروبوليتانى (ص ٢٩١)، وتبعا لأرقام ١٩٨٣ بلغت نحو ٩٫٣ مليون نسمة، أى نحو ٢٠٪ من جملة سكان الدولة، أى ضعف نسبة العاصمة فى الدول الناضجة حضريا (ص ٢٩٢)، وصفوة القول إن حجم القاهرة ليس فقط أكبر جدا مما يتناسب مع حجم سكان البلد، ولكن أيضا مع أحجام سائر المدن فى البلد عدا الإسكندرية.

ويتابع إحصائيا نموها (.. لقد أصبحت «القاهرة» مدينة مليونية منذ تعداد ١٩٢٧، بنسبة ٨٪ إلى جملة سكان مصر، ثم تضاعفت بعد نحو عقدين .. وترتفع نسبتها إلى ١٠٪ وأضافت المليون الثالث قبل أقل من عقد.. وتزيد نسبتها إلى نحو ١٣٪، وفى

أكثر قليلا من نصف عقد أضافت المليون الرابع، وزادت عن ٥ مليون فى أرقام ١٩٧٦، دون حساب هوامشها العشوائية المكدسة، وفاضت خارج كردونها المساحى (٢١٤ كم٢) .. الذى لم يعد سوى القاهرة الصغيرة بملايينه الخمسة، أما القاهرة الكبرى. فقد افترشت عمليا أكثر من عشرة أضعاف هذه المساحة (٢٩٠٠ كم٢) متضمنة إقليم العاصمة المدنى بمعناه الواسع، وفراغاتها المحيطة والقرى والعزب القريبة وأجزاء من بعض المراكز الريفية فى الجيزة والقليوبية.. هذه التى دخلت أو أوشكت ضمن نسيجها المتروبوليتانى.

تضم تبعا لأرقام ١٩٨٣ نحو ٩٫٣ مليون نسمة.. أى نحو ٢٠٪ من جملة سكان الدولة، أى ضعف نسبة العاصمة فى الدول الناضجة ريفيا وحضريا، وفى المرتبة السادسة بين أكبر مدن العالم حجما.. سابقة بذلك بكين الصين ذاتها (ص ٢٩١).

وتصل التوقعات بها فى ١٩٩٠ إلى ما بين ١٣ — ١٦ مليونا (٢٦٪ من الحجم المتوقع لسكان الدولة، ويقدر أن تبلغ دائرة ٢٠ مليونا مع سنة ٢٠٠٠ وربما ٢٨ مليونا.. وبذلك تستوعب أكثر من ثلث حجم الدولة المتوقع لها أيضا آنذاك.

وصفوة القول إذن إن حجم القاهرة ليس فقط أكبر جدا مما يتناسب مع حجم سكان البلد، ولكن أيضا مع أحجام سائر المدن فى البلد.. عدا الإسكندرية فقط.

المركزية الوظيفية:

ليس هذا فحسب.. فقد اقترن بالمركزية العاصمية منذ وقت تركز شديد للوظائف الحضرية فى شتى أشكالها، تمثل أولا فى الوظيفة السياسية. (.. لقد كان لمصر دائما دور خارجى، غالبا بدرجة أكبر من إمكانياتها، بدت معه كرأس كبير ينوء به جسم صغير، تركزت بها كل المسئوليات والتطلعات الخارجية، ومن هذا التناقض نشأت متناقضة العاصمة الكاسحة والجسم الكسيح، ص٢٨٦)، واقترن ذلك بدور الحكومة الطاغى، وأرسى نواة الموظفين الثقيلة، وأصبحت البيروقراطية المركزية عنصرا أصيلا فى مركب الحضارة المصرية (ص ٢٧٠)، ولقد نما عدد الموظفين الحكوميين فى العقود الأخيرة نموا هائلا، قاربت دائرة ثلاثة المليون، تعادل أكثر من ٣٠٪ من مجموع القوة العاملة فى مصر (ص ٢٧٥)، ورغم الحكم المحلى، يظل جيش الموظفين فى العاصمة، لقد كانت القاهرة دائما كما يصفها جاك بيرك قلعة قديمة لمركزية الدولة (ص ٢٧٦).

وهكذا تدحرجت مركزية العاصمة مثل كرة الثلج، لتصبح القاهرة فى اللاندسكيب الحضرى المصرى أقرب لأن تكون الورم الأكبر (.. لقد تحولت القاهرة من مجمع مدنى إلى كائن يمتص دم الأقاليم..)، ليس فقط أراضيها المزروعة، بل ورءوس أموالها أينما كانت (.. بعدما كانت الأرض الزراعية بالوعة مصر الإقطاعية، أصبحت القاهرة بالوعة مصر الرأسمالية)، ولئن كانت القاهرة لا تتعدى خمس الدولة من حيث العدد المطلق، فلعلها تزيد عن النصف من حيث الوزن والثقل الفعال، فلو أننا قيمنا الدخول المرتفعة والعقارات والأملاك والصناعات والمرافق والخدمات الراقية، وكذلك ما لا يمكن تقييمه رقميا كالسلطة والنفوذ، فلقد ترجح العاصمة كفة بقية البلد، ص ٣٣٧).

ولقد امتد ذلك إلى صدرها هى نفسها، لقد تجاوز التضخم حد التخمة المرضية إلى التفجر الباثولوجى، فباتت كل مؤسسات العاصمة تئن وتتآكل وتنهار تحت ضغط سكانى متفاقم، وإذا كان لذلك من معنى فهو بلا شك أن مصر باتت تتألف من مدينة كبرى وقرية كبرى، المدينة الكبرى هى العاصمة، والقرية الكبرى هى الأقاليم، ولم يكن تضخم العاصمة hyperlrophy سوى نتيجة لضمور الريف atrophy (ص ٢٨١).

وقبلما يفسر الآليات التى أدت إلى هذه الثنائية المرضية.. يحدد مؤشرات تفاقم مشكلات العاصمة فيما يلى:

* تلتهم القاهرة ١٤٤٠ فدانا كل سنة من الأراضى الزراعية.

* تبلغ كثافتها العامة نحو ٢٤ ألف/كم٢(أكثر من ٣٠٠ نسمة/ فدان)، وتصل إلى ١٠٠ ألف نسمة فى أحياء روض الفرج وباب الشعرية. (ص٣٥٤).

* يخص الفرد من المساحات الخضراء والمفتوحة ٦ر١م٢ مقابل ١٢ - ٤٠ مترا فى المدن المتوازنة.

* تتدفق إليها هجرة الفقراء والمعدمين النازحين من الريف، فتتحول هوامشها إلى معسكرات انتظار ومدن وعشش الصفيح ـ shanty towns, bi donvilles تمثل الريف فى العاصمة أو عملية ترييف المدينة.

* أكثر من ٢٥٪ من المنازل آيلة للسقوط، وقد تجاوز ٤٠٪ منها عمره الافتراضى، ونسبة ثالثة لا تصلح للآدميين (٤١٪ من سكان حى الخليفة، ٢٨٫٨٪ من سكان الجمالية، ١٣٫٣٪ من سكان الدرب الأحمر.. يقطنون المقابر. (ص٣٥٦).

* اختناق حركة المواصلات، وغياب التخطيط بين مواقع السكن والعمل.

* التلوث.. الرصاص عشرة أمثال المتوسط العالمى.

وينفى أن تكون الجغرافية وحدها (المركزية المكانية) وراء تلك الثنائية المختلة، هى قد تؤدى إليها فى نسبة معينة..ولكنها تعود بعدها لغيرها، عوامل تاريخية واجتماعية وسياسية وحضارية، بل وإلى (.. عوامل آلية بحتة كامنة فى ميكانيزم نمو المدن.. تتداعى بها مثل كرة الثلج، ص ٢٨٣). فلئن كانت المركزية تورث الحجم، فإن الحجم أيضا يورث الحجم، والكل يرتبط فى النهاية بصورة أو بأخرى بسياسة «دعه يمر» التى تترك الأمور تجرى عشوائيا فى أعنتها، ويفيض بعد ذلك فى تحليل هذه العوامل غير الجغرافية (البحتة)، فى متابعة تاريخية يبرهن بها على مقولته، كما يستخلص منها دلالاتها الأخرى (جـ٤ ص ص ٢٨٣ ـ ٢٩٠)، محددا انعكاساتها الأخرى هذه التى تكاد تتطابق معها شكلا ومضمونا مثل.

- الهرم الطبقى الاجتماعى.
- النظام التعليمى.
- مورفولوجية العمران والبناء.
- البيروقراطية الوظيفية.
- الاستثمارات الرأسمالية.
- الدور السياسى الإقليمى.
- الهجرة الريفية.
- التركيز الصناعى.

وتحت عنوان «حماقة العاصمة الجديدة» (ص٣٦٠).. يضع مناقشته للحلول المطروحة لحل مشاكل القاهرة، ويفصح العنوان عن رأيه المبدئى فى هذا الاقتراح.. بإنشاء عاصمة بديلة لها، مفندا المواقع المقترحة كبدائل لها، منتهيا إلى أن (.. القاهرة .. ليست نبتا

تلخيص العصر فى شخصية مصر



شيطانيا، بل ليس فى الدنيا عاصمة أكثر منطقية وطبيعية من القاهرة..).. إذن فموقعها ليس المشكلة، ويتبعه بمناقشة اقتراح «العاصمة المغلقة»(ص٣٧٠) ويراه حلا مناسبا.. على الأقل لوقف التفجر الراهن فى نموها، ويفضل غيره، وقد يؤدى إلى تثبيت حجمها، مذكرا بما اقترحه يوما.. من تثبيت حجم القاهرة عند دائرة (٧ مليون نسمة، ص ٥٣) كسقف أعلى لنموها.. وكذا بالنسبة لغيرها من العواصم الإقليمية المتنامية.. ولكن بما أن ذلك قد فات.. ولم ينتبه أحد لدعوته.. فإن تثبيت الحجم بإغلاقها.. لم يعد كافيا. بعدما تضاعف حجمها عما اقترحه، وفى مقابل ما يسمى بالقاهرة الكبرى (.. وهى عنده خطة تضاعف من حجمها ومشكلاتها.. ومن ثم فهى قطعة من جنون الضخامة.. سوف تؤدى كالديناصور إلى انتهائها، ص ٣٧٢)، ويستبدل بها خطة مناقضة.. تتحدد بعد (الغلق+ التثبيت) فى تصنيفها، مستندا فى ذلك إلى مبادئ الإقليمية المتوازنة.. التى ترى الصورة ضمن إطارها الأوسع.. بهدف التوصل إلى شبكة حضرية فعالة بقدر ما هى متوازنة، ويتوجه نحو وضع بنود تنصيفها عمليا كما يلى:

* تحويل القاهرة إلى عاصمة سياسية فقط.

* إيقاف النمو الصناعى فورا بها.

* تخليصها مما يحيطها من أحياء الصفيح والعشش.

* التوقف عن إنشاء المدن الجديدة. بالقرب منها وحولها.

.. (.. باختصار ليس المطلوب مدنا جديدة.. ولكن مدينة منصفة، لا القاهرة الكبرى هى المطلوب، وإنما القاهرة الصغرى.. جنبا إلى جنب وشرطا مع الإقليمية الكبرى.. نقطتنا التالية، ص ٣٧٨).

وهكذا يتحدد اقتراحه (الغلق+ التثبيت+ التنصيف).. مستندا كما سبق.. إلى مبادئ الإقليمية Regionalism الراسخة، والرامية إلى تفكيك المركزية الصارخة.. لحساب عواصم بقية أقاليم مصر كلها، ومن ثم فليس تخطيط القاهرة.. عملية منفصلة بذاتها.. ولا يجب (حسنا إذن.. كيف الآن نعيد بناء أقاليمنا؟ ص ٣٨١).

وتستغرق إجابة هذا السؤال .. بقية صفحات هذا الفصل (٣٩ ص ص ٣٨١ ـ ٣٩٥)، يحدد رؤوس إجابته عن التنمية الإقليمية فيما يلى:

- إعادة وبعث وإحياء المدن والعواصم الإقليمية.
- إعادة بناء القرية.
- إعادة تخطيط هيكل التقسيم الإدارى (ص ٣٨١).

ويفصل فى كل منها كما ينبغى، كما يقدم اقتراحه بشأن خريطة التنمية

الإقليمية (ص ٣٩٥)، هادفا فى المحصلة.. إلى إحلال اللامركزية.. محل المركزية الموروثة المتوطنة.

وبها ينهى هذا الفصل الذى خصصه لمشكلتى السكان والقاهرة.. باعتبارهما أبرز أمراض خريطة مصر الاجتماعية، منتقلا بعده (فصل ٤٠، ص ص ٣٩٩ - ٤٧٩) إلى تحليل عدد من سماتها الحضارية المتميزة.

تعدد الأبعاد:

كما سبق .. فإن لكل فصل من فصول الجزء الرابع من كتابه.. مفتاحه..يضعه كعنوان له، يحصد به ما سبق بذره فى فصول أجزائه السابقة، يستهله بتعدد الأبعاد فى شخصية مصر، ثمرة للجزء الثانى عامة، ولنظريته السارية عن الموضع والموقع خاصة، وكما أن «التجانس» فى شخصية مصر خاصية للموضع، فإن تعدد الأبعاد فى كيانها وظيفة للموقع (.. تعدد الأبعاد والجوانب فى كيان مصر وتوجيهها نتيجة متوقعة للمؤقع البؤرى فى قلب مثلث القارات، فمصر حلقة الوصل بين العالم المتوسطى وبين حوض النيل برمته، وعلى الجملة بين أفريقيا وأوروبا، وتتحدد لنا فى المحصلة العامة أبعاد أربعة فى توجيه مصر، الآسيوى الأفريقى على مستوى القارات، والنيلى المتوسطى على المستوى الإقليمى، جـ٤ ص ٣٩٩) و كلاهما (التجانس + تعدد الأبعاد) من أدوات فحصه لشخصيتها.. واستخلاص مكنوناتها.. وتحديد هويتها.. (.. على أن الكل يتداخل مع الإطار العربى الكبير، بيد أن الإطار العربى ليس مجرد بعد توجيهى، وإنما كيان الجوهر فى ذاته.. هو الوجه والهوية، ص ٤٠٠)، والهوية عنده ثقافية فى جوهرها، ومن هنا فلا تعارض بين هذا الطرح وبين تقريره (مصر هى النيل).. فرغم أنه أقوى وأعمق ما يربط مصر بخارجها.. بما يجعل من البعد النيلى فى طليعة أبعادنا الخارجية أولا.. ومحوريا فى بعد مصر الأفريقى ثانيا، إلا أنه لم ينقل إليها مع مائيته وتربته ثقافة أفريقية، بل كان وسيلة نقل الثقافة العربية إلى داخل أفريقيا، وبما أنه بصدد تحديد ملامح شخصية مصر الحضارية.. فالثقافة هى أول ما يهمه.

فإذا كان النيل هو مصر ذاتها.. والعروبة هويتها.. فما دور البحر المتوسط فى شخصيتها الحضارية؟ وتقتضية إجابة هذا السؤال بحثا مطولا فى حضارة البحر المتوسط، ومناقشة مسهبة لكافة الآراء التى عرضت لعلاقة مصر بحضارته ينتهى منها إلى.. (..وأن البحر المتوسط من أبعاد التوجيه الحضارى المصرى:. قضية لا يمكن بداهة أن تكون خلافية، فالنيل إذ ينحدر شمالا ليصب فيه، والحياة المصرية إذ تجرى مع النيل نحوه، فإن مصر برمتها تتوجه إليه وتتطلع نحو الشمال، والبلد إذ يطل عليه بجبهة مشرفة مترامية نوعا، وإذ يمثل البحر أحد ضلوعه الأربعة، أو بالأصح الضلع الوحيد الحى الذى يتصل مباشرة بالمعمور المصرى، باعتبار الضلع الغربى ميتا.. والجنوبى والشرقى شبه ذلك، نقول إن البلد بهذا لا يملك إلا أن يتفاعل مع البحر ويتعايش، أى أن إحاطة الصحراء بمصر.. كما بالشام والأناضول وجهتها كما وجهتهم نحو البحر المتوسط، كما ربطتهم ببعضهم البعض، وربطتهم بأوروبا من خلفه، كما يرتبطون بافريقيا وآسيا، إن مصر وفورا وبلا تردد.. متوسطية أكثر مما هى مدارية أو أفريقية، جـ٤ ص ٤٤١).

ويتساءل عن وزن أبعاد مصر فى شخصيتها؟ وعن نسبها فى تكوين هويتها؟، وعن دورها بالنسبة لكل منها؟ (ص ٤٥٩)، ويجيب.. (قد يكون من المفيد أن نفرغ أولا.. من أن الأبعاد البحرية تأتى فى المحل الثانى بالضرورة.. إذا ما قورنت بالأبعاد القارية، ويتحدد المجال البحرى المصرى تقليديا بالبحرين المتوسط والأحمر، والثقل الأكبر فى الأهمية للمتوسط، وإذا كان كل منهما يستمد جزءا أساسيا من قيمته العالمية من الآخر، ودون تناقض.. فدور مصر فى البحر الأحمر أكبر نسبيا من دورها فى البحر المتوسط، واليوم فإنها بلا نزاع محور استراتيجية البحر الأحمر الأساسية والحربية، ص ص ٤٥٩ - ٤٦١).

وتحت عنوان له دلالته «تعدد لا انفصام».. (ص ٤٥٩) يقرر (.. وداخل هذه الدوائر.. لم تصب مصر عادة بدوار جغرافى، ففيما عدا الانتماء العربى المؤكد.. فنحن مصريون قبل أن نكون أفريقيين أو آسيويين أو أوروبيين، نحن فى أفريقيا ولسنا منها، ومن أوروبا ولسنا فيها.. ولسنا فى آسيا.. ولكن إليها، ذلك أننا فى أفريقيا بالجغرافية والأرض، ومن أوروبا إلى حد، وإلى آسيا بالتاريخ والثقافة، ص ٤٦٨)، وداخل هذا الإطار.. فإن لمصر علاقة خاصة بكل من السودان والشام.. يحددها فى سياق سابق.. حيث يقرر (... ولا يمكن أن نتكلم عن البعد النيلى لمصر.. دون أن نضع أكثر من خط تحت **السودان**، فمع موقع الجوار الجغرافى. ووحدة النيل الهيدرولوجية.. أصبح من أشد الأقاليم ارتباطا بمصر طوال التاريخ، شأنه فى ذلك شأن الشام.. حيث الرابطة هى موقع الجوار والوحدة الاستراتيجية، أى بين مصر والسودان.. كما بين مصر والشام علاقة خاصة.. بمعنى ما، وكلتا العلاقتين قديمة.. وسابقة للعروبة كما هى لاحقة عليها، ص ص ٤٣٧ - ٤٣٨).

وبين هذه الأبعاد.. فإن مصر هي البوصلة الراسخة، ومقياس الأبعاد كلها يتحدد في انتمائها القومي (.. أي العروبة.. الكيان والجسم نفسه.. قبل أبعاده، فالقومية العربية وحدها تحفظ توازنها.. ويمنع عنها الإصابة بالدوار الجغرافي بينها، ذلك هو المصل المضاد لخطر الدوار الجغرافي في قلب العالم، ص ٤٦٩)، وسيعود إلى تأكيد هذه الحقيقة مرارا وتكرارا في بقية صفحات هذا الفصل.. وما يتبعه .. إلى نهاية كتابه.

وبعد تعدد «الأبعاد.».ينتقل إلى «التوسط والاعتدال».. كسمة بارزة في قسمات شخصية مصر الحضارية، يخصص لها الفصل التالي (٤١ ص ص ٤٨١ — ٥٥٠) من هذا الجزء الثاني من كتابه.

التوسط والاعتدال:

وتأتي مقولته عن «التوسط والاعتدال» لتتكامل مع سابقاتها (التجانس+ المركزية+ تعدد الأبعاد) هذه التي تميز مع ما يأتي بعدها.. شخصية مصر الحضارية، وجميعها بمثابة أدواته لفحص جوانبها والكشف عن أسرارها العميقة، حيث تثبت تطبيقاته لها تخللها نسيج هذه الشخصية.. وتجليها بدرجة أو بأخرى في عناصرها ومكوناتها (.ليس من قبيل التبسيط.. أن نعد التوسط والاعتدال من أبرز السمات العامة في شخصية مصر والشخصية المصرية، فالوسطية والتوازن سمات رئيسية عريضة في كل جوانب الوجود المصري تقريبا، الأرض والناس، الحضارة والقوة، الأخذ والعطاء، جـ٤ ص ٤٨١).

ويعود فيؤصل هذه السمة في المكان.. شأنها شأن غيرها (.. سواء من حيث الموضع أو الموقع، تمثل مصر

تلخيص العصر في شخصية مصر



مكانا وسطا، وسطا بين خطوط الطول والعرض، وبين المناطق الطبيعية وأقاليم الإنتاج، بين القارات والمحيطات، حتى بين الأجناس والسلالات والحضارات والثقافات،، ويغير فكرة التوسط المحورية هذه ـ لن نفهم روح مصر أو شخصيتها، بل يمكن القول إن هذا التوسط هو مصرنفسها، ص ٤٨٢).

ثم يدمجها مع نظريته العامة عن «الموضع والموقع».، ويقدرها وقد انبثقت من توازنهما العام في مصر (.. نجد في الموقع والموضع توازنا وتقاربا عاما من حيث القيمة والأهمية، ونجد بناء حضاريا يتكافأ مع قوة الأساس الطبيعي، ونجد في الحضارة عطاء يعادل الأخذ أو يزيد عليه، بالمثل في الموقع والمناخ، في الجنس والسكان وحتى في الثقافة والدين، ص ٤٨١)، أي أن التوسط والاعتدال يستند إلى قاعدة راسخة من التوازن الطبيعي يفصلها (.. يمتاز الموضع بتوازن ملحوظ في الهيئة، وذلك بتناظر البحرين والصحراوين والهضبتين على جانبيه، كما يمتاز بالتوازن في درجة الاتصال.. حيث تتسم

مصر بفضل عزلتها النسبية الخفيفة بالاعتدال والتوازن بين العزلة الجغرافية المنطوية والانسياح أو الانفتاح الكاسح، أيضا فإن مصر كشبه واحة نهرية في وسط الصحراء، تعد أيضا شبه واحة ساحلية تجاور البحر وترتكز إليه وتنفتح عليه، وبالوضع نفسه فإنها بمثابة جزيرة أو شبه جزيرة نهرية ساحلية بين الصحراء والبحر، إلا أنها بمقياسها الضخم وإحاطة الصحراء. تعد في الوقت نفسه جزيرة قارية من الخارج، ولكن الغريب بعد هذا أنها من الداخل تبدو كأرخبيل نهري يتألف من آلاف الجزر من كل حجم ومقياس ، وذلك بحسبانها بيئة نهرية تختطها وتقطعها مئات الترع والمصارف والقنوات من كل حجم ومقياس، جـ ٤ ص ٤٨٥).

وتنمو الفكرة وتتصاعد من مستوياتها البسيطة إلى مستوياتها الأعلى، حيث يؤدي التوازن الطبيعي القاعدي.. إلى توازن البنية الحضارية فوقه، بما يتضمنه ذلك من تفاعل بين شتى العناصر، يؤدي إلى تركيبة قوامها التوسط (.. والواقع أن هذه التركيبة الفريدة تقودنا خطوة أخرى إلى الأمام نحو أخص خصائص موضعنا الطبيعي، فهو في الحقيقة إنما يمثل إحدى الحالات النادرة مما يمكن أن نسميه «تراكب البيئات»

Superimposed environments

.. فلقد استطاعت الحضارة الحديثة ووسائل النقل بالجملة أن تخلق أخيرا بيئات تركيبية منقولة تتواقع في نقطة واحدة عن طريق الاحتكاك الحضاري، ولكن الطبيعة خلقت في مصر منذ البداية بيئة طبيعية تركيبية تراكبية حين أوصلت النيل من منابعه وبخصائصه الموسمية من قلب أفريقيا إلى عتبة البحر المتوسط.

.. وهكذا جمعت مصر بين عدة مزايا نادرة استمدتها من موقعها هى كمصب ومن منبعها كمصدر، بحيث جمعت بين محاسن كل منهما دون أضداد أى منهما، حتى ليمكن القول إنها جغرافية مقطرة مرشحة.. تلك التى ظفرت بها مصر من الطبيعة، فهى أولا قد أخذت موقع البحر المتوسط المتقدم.. ولكن ليس موقع الحبشة السحيق المتخلف، وهى قد أخذت من أثيوبيا الجبلية الوعرة المضرسة.. بيئة سهلية منبسطة كأفضل ما يكون الاستواء، واستمدت منها تربة رسوبية بركانية.. ولكن دون أن تعانى من البركنة والزلازل، ثم هى أخيرا قد أخذت مائية الموسميات.. دون أن تأخذ منها رطوبتها الوائدة ومناخها القاسى، بالاختصار وبصيغة جامعة، مصر صحراوية المناخ.. ولكنها فى الوقت نفسه موسمية الهيدرولوجيا، غير أنها أيضا متوسطية الموقع، جـ٤ ص ٤٨٦).

وهكذا تتجمع خاصية التوسط فى شخصية مصر مما لا يحصى من الجزئيات.. التى أخذت من كل منها بقدر، جنّبها ظواهر التطرف بأية صورة، فمن المستحيل أن تكون شخصيتها تركيبية ومتطرفة فى آن واحد، فالأخيرة تعنى الأخذ من جانب واحد.. بكمية ونوعية.. تحجب غيره، أما التركيبية فتعنى تناسب المكونات فى بنية معتدلة متناسبة التكوين، ويؤكد المعنى باقتباس من المقريزى عن مناخ مصر(.. مصر متوسطة الدنيا، فقد سلمت من حرّ الإقليم الأول والثانى، ومن برد الإقليم السادس والسابع ووقعت فى الإقليم الثالث.. فطاب هواؤها وضعف حرها.. وخف بردها.. وسلم أهلها من الأمراض، ص ٤٨٨).

وبالنسبة للتطور المادى والاقتصادى (ص ٥١٢).. فقد سبقت مصر إلى الأخذ بأسبابه منذ أوائل القرن الماضى، وبدت رائدة فى كثير من وجوه التحضر، ولكن أين تقع بالضبط من خريطة العالم؟ (.. ومهما يكن من أمر .. فإن الباحث يحار فيما إذا كانت مصر اليوم دولة شبه نامية أم شبه متقدمة، فقيرة هى بالتأكيد بمتوسط الدخل الفردى بالقياس إلى الدول المتقدمة، ودعك تماما من دول البترول المحدثة، بحيث يمكن أن تصنف شكلا كدولة انزلقت من العالم الثالث إلى الرابع، غير أنها بمستوى التطور الحضارى والمادى وهيكل البناء التحتى والصرح الفوقى.. تقع بلاشك فوق دول العالم الثالث الجديد، إن لم تقترب من صغار الدول المتقدمة، أما المقارنة مع الدول العربية وغير العربية البترولية، فهى إن لم تكن ظالمة قصيرة النظر حقا.. فإنها على الأقل تنبع أو تعانى من انكسار خطير فى الرؤية، فالأمر كله شذوذ بحت، حالة بترولية خاصة، تكاد تقول حالة بترولية مرضية petro-pathology أكثر منها أى شىء آخر، ص ٥١٥). والواقع أنها تملك قدرة فائقة على التجانس، تستمدها من خاصية المتوسطية، التى صارت أداة كما هى سمة، تتجاوز بها التناقضات الطارئة.. وتتوازن وتتعادل بملكة خاصة.. فما هى؟

ملكة الحد الأوسط :

يفرّق بين التوسط والاعتدال (..التوسط دراسة فى عبقرية المكان، والاعتدال دراسة فى عبقرية الإنسان، ص ٥١٧)، وما الاعتدال والتوازن فى شخصية المصرى.. إلا الوجه الآخر لتوسط مصر..، وهما معا.. الاعتدال والتوسط.. ليسا التوازن الخامل.. بل ملكة الحد الأوسط، بمعنى عدم التطرف والتطوّح وقرين الحيوية والتكيف، أو كما يقول ويلسون عن مصر القديمة (..فمرونة الأسلوب المصرى والوسائل التى حققوا بها الأمن والسلام.. على أساس التوازن بين القوى المتعارضة .. تدل على عبقرية شعبه، ص ٥١٦).

ويبدى تحرجه من دراسة بروفيل الشخصية المصرية.. على الأساس السيكولوجى وحده، خشية تهمة التملق عند ذكر المحاسن.. والإساءة عند تحديد أضدادها، ولكنه يتجاوز حرجه.. ويتساءل : «هل هناك شخصية قومية مصرية؟» ص ٥١٨، وينهمك فى تحليلاته كدأبه.. بهدف المساهمة برأى فيما أصبح يعرف بقضية إعادة بناء الإنسان المصرى، وتتحدد إجابته .. (.. تتم إعادة بناء الإنسان.. فى إطار من إعادة بناء الديمقراطية، ص ٥٢١). ودعك مما تشتهر به الشخصية المصرية.. من سمات اشتهرت بها عبر تاريخها كالوداعة والبشاشة والمحافظة وروح النكتة، فجميعها من طبيعته وطبعه، ولن تعاود هذه الشخصية إبداعها.. إلا بالديمقراطية.. وبدونها يتعمق ما أصاب شخصيته السمحة من تشوه، وتأخذه هذه مباشرة إلى فرضيته التالية «عن الاستمرارية والانقطاع» .. يستكمل بها ما بدأه من سمات شخصية مصر الحضارية (المركزية+ تعدد الأبعاد) فى الفصول السابقة من هذا الجزء، ومؤصلا لها بما سبق ترسيخه منها فى أجزائه الأخرى (فصل ٤٢ ص ص ٥٥١ ـ ٦٢٧).

الاستمرارية والانقطاع:

ثم تأتى مقولته الأساسية عن «الاستمرارية والانقطاع»، مدعما جدارتها وموضحا دلالتها (.. ما من كاتب تعرض لتاريخ مصر أو حضارتها.. دون أن يصر على عنصر الاستمرارية فى كل مقوماتها ومقدراتها، والمهم هو مدى صحةّ تلك المقولة، وإلى أى حد بالدقة تذهب هذه الاستمرارية،

رمزي زكي بشرس

تلخيص العصر في شخصية مصر

وعند أية نقطة بالضبط يظهر نقيضها.. الانقطاع؟ ص ٥٥١). ويضيف محددا مجالاتها (.. ولكي نضع معادلة الاستمرارية ـ الانقطاع في ميزانها الصحيح، لابد أن ندرك أنها معادلة مركبة متعددة الحدود، فهي إذ تشمل الأرض والناس ابتداء، فإنها تضم النواحي المادية واللامادية جميعا وبذا تطوى الحضارة والثقافة معا، غير أن الاستمرارية تتركز خصوصا في النواحي المادية، بينما الانقطاع ألصق بالجوانب اللامادية، بصيغة أكثر تحديدا.. الاستمرارية للحضارة أساسا.. والانقطاع للثقافة أساسا، ص ص ٥٥١ ـ ٥٥٢).

ويتابع دلائل الاستمرارية في الأرض والمناخ والفيضان والعمران والزراعة وأسماء الأماكن ونظم الحكم (ص ص ٥٥٥ ـ ٥٦٣) وغيرها، حيث يتوصل إلى قانون الاستمرار القاعدي (.. بأن الأشياء تميل في مصر كقاعدة إلى أن تستمر في اتجاهها الواحد وعلى خطها المستقيم دون تغيير أو انحراف، ما لم وإلى أن تصطدم بقوة مضادة لها في الاتجاه ومساوية لها في القوة..فيحدث الانقطاع، ص ٥٨١).

وبعد توصله إلى هذا القانون الثرى القابل للتطبيق، يحدد خصائص هذه الاستمرارية.. بأنها تراكمية لا تكرارية، تضبطها البيئة الطبيعية.. خاصة الموضع والموقع، فعناصر الموضع (النهر، المناخ وغيرهما) تعمل بانتظام وباستمرار ودون تغيير، كما وفر لها الموقع قدرا من العزلة.. والحماية الصحراوية.. حفظتها من الهزات العنيفة أو الانقطاعات الحادة الفجائية (ص ٥٨٦)، أفضيا ـ أي الموضع والموقع ـ إلى تجانس البيئة ـ وإلى عملية متواصلة من بناء الحضارة.. يطلق عليها «أيكولوجية الحضارة».. لها



جدليتها الخاصة (.. وبها يفسر صعودها في البداية.. كما يفسر الهبوط في النهاية.. ثم الاستمرار أو الانقطاع فيما بين الطرفين، فعلى الجانب الصاعد.. مثل المركب الحضاري الذي نمته مصر منذ البداية.. حالة تلاؤم بيئي Symboisis محكمة، وعلاقة فعالة workable connection مع ظروف البيئة الطبيعية، ومن هنا بدت غير قابلة للتجويد عليها، وبعبارة أخرى فإن التفسير الأساسي للاستمرارية.. إنما يكمن في ضخامة البداية.. هذه التي وصلت إلى سقف البيئة.. وإلى قرب أعلى آفاق إمكانياتها الحضارية، وعلى الجانب الآخر.. فلم يكن تاريخ مصر بعد البداية إلا استمرارا لها وبعدها تدهور تدريجي نسبي، ص ٥٨٨)، وهي نظرية بدورها خصبة وثرية.

إذن فالاستمرارية قد تحققت للحضارة المصرية.. من ثبتها الأولى المبكرة.. التي استوعبت بها بيئتها.. واستوعبتها بيئتها، فكيف انقطعت؟ (ص ٥٩٢)، وإجابته ـ أن قوى الحضارة الغربية ـ منذ الحملة الفرنسية، قد أدت إلى ذلك تدريجيا، وانقلبت مصر الزراعية من الري الحوضي إلى الري الدائم.. وتغيرت هيدرولوجيتها.. ومن بعدها معمورها، وتضاعف حجمها السكاني.. بحيث أصبحت أضعاف ما كانت عليه في تاريخها، ويفيض في متابعة كافة ظواهر الانقطاع الأخرى.

ويعود إلى فصوله السابقة في الجزء الثاني من كتابه، خاصة هذه التي يتضمنها الباب الخامس (ثوابت جغرافية ومتغيرات تاريخية، ص ص ٣٦٣ ـ ٦٠٣)، وبالأخص هذه التي تحمل ذات دلالة مقولته عن الانقطاع والاستمرارية، مثل الفصل العشرين(من السبق الحضاري إلى التخلف، ص ص ٣٦٣ ـ ٤٥٦)، والثاني والعشرين (من الطغيان الفرعوني إلى الثورة الاشتراكية، ص ص ٥٣٦ ـ ٦٠٢)، وكذلك الفصل ٢٣ (من إمبراطورية إلى مستعمرة) فهذه هي التي أمدته بمقولته..وهي مصدرها.. ورصيد براهينه وأدلته، ومنها يتوصل ويقرر تحت عنوان «السياسة والقوة» (جـ٤ ص ٥١١).. إلى أن مجموع نتائج الاستمرارية في تاريخها.. يعادل مجموع نتائج انقطاعه.. بفعل الحضارة الغربية، ولهذا فإن مصر ومعها منطقة الحضارات القديمة.. تواجه أوروبا بنوع خاص من ندية الأصالة وعزاقة التحدي، ولعل هذا هو السبب الدفين في شراسة العداء الغربي لها.. رغم مكانته العالمية، ورغم ما يبدو على السطح الآن من انعدام التكافؤ تماما، ولا شك أن كل هذه الخصائص.. تصل إلى قمتها في مصر، ص ٥١١).

وتقتضيه معادلته (الاستمرار/ الانقطاع).. أن يتعمق في نسبهما في كافة مجالات الحياة، ويرى أن التغير في اقتصاد مصر.. يبدو أوسع من غيره..

فى الزراعة والصناعة على حد سواء، ويصفه بأنه فى حالة انصهار وسيولة تامة وإعادة تشكيل، ص ٥٩٨)، ولكنه يظهر فى المجتمع.. أثقل خطى وأقل مدى، ولكنه يتغير حتما بمؤشرات دالة.. يحددها فى (مد التمدين الصاعد+ التجارب والتحولات الأيديولوجية+ الحراك الطبقى+ الخروج المصرى الكبير، ص ص ٥٩٨ ـ ٦٠٢)، أما مصر السياسية.. فعلى طرف النقيض من مصر الاقتصادية (.. مصر السياسية.. آخر وأقل ما يتغير فى مصر، إنها قمة الثوابت والاستمرارية، وحضيض الانقطاع والمتغيرات، ص ٦٠٣)، وتتوالى العناوين .. يفند بها ظواهر التغير السياسى الشكلية الورقية.. التى توهم بها الحكومة شعبها.. وتُقَنِّع بها ديموكتاتوريتها (ص ٦٠٨) ـ بشتى الأقنعة ـ ولا مزيد (.. لا السكان ولا الفقر، ولا حتى الاستعمار فى الماضى أو إسرائيل أو البترول العربى، هى المشكلة الأم فى كيان مصر، وإنما مشكلة المشاكل.. هى قضية الديمقراطية الديكتاتورية أو نظام الحكم المطلق، إنها جماع مشكلة مصر كلها، ص ٦١١)، ويتوجه من بعد إلى اعتصار ما يسميه بأجرومية التغير المصرى؟..، أشبه بالنظرية عن كيفية حدوث التغيير فى بنيتها (ص ص ٦١٨ ـ ٦٢٧) يحددها فى ست قواعد أساسية (تغير لا إرادى أكثر منه اختيارى، تغير جزئى أكثر منه جذرى، تغير من الخارج قبل الداخل، تسلسل التغير من المادى إلى اللامادى، حتمية التغير، وجهة التغير، ص ٦١٩)، ينتهى منها إلى هذه المقولة الناصعة. (.. الثقافة هى الثوابت.. والحضارة للمتغيرات، الأصالة للثقافة وللحضارة المعاصرة، ص ٦٢٧)، وبها ينهى هذا الفصل المهم، ومعه الباب العاشر، وينتقل إلى موضوعه النهائى «مصر والعرب».. ويخصص له الباب الأخير.. من هذا الكتاب. (ص ص ٦٣١ ـ ٦٦٦).

تحتل العروبة من فكره وقلبه موقعا أثيرا تدل على ذلك مقولاته عنها فى العديد من الفصول ودائما ما تنطوى عليها تحليلاته عن مصر والمصريين، وهو حين يتوج بها كتابه.. فإنه يضع بذلك لمسته الأخيرة.. فوق شخصية مصر الثقافية.. التى يمنحها فائق الاهتمام، وليستكمل أيضا بناء نظريته العامة.. عن «شخصية مصر».. بعدما أشبعها تحليلا وتنظيرا.. بطول ٤٠ فصلا ومئات الصفحات.

ويستهل هذا الباب باستدراك أو توضيح.. (.. لقد كان التصور الأصلى عند تخطيط هذا العمل أن يأتى هذا الباب الختامى.. تتويجا وقمة له جميعا، يستخلص ويستقطر أعمق وأخطر نتائجه النظرية والعملية، ثم يرسم أهم وأدق دروسه..ومؤشراته التطبيقية والمستقبلية.. فى مجال العلاقة العضوية.. التاريخية والمصيرية بين مصر والعرب، وعلى هذا الأساس كان المفروض أن يشمل الباب.. فصلين على الأقل أو ثلاثة، أولها بعنوان «بين الوطنية المصرية والقومية العربية»، وثانيها هو «مصر فى عالم عربى متغير»، وثالثها عن «مستقبل مصر والعرب»، ورغم أن المادة الأولية والأفكار الأساسية والتخطيط العريض لهذه الفصول.. تم إعدادها بالفعل منذ أمد ليس بالقصير، إلا أن المؤلف بكل الأسف والأسى.. يستأذن فى أن يقدم اعتذاره لقارئه.. عن استحالة الكتابة والنشر.. فى ظل الظروف القهرية القاهرة التى يعرف، أنه لن يصل إليه حرف منها بحال لو حاول، ومع استحالة الكتابة والنشر هذه، ولكن أيضا مع استحالةحذف الموضوع برمته من الكتاب تماما، فقد رأينا أن نعيد نشر الفصل الأصلى.. كما ورد فى طبعته الأخيرة سنة ١٩٧٠، وذلك بالطبع رغم كل التغيرات الانقلابية المحزنة والمخزية التى طرأت.. لتجعل من الحقائق المادية الصلبة أخطاء علمية بحتة، وأسوأ منها.. لتزلزل كثيرا من الآراء والأحكام القومية والسياسية الأساسية.. وتجعل منها سخرية مريرة ومفجعة..

وإنما عذرنا.. وهو أيضا رجاؤنا.. أن يكون النص بصورته الأصلية.. وثيقة تاريخية دامغة مثلما هى صافعة.. لكل من كان له قلب لم يزل.. أو ألقى السمع وهو شهيد، وتذكرة وعبرة لمن لم يفقد بعد آخر قطرة من حسه الوطنى والقومى، فلعل القارئ واجدا نفسه فى النهاية متفقا معنا فى أن جوهر الدراسة ولب القضية.. كما هو وارد ما زال سليما فى مجمله، وأن النص القديم على علاته وقصوره وقصره أقرب إلى الحقيقة العلمية الخالدة.. منه إلى الأمر الواقع الزائل.. الذى بالمقابل لا مستقبل له.. وإنما المستقبل للحقيقة مهما طال الانتظار.

بين الوطنية والقومية..

وتتواصل تطبيقاته لقاعدة (الاستمرارية والانقطاع) فى شخصية مصر، ويغوص بها فى عمق وجهها الثقافى.. ليفسر بها مسألة شائكة.. تتصل بقسمتى الفرعونية والإسلامية فى هذا الوجه العريق، يحددها كما يلى تمهيدا للتحليل (.. الانقطاع الثقافى الذى أحدثه الإسلام والتعريب، هو بلا مبالغة.. أخطر تغير طرأ على كيان مصر، منذ نشأة الحضارة الفراعية قبل الفرعونية.. وحتى قدوم الحضارة الغربية الحديثة.، ص ٦٣٣)، ويخصص بأن التغيير لم يصب الجوانب المادية..

وانصب على اللامادية.. أى الثقافة على وجه التحديد، ويكاد يوجز رأيه فيما تم فى هذه الصورة الزاخرة بالدلالات (..ولا شىء يرمـــز إلى الجـــمع بين تلك الاستمرارية وهذا الانقطاع.. كالقاهرة.. بجناحيها الفرعونى الحفرى المحنط فى الغرب، والإسلامى الحىّ المضطرم فى الشرق.. الأول وإن كان ميتا إلا أنه يشير إلى الاستمرارية المادية، والثانى وإن كـان قـائمـا يدل على الانقطاع اللامادى، ص ٦٣٣)، وإذا كان قد سبق له متابعة جوانب الاستمرارية المادية (الزراعة، العرق، العمران).. فإنه يفرغ الآن لجوانب الانقطاع.. متسائلا : «فرعونية أم عربية؟» .. هذا هو السؤال (ص ٦٣٤).. ورغم وضوح الإجابة عنده (عربية بالحياة والوجود).. إلا أنها تتشعب.. ويخوض من أجلها المناقشات، لا يدع سؤالا دون أن يطرحه.. ويفند ما أثاره من آراء وإجابات، ثم يقدم رأيه موثقا (ص ص ٦٣٤ ـ ٦٣٥)، ثم يضع إجابته لمن يشكك فى عروبة مصر (مصر.. سامية العرق.. عربية اللغة.. شأن معظم العرب..)، ويدمج بين مصر والعرب فى رؤية ثاقبة (.. ومن ثم بالتالى كان مصير مصر عربيا من الناحية السياسية، بمثل ما أن مصير العرب مصرى.. من الناحية الحضرية.، ص ٦٣٩)، فماذا عن العلاقة بين الوطنية والعروبة فى هذه المعادلة؟

مصر قسم عضوى كبير داخل دوار العرب، هى منه بالتأكيد..ولكنها أيضا متميزة، متميزة بحجمها السكانى داخله (أكثر من ربع جملة سكان العائلة)، ولا مجال للمقارنة من هذه الناحية.. بينها وبين غيرها، ويضاف للحجم تجانسه ووحدته (.. وفى النتيجة فإن مصر أقوى مرتين.. مرة بمطلق حجمها.. ومرة بتجانسها المطلق، ص ٦٤٩)، ومصر قد سبقت الدول العربية إلى المجال العالمى،

تلخيص العصر فى شخصية مصر.

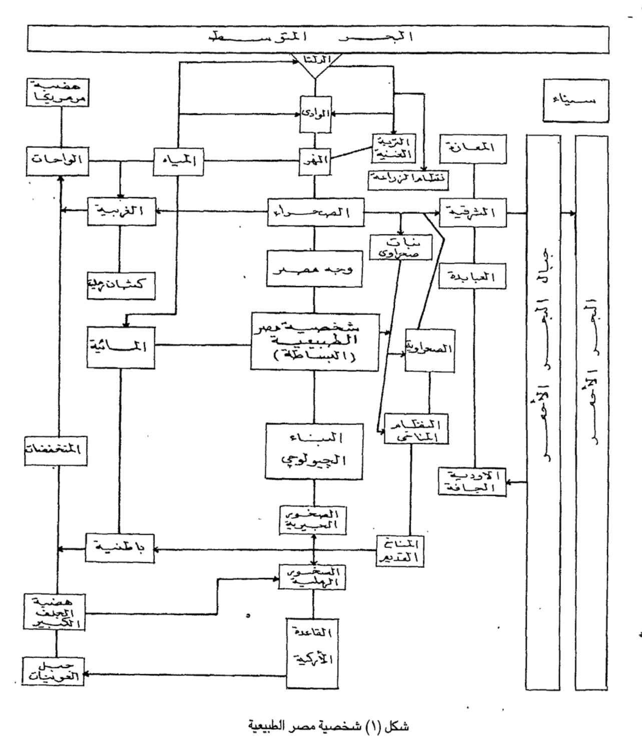


وهى بحكم موقعها ملتقى العرب (٦٤٨)، وهى بلا حدود مع غير العرب، وإذا كانت بهذا وغيره قد تميزت.. فإنها تاريخيا لم تنعزل (.. ودع عنك دورها.. فى صدّ الصليبيين، ص ٦٤٩)، بل هى قد تصدت للدولة العثمانية فى عهد محمد على.. وبذرت مع حروبه وحدة العرب، وإذا كانت قد انعزلت بعده.. بعد إجهاض الغرب لمشروعه، وعكفت على ذاتها.. معظم فترة الاحتلال البريطانى لها..، فإنها قد عاودت المشاركة بعْد الحرب العالمية الثانية، ودعت إلى تأسيس جامعة الدول العربية.. وأصبحت عاصمتها مقرا لها، غير أن فترة عزلتها هذه .. قد غذت فكرة الوطنية بها.، كما أن العالم العربى.. وسوريا خاصة.. قد شهدت تبلور الفكر القومى بها (ص ٦٥٤)، فبدا وكأن هناك فرقا ومسافة.. بين مصر والعرب، ضاعف منها ما كتبه بعض المصريين عن مصر الوطن.، وما سعى إليه الغرب من فصلها عن جسمها.. خاصة والمشروع الإسرائيلى يجرى تثبيت أوضاعه، وارتبطت فكرة الوطنية.. بمشروع «مصر قطعة من أوروبا» (ص ٦٥٥)؛ ثم باتجاه آخر.. يتمثل فيما عرف بوحدة وادى النيل فقط، ولكن «إعلان إسرائيل كدولة.. جرف كل ذلك، وتصدت له مصر مع العرب، وبرز المشروع القومى.. دون أن يعنى ذلك تعارضا بين الوطنية وبينه (.. فإذا القومية العربية.. محصلة الأوطان العربية.. بقوة متناهية، ص ٦٥٨).. ومن هنا استهدفت..ووجبت تصفيتها بأى ثمن..

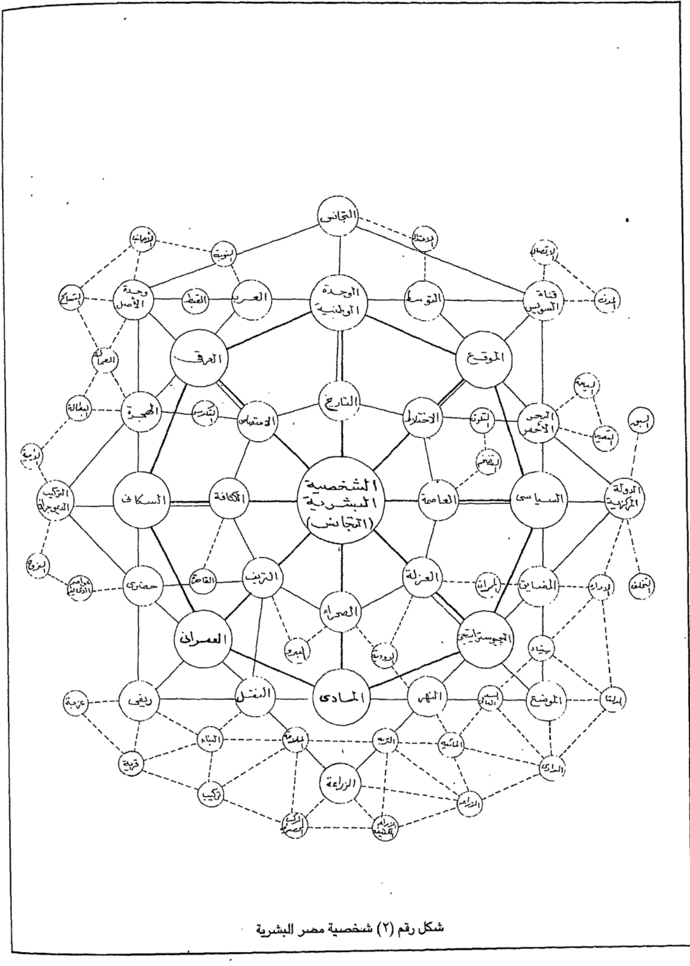
ويختتم الفصل والباب والجزء والكتاب.. بمناقشة قضية شائكة.. هى قضية زعامة مصر للمنطقة (ص ٦٥٩)، ومن قبل طالما ذكر أنها بوصلتها وحجر الزاوية، ويضيف هنا.. فى لمسة أيضا إلى شخصيتها الحضارية عامة (..وهذه أيضا قضية مزيفة، لأن الجغرافيا حسمتها مرة واحدة وإلى الأبد، فإن دور مصر القيادى والريادى فى العالم العربى لم ينقطع أبدا.. حتى فى الفترات التى آلت فيها الزعامة الشكلية إلى غيرها، ص ٦٥٩)، ويؤكد ذلك مقتبسا من ساطع الحصرى (.. لقد زودت الطبيعة مصر.. بكل الصفات والمزايا التى تحتم عليها أن تقوم بواجب الزعامة والقيادة. فى إنهاض القومية العربية، لأنها تقع فى مركز البلاد العربية بين القسمين الأفريقى والآسيوى منها، كما أنها تكون أكبر كتلة من الكتل التى انقسم إليها العالم العربى.. بحكم السياسة والظروف، وكل ذلك من الموقع الجغرافى إلى الكثرة والثروة العامة ومستوى الثقافة وتشكيلات الدولة.. مما يجعل مصر الزعيمة الطبيعية للقومية العربية، ص ٦٦٠)، ويفند الآراء التى تنكر عليها ذلك، وهذه التى تخوفها من العرب.. وتخوف منها العرب، ويطرح بدائلها التى ترى القومية قوة لمصر وللعرب (.. ومع ذلك.. فإن مصر أكثر من غيرها ربما، تدرك أن لا ضمان ولا

كيان حقيقيا لها.. إلا بالوحدة وفى ظلها، لقد استمد العرب فى المجتمع الدولى كثيرا من القيمة والمكاسب التى أضفتها عليهم قيمة مصر وتقدمها.. وصراعها القومى ونجاحاتها، لكن مصر تدرك أيضا بالدرجة نفسها أنها تستمد كثيرا من هيبتها السياسية وقوتها وثقلها الدولى.. من العرب حولها.،، ص ٦٦٥)،

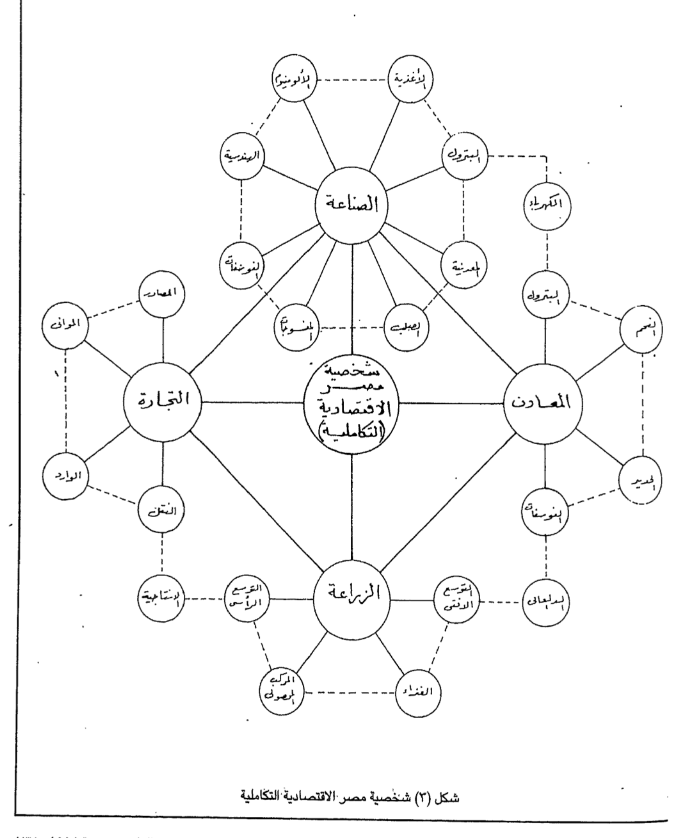
وفيما يلى الفقرة.. الأخيرة من كتابه (.. وكما أن الكيف لا الكم.. سيبقى أبدا مفتاح مستقبل مصر جميعا، فى الحضارة، فى العلم، فى السكان، فى الإنتاج، فكذلك سيظل الكيف قبل الكم أساس وضعها ومكانها فى الوطن العربى الكبير، دار العرب، غير أنه إذا كانت القيادة والزعامة مسئولية تمارس، فلعل الاختبار النهائى لزعامة مصر.. فى أن ترقى إلى مسئوليتها عن استرداد فلسطين للعرب، وإذا صح أن نقول إنه لا وحدة للعرب بغير زعامة مصر، فربما صح أن نقول إنه لا زعامة لمصر بين العرب.. بغير استردادها فلسطين للعرب، لأنه لا وحدة للعرب أصلا.. دون استرداد فلسطين ■



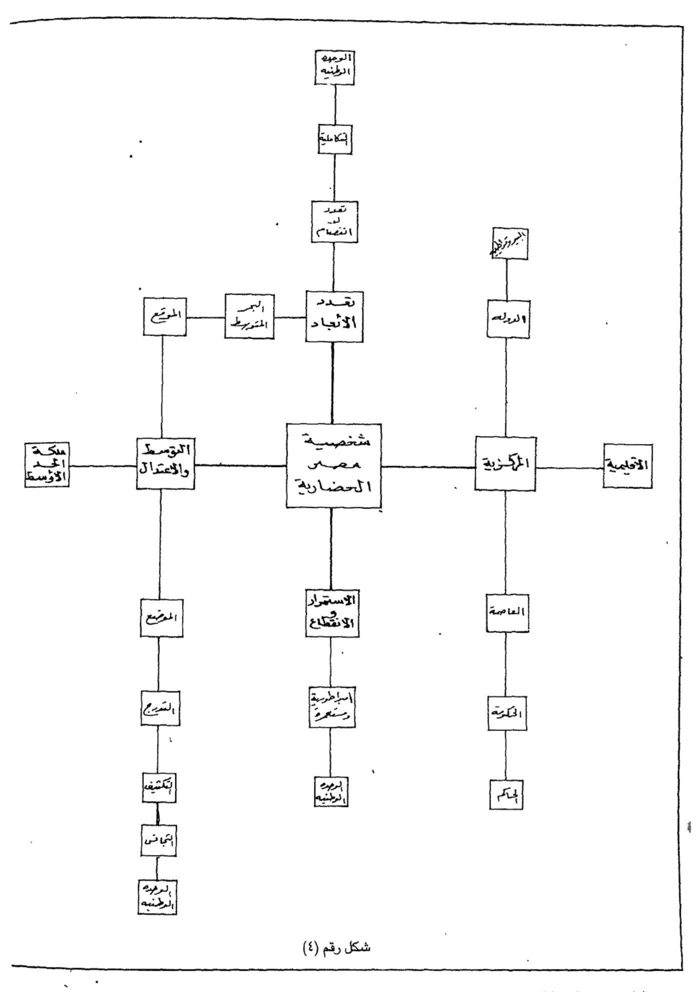
شكل (١) شخصية مصر الطبيعية



شكل رقم (٢) شخصية مصر البشرية

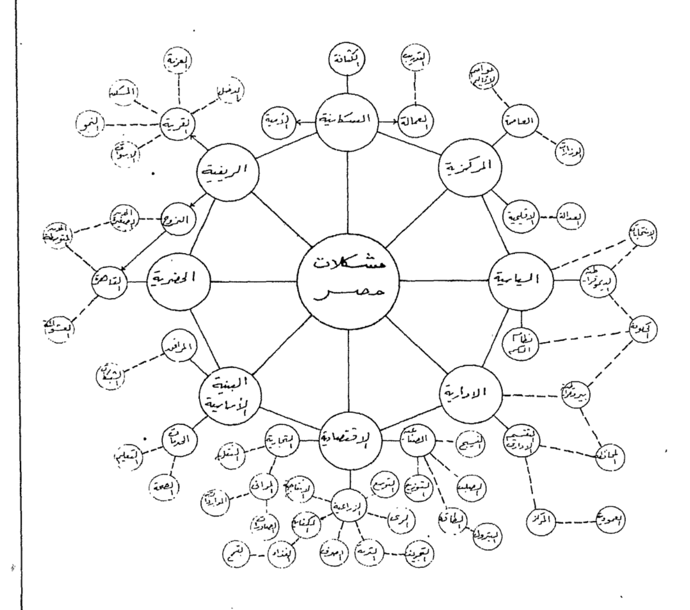


شكل (٣) شخصية مصر الاقتصادية التكاملية



الوحدة الوطنية
تعدد الأبعاد
البحر المتوسط
الموقع
الدولة
شخصية مصر الحضارية
التوسط والاعتدال
ملكة الحد الأوسط
المركزية
الاقليمية
الاستمرار و الانقطاع
الموضع
التدرج
التكشف
التجانس
الوحدة الوطنية
امبراطورية ومستعمرة
الوحدة الوطنية
العاصمة
الحكومة
الحاكم

شكل رقم (٤)

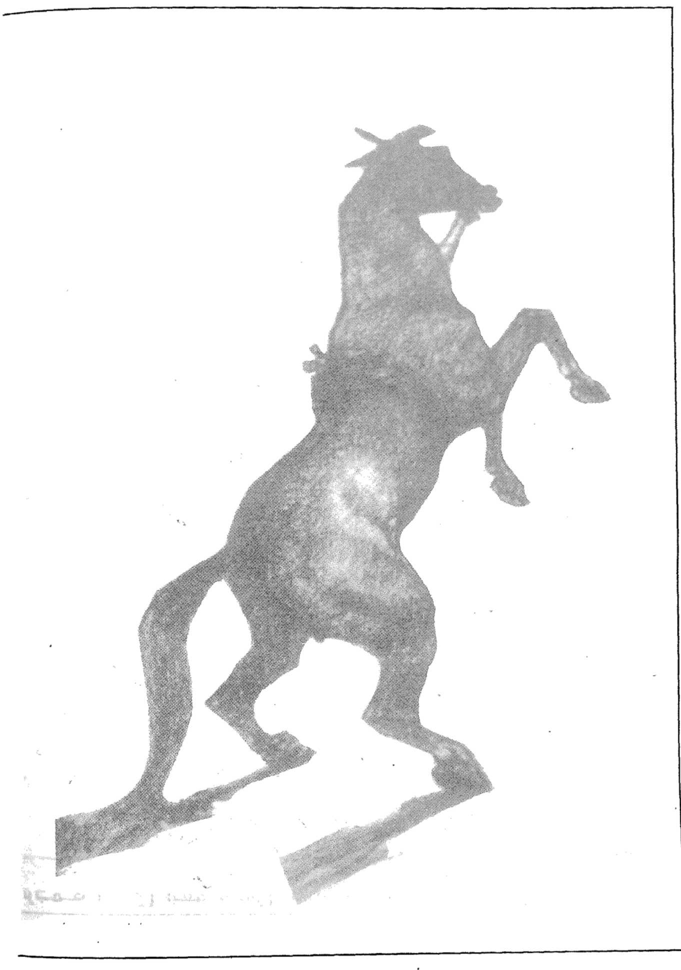


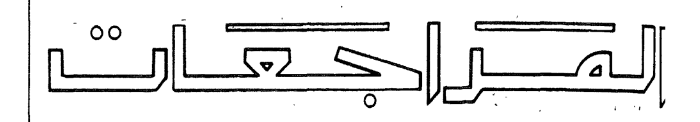
شكل (٥)

ملحوظة :

المقولات المنشورة هنا لـ ـ جمال حمدان ـ مأخوذة من مجلة المصور ١٥ أبريل ١٩٩٤ ـ العدد : ٣٦٢٧

والرسوم البيانية من تصميم : عمر الفاروق





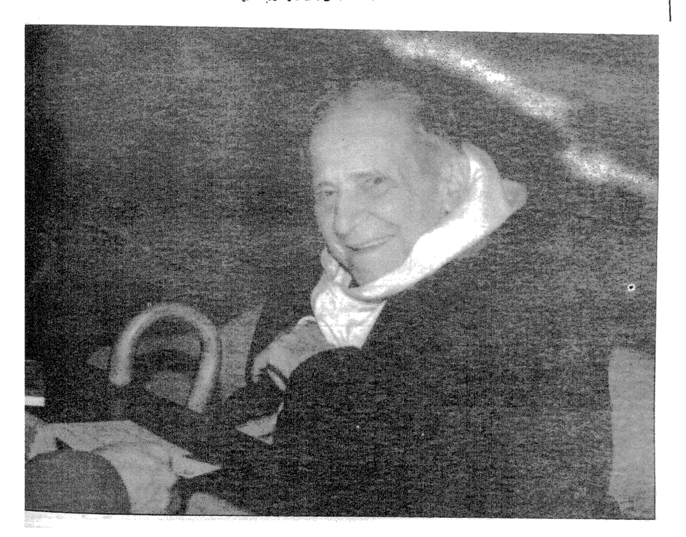
جورج قنواتي الراهب الفيلسوف الإسلامي

يونسكو الموت يواجه الضحك

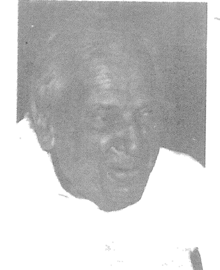
چورج قنواتى

إعداد
هانى لبيب

من أواخر الصور فى باريس [اليونسكو]



الراهب الفيلسوف الإسلامى

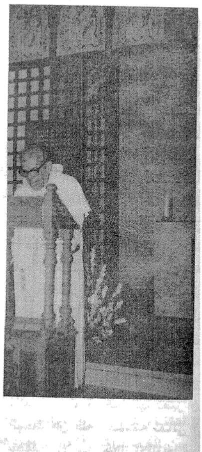




مع البابا / يوحنا بولس الثانى [فى الفاتيكان سنة ١٩٨٥]



مع رفاقه فى الدير ١٩٩٠



بمناسبة مرور ٥٠ عام على الكهنوت
[فى سنة ١٩٨٩]



صورة فى مكتبه [فى دير الدومنيكان سنة ١٩٩٢]

قضية الإنسان عند الأب جورج شحاتة قنواتي الدومنيكاني

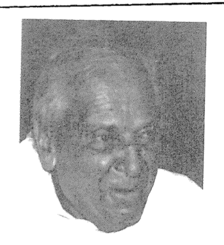
كريستيان فان نسبن

عندما توفىّ الأب جورج قنواتى فى يوم عيد زميله فى الرهبنة ومعلمه فى الفكر، القديس توما الأكوينى (١٢٢٥ - ١٢٧٤) ، يوم ٢٨ ينايرالماضى، ختم حياة مكرسة للدفاع عن الإنسان، عن كل إنسان وعن الإنسان كلّه فى جميع أبعاده وهذا باسم تكريسه الرهبانى، تكريس كل كيانه وقدراته لله سبحانه وتعالى فكان الأب قنواتى فى اهتماماته المتعددة يبحث دائما عن قضية الإنسان ويبرز كرامة كل إنسان - أيًا كان - لأنه إنسان ، كما كان يعتبر أنّ للإنسان قدسيّته فى كل أبعاده، الروحيّة والدينية، الحضارية والثقافيّة، الاجتماعيّة والماديّة ، وهذا لأنّه خليقة الله فى كل أبعاده هذه، ومخلوق «على صورة الله ومثاله»، كما يقول الكتاب المقدّس . وباسم قضيّة الإنسان هذه، كان الأب جورج قنواتى يتعمّق فى الآن ذاته فى الفكر المسيحى والفكر الإسلامى ؛ كما كان يبحث فى تاريخ الحضارة العربية والحضارة الأوروبية وفى العلاقة بينهما؛ وكان يشترك فى الحياة العامة بمشاركته فى المجالس العلميّة والثقافية - المصرية منها والدولية كما نراه يلعب دورًا بارزًا فى اللقاءات بين الديانات - وخاصة بين المسيحية والإسلام - وكذلك فى لجنة «العدالة والسلام» المصرية. وكل ذلك دون أن تبعده هذه الاهتمامات الفكرّية عن الانتباه إلى الإنسان الواقعى الذى أمامه - كبيرًا كان أم صغيرًا، فكان يصغى إليه بكل احترام و «كان بابه دائما مفتوحًا» ، كما قال أحد معاصريه فى الدير (بمناسبة الاحتفال بذكراه فى دار الأوبرا المصرية يوم ١٧ مارس الماضى) .

بالنسبة إلى الأب جورج قنواتى، كان هناك ربط وثيق بين كفاحه فى سبيل قضية الإنسان وبين تكريسه الرهبانى . فهو الخريج فى كليات العلوم والصيدلة بكل ما كان عنده من إمكانيات النجاح الاجتماعى، قد قرّر أن يكرّس حياته وقدراته لربّه. فكان حبه الكلىّ لربّه يدفعه إلى مشاهدة صورة الله فى الإنسان، الذى هو قمة خليقة الله والذى من أجله خلق الله كل شىء. ولذلك اقتنع اقتناعًا عميقًا بكلمة القديس إيريناوس (المتوفى حوالى سنة ٢٠٠م) القائلة : إن «مجد الله هو الإنسان الحىّ» . فكل ما يخدم حياة الإنسان ويجعله ينمو نموًا حقيقيًا، يفيد تمجيد الله سبحانه وتعالى . وعلى هذا الأساس كان الأب جورج يؤمن بما يمكن تسميته «الإنسيّة المؤمنة» (أى النزعة الإنسانية المتأسسة فى الإيمان). بقدر ما تمثل «الإنسية (humanism) التيار الثقافى الذى يعتبر الإنسان محور الاهتمام، كان الأب قنواتى يرى أن «الإنسية» هذه لا تتطلب إطلاقًا إقصاء الله إلى هامش الاهتمام، أو تحويل الإنسان إلى نوع من الصنم؛ بل على العكس تعتبر هذه الإنسيّة أن الإيمان بالله هو بعدها الأساسى، فبدونه تصبح النظرة إلى الإنسان ناقصة ومبتورة؛ كما أنها تعتبر أن البحث عن الله وخدمته تعالى لا يتحققان إلاّ من خلال الالتزام غير المشروط بالإنسان . فليست هناك أية منافسة بين الله وخليقته ،

بين بذل الذات الكلى لله وخدمة الإنسان . وانطلاقًا من هذه الرؤية ، تجد كل أبعاد الإنسان قدسيّتها وبعدها الإلهى ، الفردية منها والجماعية ، وهذا فى صميم كونها أبعاداً إنسانية .

وما يميّز هذا الإنسان ـ وقد أراد الأب قنواتى خدمة نموّه وحياته ـ هو أنّه كائن حضارى . إن كان من خصائص الإنسان أنه يواجه حياته ويوجّهها بعقله وحريته، فتجسد مجهوده العاقل والحر هذا فى الحضارة، فيعبر عن كل ما فى داخله وعن علاقاته بإخوته البشر بل عن علاقته بخالقه ، بالنظم والقوانين، وبالفنون والعلوم وبالفلسفات والمذاهب ، وبالعادات والطقوس ، أى بكل ما يكوّن الحضارات البشرية. وإن كان الإنسان ـ خلاف الحيوان ، بفضل عقله وحريته ، يتميز بالتغيير خلال الأزمنة وبالاختلاف بين الشخص والشخص وكذلك بين الجماعة والجماعة ، فكان من طبيعة الحضارة البشرية أن تكون متغيرة ومتنوعة ومتعددة مختلفة حسب المكان والزمان . وكما كان الإنسان الفردى لا يصل إلى ملء حقيقته إلا من خلال علاقاته بالإنسان الآخر المختلف عنه ، فكذلك إن الحضارة البشرية لا تنمو ولا تزدهر إلا من خلال التفاعل بين الحضارات ، من خلال حوارها وتبادلها ، وتأثيرها وتأثرها المتبادلين . ولذلك كان من صميم اهتمام الأب جورج قنواتى الحوار بين الحضارات، فكان يعتبر هذا الحوار عنصرًا أساسيا من «الإنسية التى يقصد خدمتها . فكان يدرس



كل جوانب الحوار الثقافى الذى تم فى الماضى بين الحضارة (أو الحضارات) الأوروبية والحضارة العربية (بكل مقوماتها) ، من بدء ازدهار الحضارة العربية إلى العصر الحديث . وكان يخدم من خلال هذه الدراسة الحوار الحضارى ذاته فى عصرنا هذا، لأنه كان مقتنعًا أن كلّ إبداع حضارى جديد يجب أن يعتمد على جذور فى الماضى. يعلمنا تاريخ الحضارة العربية (مثل تاريخ معظم الحضارات الكبرى) أنها وصلت إلى عظمتها وخاصيتها بفضل انفتاحها وبقدرتها على استيعاب الحضارات الأخرى، مثل اليونانية والبيزنطية، والفارسية والهندية . فنكتشف بذلك أن الحوار الحضارى البناء لا يلغى الشخصية الحضارية الخاصة بل ينميها ويقويها.

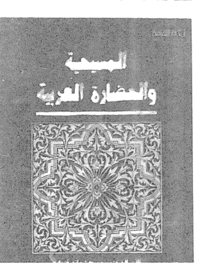
وإذ كان الأب قنواتى يقتنع أن الحضارة العالمية فى جوهرها متعددة ومتنوعة ، فكان يرى أن التعددية هذه ليست ضرورية فقط بين الحضارات المختلفة بل أيضا داخل كل حضارة . فتزيد كل حضارة عمقًا وغنى كلما تزيد استيعاباً لكل العناصر المختلفة التى ساهمت فى تكوينها . فيكْمن غنى الحضارة العربية فى أنها استوعبت ما ورد من منابع ثقافية كثيرة واستمرت فى التفاعل الحى الخلاق مع كل ما يحيطها من حضارات .

لذلك حارب الأب جورج قنواتى كل انغلاق ثقافى، واعتبره خيانة للإنسان كما يريده الله. وفى هذا أيضا كان الأب جورج تلميذًا وفيًا لمعلمه القديس توما الأكوينى الذى استوعب الكتاب المقدس وتقليد الكنيسة وتراث آباء الكنيسة ، الغربيين منهم (خاصة القديس أوغسطينوس) والشرقيين، كما استوعب الفلسفة اليونانية (خاصة أرسطو ، ولكن دون إهمال أفلاطون وأفلوطين) والفلسفة العربية (الفارابى وابن سينا وابن رشد الذى اعتبره أفضل مفسر لأرسطو) . وظهرت عبقرية القديس توما فى أنه لم يقع فى فخ نوع من التلفيقية بين عناصر غير متجانسة، بل من خلال انفتاحه الكبير على كل القيم الإنسانية مهما تكن الجهة التى تردمنها إليه، جمع توما كل هذه العناصر فى وحدة شخصية وديناميكية عميقة . ولقد أصل الأب قنواتى ـ التوماوى العربى المصرى ـ هذا المجهود الخلاق فى داخل إطار واقعنا الثقافى المصرى اليوم .

وإن كان دفاع الأب جورج قنواتى عن الإنسان يتطلب منه الدفاع عن الحضارة وعن الحوار الحضارى ـ وهذا خاصة فى إطار «الإنسية» المؤمنة» ـ فكان هذا يتطلبُ أيضا بالنسبة إليه الحوار

بين الديانات. فما كان، الاختلاف الدينى يمثل للأب جـورج خطراً على الإنسـان وعلى الحضـارة الإنسانية ، ما دام الناس يعيشون هذا الاختلاف فى الاحترام المتبادل الصـادق والصـريح ، بل وفى التكامل والإخـاء ، فكان الأب قنواتى مـقتنعًا أن المسيحيين والمسلمين فى بلادنا المصـرية يقدرون أن يبنوا حـقـا حضارة إنسانية واحدة و «إنسية مؤمنة» مشتركة ، انطلاقًا من كل ماهو مشترك فى موقفنا الإيمانى الواحد والمخـتلف فى آن واحـد . فـلا نستغرب إذ نجده ضمن مؤسسى جماعة الإخاء الدينى التى تريد أن تشيّد العلاقة بين المسيحيين والمسلمين على كـونهم جـمـيـعـا مـتـدينين مـؤمنين بالله ، دون المسـاومـة فى شـأن الاخـتـلاف الحقيقى بين الديانتين.

فلا عجب أن يكون الأب جورج قنواتى عضواً من أعضاء لجنة المجمع الفاتيكانى الثانى (١٩٦٢ ـ ١٩٦٥) التى صنعت النصوص التى تعبر عن نظرة الكنيسة إلى المسلمين، وقد وافق عليها آباء المجمع (أى جميع أساقفة الكنيسة الكاثوليكية وعددهم كان يزيد عن ٣٠٠٠ أسـقـف) . وفى هذه النصـوص يتكلم المجـمـع فى



غلاف كتاب المسيحية والحضارة العربية

المسلمين «الذين يعبدون معنا الإله الأوحـد ، الرحـيم، الذى سيـدين البشر فى اليوم الأخير» . فإن كنا نحن المسيحيين والمسلمين نختلف اختلافا حقيقيا فى عقيدتنا الخاصة بالله، فلا يمنع هذا أن يكون من نعبده جميعًا هو الإله الأحد خالق كل الأشـيـاء وخالق الإنسان ، والذى يعلو كل الأشياء والذى يعلو نطق كل إنسان وفـهـمـه ، فـفى موقفنا المشترك هذا، وفى موقفنا «معًا أمام الله» ، نجد الأساس الراسخ لنظرتنا المشـتـركـة إلى الإنسـان، ولاحـتـرامنا المشترك لقدسية الإنسان فلأننا «معا أمام الله» ، نكون «معا فى الدفاع عن الإنسـان» أيضـا ، عن شـخص الإنسان وقيم الإنسان .

هكذا يظهـر لنا الأب جـورج شحاتة قنواتى مناضلا فى سبيل قـضـيـة الإنسان كل إنسان وكل الإنسان ـ وشاهدا فى العالم كله لأهميةالحوار بين الحضارات، كما أنّ كـان مناديًا بإمكانية الإخاء الحقّ بين المتدينين المؤمنين فى سبيل المسئولية الواحدة تجاه المجتمع الإنسانى. وكان مقتنعا بمبـدأ «الإنسـيـة المؤمنة» هذه اعتمادًا على جذوره العميقة فى أرض مصر وعلى رغبته الشديدة فى أن تتـجـسـد هذه الإنسـيـة المؤمنة، أولاً فى وطنه المصـرى بمجهود الجميع معًا، مسيحيين ومـسـلمين، علي أسـاس كـونهم جميعًا مؤمنين مصريين، يستمدون من إيمانهم حـبـهـم لهـذا الوطن وحبهم لكل إنسان فى آن واحد. فلم نجد قط عند الأب قنواتى أدنى تناقض بين حـبـه الكبـيـر لمصر أرض الكنانة، وبين حبّه للإنسان فى بعـده الجـامع الشـامل لكل البشـر. حـقًا كـان ومـازال «معلم الإنسية المؤمنة المصرية» والشاهد بلسانه وحياته للمساهمة المصرية في تشييد حضارة الإنسان المبنية علي قدسية الإنسان، خليقة الله، المخلوق علي صورة الله ومثاله. حقاً كان الأب قنواتى عابدًا لله، وكذلك عاشقًا للإنسان. ■

جورج قنواتى بين منابع الحضارة الإسلامية ومصادرها

محمود عزب

قد من الصعوبة بمكان أن تتحدث عن شخصية ثرية عالمية، من موقع قريب مثل أن تكون صديقا أو قريبا من هذه الشخصية فأنت تخشى أن تكتب تحت تأثير عين الإعجاب والرضا..

وعين الرضا عن كل عيب كليلة

ولكن عين السخط تبدى المساويا

وهنا أتذكر طرفًا من هذا النوع حدث إذ كان طه حسين يقدم أحمد أمين فى أحد كتبه ولعله كتاب فجر الإسلام إن لم تخنى الذاكرة، وتكلم طه حسين عن عقبة أن تقدم صديقا أو عمل صديق، فتخشى إن أنت مدحته أن تتهم بالمحاباة! وهل الصحيح إذن أن تخلق له عيوبًا غير موجودة، أو على الأقل عيوبًا لا تراها أنت، حتى تكون موضوعيا أو محايداً، وأن تسكت على حقائق جيدة تعلمها فتغمض العلم والتاريخ والفن.

أكاد أقول إننى واجهت هذه المشكلة - مع الفارق الكبير فلست طه حسينا - وأنا أحاول أن أتحدث عن العالم الفيلسوف جورج شحاته قنواتى.

أما عن كونه عالماً وفيلسوفًا وراهبا كبيراً فهذا مما لا يتطرق إليه أدنى شك.. فطلابه وأتباعه وأصدقاؤه وكتبه ومقالاته،ومحاضراته فى المؤتمرات العلمية فى العالم كله، وجهوده فى مجال الفلسفة وتاريخها والتصوف الإسلامى، فكل ذلك واضح وضوح الشمس.ويكفى أنه كان رسولا أمينا لنقل الفلسفة الإسلامية فى أحسن إطار وعلى أروع صورة إلى منتديات العالم الثقافية وجامعاته، ودور بحثه..

وأما عن موقع كاتب هذه السطور منه، فإن الألفاظ قد تضيق عن تعريفه وتحديده... هل هو موقع التلميذ من الأستاذ ؟ أم هل هو موقع عناق الأجيال؟

لقد كانت السنوات السبع من أواخر ١٩٨٧م وإلى آخر الربع الأول من هذا العام ١٩٩٤ قليلة فى اتساع مداها الزمنى غنية مترامية الأطراف فيما حملت من مشاعر وحوار ورغبة فى القرب ومحاولات للفهم وعشق للمعرفة..

كان المتحدث يسعى فى حرص شديد على المعرفة والقبس من جبل النار بشغف من يتوق إلى السباحة فى بحار النور، وكان المتحدث عنه يسعد بهذا القرب ويعلن عن سعادته تلك التى أفضت إلى حب أظل علاقة الحوار، وعمّق مجراه وأمده بكثير من الروافد وأثراه.

كان جورج قنواتى دءوبا شجاعًا مرحاً خفيف الظل هاشا سلس اللسان عذب اللغة ينتقل بمحدثه من عربية سهلة معبرة جذلة إلى فرنسية رقيقة ذات إيقاع جميل، إذا كان محدثه على معرفة بها أو يشاركه هذه الازدواجية اللسانية.

أما علمه فكان ينساب فى دعة وهدوء وثقة انسياب النيل الدءوب الواثق الصبور، وكان يعى أبعاد تكوينه الثقافى وعيا نبيلا يعبر عن نفسه فى شكل الأشكال حين الحوار وحين الكتابة، ويقابلك فى كل طريق الإطريقا واحدة كان وجهه يحمرّ خجلاًحين يجدك تدخله خلالها فيتلعثم ويتعثر ويحاول الهروب ألا وهى طريق المديح والثناء عليه، فقد كان بينه وبين الكبرياء والرياء والغطرسة بون بعيد..

ولم يكن الحوار معه حوار علم وفلسفة وتاريخ وثقافة فحسب بل كان حوارا أشمل وأعم الاتجاهات واسع الآفاق.

فاللقاءات المتكررة فى مكتبة الدير مرات خلال الأسبوع تطول كل منها إلى ساعات.. كانت تجعلنى أشفق عليه من تعب قد ينتابه ويحاول إخفاءه، أن أعطيه من حين لآخر فرصة إنهاء الحوار ليستريح أولينام.. أو.. وكثيرا ما كان يصر على الاستمرار هادئاً مستريحًا عاشقا لهذا الحوار..

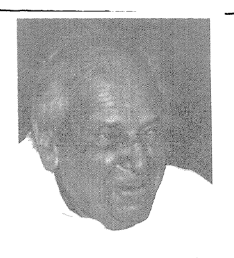
وكثيرًا ما كان الحوار يقفز من جانب علمى إلى جانب إنسانى إلى فكاهة خفيفة مرحة لا تتعارض مع مايتمتع به من روح العالم والراهب ولاتخدش من هيبته.. عندما كان يتحدث عن علاقاته الإنسانية - وهى واسعة مترامية الأطراف لا يحدها جنس ولا لون ولا دين ولا مستوى معرفى - كنت تجد انسياباً ودعابة وحبًا.

فعن أى جانب وفى أى طرف تريدنى أن أحدثك..؟ إن الحديث عن هؤلاء الكبار لن ينتهى أبداً. فهم ملح الأرض، وهم ميزان الحق والخير والجمال، وهم مشاعل النور فى دروب الحياة، فهم متجددون على الدوام، تفنى الأجيال والحديث عنهم ثر، حلو، عذب لايمل ولايشبع منه، ما دامت الحياة عاشقة للعظمة، باحثة عن القمم متعلقة بأهداب الحضارة، تواقة إلى الفكر، نزاعة إلى الحقيقة.

قنواتى: والحضارة العربية الإسلامية

ولابد أن نوضح بدءا ماذا تعنى هنا الحضارة العربية الإسلامية، أو بالأحرى بالفلسفة العربية الإسلامية. فنحن نقصد هنا المعنى الاصطلاحى الذى يشمل جميع الشعوب والأمم الذين سكنوا الممالك والبلاد الإسلامية والذين استخدموا العربية لساناً فى أكثر أو فى كل تآليفهم العلمية، فالمجال إذن مجال ماأنتج فى هذا الإطار العام بكل أبعاده وفى كل أشكاله و ألوانه.

ومرة أخرى أجدنى موليا وجهى شطر تاريخ الأمس القريب لأستفتى تلك الحضارة العربية الإسلامية أين تضع نتاجها من العلماء ممن نبتوا فى ظلها وشربوا من رحيقها ثم أمدوها بعد ذلك بروافد ثرة معطاء، من أخذوا منها ثم اعترفوا لها فأعطوها بلسانها وبمناهجها



وفى إطارها، وعلى وجه الخصوص من أولئك الذين لا يدينون بالإسلام دينًا، ولكنهم ينتمون إليه ثقافة وحضارة ومناهج وطبيعة وشكلا وإطارا؟

يقول جيوم تيوفيل تنمان المتوفى سنة ١٨١٩م: فى كتابه «المختصر فى تاريخ الفلسفة» : «أهم من حمل مذاهب العرب الفلسفية إلى المسيحيين هم اليهود الذين نقلوها من بلاد الأندلس، حيث كانت الهمم منصرفة بقوة إلى مدارسة العلوم. على أن اليهود أنفسهم ساهموا بقسط ظاهر فى عالم الفكر والعلم، ونشأ فيهم غيرواحد من ذوى العقول الفلسفية. منهم الحبرموسى بن ميمون، الذى تخرج بدروس ابن طفيل وابن رشد، ودرس بنفسه كتب أرسطو، ومن أجل ذلك كان ظنينا لدى المتعصبين من أبناء ملته وقد تعقبوه بحقدهم حتى أدركه الموت فى سنة ١٢٠٥م»

ويواصل تنمان «وعلى الجملة فقد كان اليهود فى القرنين الثانى عشر والثالث عشر سفراء بين عرب الأندلس وبين الغربيين، بما ترجموا من كتب كثيرة عربية إلى لغتهم العبرية التى كان الغربيون أعرف بها، ونقلت هذه الكتب نفسها إلى اللاتينية فى تراجم أكثرها مشوه جداً»

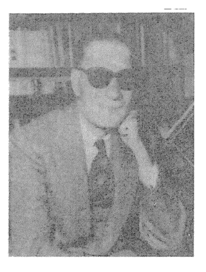
وفى إطار محاولتنا لتوضيح موقع هؤلاء العلماء غير المسلمين دينا وانتمائهم الحضارى الثقافى الفكرى، وكيف تدفقوا منبعاً ومصباً.. مما يوضح من جانب آخر عظمة هذه الحضارة العربية الإسلامية التى تعترف و تعرف منابعها ومصابها وتحتضنها وتخصبها. نجد العالم الشيخ مصطفى عبد الرازق وهو راية بارزة على صرح الفلسفة الإسلامية يقول: «بل إننى ممن يجعلون ابن ميمون واخوانه من فلاسفة الإسلام، وقد قلت كلمة ألقيتها فى حفلة ابن ميمون بدار الأوبرا فى أول ابريل سنة ١٩٣٥ مانصه: «أبو عمران موسى بن ميمون فليسوف من فلاسفة الإسلام، فإن المشتغلين فى ظل الإسلام بذلك اللون الخاص من ألوان البحث النظرى مسلمين وغير مسلمين من يسمون منذ أزمان فلاسفة الإسلام، وتسمى فلسفتهم فلسفة إسلامية، بمعنى أنها نبتت فى بلاد الإسلام. وفى ظل دولته، وتميزت ببعض الخصائص من غير نظر إلى دين أصحابها ولا جنسهم ولا لغتهم» وهذا الكلام ينطبق تمام الانطباق على النصارى واليهود معًا، فها هو الشهرستانى فى كتابه «الملل والنحل» «يقول» والمتأخرون من فلاسفة الإسلام مثل يعقوب بن اسحاق الكندى، وحنين ابن اسحاق.. الخ» ونحن هنا بصدد الحديث عن جورج قنواتى الفيلسوف المسلم إذن بتعبير الشيخ مصطفى عبدالرازق فى الأمس القريب، وبتعبير الشهرستانى قبله فى الأمس البعيد.. لنؤكد على هوية هؤلاء العظماء من جانب، ولنؤكد على سمو هذا الوعى فى الحضارة العربية الإسلامية كحضارة عالمية إنسانية، على وعى كبير بروافدها ومنابعها ومصاباتها.. ممن أخذت ومن أعطت... على وعى كبير بذاتها وبغيرها.. فهى حضارة إنسانية عالميةمن حيث لا تعرف الحدود، ولا

تقيم السدود بين كل ما يمكن أن يصب فى صالح الإنسانية عامة من أنهار علم ومعرفة.

وانطلاقا من المفهوم نفسه أيضا وعى العالم الجليل جورج قنواتى انتماءه لمصر وطناً، وللشرق أفقاً، وللعربية لساناً ناصعاً خلال كتبه وأحاديثه ولإسلامه حضارة ومنهج تفكير.. وانطلق من كل ذلك إلى رؤية عالمية واسعة الآفاق لا تتنافى مع انتمائه للوطن والفكر واللسان، بل تثريه وترتفع به، فكان ممن قدموا للإنسانية صورة مشرفة عن الإسلام وفلسفته وتصوفه ورجاله وحواره مع غيره عبر التاريخ، وكان أحد أعظم المداخل إلى الشرق، وأبعاده وأعماق روحه الفكرية وعندما نقترب من رؤية جورج قنواتى نجدها تقوم على ثلاثة محاور ذات أهمية بالغة، تميزت بها خلال النصف الأخير من هذا القرن المنصرم وهى:

المحور الأول: الجمع المتناغم بين العلم والدين والفلسفة، ويتكلم قنواتى عن هذا التناغم - وهو ضرورى فى نظرنا، وفى نظر القارئ بلا شك فى هذه المرحلة من مراحل حياتنا الثقافية والعقلية بل والروحية أكثر منه فى أى وقت مضى - فيشير إلى إلحاد العلماء قائلا: «لكن كبار العلماء مؤمنون». وتأتى أهمية الدراسة الدينية عنده لتحديد إمكانيات العلم «لكن الدين وحده لا يكفى إذ يجب أن تكون عالماً لتفهم، وترى إلى أين يقودك العلم... إلا أننى بدأت بالعلم حتى أكون متدينا أكثر.. وأخذت النظام الدومينيكانى لأنهج نهج العلم بحرية».. وهنا نرجع إلى ضرورة التقريب بين العلم والدين بطريقة عملية علمية.

«والكتاب المقدس أعطاه الله الإنسان بطريقة إنسانية بواسطة اللغة التى تخضع لقوانين لغوية بشرية، لها بيئتها



طه حسين

ومجتمعها، وإذا قال الكتاب المقدس إن الشمس تدور أو إن الأرض تدور، فهذه هى المشاهد الإنسانية، وليس العلم المطلق. لأن الكتاب المقدس ليس كتاب علم طبيعى خالص، ولكنه موجه إلى الإنسان بتصورات الإنسان، وعقلية الإنسان هى مستوى التعامل من خلاله»

« والنص ليس خالداً ولكنه متغير بالنسبة لنظرة الناظر إليه، فالعلم بالكيمياء مثلا يختلف عنه فى وقت نزول الوحى»

والعقل يدخل فى القانون الأخلاقى، فمثلا إذا كان هناك سائق سيارة كبيرة تقل ستين راكبا على حافة جبل ومر أمامه فجأة طفل معرض للموت ، فماذا يفعل السائق؟ أيقتل ركابه الستين أم الطفل؟!

والعقل مرجع كل شىء. ولكن له حدود فى هذه المرجعية، «وإذن فلا دين بلا ثقافة ولا ثقافة بلا دين»!

ومن الخطر أن يتجاوز العلم حدوده ويدخل فى مجال الدين، بالقدرنفسه من الخطورة تجاوز الدين حدوده وإعاقته لمسيرة العلم.

قليل من العلم قد يبعد الإنسان عن خالقه، أما كثيره فيقربه منه. ولكن من الذى يحدد لكل من الطرفين ميدانه؟ أى من الذى يفصل بين العلم والدين؟ ويضمن عدم جور أى منهما على الآخر؟

أنها الفلسفة وإنه العقل

ولابد فى ذلك من الرجوع إلى رسالة «ابن سينا» فى تقسيم العلوم فالفلسفة معرفة الوجود كموجود، والميتافيزيقا أعلى درجات المعرفة الإنسانية، والوحى مصدر من مصادر المعرفة، والعقل قادر على المعرفة، وعلى الوصول إلى الحقيقة فى الميدان الإنسانى فى عالم الطبيعة وإذا بقى العلم فى ميدانه فلا خوف منه ولا خوف عليه، أما إذا خرج عن ميدانه فقد بدأ الانحراف.

ويخلص بنا جورج قنواتى بعد حوار طويل حول هذه النقطة إلى أن الفلسفة حكمٌ بين العلم والدين، ذينك الطرفين الأساسيين فى حياتنا الإنسانية، ودون دور الفلسفة هذا تضيع علامات الطريق بين العلم والدين، فيطغى كل منهما على الآخر فى زمان ما أو فى مكان مافيختل التوازن.

وهو يرى أن حضارة كبرى كالحضارة الإسلامية أزهرت وأثمرت وأفادت البشرية كلها حين استطاعت الحفاظ على هذه الأطر، وعلى العلاقات بينها فى داخلها، فكان الدين، وكان العلم وكانت الفلسفة وقد كانت تلك الحضارة ومازلت تراثا إنسانيا عامًّا تنهل منه كل البشرية، ولم تنغلق ولا يجب لها أن تنغلق على المسلمين، ولا أن ينغلق المسلمون عليها وحدها، وإنما هى تدخل دائما ويجب أن تدخل فى ميدان تضافر الحضارات، وفى مجالات التأثير والتأثر والحوار والاقتباس.

وأما المحور الثانى: فهو المسيحية الشرقية والعربية على وجه الخصوص فهى مسيحية متميزة، ويظهر تميزهذه المسيحية فى حدود وأبعاد وطوابع

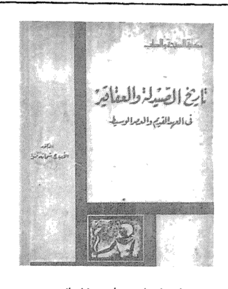
وطبائع تجعلها مختلفة عن المسيحية الغربية، وهذا أمر طبيعي جداً، فقد ولدت فى شرق ذى ديانات سابقة وله مذاقه الخاص به ورائحته ذات الجاذبية الخاصة أيضا، اليمن وجزيرة العرب، وسيناء وفلسطين وأرض الرافدين والهلال الخصيب تلك البقعة المسماة بالسامية - مهما اختلفنا حول هذه التسمية - والتى شهدت مولد ثقافات لها نسيجها الخاص بها... وتحاورت هذه الثقافات مع ثقافة مصر تاريخيا..

وعندما نحلل عناصر الأديان السامية من يهودية ونصرانية وإسلام إلى أصولها الأولى، أو قل عندما نربطها بسياقها وبتناغمها نجد جذورها ضاربة فى أعماق هذه المنطقة..

أفلا تكون المسيحية الشرقية العربية والحالة هذه ذات طعم ولون ورائحة خاصة بها وهى منتظمة فى سلك هذا التاريخ الشرقى، أولا تكون المسيحية فى الشرق قد تنفست تنفسا جديداً مع ظهور الإسلام فى هذه المنطقة من العالم..

بلى.. ولا شك أن الزخم العلمى والحضارى الذى شع على الإنسانية بإشعاع الإسلام قد أثر فى المسيحية العربية الشرقية التى كانت مهدها الشرق جغرافيا والتى تعربت لساناً ومنهجًا واستمرت مسيحيةثرية دينا... وللغة دورها فى صبغ الفكر والعلم والشعور، ودورها تميز تاريخى وجغرافى أوقل إن لهذه العلاقة الجدلية بين اللغة والفكر والعلم والشعور دورا متميزا تاريخيا وجغرافيا وثقافيا وفى طرائق الفكر والحوار والصياغة.

بل إن المسيحية العربية ساهمت فى بناء صرح الحضارة فى الشرق، وقد أشرنا إلى الدور الرائع للمترجمين والفلاسفة المسيحيين إبان عصر النهضة والترجمة لدى الخليفة المأمون.. كما



نبهنا على اعتبار هؤلاء المترجمين والعلماء والفلاسفة العرب لغةً والمسيحيين ديناًءجزءا لا يتجزأمن هذه الحضارة العربية الإسلامية داخلاًعبر سداها ولحمتها. وهنا يؤكد جورج قنواتى على هذا اللون الخاص للمسيحية الشرقية وعلى نتاجها المتميز من أدب وفكر فلسفة وكيف لا وهو المتخصص فى الفلسفة الإسلامية والتصوف الإسلامى.

إنك إذا تتبعت كتاباته من مراجع وموسوعات أنجزها وحده أو ساهم فيها مع غيره من عرب وغير عرب، مسلمين وغير مسلمين تجده يبدأ بالإسلام وعلمه وفلسفته وينتهى بالمسيحية العربية وعلمها وفلسفتها وهذا الوعى له أهميته حتى لا نقذف عن طواعية وبعدم فهم تراث هذه الأرض التى نعيش عليها والذى هو نتاجها الطبيعى عبر تاريخها الطويل إلى الطرف الآخر من الكرة الأرضية إذ نفصل هذا الفصل التعسفى بين جوانب الحضارة الشرقية وأصولها وروافدها...

وقد بدأت حركة علمية لتحقيق ونشر ودراسة التراث المسيحى العربى الذى نشأ فى ظل الحضارة الإسلامية أو هو جزء منها نبت فى أرضها وأخذ طعمها ولونها ونهج مناهجها وسلك سبل تعبيرها ونطق بلغتها العربية بل واتخذ مفرداتها ومصطلحاتها العلمية التى أبدعتها، وهذه الحركة العلمية ينسلك فيها باحثون وعلماء مسيحيون عرب كان فى مقدمة ركبهم جورج قنواتى ويستمر بعده بحاث جادون من أمثال سمير خليل وغيره.. والتأكيد على تميز هذه المسيحية العربية لغة الإسلامية منهجًا.. الشرقية أرضا ومسرحًا يفتح نوافذ جديدة على أبعاد الفكر والفلسفة الإسلاميين... ويقدم شواهد جديدة - لمن لم يكن يعرف بعد على مدى اتساع هذا الفكر وهذه الفلسفة وعظمتها وشمولها وأخيراً على عبقريتها المتميزة فى الأخذ والعطاء والحوار، والمقام هنا يضيق عن تسمية كتب التراث المسيحى العربى فى علم الكلام والفلسفة خاصة والإشارة إلى ماصدر منه محققا وموقفه - من داخله - من الإطار العام الذى ولد ونشأ فيه.. كيف يراه وكيف يحاوره وما أدوات حديثه وتوجهاته وحواراته. وسوف نتحدث عن ذلك فى موضع آخرمناسب له.

وأما المحور الثالث: والذى تبرز أهميته أكثر من غيرها فهو محور الحوار بين الإسلام والمسيحية.. وقد كان قنواتى فيه علمًا فى رأسه نار.. فقد كان يدعو إلى الحوار ويعرف قواعد الحوار بما يجعله واقفا على أرض صلبة واعيا بذاته وبالآخر ومقدّرا لكل حق قدره.. إذ كيف يدرس الفلسفة الإسلامية ويتخصص فيها ويطيل الوقوف فى محطات ابن سينا وابن رشد ثم ابن عربى وابن طفيل وابن باجة .. ثم يعرج على توما الإكوينى فلا يشم رائحة ابن رشد.. بل.. إن جورج قنواتى يرى وَيعلم ويربط ويقرن ويؤمن بالتميز والتمازج والإبداع والتأثير والتأثر.. وتكتمل فى نظره الدائرة فيسمى الأشياء بأسمائها، ويربط الأجزاء بجسمها، ويرى الألوان كما هى... ثم يرى بينها تناغما وانسجامًا، وتناسقًا، ويقدم لنا رؤيته تلك فى كتب ومقالات

ومؤتمرات حوار..لقد عاش الحوار فى التاريخ ورأى التعانق فى محطات العلم.. وشاهد التأثير والتأثر فى فيضانات الأنهار بل سبح فيها.. فإذا عاد من التاريخ إلى الواقع وحدث عما رأى فليحدث ولا حرج.. ولنسمعه ونناقشه ونحاوره، وحوار العلماء شيق فرؤاهم ورؤيتهم متكاملة متماسكةلا يخشى منها بتر ولا تمزق.

يقول جورج قنواتى إن الدافع الأول لدراسته لفلسفة الإسلام هو البحث عن أرضية للحوار! فلماذا الحوار مع المسلمين؟ يقول «لأننى فى بلد مسلم وفى حضارة إسلامية وأنا جزء من هذا البلد وهذه الحضارة».. «وكيف تحاور من لا تعرفه»؟ وكيف يحاورك من لا يعرفك».. وكأن فى ذلك تنبيها على أن تعثر الحوار قد يأتى من عدم اكتمال المعرفة والوعى بالذات وبالآخر.. وكلاهما وجهان لعملة واحدة.. أو متلازمان يوجد أحدهما بوجود الآخر بشكل آلى...

درس جورج قنواتى الصيدلة فى الإسكندرية وفى بيروت، والدين فى فرنسا والفلسفة فى فرنسا وفى مصر.. ويحدثنا بعد عودته ويتحدث عن يوسف كرم ويسميه أستاذ الجيل ومنه خرج يوسف مراد وعبد الهادى أبوريده وعثمان أمين وغيرهم: وكان يشبه سقراط وقد نشر تعاليمه فى ثلاثة كتب معروفة ولكن للأسف لا توجد الآن فى السوق. وهى

(١) المدخل إلى الفلسفة اليونانية.

(٢) العقل والوجود .

(٣) كتاب فى الطبيعة.

وهى تمثل التعليم الأرسطى الأصيل مع إضافات ليوسف كرم.. وكان يوسف كرم يدرس فى الإسكندرية ويتصل بالأب جوسن الذى أسس دير الدومينيكان وقد تحاور أبناء هذا الجيل يوسف كرم وتلاميذه والأب جوسن وناقشوا الفلسفة الإسلاميةوترجموا المدينة الفاضلة وعملوا قاموسًا عربيا فرنسيًا للفلسفة وكانت حركة الحوار العلمى هذه مؤثرة فى الإسكندرية أكثر منها فى القاهرة ويقول قنواتى «وعندما وصلت إلى فرنسا سألنى مدير الآباء الدومينيكان: لماذا دخلت إلى الدير؟ فقلت له: بسبب الحوار المسيحى - الإسلامى..وبما أن حياتنا الفلسفية المسيحية قادمة من ابن رشد فلابد من دراسة الفلسفة ثم تأسس معهد الدراسات الشرقية بدير الدومينيكان بالعباسية عام ١٩٥٨ وهو يهتم أساسًا بالحوار ويصدر دوريات علمية فى هذا الإطار وفى الفترة نفسها لنشاط هذا المعهد كان هناك اقبال من علماء الدين الإسلامى والمثقفين المسلمين وأذكر منهم على وجه الخصوص الشيخ محمد يوسف وكان أستاذ علم التفسير فى الأزهر وكان يترجم كتبا من الفرنسية إلى العربية، وكان يسألنى ويحاورنى، كما أذكر الشيخ محمد بن فتح الله بدران الذى كان يعد رسالة دكتوراه عن الشهرستانى، وأتى إلى وأخذ المصادر العلمية عن المسيحية، وأذكر أيضًا وخصوصا الشيخ أحمد حسن الباقورى أحد أهم مؤسسى جماعة الحوار والإخاء الدينى فى مصر.

وقد عاش جورج قنواتى عاملا فى سبيل هذا الحوار داخل مصر وخارجها وعرفته المؤسسات العلمية العالمية واحداً من أبرز من أسسوا هذا الحوار وأثروه وساندوه حتى آخر نسمة حياة لفظوها. ■

رجل الحوار بين الشرق والغرب وبين العقل والإيمان

جوزيف سكاتولين

أ. المرشد الحكيم

لاشك أن رحيل الأب جورج شحاته قنواتى ترك فراغا لا يعوض عند كثير من أصدقائه الذين اعتادوا على مر السنين أن يروا فيه العلامة المرشد، والصديق الأمين والمرجع الثابت فى العديد من المشاكل الفكرية، والشخصية، التى تواجههم مرة بعد مرة.

وإنى لأرى واجبا علىَّ أن أضم صوتى إلى أصواتهم لكى أذكر بعض السمات لهذا الرجل الذى لوّن حياتى لوناً جديداً ووجّهها بعيدا منذ عرفته.

ولقد عرفت الأب جورج قنواتى وأنا طالب فى إحدى الكليات اللاهوتية بروما حيث حضر ليلقى بعض المحاضرات فى الدين الإسلامى - فأثّر كلامه فينا، إذْ كان يفتح أمامنا بأسلوب هادىء مقنع عالماً جديداً. ظلّ فى تصورنا حتى ذلك الحين بعيداً غريباً.

ولا شك أن لذلك اللقاء معنى خاصا فى حياتى إذ إننى انطلقت منذ ذلك الحين إلى دراسة الحضارة العربية والإسلامية فبدأت أتفتح على العالم الذى يمتد على الشاطىء المقابل فى البحر الأبيض المتوسط.

فظل شخص الأب جورج قنواتى المشعّ دائما، علما ومودة، دافعا قويا لكى أتقدم خطوة خطوة برغبة وحماس فى هذا المجال الجديد الواسع.

ولقد انتهى تجوالى هذا تحت إرشاده الحكيم إلى التخصص فى التصوف الإسلامى برسالة عن الشاعر الصوفى المصرى العبقرى «عمر بن الفارض».

ولا يسعنى الكلام لكى أعبر عن شكرى لهذا الرجل الذى وقف بجانبى طوال سنين عديدة مرشدا حكيما وصديقا أمينا.

لكن هناك بعض سمات من شخصيته أحب أن أشير إليها، وإن موجزا، إذ هى بمثابة أغلى وصية تركها لى ولغيرى من المفكرين هذا العلامة العظيم والمرشد الحكيم.

ب - رجل الحوار بين الحضارات:

عُرف الأب جورج قنواتى ببصيرة فريدة ينفذ بها دائما إلى كل ما هو إيجابى وبناء سواء فى الأشخاص الذين كانوا يقابلونه كما فى الأحداث الواقعة حوله.

وقد ظن بعضهم أن هذه المزيّة لم تكن إلا ثمرة طبيعية لمزاجه المتفائل. ولكن أغلب الظن عندى أن هذه المزية نمت وتقوّت فيه من جراء تجواله الطويل المتسع فى تاريخ الحضارات الإنسانية.

إن التاريخ بالنسبة له هو أستاذ عظيم فى تربية إنسانية الإنسان.

وإن هذا الأستاذ يعلمنا أولا وأخيرا أن الثقافة والحضارة. والعلوم والفنون على مختلف أشكالها وألوانها ليست فى حوزة شعب دون شعب أو جنس دون جنس أو دين دون دين.

إننا جميعا مدينون لحضارة إنسانية مشتركة تضرب جذورها فى عمق التاريخ البشرى وتمتد أطرافها إلى كل أقطار المعمورة.

فلا مجال هنا للتفاخر القبلى أو للتنافر القومى.

ومما أذكره أن الأب جورج قنواتى كان يتأسف، خاصة فى هذه السنوات الأخيرة، على هذا التيار الرجعى الظلامى المتعصب والمتطرف والجارف فى العالم العربى والإسلامى بصفة خاصة.

إن هذا التيار متلبس بشعارات دينية براقة لكنه يرفض فى الحقيقة تقدم الفكر

الإنسانى الحضارى ويكاد يهوى بالإنسانية، إلى هاوية العصبية القبلية ويضربها فى أصولها الحضارية التى قامت عليها منذ بدايتها.

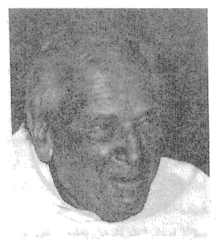
وكان الأب چورچ قنواتى يرى أن عمله الطويل فى مجال الفلسفة العربية والإسلامية هو كفاح طويل يحذر من كل أنواع الانغلاق الفكرى والحضارى - ولقد حاول فى كل ما كتب أن يرفع الإنسان إلى كامل إنسانيته بكل القيم التى اكتشفها عند أكابر المفكرين من الشرق والغرب - وكان بذلك العمل يعبر عن إيمانه العميق بالإنسان كإنسان ومع كل قيمه الإنسانية، حسب قول الكاتب الرومانى القديم ترنسيوس: «إنى إنسان فيهمنى كل ما يهم الإنسان».

تظهر هذه السمة الإنسانية واضحة جلية فى آخر كتاب تركه لنا وعنوانه «المسيحية والحضارة العربية» حيث استعرض مساهمة المفكرين المسيحيين فى بناء الحضارة العربية.

وكان الأب چورچ قنواتى يحب أن يصف العلاقات بين الشرق والغرب كعلاقات حوار حضارى متصل وممتد عبر القرون والأجيال فتارة يأخذ الغرب من الشرق وتارة يأخذ الشرق من الغرب.

إن الحضارة المسيحية التى كانت الوارثة فى الحضارات القديمة، اليونانية والرومانية خاصة ساعدت فى إقامة الحضارة العربية والإسلامية فى طورها الأول أما بعد ذلك بقرون فإن الحضارة العربية والإسلامية كانت هى التى ساعدت الحضارة الأوروبية فى نهضتها الأولى.

وأخيرا فى عصرنا الحديث فإن الحضارة الأوروبية الحديثة ساعدت العالم العربى الإسلامى فى صحوته من التجمد



الحضارى والفكرى ونهضته وتقدمه إلى آفاق العلوم والفنون الحديثة.

وكان الأب چورچ قنواتى يرى أن هذا الحوار الحضارى هو من أهم المميزات لشعوب حوض البحر الأبيض المتوسط، فلابد من مواصلته فى عصرنا هذا، ضد كل التيارات الرجعية والظلامية التى تحاول أن تنفث فى قلوب أبناء جيلنا روح التجمد والتقوقع على الذات وقطع الحوار الحضارى.

إلا أننا نعتبر عمل الأب چورچ قنواتى نفسه نموذجا حيا وحلقة متصلة مثمرة فى هذا الحوار الحضارى بين الشرق والغرب - وهو المصرى الشرقى المسيحى الذى استوعب مناهج البحث العلمى الحديث من الغرب ثم طبقها فى مجال الدراسات العربية والإسلامية فساهم بعمله مساهمة مشكورة فى إحياء التراث الفلسفى الإسلامى حتى أصبحت أعماله مرجعا لا غنى عنه فى الدراسات الإسلامية.

تلك الأعمال سوف تظل دون شك خير تركة تركها لنا هو لكى نواصل نحن كفاحه من أجل حوار حضارى أوسع يرجع بالفائدة المرجوة على كل شعوب حوض البحر الأبيض المتوسط وغيرها.

جـ - رجل الحوار بين العقل والإيمان

وهناك وراء هذا الحوار بين الحضارات فى فكر الأب چورچ قنواتى حوار آخر له أهمية وخطورة: هو الحوار بين العقل والإيمان.

إن العقل والإيمان عنصران أساسيان فى تكوين الحضارتين المسيحية والإسلامية.

ولا شك أنه كان من أبرز سمات الأب چورچ قنواتى هذا التوافق الفريد والتوازن المتميز بين البعد العقلى والبعد الإيمانى.

لقد كان يعطى لكل طرف حقه ودوره. فلا العقل فيه ينفر عن الإيمان، ولا الإيمان فيه يكفر العقل.

وكما يقول قول رومانى قديم: «العقل السليم فى الجسد السليم»، كذلك يمكننا أن نصف شخصية الأب چورچ قنواتى بأنه مثل مكمّل للقول الأول، والذى يقول: «الإيمان السليم فى العقل السليم»، وكان يردد دائما: «لا دين بغير ثقافة ولا ثقافة بغير دين».

إذ إن الإنسان إذا فقد البعد الإيمانى يتوه فى حيرة الشك وعدم اليقين وكذلك إذا فسد العقل فيه يجد نفسه موحولا فى مستنقعات الخرافات والأساطير، ويهوى فى هاوية التعصب القبلى الأعمى المدمر.

ومن الملاحظ أن الأب چورچ قنواتى كان قد تتلمذ على يد أكابر المفكرين من الشرق والغرب الذين حققوا هذا الحوار بين العقل والإيمان على مستوى فكرى رفيع. من أمثال ابن سينا وابن رشد فى الشرق، والقديس أغسطينوس والقديس توما الأكوينى فى الغرب.

ويمكننا أن نكتشف فى أعمال الأب چورچ قنواتى حوارا مستمرا مع هؤلاء المفكرين الذين يمثلون نضج العقل المقترن بنضج الإيمان.

إلا أن هذا الحوار لا يصح أن يكون شيئا ثابتا متجمدا فى الماضى غير قابل للتطور والتغيير.فلم يكن الأب چورچ قنواتى من الداعين إلى مجرد التقليد الأعمى للماضى وتكراره الممل.

والواقع أن الفكر البشرى يعيش فى حركة دائمة هى حركة الحياة التى إذا لم تنم تموت.

وهناك فى مسار التاريخ البشرى مسائل جديدة للإنسان فى كل جيل، وتحديات جديدة لفكره إذ إن التاريخ لا يعيد نفسه.

وإذا فقد الإنسان الصلة بالواقع التاريخى يدخل إلى دائرة مميتة هى دائرة الانفصام الداخلى بين عقله وإيمانه، ولهذا الانفصام نتائج خطيرة جدا على المستوى الفردى والجماعى.

لقد دخل الإنسان منذ قرنين فى طور جديد من تطور عقله ألا وهو العقل النقدى، وقد استطاع هذا العقل أن يخلق لنفسه منهجا جديدا للبحث والمعرفة أعاد به النظر فى الكثير من المسلمات القديمة. ولا أحد ينكر أن هذا العقل النقدى فتح أبوابا جديدة وانطلق إلى آفاق واسعة لم تخطر ببال أحد من القدماء، ولقد نفذ هذا العقل النقدى فى أقصى أبعاد الكون وإلى أصغر مكونات المادة، وكذلك ألقى ضوءاً جديدا على أكثر عصور الماضى غموضا وغاص فى أخفى أسرار النفس، وإزاء هذا التطور الهائل، فعلى الإيمان أن ينمو



ابن رشد

ويتسع حتى يلائم التطور العقلى فلا يزال الإيمان سجينا فى دائرة خرافات عقيمة.

ومن الملاحظ أن الأب چورچ قنواتى مع إعجابه البالغ بالمفكرين القدامى كان واعيا بأنهم لم يقولوا الكلمة الأخيرة فى المعرفة البشرية ـ إنما هم حلقة فى سلسلة التطور الفكرى والتقدم الحضارى.

وقد رأينا هذا الراهب المفكر فى أسفار مستمرة وتجوال دائب بين دور العلم ورجاله فى كل أنحاء العالم، فليس هناك مكتبة أو جامعة أو رابطة فكرية إلا زارها أو حاضر فيها.

وكتاب الزائرين فى مكتبته يحفظ عددا لا حصر له من أسماء المفكرين الكبار على اختلاف اتجاهاتهم الفكرية والجنسية الذين كانوا يزورونه بصفة مستديمة حتى أصبح ديره ملتقى عالميا يجد فيه الكل الترحيب الواسع والمساعدة المخلصة.

وظل هو يصغى ويبحث ويناقش ويكتب حتى آخر حياته حيث توفى وكان قد كتب على الكمبيوتر الصفحات الأخيرة فى كتاب عن الأسماء الإلهية.

فما أحوجنا نحن فى أيامنا هذه إلى أمثال الأب چورچ قنواتى! نقول فى أيامنا هذه حيث تحاول قيادات عديدة من العصبية الرجعية الظلامية أن تخمد تقدم الفكر الحر المستنير، إننا فى أمس الاحتياج إلى مفكرين مستنيرين يتمتعون بالنضج العقلى والنضج الإيمانى على مستوى من التوافق والتوازن اللذين تمثلا فى الأب چورچ قنواتى.

فلا أمل هناك لتقدم حقيقى ومستمر إلا على أساس مثل هذا الفكر المستنير المتفتح إلى حوار مستمر بين الحضارات المختلفة وبين العقل والإيمان.

إن مصر لتفتخر بالأب چورچ شحاته قنواتى كواحد من أبرز أبنائها؛ بنى بأعماله الفكرية صرحا عاليا منيرا لأجيالها المقبلة. وقد استطاع أن يعبر حدود الثقافة القومية الضيقة إلى آفاق الثقافة العالمية الواسعة.

إلا إن هذا المفكر العظيم بقدر ما أثرى وطنه فخرا وشرفا فإنه كان مثالا يحتذى فى الأمانة والالتزام.

فعلى أبناء وطنه أن يواصلوا عمله نحو عالم أوسع أفقا وأعمق اتصالا بغيره من الحضارات والثقافات، وإلى الكفاح ضد التيارات الرجعية الظلامية بشتى أنواعها.

إن الأب چورچ قنواتى سيظل مثلا عاليا للعمل الإنسانى المميز بقوة عقله ورسوخ إيمانه المفيد للأجيال المقبلة فى بلاده وفى غير بلاده ■

الأب قنواتى ودور همزة الوصل

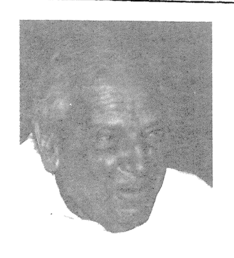
زينب الخضيرى

قدر للأب قنواتى أن يلعب فى عصرنا الملىء بالصراع والذى تتنازعه المتناقضات دور همزة الوصل الساعى للمصالحة حتى تثمر الجهود بدلا من أن تتبعثر وتضيع هباء. واعتبر الراحل العزيز هذا الأمر رسالته فى الحياة فأخلص لها كل الإخلاص وتفانى فى أدائها ونجح فى ذلك نجاحاً منقطع النظير فيما اعتقد. ورحل الأب قنواتى تاركا سؤالا محيرا يتردد من بعده.. هل يمكن أن يجود الزمان مرة أخرى بمثل هذا الرجل ليكمل المسيرة والرسالة فى زمننا العصيب هذا؟

اعتبر الأب قنواتى أن رسالته هى تحقيق التصالح بين طرفى مجموعة من الثنائيات تبدوان متناقضتين فإذا عنى بهما الأب قنواتى تصالحا وتعاونا. وعلى رأس هذه الثنائيات ثنائية الشرق والغرب، وثنائية الإسلام والمسيحية، وثنائية القديم والحديث. ولقد شعرت برسالة الأب قنواتى هذه منذ زمن بعيد، وإن حال صغر سنى وقلة إدراكى وقتذاك عن إدراك كنهها وعن تعقلها الأمر الذى تحقق فيما بعد مع تقدم العمر والانخراط فى درس الفكر. شعرت بهذه الرسالة بقوة وبعمق وأنا أراه يسير فى جنازة أبى فى قريتنا الصغيرة باكيا شأنه شأن أقرب الأقارب غير حافل بدهشة سائر المشيعين الذين كانوا بلا شك يشهدون لأول مرة راهباً يشيع أحد ذويهم. فقريتنا ليس بها كنائس ومنذ العدوان الثلاثى على مصر لم يعد بها مسيحيون والخضيرى أبوه رجل تقرب لله بأن بنى جامعا كبيرا عنى به والدى طوال حياته إصلاحا وترميما وتجديدا فما علاقته بهذا الراهب؟ أما أنا فقد شعرت أن هذا الراهب المختلف عنى فى أمور كثيرة يمكنه أن يلعب دور الأب بالنسبة لى. فصحيح أنه مسيحى وأنا مسلمة، ولكنه يستطيع ذلك. وصحيح أنه يبدو نصف أوروبى، بينما أنا نشأت على الالتزام الشديد بمصريتى، بالرغم من أن أبى استكمل تعليمه فى باريس وأننى أدرس فى مدرسة فرنسية.. ولكن الأب قنواتى يستطيع ذلك. وصحيح أننى كنت لا أراه فى بيتنا مع أبى إلا وهو منكب معه على دراسة المخطوطات القديمة وأنا بطبعى أعشق الجديد ولكنه يستطيع ذلك. وترسب فى نفسى وقتذاك أن الأب قنواتى يستطيع ذلك لإنسانيته الطاغية الحانية الحاضنة. أمّا (كنه) هذه الإنسانية المبهرة فهو ما عجزت فى حينه عن إدراكه وإن استطعت ذلك فيما بعد مع اتساع تجربتى ومداركى ومع انخراطى فى دراسة الفلسفة. لقد حقق الأب قنواتى هذه الإنسانية المبهرة فى ذاته تلك الإنسانية التى تذيب الفوارق والاختلافات والفواصل بفضل الفلسفة التى تمكّن الذى يعشقها ويعمل بها من التعايش مع الآخر بالرغم من الاختلاف معه ومن الحوار مع المختلف ومن محبة المغاير.

أما تغلبه على تعارض قطبى ثنائية الشرق والغرب وتحقيق المصالحة بينهما فى وحدة حقيقية فمرجعه فيما أعتقد لجمعه بين أصله الشرقى وميلاده على أرض مصر التى عشقها وتشبع بقيمها الودودة وبمفاهيمها العريقة الأصيلة، والتى حددت اتجاهاته الجذرية من جهة، وبين تكوين عقلى غربى فى مدارس الفرير الفرنسية فى الصغر ثم فى جامعات فرنسا وكندا من جهة أخرى، وهو ذلك التكوين الذى مكنه من أدوات منهجية علمية عصرية على النمط الغربى. قيم الشرق ومفاهيمه ومناهج الغرب الحديث أمور اجتمعت فى الأب قنواتى وبدلا من أن تتصارع فيه وتجعله يعانى ثنائية أو على الأقل ازدواجية تضافرت. ولابد أنه بذل جهدا هائلا

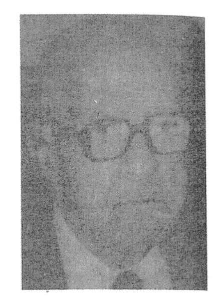
لتحقيق ذلك.. تضافرت لتجعل منه «إنسانا»: لاشرقيا ولا غربيا إنما هو فى المقام الأول إنسان. فيه تعانقت الثقافتان الشرقية والغربية بشكل بديع مما وسع من أفق الرجل ومن مداركه إلى أقصى حد ومما جعله قادرا على الإحاطة بكل جوانب أية قضية يعرض لها. والأب قنواتى فى هذا نموذج شائع تكرر كثيرا على أرض مصر لأن مصر بطبيعتها وبتاريخها تتيح ذلك منذ أن بنت أول حضارة «إنسانية» عرفها العالم. ولقد يسّر له هذا الجمع بين الثقافتين المشاركة فى صنع الاثنتين. ولعل أكبر دليل على هذا مشاركته فى تحقيق أجزاء الشفاء موسوعة ابن سينا الشهيرة التى ظهرت فى القاهرة تحت اشراف عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين فى بداية الأمر ثم تحت إشراف أستاذنا الشيخ الرئيس إبراهيم مدكور؛ ثم قيامه بترجمة إلهيات هذه الموسوعة إلى الفرنسية فى جزءين (١٩٧٨ ـ ١٩٨٥) بعد أن شارك فى تحقيقها فى أصلها العربى. أما تلك الترجمة ففى اعتقادى أنها ستخلد ذكرى صاحبها بما بذله فيها من جهد رصين متصل مبدع لايستطيعه إلا راهب علم. ولعل العبارة التى يفتتح بها مقدمته لهذه الترجمة تعبر عن وعيه وإيمانه بوحدة الإنسانية الروحية عبر التاريخ بالرغم من أن البشر يحلو لهم تقسيمها إلى شرق وغرب ثم أصبحوا فى السنوات الأخيرة يتجهون إلى شطرها شطرين شمال وجنوب. يقول إن أهمية مساهمة الفلسفة العربية فى أرض الإسلام فى تكوين الفكر الفلسفى واللاهوتى للغرب الوسيط قد اعترف به مؤرخو الفكر الوسيط المسيحى منذ زمن بعيد». فالحضارات الإنسانية كلها عند الأب قنواتى تكون وحدة تستكمل بعضها بعضاً عبر التاريخ. وفيما يتعلق بالجانب الفلسفى معها كان يعتقد أن الفلسفة بدأت عند اليونان ثم



استكملها العرب وأضافوا إليها من إبداعاتهم ثم تلقفها الغرب المسيحى وقطع بها شوطا انتهى إلى الفلسفة المعاصرة. إلا أن عقل الأب قنواتى وقلبه تعلقا بحقبة واحدة من مسيرة الحضارة الإنسانية الشاملة هى حقبة الحضارة الإسلامية اذ «بهره ثراؤها» وقدر دائما عظمتها «وأهميتها بالنسبة للحضارة الإنسانية الكلية» على حد تعبيره فى كتابه عن «المسيحية والحضارة العربية» ويخطئ من يظن أن علاقة الأب قنواتى بالشرق كانت مثل علاقة المستشرقين به لأن هؤلاء درسوا هذا الشرق وحضارته باعتبارهم أبناء حضارة أخرى أما هو فقد درسه باعتباره ابنا من أبنائه.

وكما حل الأب قنواتى ثنائية الشرق والغرب حل ثنائية المسيحية والإسلام. وهذا الحل عبر عنه فى عبارته التى سبق لى الإشارة إليها والتى جاءت فى مقدمة لكتابه عن المسيحية والحضارة العربية. فهو ينعت الفلسفة التى أنتجها المسلمون ومعهم إخوانهم المغايرون لهم فى العقيدة بأنها فلسفة عربية حتى يحفظ لغير المسلمين حقهم الذى لايمكن إنكاره فى صنع هذه الفلسفة ولكنه يحرص على ذكر أن هذه الفلسفة العربية ظهرت على «أرض الإسلام» أى أن الإسلام كان هو الإطار الذى أتاح الفرصة للفلسفة لتظهر ولتزدهر ولولاه لما تحقق ذلك. ومن الجدير بالذكر أن الأب قنواتى كان يكثر من نعت الفلسفة التى ظهرت على أرض الإسلام لا بالعربية فحسب بل بالإسلامية أيضا. وإذا كانت المقولة التالية والتى كان يعلن عنها فى كثير من المناسبات «لادين بلا حضارة ولا حضارة بلا دين» من المفاهيم الجوهرية فى فكر الأب قنواتى فإننى أعتقد أن أستاذنا آمن بمقولة أخرى باعتبارها الاستثناء الوحيد لهذه القاعدة وإن لم يعلن عنها أبدا فقد كرس لها جزءا كبيرا من حياته لرصدها، ألا وهى أن الإسلام لم يقصر بناء حضارته على أبنائه فحسب بل احتضن جهود كل من عاش على أرضه وفى رحابه، أيا كانت ملتهم وأصولهم العرقية. وفى هذه القاعدة التى آمن بها الأب قنواتى بالقطع والتى لمستها من تعاملى معه منذ أن بدأت أدرس الفكر تتجلى كل قدرته العبقرية الإنسانية الفذة على الجمع بين الإيمان العميق بعقيدته المسيحية التى كرس حياته لخدمتها بفهم نادر وإخلاص لا نظير له يحسب له وبين إعجابه الشديد بالإسلام الذى كرس جهوده العلمية لدراسة حضارته فى مظهرها الفلسفى والعلمى. وعندى أن الأب قنواتى ينتمى بذلك لتقليد مسيحى مستنير بدأ فى القرن الثالث عشر مع فلاسفة المسيحية العظام من قبيل توماس الأكوينى الدومنيكانى وروجر بيكون الفرنسيسكانى وهو ذلك التقليد الذى جعل أصحابه يجمعون بين إيمانهم بلاهوتهم ورغبتهم الواعية للانفتاح على الفلسفة الإسلامية.

أما ثنائية القديم والحديث فقد فض الاشتباك بين طرفيها فى ذاته بأن جعل من نفسه كما يقول فى مقدمته لترجمته الفرنسية لإلهيات الشفاء «جسرا بين



إبراهيم بيومى مدكور

الأصل العربى (للنص الفلسفى) غير المتوفر لعلماء العصور الوسطى الغربيين الحاليين وبين الترجمة اللاتينية التى تمت فى العصور الوسطى، الأمر الذى إذا تحقق ساهم فى تمكين الباحثين من دراسة أثر فلسفتنا الإسلامية فى الفلسفة الحديثة.

كان الأب قنواتى من القوة بحيث لم يشعر أنه فى مصر ينتمى للأقلية بل هو وإخوانه المسلمون يربط بينهم حبهم لمصر، وكان من سعة الأفق أنه ادرك أن الإسلام لم يقف حائلا دون مساهمة المسيحيين فى بناء حضارته فخدم دراسة تلك الحضارة بكل علمه، وكان من صفاء البصيرة أن تبين أن التاريخ متصل يجمع بين البشر جميعهم ولذا لامن الاهتمام بالقديم والحديث على السواء لأن الله الواحد الحى القيوم خالق السموات والأرض والمحب للبشر الغفور الرحيم يريد ذلك .. وصفات الله هذه هى الصفات التى اعتقد أن ثمة اتفاقا بين المسيحيين والمسلمين بصددها. ليرحم الله الأب قنواتى رحمة واسعة وليكن جزاؤه عما فعل فى دنياه كبيرا عند الله بإذنه ومشيئته. ■

علم الكلام الإسلامى وعلم اللاهوت المسيحى

جورج شحاتة قنواتى

ترجمة: كاميليا صبحى

ملحوظة تمهيدية

١ـ حينما نتصدى لعقد مقارنة بين علم الكلام الإسلامى وعلم اللاهوت المسيحى، يجب أن نتنبه إلى أن استخدام المصطلحات التقنية الخاصة بكل عقيدة ليس بالأمر الهين بل تحفه المخاطر؛ ذلك أننا حينما نتناول العقيدة الإسلامية من منظور مسيحى فقد نميل ليس فقط لاستخدام المفردات اللغوية الخاصة بالفكر المسيحى وإنما أيضًا لاستخدام الدلالات الخاصة بها بحيث نجد أنفسنا دون أن نعى مدفوعين لعقد مماثلة سهلة. غير أن تلك المماثلة من شأنها تزييف الرؤية من خلال نظرة ظاهرية للحقائق.

٢ـ ويمكننا دراسة علم الكلام الإسلامى من خلال زاويتين:

(أ) زاوية تقنية خالصة تتعلق بدراسة «علم الكلام» أو «الوحدانية الإلهية» وترتكز أساسا على دراسة الله، وجوده، صفاته، وكذلك على دراسة النبوة والخلافة والغايات.

(ب) زاوية تشتمل على بحث أوسع وذلك من خلال دراسة العلوم الدينية بشكل عام مثل معانى القرآن أى التفسير وكل ما يتعلق بالنبى من أحاديث وسنة، كذلك الشريعة الإسلامية ومصادرها من فقه وأصول الفقه، وأخيرا التصوف.

أما بالنسبة لحديثنا هذا فسوف يقتصر على تناول الفكر الإسلامى بالتحديد من الناحية التقنية البحتة.

منابع العقيدة الإسلامية

يعرف الإسلام بأنه دين موحى به، وبأنه الدين الحق الأوحد. أما محمد فهو ليس مجرد مؤسس ديانة «جديدة» بقدر ما هو مصلح ومجدد للدين الذى أقره الله منذ بداية الخليقة ثم ما لبث مكر الإنسان أن شوهه وأفسد معالمه. وقد اتخذت هذه

الديانة شكلها النهائى من خلال «الكتاب» المتمثل فى القرآن، كلمة الله الموحاة لنبيه محمد ليصبح منذ ذلك الحين ميثاق المؤمن الحق. إذن فالفكر الإسلامى فكر قرآنى أساسا. وبالنسبة للعقيدة الإسلامية، يعد القرآن «الكتاب المقدس» ذا السيادة المطلقة. وترتكز مهمته فى الدفاع عن الحقائق التى يحض عليها فى تعاليمه من خلال أسانيد جدلية.

٢ـ أما المصدر الثانى للعقيدة الإسلامية فهو الأحاديث المتمثلة فى الكلمات المنسوبة إلى محمد أو فى الأفعال التى قام بها ورواها عنه مجموعة كبيرة من الشهود الأصليين المعاصرين له. وقد أسهمت العصمة المنسوبة للنبى المسلم وهالة القداسة المحيطة بشخصه فى اعتبار أى كلمة أو لفتة تصدر عنه معيارا عقائديا أو أخلاقيا.

٣ـ وعلى الرغم من أن الإسلام لا ينطوى على سلطة لا هوتية حقيقية بما أنه لا يتبع كنيسة إلا أن به نظام قائم على الشورى والاجماع. وقد وعد النبى أمته بأنها لن تجمع أبدا على دعم المعصية. وربما كان الهدف من مبدأ الإجماع إحداث توازن فى مواجهة أى نزعة فردية للاستبداد بالرأى أو لعله تأكيد على تلك «الحداثة» التى أصبحت مبدأ عاما فيما بعد.

٤ـ وعبر القرون، أسهمت بعض العوامل التاريخية إلى جانب المصادر المباشرة فى تحديد ملامح إشكالية الفكر الإسلامى. ويمكننا أن نذكر من بين تلك العوامل:

(أ) الديانة المسيحية.

(ب) الفلسفة اليونانية.

(ج) المناقشات السياسية.

(د) السياسة المناهضة للمانوية والمجوسية.

(هـ) وبالنسبة للفترة الحديثة: احتكاك العلم ببعض الجماعات الماسونية ذات الميول الإنسانية.

الفكر، والوحى، والنبوة

١ـ ترتكز العقيدة الإسلامية على شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، مما يوضح جليا أن الإسلام يبنى عقيدته على الجهر بوحدانية الله. وترجع تلك الشهادة بوحدانية الإله إلى الأزل وقبل خلق الأجساد حينما خلق الله آدم وذريته وأشهدهم على ألوهيته.

٢ـ ومع الوقت بدأ الوحى الأول الخاص بوحدانية الله يمحى من الاذهان، وبدأ الإنسان يحيد عن ذكر الله، ويصنع آلهة زائفة، ووقع فى تعددية الآلهة. فدأب الله على إرسال العديد من الأنبياء لمختلف الشعوب كل بلغته، لتذكرتهم بوحدانيته. وقد ورد فى القرآن ذكر بعض هؤلاء الأنبياء مثل نوح وإبراهيم وموسى ويوسف وداود وسليمان وشعيب واليشع والمسيح. كما جاء بالسنة ذكر آلاف الأنبياء.

٣ـ أما كلمة الله فأرسلت من خلال عدة كتب، فقد ذكر القرآن صحف ابراهيم وتوراة موسى ومزامير داود والإنجيل الذى نزل على المسيح. غير أنه لم يبق لنا أية نسخ أصلية من تلك الكتب. ففى نظر السواد الأعظم من علماء الدين أن الكتب المتداولة بالفعل بين يدى اليهود والمسيحيين قد تم تحريفها على أيديهم عبر القرون بحيث لم تعد تمثل الكتب التى أوحى بها فى صورتها الخالصة أى كما أنزلت.

٤ـ ولكن الله الرحيم دائما بعباده، أرسل «ختام الأنبياء»، محمدا، نبيا عربيا، قدم لأمته، ومن خلالها قدم للعالم أجمع، القرآن، كلمة الله. وفى هذا الصدد، هناك ملحوظة رئيسية، وهى أن ذلك الدين الذى ختم الرسالات السابقة، لم يتنزل على أنه ختام تعاليم سابقة أو نهاية «تدبير إلهى» يقود المؤمن شيئا فشيئا إلى حضرة السر الإلهى، وإنما تنزل كرسالة مستقلة تشتمل على كل ما أوحى به من قبل. لقد جاء خيراعاما خاصًا بتلك الأمة، فكان خير رباط يوحد المسلمين.

٥ـ ولعلنا لا نبالغ أبدا حينما نتحدث عن أهمية القرآن، فهو يمد المسلمين بأسس إيمانهم، وبالقواعد الأخلاقية التى تحكم سلوكهم، وبالتعليمات الدقيقة الخاصة بالعبادات، والمعاملات التجارية، والإرث. وهو يحتوى كذلك على ملخص لتاريخ العالم، وعلى فلسفة للحياة تتيح للمؤمن اتخاذ الموقف الدينى الصحيح إزاء المصاعب التى قد تجابهه. أما النص القرآنى فهو فى آن واحد منبع وغاية حكم علماء الدين.

٦ـ وبخلاف التأكيد على البعث، وبعض التفاصيل الخاصة بالعبادات، لا يحتوى القرآن سوى على حقائق يمكن إدراكها بالعقل المجرد. فلا أمور غامضة تتطلب قوى خارقة. ولكن يبقى فقط السر المتمثل فى كنه الله أمرا مؤكدا يتعذر إجلاؤه. وعلى هذا فجميع الحقائق الخاصة بالدين الإسلامى، على الرغم من كونها موحاة إلا أنها «طبيعية»،لذا، يمكننا القول إن الإسلام دين «طبيعى» بمعنى أن كل الحقائق التى يتناولها يسهل إدراكها بالعقل ولكنه من ناحية أخرى دين موحى به بمعنى أن الحقائق التى يتضمنها قد بلغها الله إلى الإنسان من خلال الأنبياء.

٧ـ وللوحى فى العقيدة الإسلامية مفهوم خاص. أما فى المسيحية فإن كلمة الله الموحى إليه هو داع يملك أداة حرة يتصرف بحسب الطبيعة الحرة التى اختصه بها الله، العلة الأولى، وباعث الوحى.ولكلمة الله الموحى إليه أن يستخدم أسانيد بشرية بحيث يكتب وثائقه بأسلوبه ولغته الخاصة، بما أن ما يوحى

به إليــه ناجم عن الوحى الإلهى، مما يكفل له أن كل كلمة يستخدمها إنما يمليها عليه الروح القدس.

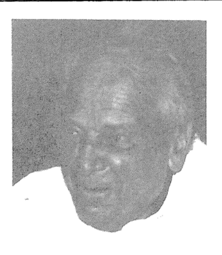
أما بالنسبة للإسلام فلا يوجد كلمة لله موحى إليه، وإنما أنبياء ومرسلون يتنزل عليهم الوحى. فكل شىء فى القرآن، كل كلمة، قد أوحى بها الله إلى النبى من خلال الملك جبريل. وما النبى إلا أداة بسيطة وأمينة تردد الكلمات التى استمع اليها أو قرأها خلال تلقيه للوحى. وعلى هذا فقد يجد الفكر والتفسير الإسلامى بعض الصعوبة فى التوافق مع العلم والتاريخ وهى ذات المشكلات التى أحدثت أزمة الحداثة بالنسبة للديانة المسيحية.

العقيدة، الإيمان، والعقل

١ـ يقوم علم اللاهوت المسيحى أساسا على فهم حكمة الإيمان الذى يعتمد ضمنا على الوحى بما أن ذلك الفهم هو الذى يجعلنا ندرك كنه الله كما هو بذاته بصورة مبهمة. وعلى هذا ينتهى المؤمن إلى الوصول إلى الكون الإلهى من خلال «المعطيات العقائدية».

أما بالنسبة لعلماء الدين الإسلامى فإن الإيمان لا يجعلنا ندرك كنه الله كما هو بذاته، ذلك أن السر الإلهى يبقى أمرا لا يستطيع المرء أن يدركه. أما الإيمان، فيرتكز أساسا على عملية الحساب التى تتم على أساس ما جاء ذكره فى القرآن أى بكلمة الله كما أرادلها أن تصل إلى خلقه.

٢ـ ويتابع علم اللاهوت إدراك معطياته (وهو جانب ايجابى) فى محاولة ايجاد تفسير لاهوتى لها، (وهو الدور التنويرى للنظريات العقائدية) وذلك من خلال امتداد نور الوحى الإلهى الذى يتسم بالموضوعية، وكذلك من خلال العقل الذى يضيئه وحى الإيمان.



أما علم الكلام فيقوم أساسا على إثبات المعتقدات الخاصة بالقوانين الدينية الموحى بها والدفاع عنها. فالوحى هو معيار المعرفة بالله وبما أن العقل يحكم تلك المعرفة بشكل تام ومباشر فتكون المعرفة بالتالى هى المرشد الأساسى لعلماء الدين (إضافة إلى بعض المعايير الثانوية مثل الكلمة والسمع والبصر).

الله من خلال علم الكلام الإسلامى

١ـ ترتكز سماحة القرآن على أفكار ثلاث هى:

(أ) الله واحد أحد.

(ب) الله خالق، وهو الحكم وبيده الثواب والعقاب.

(ج) الله عليٌ قدير رحيم.

٢ـ على الرغم من عدم إدركنا لكنه الله إلا أنه من خلال عملية الخلق والقرآن، أوحى إلى الإنسان ببعض صفاته، وقد استخلص من القرآن والسنة ٩٩ صفة هى أسماؤه الحق التى يسبح بها المسلم الورع مستمدا منها تقاته. وهكذا وعلى الرغم من أنه سبحانه لا تدركه الأبصار إلا أنه كائن بذاته يمدنا بالحماية، بيده الخير، يصغى إلى صلاة مخلوقاته ويعلم حاجاتهم، يغفر للعاصى، وهو كذلك متسامح، حليم، أقرب إلى الإنسان من حبل الوريد.

٣ـ وقد خلق الله العلى القدير العالم بحرية كاملة. «والله خلقكم وما تعملون» (الصافات، آية ٩٦).

وفيما يختص بأفعال الإنسان وبمسئوليته، فقد وردت نصوص فى القرآن تؤكد قدرة الله الواسعة، وأبرزت نصوص أخرى مسئولية الإنسان. أما النزعة الغالبة عند الأشعريين فتركز على التأكيد على أن الله خلق الخير كما خلق الشر وأن الإنسان خلق ككائن حر ولكن أفعاله تنسب إليه بشىء من الغصب.

ولنلاحظ فى كل الأحوال أن لاشىء يرغم على تفسير هذه النصوص على هذا المحمل القدرى.

وهناك بالفعل نزعة عند المفكرين الإسلاميين المحدثين للتأكيد بشدة على حرية الإنسان ومسئوليته عن سلوكه فى الحياة.

٤ـ حاول المعتزلة ثم الأشعريون تصنيف المعطيات التى وردت فى القرآن بشأن الله:

(أ) فدللوا على وجوده باستخدام الأسانيد المأخوذة عن الفلاسفة، والمبنية على الحركة والممكن والضرورى.

(ب) أما بالنسبة لأسماء الله فقد حاولوا تجنب الإفراط الشديد فى تنزيهه بحيث لا يصل هذا الإفراط إلى حد نفى كل صفة وتشبيه من شأنه إضفاء صفات محسوسة إلى الله. وقد حاولت المدرسة الأشعرية أن تقف موقفا وسطا فأكدت من ناحية على حقيقة تلك الأسماء مع توضيح أنها تكمن فى الجوهر الإلهى، فتلك الأسماء ليست «الله» ولكنها لا تخص أحدا غيره.

٥ـ وقد اتفق بشكل عام على ترتيب تلك الصفات كما يلى:

(ا) الصفات الخاصة بالجوهر : فكينونة الله لا تنفصل عن جوهره

(ب) الصفات الأساسية والتى يمكن تقسيمها إلى:

ـ صفات «لا تنبغى لغيره» مثل تلك التى تدل على أنه خالد، أبدى، لا شبيه له، وأنه كائن بذاته

ـ الصفات التى تحمل معانى وتضيف مفهوما ما إلى الجوهر مثل: القدرة، المشيئة، العلم، الحياة، السمع، البصر الإدراك.

(جـ) الصفات المعنوية وهى تشبه الصفات السابقة مثل القادر، المقتدر، العليم إلى آخره.

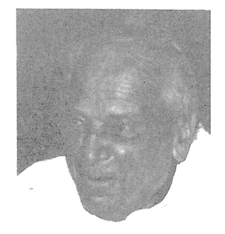
(د) الصفات المتعلقة بالفعل والتى تشير إلى ما يمكن لله أن يفعله أو يتركه.: الرؤية، الخلق، الأمر، القضاء التحديد المسبق للأعمال، القبول.

٦ـ أما «الرؤية والقول والسمع والبصر» فتعد من السمعيات ولم تعرف إلا من خلال الوحى، بينما وردت الصفات الأخرى فى القرآن، ويمكن للعقل أن يستدل عليها، ولذا فهى من «العقليات»

علم الكلام الإسلامى والسر المسيحى.

١ـ من الناحية العقائدية يمكننا القول إنه فيما عدا إنكار المسيحية لنبوة محمد، فإنها تقوم على مبدأ التأكيد.بينما نجد أن الإسلام قد ينكر أو يتجاهل . أو بمعنى آخر، يعد الإسلام تبسيطا للمسيحية وعودة لدين ليس به غموض، وهو تبسيط تعتبره المسيحية نوعاً من البتر.

٢ـ والإسلام أساسا دين «الكتاب»، أما المسيحية فهى حياة مع شخص على قيد الحياة هو المسيح، رب حقيقى وإنسان حقيقى. وإذا أردنا التعبير عن وجهة نظر



الديانتين فى كلمات لقلنا إن «الكلمة» كانت بالنسبة للمسلمين «الكتاب» أما بالنسبة للمسيحيين، فكانت «لحما وعظاما».

٣ـ إذا كان الإسلام يعترف بسقوط آدم وحواء فإنه ينكر أن خطأهم قد امتد فانتقل للإنسانية. وهذا الإنكار جزء لايتجزأ من تعاليم العقيدة الإسلامية.

٤ـ وإذا كان ذكر التثليث فى القرآن ينم عن عدم فهم لمعنى السر (بما أن ما أنكره هو التثليث الذى يتضمن الله والمسيح ومريم) فإن هذا لا يمنع أن العلماء المسلمين اعتبروا دائما أن فى التثليث محاولة للنيل من الوحدانية الخالصة التى وردت بالقرآن. ومن هنا، فإن كثيرا من المسلمين غير العارفين يعتبرون المسيحيين مشركين يؤمنون بثلاثة آلهة.

٥ـ إن الشرف الذى يعطيه القرآن للمسيح، واعترافه بأن ولادته من السيدة العذراء مريم كانت معجزةإلهية واعتباره نبيا يشفى المرضى ويحيى الموتى مع التأكيد على أن ذلك إنما يتم بمشيئة الله، يجب ألا يخدعنا.فلقد عارض الإسلام منذ بدايته أية فكرة للتجسيد، وأكد على أن المسيح ليس إلا بشرا مثل البشر أجمعين يخضع لنفس الاحتياجات، وأنه أبداً ما كان مماثلا لله. ونفى ألوهية المسيح إنما يأتى على أساس فرض أساسى وعميق فى الإسلام ينبع من معنى السمو الإلهى الذى لا يتلاءم مع فكرة وجود بشر ـ إله.

٦ـ أما الأمر الذى لا تقبله العقيدة الإسلامية تماماً فهو فكرة الخلاص على يد المسيح. ويرجع هذا إلى أسباب عدة. ذلك أن الإسلام ينكر أساسا الخطيئة الأولية. وثانيا لأن مفهوم الخطيئة، أنها إساءة للحب الإلهى، غير وارد فى القرآن. فخلافا لما جاء بالعهد القديم، لا نجد فى الإسلام تذكيرا دائما للخطيئة، وضرورة إصلاحها، وتقديم أضحية. وإنما كل شىء يبدو كاملا منتهيا. فالله يغفر مباشرة. وكل إنسان ليس بمسئول سوى عن خطاياه. ويعد «التناول» غريبًا على الإسلام. كذلك، ليس للصليب أى دور. أما الصورة القرآنية الوحيدة التى تأتى بذكره، فإنما تنفى أن عملية الصلب قد تمت.

عقيدة وفلسفة

١ـ للحكمة فى المسيحية ثلاث مراتب يمكن للإنسان بلوغها، وهى:

(ا) الحكمة الميتافيزيقية الطبيعية، التى لا تتعدى قوة العقل ولا تعرف الله بذاته وإنما كعلة للوجود.

(ب) الحكمة العقائدية، وهى طبيعية فى نمطها، خارقة فى موضوعها ونورها متمثل فى الوحى الإلهى. فهى تنمو «بخطى يحكمها العقل» وتهتدى إلى الله ليس بصورة استدلالية ولكن كما تجلى بذاته وكما أوحاها هو إلينا مع الحفاظ على غموض ذاته الإلهية وحياته الخاصة.

(جـ) الحكمة الصوفية والتى تبلغ الله من خلال أسلوب تجريبى خارق للطبيعة لا يعتمد على جلاء الرؤية وإنما يكمن فى التوحد بالحب، أى من خلال حب الذات الإلهية.

٢ـ أما فى الإسلام فلا يوجد مثل هذا التمييز. فبالنسبة للفكر التقليدى الأشعرى، يتبدد أى تمييز بين ما هو طبيعى وما هو خارق للطبيعة أمام التأكيد على وجود الله وعدم قدرة المخلوقات على الكون بذاتهم. وإذا استعملنا الألفاظ المستخدمة فى اللاهوت المسيحى فسوف نقول إنه لا يوجد فى العقيدة الإسلامية إجلاء لأسرار خارقة للطبيعة، وإنما فيها تأكيد على السر بمعناه الواسع، ذلك السر الذى يحيط بكينونة الله وسموه وتعاليه والذى لا يمكن أن يصل إليه لا بالإيمان ولا بالتقريب.

٣ـ أما فيما يتعلق بالفلسفة، فقد اختلف المفكرون الإسلاميون حول النقاط التالية:

(أ) بعض رجال الدين المناهضين بشكل حاد للمفكرين يطرحون الفلسفة وعلم الكلام تماماً جانباً ويتمسكون حرفياً بالقرآن وبالحديث.

(ب) أما بعضهم الآخر، وكذلك أغلبية المفكرين الأشعريين، فقد أقروا استخدام العقل فى الدفاع عن الحقائق الدينية غير أنهم وضعوا لتلك الغاية فلسفة خاصة تحافظ إلى أقصى درجة من وجهة نظرهم، على سمو الله وتعاليه وقدرته. وترتكز تلك الفلسفة بشكل خاص على فكرتين:

أولا مذهب الذرية ـAtomisme ويقوم على إنكار قدرة المخلوقات، ثانياً مذهب المناسبات ـOccasionalisme وهو نفى لفاعلية العلل الثانوية.

(جـ) وأخيراً استلهم عدد من المفكرين والفلاسفة من أمثال الفارابى وابن سينا وابن رشد، أفكارهم من الفلسفة الإغريقية وأعطوا للفلسفة الغلبة على المعطيات الدينية. فالفلسفة بالنسبة لهم هى ملكة العلوم المتوجة. وقد حاول ابن سينا وضع رؤية تطمح إلى مزج الحقائق الدينية للخلوص إلى رؤية فلسفية جامعة. أما ابن رشد فقد سعى إلى التوفيق بين الدين والفلسفة وذلك باستبعاد علم الكلام فلا يبقى سوى الدين والفلسفة فتكون الفلسفة للصفوة ممن لديهم القدرة على البرهنة على الأشياء ويكون بإمكانهم وحدهم فهم مجاز النصوص القرآنية التى تحمل أكثر من مدلول، أما الدين فللعامة الذين يأخذون النصوص القرآنية بمعناها السطحى.

فكر وغايات

١ـ يؤكد رجال الدين والفكر التقليديون مستندين إلى نصوص القرآن والأحاديث على ثبوت الغيبيات مثل حياة القبر والبعث ونار جهنم والميزان ويوم الحساب. وقد جاء وصف دقيق للجنة ومباهجها وللنار وعذابها الأليم. والفكرة السائدة فى تلك النصوص ترتكز على وجود إله بيده الثواب والعقاب.

٢ـ أما حياة الخلد التى بُشر بها المسلم فليس فيها مشاركة للحياة الإلهية. وإنما هى تمتع بخلق الله وبفضله، يضاف إليها شيء أقرب «لرؤية الذات الإلهية ..» «ولكن بصورة غير دائمة أو محسوسة. وعلينا ألا نقع فى خطأ مطابقة تلك الرؤية مع الـ Visio Beatifica التى جاءت فى اللاهوت المسيحى وهى رؤية حدثية لجوهر الرب، ومشاركة تامة، وإن كانت غير كاملة، فى معرفة الرب عن ذاته، رؤية ممكنة من خلال «نور المجد» ■

مدرسة الإسكندرية

جورج شحاتة قنواتي
ترجمة وتقديم: هـ . ل

[الغـــزو الفكرى ... أسطورة كـبرى، ولا خـوف على ثقـافـتنا العربية ولا على شخصيتنا العربية من الانفتاح على ثقافات الأمم الأخرى..]

هكذا كان يقول جورج شحاته قنواتي.. هذا الرجل.. الإنســان.. العـــالم.. المفكر.. الذى أعطى حياته للعلم والحضارة، ولخدمة المثل العليا والقيم الإنسانية النبيلة.. نجد له الآن أحد النصوص التى لم تنشر من قبل، وهو عن مدرسة الإسكندرية..

فالإسكندرية منذ تأسيسها على يد الإسكندر الأكبر ٣٣١ ق . م وحتى الفتح العربى وهى مركز للحضارة لا مثيل له، وذلك من خلال مدرستها الشهيرة (المكتبة والمتحف) التى أثرت التاريخ البشرى بسمات تطوره لألف سنة.. وقد كان أزهى عصورها فى عهد البطالسة والرومان حيث أثمرت الفلاسفة والعلماء..

وإليكم النص.

قال يقول أحمد أمين فى كتابه الشهير «فجر الإسلام» : [إذا نحن وصلنا إلى اليونان فقد وضعنا أيدينا على كنز لا يفنى وثروة لا تقدر وغنى عظيم فى كل ما ينتجه العقل والعاطفة والذوق، فى الفلسفة والرياضة والفلك، فى علوم الطبيعة والحياة والطب، فى الأدب، فى التاريخ، فى السياسة، فى الفنون الجميلة. لقد نفخوا فى كل ذلك من روحهم، وغذوا العقول بآرائهم، وأمدوا العالم بأفكارهم و آدابهم وعلمهم وأساطيرهم، وربوا الذوق بفنهم، ونحتهم وتصويرهم... وهكذا فى كل فرع من فروع العلم».

١ـ ملتقى الحضارات :

هذا التراث الكبير قُدر لنشره فى العالم رجل بمستواه طموحًا وعزيمة وشمولية فكر، وهو الإسكندر المقدونى الكبير، الذى كانت فتوحاته للعديد من بلدان آسيا وأفريقيا سبباً وسبيلا لانتشار الحضارة اليونانية ولتفاعلها مع مختلف الحضارات الأخرى: الآرامية والفارسية والهندوسية.

من السبعين مدينة التى أسسها الإسكندر وحمّلها اسمه، خمس وعشرون إسكندرية معروفة بحسن اختيار موقعها لا تزال حتى اليوم مراكز تجارية مهمة. إنما لاشك فى أن إسكندرية مصر كانت بينها أهم مراكز اللقاءات الحضارية، بل من أهم البلاد اليونانية ثقافة وإشعاعاً. وبقيت على هذه الأهمية عدة قرون متتابعة. وكان قصد الإسكندر منها ـ كما كان من غيرها ـ إدخال الثقافة الهلينية إلى مصر. بل إلى أوسع من مصر، إلى الشرق البعيد.

وبالحقيقة لقد أنبثت «الهلينية» فيه ومهرته بطابع لها لايمحى، كما أنها فى تفاعلها معه أخذت منه ما أسبغ عليها صبغة خاصة. إذ إن لغة الهلينية، إثر لقائها مع إيران والهند، تحولت عن كلاسيكيتها الصافية إلى بساطة «العامية» (وهى اليونانية المسماه koiné).

كما أن الفن الإغريقى تخلى عن مقاييس الاعتدال والانسجام نازعًا إلى الغلو الشرقى فى التزيين وفى الضخامة، وهذا ما تظهره المنشآت الجديدة فى «الأقصر» وفى بابل.

إن أول من جعل من الإسكندرية عاصمة الحضارة الهلينية ـ وستبقى على هذا، حتى نهاية البطالسة ـ هو بطليموس الأول سوتر (Ptolamee' 1er Sot-er) مؤسس سلالة اللاغيين (logides)، الذى تملك، بعد وفاة الإسكندر، على مصر وسوريا وآسيا الصغرى [٢٨٣ -

٢٣٥ ق.م]، فاهتم بحركة البناء فى الإسكندرية، فأصبحت مقر البلاط الملكى، وملكة التجارة العالمية. كما أنها أصبحت مركز الثقافة اليونانية بسبب المؤسستين العديمتى المثيل، المتحف والمكتبة، االلذين أنشأهما بطليموس فجذب إليهما الفنانين والعلماء، رياضيين وفلكيين وأطباء.

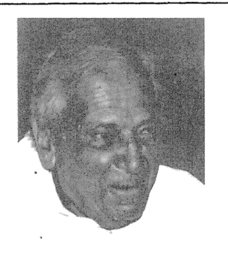
على أن نهاية سلالة اللاغيين كانت تعسة بسبب ضعف ملوكهم وانهيارهم الأخلاقى، ولا مبالاتهم بالشعب المصرى، وتعسفهم الإدارى، وثورات السكان والمرتزقة، ومؤامرات الموظفين. كل هذا قادهم إلى حتفهم.

لقد كانت الإسكندرية عاصمتهم لا تزال وحدها خارجة على النظام الذى أحكمه الفتح الرومانى فى الشرق.

وإذا نشب الخلاف فيها بين كليوباطرا الشهيرة وبطليموس الثالث عشر، الذى هو أخوها وزوجها، نزل يوليوس قيصر، مؤسس الإمبراطورية الرومانية، فى الإسكندرية على رأس قوة مؤلفة من أربعة آلاف رجل وحاصر حى القصر حصاراً طويلا. وهو الذى أحرق الأسطول الإسكندرى، خشية على مراكبه الراسية فى «الميناء الأكبر» دون نظارة، فامتد الحريق إلى المكتبة فالتهمها، وكانت تعدّ حوالى خمسين ألف كتاب.

وقد أعاد أنطوان، الرجل الأول بعد مصرع قيصر، بناء المكتبة وزودها بمائتى ألف كتاب. وانتعشت الإسكندرية من جديد فى العهد الرومانى، فشيدت فيها المبانى واتسعت صلاتها التجارية حتى الهند، وبلغ عدد سكانها نصف مليون نسمة وأصبحت المدينة الثانية، بعد رومة، من حيث الأهمية فى الإمبراطورية الرومانية.

وللإسكندرية شأن عظيم فى تاريخ الفكر المسيحى. فالكنيسة المصرية تعتقد أن القديس مرقس، وهو أحد الرسل



وصاحب الإنجيل المعروف باسمه، هو مؤسس كنيسة الإسكندرية. وهى تحرص على أن يلقّب خلفاؤه من بعده حتى اليوم بلقب:

«بابا الإسكندرية وسائر الكرازة المرقسية».

ومما لاشك فيه هو أن المسيحية انتشرت بسرعة منذ بدايات عهدها فى الإسكندرية، وهى أكبر ميناء شرقى فى البحر المتوسط، ومنه فى جميع أرجاء وادى النيل.

وأن ما يثبت ذلك هو الآثار الأدبية التى عثر عليها فى مصر مكتوبة على ورق البردى، وفيها الدليل على أن المسيحية كانت قد تغلغلت فى مصر الوسطى ومصر العليا منذ القرن الثانى، هذا بالرغم مما لاقى الدين الجديد، على أيدى أباطرة الرومان، من صنوف التعذيب والتنكيل، لأن أصحابه كانوا يستنكفون ممارسة شعائر الديانة الرسمية، فلا يقدسون الأباطرة ولا يشتركون فى عبادة روما المؤلهة.

وأن أشرس اضطهاد أصابهم هو ذاك الذى شنه عليهم الإمبراطور ديوقلسيانوس [٣٠٣ - ٣٠٤] وكان يقصد إبادتهم جميعًا. فدمرت على يده الكنائس وأحرقت الكتب المقدسة واستشهد الآلاف من المؤمنين. ولا تزال الكنيسة القبطية فى مصر تؤرخ أحداث الأزمنة بزمن ديوقلسيانوس، أو «زمن الشهداء».

ولكن المسيحية لم تمت، بل شاء الله لها أن تحيا وينتصر ويزدهر إيمانها. فإذا كانت الوثائق البردية تصور لنا مصر، عام ٢٠٠، بلداً وثنيًا فى جوهره فإننا نرى بعد جيل واحد من ذلك الحين بلداً يدين معظم أهله بالمسيحية. وأن السبب الأول لهذا التحول، على ما يرتئى أحد مؤرخى هذه الفترة، كان «مرسوم ميلانو» الشهير الذى أصدره الإمبراطور قسطنطين عام ٣١٣، وفيه يقر مبدأ التسامح الدينى. فوقف الاضطهاد عن الكنيسة، مما أدى، بعد عشرة أعوام فقط من إعلان المرسوم، إلى أن أصبحت المسيحية الديانة الرسمية الوحيدة فى جميع أنحاء الإمبراطورية، والإسكندرية، كما قلنا، ثانى مدنها.

كانت اللغة اليونانية سائدة منذ البداية، فى الإسكندرية، إذ إنها كانت لغة الدولة الرسمية. فلا عجب إذا كان الإمبراطور / أغوسطوس خاطب سكان المدينة، حين زارها، باليونانية. ولكن يجب ألا يغرب عن ذهننا أن اللغة التى كان الشعب يستعملها فى حياته اليومية، هى المصرية، أى لغته القديمة. هذه كانت تكتب أصلا بالخط «الديموطيقى» الذى تستخدم فيه حروف متحدرة من الحروف الهيروغليفية، ممّا كان يحكم على اللغة بالجمود ويمنعها من مسايرة التطور والتجديد.

ولكن الأقباط عرفوا أن يتخذوا الحروف اليونانية.. فكتبوا لغتهم بها. وهكذا ولدت اللغة القبطية فى القرن الثالث الميلادى، وترعرعت وشبت وأنجبت أدباً حيّا. ونقلت الأناجيل إلى المصريين بلغتهم وبثوب مصرى، فتأصلت العقيدة فى الشعب.. ورسخت فى أعماق إحساساته.

٢ـ موعد العلماء والفلاسفة:

هذا فى الشأن الدينى. أما فيما يخص الحياة الثقافية فى العهد الرومانى، فقد بقيت المكتبة الشهيرة ودار الحكمة (المتحف) ركيزتى الثقافة. فدار الحكمة، التى لم تكن جامعة تدريس، بل أشبه بأكاديمية للأبحاث، يعمل فيها علماء وفلاسفة على حساب الدولة، ويجدون بجوارها المكتبة الحافلة بالمؤلفات المختلفة.

وهكذا ظلت الإسكندرية تسهم فى عمل الحضارة، على غرار ما فعلته فى العهد البطلمى، ولكن مع فارق مهم: وهو أن المدرسة فى العصر القديم أنجبت عدداً من كبار الشعراء أمثال: كاليماخوس (Collimaque) حوالى [٣٣٥ ـ ٣١٠ ق.م] وثيوكريتس (Théocrite) حوالى [٣١٥ ـ ٢٥٠ ق.م] وعدداً من كبار العلماء أمثال: أقليدس (Euclide) القرن الثالث ق.م وإيراتوسيتنوس(Eratosyhéne) حوالى [٢٧٥ ـ ١٩٥ ق.م] وأرخميدس (Archiméde) [٢٨٧ ـ ٢١٢ ق.م] وغيرهم من أهل الرياضة الحسابية والفلكية والهندسية التى قدمت لها الإسكندرية، فى أبهى أيامها، خير العطاءات، منذ القرن الثالث والثانى قبل المسيح إلى القرن الخامس بعده.

أما إسكندرية العهد الرومانى فلم تحافظ على تقدمها فى المجال الأدبى، ولكنها فى مجال العلم قد واصلت المجهود الذى كان يبذل فى العصر السابق.

وأشهر علماء هذه الفترة هو بطليموس (Ptolomeé) من أبناء مصر فى القرن الثانى الميلادى، وقد ترجمت موسوعته الفلكية إلى العربية تحت اسم: «المجسطى» (Almageste) كما أن كتابه فى الجغرافيا احتفظ بالصدارة الكاملة حتى نهاية القرون الوسطى. وهناك غيره عدد من الأطباء سنتحدث عنهم بعد أن نكون أشرنا إلى تيار آخر على غاية من الأهمية هو ذلك التيار الفلسفى المزدوج الذى يتمثل بامونيوس سكاس (Ammonius Saccas) (القرن الثالث) مؤسس الأفلاطونية المستحدثة [Néo plat-onisme] وبتلميذه أفلوطين (Plotin) (حوالى ٢٧٠ ـ ٢٠٣) ، ومن قبلهما فيلون (Philon) (١٤ ق.م ـ ٥٤ ب.م) الذى ينتمى إلى الجماعة اليهودية المتأغرقة المنفتحة على النظريات الفلسفية المهمة الممثلة فى الإسكندرية ، والذى شرح التوراة، إنطلاقًا من ترجمتها اليونانية المعروفة «بالسبعينية» (Septante)، شرحًا يتخطى الحرف إلى الرمز ، حاشراً فيه آراء الفيثاغورية فى الأعداد والرواقية فى الأخلاق وأفلاطون وأرسطو فى الكون.

ومن جهة أخرى هناك نخبة من المفكرين المسيحيين الذين تأثروا بهذا النسق الرمزى فى التفسير الروحانى، وهم الذين تعاقبوا على مدرسة الإسكندرية المعروفة برمزيتها الروحانية الخاصة وبالتراث اللاهوتى العريق الذى خلفه للكنيسة أولئك القيمون على إدارتها، وأولهم بانتينوس (Panténe) عام ١٨٠ ، ومن بعده تلميذه أقليمنطس (Clément) [حوالى ٢١١ ـ ١٥٠] الذى خلفه تلميذه الشهير أوريجانوس (Origene) [١٨٦/٥ ـ ٢٥٥/٤]. ثم جاء بعدهم أثناسيوس وفوريللوس الإسكندرى، وليس لنا هنا أن نعرض نظرياتهم فى اللاهوت والفلسفة وعلم التفسير.

وبينما كانت الدراسات العلمية تتابع ولو على خفوت فى القرون التالية، فتحفظ لنا روائع اليونان القدماء وتساهم فى شرحها وإغنائها، كانت هناك فى القرن الخامس مدرسة فلسفية بالمعنى الحضرى تضاهى مدرسة أثينا.

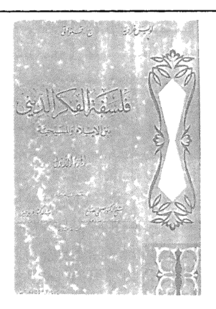
يخبر المؤرخون أنه كان يوجد، بجانب متحف الإسكندرية الذى أندثر فى القرن الثالث الميلادى، مدارس لها مكتباتها، مثل «القيصرية» (Cesareum) التى نهبت سنة ٣٦٦، حين أحيل هذا المعبد إلى كنيسة. وقد حدث مثل هذا لمكتبة «السيرا بيوم» (Serapeum) التى أتلفت سنة ٣٩١. وبالرغم من ذلك فقد استمرت المدارس والمكاتب الخاصة، بشهادة أوراق البردى البيزنطية التى تحدثنا عن متاحف الدراسة والأكاديميات فى الإسكندرية. كما أن أحد المتخرجين ترك لنا وصفاً لحياة الطلاب فى المدارس العليا هناك: إنه زكريا المدرسى (Zacharie le Rhéteur) الذى اختبر الحياة الدراسية، حوالى نهاية القرن الخامس، هو وصديقه ساويروس (Sévére d'Antioche) الذى أصبح فيما بعد بطريرك أنطاكية. وكان هذان الصديقان ينتسبان إلى جماعة «محبى الاجتهاد» (Philoponoi) التى كانت تقوم بحماية أعضائها من الطلاب الوثنيين.

إن مجرد ذكر أسماء الأساتذة والتلاميذ العديدين الشهيرين الذين أنجبتهم الإسكندرية يبين بوضوح نشاط مدرستها. لقد كان هناك أمونوس (Ammonius) بن هرمياس (Hermias)، تلميذ أفرقلس، أحد الأفلاطونيين المحدثين، رئيسًا لإحدى مدارس الفلسفة وشارحاً لبعض محاورات أفلاطون ولتفسير أرسطو، ذا شهرة واسعة، فى بداية القرن السادس. والعرب يعرفونه وأسماء تلاميذه: سنبليقيوس (Simplicius) و دمسقيوس (Damascius) والأمفيدورس الأصغر (Olympiodoros) [مولود حوالى ٥٠٠] الذى وصلت لنا منه الآثار الفلسفية الأكثر عدداً: ثلاثة شروح على أفلاطون واثنان على أرسطو. وقد اشتهر أيضا فى النصف الأول من القرن السادس يحيى النحوى (Jean Philoponos) كما يسميه العرب وقد أحصى بين اللغويين مع أنه كتب فى

علم اللاهوت والفلسفة. وأهم من خلفه فى الجهد الفلسفى كان أصطفن الإسكندرانى، فيلسوف بلاط الإمبراطور هرقل، وأشهر المعلمين فى الإسكندرية. وممن تخرج منها فى القرن السادس فى الطب والفلسفة يوحنا الأفامى (Jean d'Apmeé) وأطيوس (Aetios) الأمدى، وسرجس الرأس عينى (الرشعينى) الذى يقول ابن العبرى فيه إنه أول من أوقف السريان على آثار أرسطو بسبب ترجمته لها وشروحه عليها. وكان لكتب هؤلاء تأثير كبير على دراسات العرب الأولى.

من المؤكد أن مدرسة الإسكندرية ظلت قائمة لزمن طويل بعد أن أغلق الإمبراطور / يوستنينا نوس مدرسة أثينا عام ٥٢٩، مما أهل الإسكندرانيين للمساهمة فى نقل التراث اليونانى إلى العرب الذين فتحوا مصر سنة ٦٤٠. وبالفعل فقد احتفظ هؤلاء بتقسيم الساحات المنسوبة إلى أقليدوس الذى يربطه التقليد الأدبى ببدايات مدرسة الإسكندرية. كما أنهم احتفظوا «بالمجموعة الصغيرة لعلم الفلك» التى تحتوى على مقالات الفلكيين عن الليالى والنهارات وطلوع وغروب النجوم، والمسافات بين الشمس والقمر. ثم إن الفلكيين العرب اعتمدوا الحسابات الفلكية المبنية على نظام عددى ستينى، المتخذة من الترتيب البابلى، وقد وصلت إليهم عن طريق الإسكندرية رجوعًا إلى الفلكيين إبسقلاوس (Hypsiclés) وخاصة أبرخس (Hipparchus).

غير أن المصادر التى تثبت هذا التأثير الإسكندرانى غير متوفرة لدينا، مما يجعلنا لا نعرف إلا القليل عن حالة الحياة العقلية فى الإسكندرية بعد القرن الخامس الميلادى. فليس بين يدينا سوى بضع وثائق فى مجموعة «كتب الآباء الشرقيين» وفيما يشبهها، تشير إلى وجود



أكاديميات ومدارس فى الإسكندرية فى القرن السادس الميلادى.

٣- شهادات العرب للإسكندرية:

إنما لحسن الحظ أن بعض المؤرخين والفلاسفة والأطباء العرب ألفوا كتبًا فى تاريخ الحكماء زودتنا بمعلومات قيمة. وهذه الكتب، وإن كانت ترقى بمعظمها إلى أواخر القرن التاسع والعاشر الميلاديين، غير أنها تستقى معلوماتها من الكتب اليونانية التى قام بترجمتها فى العصر الإسلامى الأول مترجمون سريانيون، فتجمعت فيها أقوال وأخبار الفلاسفة والأطباء والرياضيين الأقدمين عرضت فى شكل نوادر وأقاصيص.

أجل لم يفدنا المؤرخون العرب الأولون شيئا عن الإسكندرية. فلا خبر عن مدرستها عند اليعقوبى [توفى سنة ٢٨٤ هـ /٨٩٧م] على الرغم من بعض المقتبسات، فى مؤلفه «كتاب البلدان»، عن الكتّاب اليونانيين. كما أن لا إشارة لمدرسة الإسكندرية فى تاريخ ابن عبدالحكم [توفى سنة ٢٥٧هـ /٨٧١م] الذى يتكلم عن فتح العرب لمصر. والقول عينه ينطبق على المسعودى [توفى سنة ٣٤٥ هـ / ٩٥٦م] مع أن له فى كتاب الجغرافيا الذى ألفه أخبارًا فى تاريخ العلوم.

على أن كتاب الفهرست الذى جمع فيه ابن النديم [٣٢٥ هـ /٩٣٦م -٣٨٥م/٩٩٥] «أخبار الفلاسفة والعلوم القديمة والكتب المصنفة فى ذلك» يذكر أسماء وتصانيف العلماء الإسكندرانيين: منهم (الكيمائيون والصنعويون) «صنعة الذهب والفضة من غير معادنها»، مثل أسطانس الرومى الذى له ألف كتاب ورسالة: «وكتب هؤلاء القوم مبنية على الرمز والإلغاز» «الفهرست ص ٣٥٣».

ومنهم الحكماء مثل مارية القبطية وكتابها: «مع الحكماء الذين اجتمعوا إليها».

ويحيى النحوى فى تفسيره: «الكلام مع السماع الطبيعى»، وتلخيص الإسكندرانيين: «لكتاب النفس» فى «نحو مائة ورقة»..الخ.

وأكد ابن النديم أن حركة تدريس الطب بالإسكندرية على أيدى الأساتذة المسيحيين كانت ناشطة قوية قبل دخول العرب، فذكر: «أسماء جماعة من الأطباء القدماء، مقلين ولا يعرف أوقاتهم على صحة: أصطفن، جاسيوس (Gésios)، أنقيلاوس (Nicolous Alexondrinus)، مارينوس (Marinus)، هؤلاء إسكندرانيون، وهم ممن فسر كتب جالينوس وجمعها واختصرها وأوجز القول فيها، وسيما كتب جالينوس الستة عشر».

ويقول ابن القفطى فى كتابه [تاريخ الحكماء]: «والإسكندريون هم الذين رتبوا بالإسكندرية دار العلم ومجالس الدرس الطبى. وكانوا يقرءون كتب جالينوس ويرتبونها مع هذا الشكل الذى تقرأ عليه اليوم. وعملوا لها تفاسير وجوامع تختصر معانيها ويسهل على القارئ حفظها وحملها فى الأسفار. فأولهم، على مارتبه إسحق بن حنين، أصطفن الإسكندرانى ثم جاسيوس وإنقيلاوس ومارينوس. فهؤلاء الأربعة عمدة الأطباء الإسكندرانيين. وهم الذين عملوا

«الجوامع والتفاسير». هذا فى الطب، أما فى الفلسفة فقد ذكر ابن أبى أصيبعة فى كتاب [عيون الأنباء فى طبقات الأطباء] «بيروت ١٩٦٥». نصا من كتاب مفقود للفارابى [فى ظهور الفلسفة] قال فيه: «إن أمر الفلسفة اشتهر فى أيام ملوك اليونانيين، وبعد وفاة أرسطوطاليس، بالإسكندرية، إلى آخر أيام المرأة، (كليوباطرا) .. ولما غلبها أغسطوس الملك الرومانى، ونظر فى خزائن الكتب فوجد نسخًا لكتب أرسطوطاليس ولشروحات الفلسفة عليها، فاستنسخها وحملها معه إلى رومية. وهكذا «فصار التعليم فى موضعين، وجرى الأمر على ذلك، إلى أن جاءت النصرانية فبطل التعليم من رومية وبقى بالإسكندرية، إلى أن نظر ملك النصرانية فى ذلك واجتمعت الأساقفة وتشاوروا فيما ترك من هذا التعليم وما يبطل. فرأوا أن يُعلم فى كتب المنطق إلى آخر الأشكال الوجودية، ولا يعلم ما بعده لأنهم رأوا فى ذلك ضرراً على النصرانية، وأن فيما أطلقوا تعليمه ما يستعان به على نصرة دينهم. فبقى الظاهر من التعليم هذا المقدار. وما ينظر فيه مستوراً، إلى أن كان الإسلام بعده بمدة طويلة، فانتقل التعليم من الإسكندرية إلى أنطاكية، فيبدو بالتأكيد، فى الأخبار التى أوردها المؤلفون، أنه كان ثمة بالإسكندرية، قبل دخول الإسلام إليها، مدرسة أو أكثر. وفى أخبار يحيى النحوى أنه:

«عاش إلى أن فتحت مصر على يدى عمرو بن العاص، فدخل إليه وأكرمه ورأى له موضعًا» ■

الراهب الفيلسوف الإسلامي

١ ـ ١ مدخل :

«مفتاح حياته أنه رجل دين مسيحى ، يعيش فى حضارة عربية إسلامية ، لذا لم يقف عند حدود اللاهوت المسيحى وإنما جعل من هذا العلم عنواناً للحضارة التى ينتسب إليها ويفخر بها، تلك هى الحضارة الإسلامية التى تمثل عقلانية الأمة التى أنجبت.. «جورج قنواتى» ..

تلك هى كلمة المفكر الإسلامى محمد عماره عن الراهب الدومينيكانى الأب/«جورج شحاته قنواتى».

إنه الإنسان .. العالم .. المفكر .. الذى بذل حياته فى سبيل العلم والحضارة، ومن أجل خدمة المثل العليا والقيم الإنسانية السامية .. إنه الراهب المصرى الشهير الذى تخصص فى الفلسفة الإسلامية حتى أنه صار من أبرز علماء العالم فى الحضارة العربية الإسلامية ...

١ ـ ٢ نشأته .. دراسته :

ولد «جورج قنواتى» فى ٦ يونيو ١٩٠٥ بمدينة الإسكندرية، وقد كان والده «شحاته بك قنواتى» يعمل موظفًا فى مصلحة الموانئ، وقد أدخله والده أشهر مدارس الإسكندرية فى ذلك الوقت وهى مدرسة الفرير والتى أتم بها دراسته الأولية والثانوية .

بعد ذلك التحق (بكلية الصيدلة ـ جامعة اليسوعيين ـ بيروت) وقد درس فيها لمدة أربع سنوات حتى حصل على دبلومة الصيدلة فى ٢٦ يونيو ١٩٢٦، ولم يكتف بها بل أكمل مسيرته فى (جامعة ليون ـ فرنسا) وحصل منها على دبلومة الهندسة الكيميائية فى يوليو ١٩٢٨ .

ثم رجع «قنواتى» إلى الإسكندرية ، وظل يعمل فى معمل تحاليل هناك لمدة ست سنوات وذلك حتى عام ١٩٣٤ ، وفى العام نفسه التحق برهبانية الآباء الدومينيكان فى باريس، وذلك حتى أصبح كاهناً فى عام ١٩٣٩.

ومن خلال هذا الاتجاه درس علم اللاهوت ، وحصل على الدكتوراه فيه سنة ١٩٤١ من جامعة الدومينيكان، وفى عام ١٩٤٢ سافر إلى الجزائر، والتحق بمعهد الدراسات الشرقية ، ومن هناك حصل على «ليسانس الآداب» ـ قسم اللغة العربية، وذلك سنة ١٩٤٤ ، وقد عاد إلى القاهرة فى العام نفسه، وعقب عودته التحق بالمعهد الفرنسى للآثار الشرقية. ولشغف «قنواتى» الشديد بالدراسة والعلم وعلى وجه الخصوص الفلسفة ∴ سافر إلى كندا ، وحصل من هناك على الدكتوراه فيها سنة ١٩٥٠ من جامعة مونتريال .

١ ـ ٣ حياته .. درجاته العلمية :

لقد جمع «قنواتى» بين الثقافة العلمية والثقافة الفكرية الدينية ـ الميتافيزيقية.. مما جعله يحتل فى تاريخنا الفكرى والثقافى والعلمى مكانة رفيعة جدا. فقد كان «قنواتى» يجيد عدداً من اللغات مثل «اللاتينية ـ الفرنسية ـ الإنجليزية ـ الألمانية ـ الإيطالية ـ الفارسية بالإضافة إلى العربية بنحوها وبلاغتها ... وبسبب إدراكه لكل هذه اللغات جعلت أمامه طريق المعرفة ممهدا لقراءة أمهات الكتب والمعاجم فى شتى المجالات الثقافية . ورغم ذلك فقد كان بعيداً عن الأضواء والشهرة .. إلا أنه كان يحظى بشهرة واسعة فى العالم كله ، خصوصًا أنه كان على صله مستمرة بأكبر الهيئات العلمية العالمية الكبرى ، ولذلك كان حريصًا على حضور المؤتمرات التى تقيمها تلك الهيئات فى كل مدن العالم وأرجائه ، مما جعله يعطى حقًا أعظم

صورة مشرقة لمصر أمام العالم كله . ولم يكن «قنواتي» صاحب دكتوراه في اللاهوت والفلسفة فقط ، ولكن بسبب شهرته الأكاديمية منحته جامعة لوڤان في بلجيكا سنة ١٩٧٧ ، وأيضًا الجامعة الكاثوليكية في واشنطن سنة ١٩٨٤ درجة (الدكتوراه الفخرية) ...

ولا يفوتنا أن نذكر هنا أن «الأب «قنواتي» هو أول كاتب عربي ينال جائزة نادى البحر الأبيض المتوسط في باليرمو بإيطاليا سنة ١٩٨٣ .

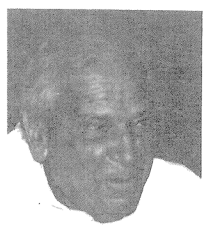
٢ ـ ١ مكانته الدولية :

وقد كان «قنواتي» يملك مكانة فكرية رفيعة مما أهله ليكون عضوا في عدد من الهيئات الكبرى المحلية والدولية ، وعلى سبيل المثال لا الحصر :

- لجنة الفلسفة والاجتماع بالمجلس الأعلى للثقافة.
- لجنة «ابن سينا» .
- اللجنة الدولية لنشر مؤلفات «ابن رشد» .
- المجمع العلمي المصرى .
- المجمع الدولي للدراسات الفلسفية بجامعة لوڤان ـ بلجيكا .
- المجلس البابوى للحوار المسيحي ـ الإسلامي .

ولقد اكتسب «قنواتي» شهرة فلسفية دولية دعمتها نشاطاته المتواصلة ، ومشاركته المستمرة في المؤتمرات العالمية ، مما جعل له علاقات وطيدة بأبرز المشتغلين بالفلسفة في جامعات أوروبا وأمريكا .

وقد توج «قنواتي» عضوياته الدولية بأن أصبح أول عربي يُعيَّن في (المجلس البابوى للثقافة) ، والذي يضم ٢٢ مفكراً من كبار مفكرى العالم ...



فإنه حقًا أستاذ من جيل كبار الأساتذة ، وفيلسوف من جيل كبار الفلاسفة ...

٢ ـ ٢ إسهاماته الفكرية ١ :

وبسبب مكانة «قنواتي» العلمية نجد أن كثيرا من أشهر جامعات العالم قد طلبته ليحاضر فيها ، فقد عمل كأستاذ زائر في :

- جامعة مونتريال ـ كندا سنة ٥٠، ٥٢ ، ٥٤، ١٩٥٦ .
- جامعة لوڤان ـ بلجيكا سنة ١٩٥٩ .
- معهد الدراسات العليا العربية ـ القاهرة سنة ١٩٦١ .
- ـ وقد قام بتدريس تاريخ الصيدلة في جامعة الإسكندرية منذ سنة ١٩٥٥ .

بالإضافة إلى ذلك فقد أعطى محاضرات في كثير من الجامعات والمعاهد الكبرى .. مثل :

- المعهد العربى الأسباني والمعهد المصرى بمدريد في فبراير ٥٦و أكتوبر ٥٧ .
- معهد الدراسات الإسلامية بمدريد ـ أسبانيا سنة ١٩٦٢ .
- جامعة سان توماز و ـ روما سنة ٦٣، ١٩٦٤ (عن الفلسفة العربية والإسلامية) .
- طولوز ـ تونس ـ المغرب ـ الرباط .. سنة ١٩٦٤ .
- جامعة أوربانيانا سنة ١٩٦٤ (عن الإسلاميات) .

وقد شارك «قنواتي» في كثير من البعثات والمؤتمرات العلمية والأكاديمية ، وعلى سبيل المثال لا الحصر نذكر الآتي:

- أرسلته (الإداره الثقافية لجامعة الدول العربية) في بعثة علمية لتحقيق مخطوطات ابن سينا سنة ١٩٤٩ لاسطنبول ـ تركيا ، وأيضًا في بعثتها لطهران ـ إيران سنة ١٩٥٤ .
- شارك في مؤتمر المستشرقين بتركيا سنة ٥١ ، وفي ميونيخ سنة ١٩٥٧ .
- في مارس ١٩٥٣ شارك في مؤتمر بن سينا في بغداد ، وفي أبريل من العام نفسه شارك في مؤتمر الصيادلة العرب بالقاهرة .
- شارك في مؤتمر تاريخ الأديان بروما سنة ١٩٥٥ .
- وفي سنة ١٩٥٨ حضر أيام الدراسات بقرية تومليلين بمراكش ـ المغرب ، وشارك أيضا في المؤتمر الدولي لفلسفة القرون الوسطى بلوڤان ـ بلجيكا ، وفي العام نفسه أيضا شارك في المؤتمر الفلسفي الدولي بڤينيسيا .
- شارك في المحادثات الفلسفية العربية سنة ١٩٥٩ في كولونيا ـ ألمانيا .
- وفي فبراير ١٩٦٠ شارك في مؤتمر الصيادلة العرب.
- وفي مايو ١٩٦١ شارك في محادثات الفلاسفة العرب في بيروت .

- وفى مايو ١٩٦٢ شارك فى مؤتمر الدراسات العربية بقرطبة - أسبانيا ، وألقى أيضا عددا من المحاضرات فى معهد الدراسات الإسلامية بالعاصمة الأسبانية مدريد .

- وفى يوليو ١٩٦٤ شارك فى مؤتمر فلسفة القرون الوسطى .

٢ - ٣ آراؤه .. أفكاره :

كان «قنواتى» يعتز جداً بأفكار أرسطو، وكان يفضل ابن سينا على ابن رشد فى بعض جوانب علمه وفلسفته، وكان يرى أن أبا بكر الرازى أفضل أطباء العرب على وجه الإطلاق وكأن يعتبره أعظم من ابن سينا ...

لذلك فقد اهتم «قنواتى» بأرسطو وأبى بكر الرازى من العصر القديم، وبالقديس توما الأكوينى فى العصر الوسيط، وبالدكتور طه حسين و يوسف كرم حديثاً.

ولقد دعا «قنواتى» للحوار بين الأديان واهتم بالتنويه على أن الحضارة الإسلامية العظيمة تتسع للجميع وقد قامت على المسلمين والمسيحيين معاً.

وقد دعا أيضًا إلى الانفتاح على الثقافات الأخرى والاستفادة من أفكار الآخرين ... فقد كان يعتقد أن الغزو الفكرى أسطورة كبرى !!!.. وأنه لا خوف على ثقافتنا العربية ولا على شخصيتنا العربية من الانفتاح على ثقافات الأمم الأخرى.

وبسبب شغف «قنواتى» الكبير بالفلسفة .. قدم لها الكثير والكثير وعلى الأخص للفلسفة المقارنة، وقد كان يهتم اهتمامًا خاصًا بالحضارة الإسلامية وفلسفتها ، لذلك فقد شارك بكتابة الفصل الخاص بالفلسفة وعلم الكلام والتصوف فى موسوعة تراث الإسلام.

وقد شارك أيضا فى أبحاث وتحقيقات حول الفارابى والسهروردى وغيرهما من أعلام الفلسفة الإسلامية، فضلا عن قضايا هذه الفلسفة ومسائلها الميتافيزيقية وعلاقاتها الفكرية والتاريخية بالفلسفة القديمة من جهة والفلسفة المسيحية الوسيطة من جهة أخرى .

٣ - ١ إسهاماته الفكرية ٢ :

شارك «قنواتى» فى تأسيس معهد الدراسات الشرقية بالقاهرة ، وأصبح مديراً له منذ عام ١٩٥٣ ، وأيضًا رئيس تحرير مجلته MIDEO وذلك حتى رحيله. وعلى مر حياته الفكرية شارك كبار المستشرقين المتخصصين فى الفلسفة ، ومن أهمهم لويس جارديه فى المجلد الضخم : (فلسفة الفكر الدينى بين المسيحية والإسلام) .

وقد شارك أيضًا لويس جارديه فى إعداد كتاب : (المدخل إلى علم الكلام).

وذلك بالإضافة إلى مشاركته فى معجم (أعلام الفكر الإنسانى)، وأيضا فى مجلد عن يوسف كرم.. وأيضًا فى الكتاب الأخير الذى صدر عن المجلس الأعلى للثقافة عن ابن رشد .

وهكذا ساهم «قنواتى» فى كثير من المجالات العلمية سواء بمشاركته الدائمة للمؤتمرات الفلسفية على مستوى العالم، أو من خلال مناقشته للرسائل العلمية الفلسفية فى الجامعات المصرية .

وقد رحل عنا «قنواتى» وتوقفت مسيرته العلمية والأكاديمية بعد محصلة معرفية (ثقافية) بلغت ستة وعشرين كتاباً باللغتين الفرنسية والعربية ، ومائتين وثمانين مقالة باللغتين نفسهما وفى مجلات مختلفة محلية وعالمية... على أن الموت لم يمهله أن ينتهى من عمله الموسوعى الضخم : (علم الكلام)

وهو مجلد كبير بلغ عدد صفحاته حوالى ٨٠٠ صفحة تقريبًا كما أنه شارك فى دائرة المعارف اللاهوتية والتى سوف تصدر قريباً فى إيطاليا .

٣-٢ خاتمة :

وهكذا رحل «قنواتى» بعد رحلة فكرية وثقافية طويلة - تبدأ يوميًا من السادسة صباحًا وتنتهى تقريبًا فى الثانية بعد منتصف الليل ، وبعد حوالى أربع عشرة ساعة من البحث والتأمل .. والقراءة والكتابة .... رحلة قاربت الستين عاماً ، وبعد حياة شارفت على التسعين عامًا ، وذلك يوم الجمعة ١٩٩٤/١/٢٨ .. ذلك العالم الجليل والمفكر البارز الذى امتزج بتراب وطنه وعروبته .. فرفع اسم مصر عالياً فى شتى أنحاء العالم.

فقد كان حقًا صاحب ضمير إنسانى يقظ ، مما جعله شعلة نشاط ومركز إشعاع ثقافى وعلمى لمن هم حوله ، فحقاً تحية احترام.. تقدير .. حب واعتزاز .. للراهب الدومينيكانى .. المصرى العربى ..الفيلسوف .. الأب الدكتور / چورج شحاته قنواتى .

عاشق الحضارة الإسلامية ■

مؤلفات چورج قنواتى :

ساهم الأب / قنواتى بكثير من الكتب للمكتبة العربية ، وقد ساعد على إثراء الفكر العربى بكثير من إسهاماته الفكرية ..

وهاهى قائمة بمؤلفاته مقسمة على أساس ثلاث مجموعات متنوعة ، ومرتبة حسب صدورها تاريخياً..

* **المجموعة الأولى : (الكتب الخاصة به) .**

١- «الكنيسة الحية»، دار السلام - القاهرة ١٩٤٩ ، ٧٢ص.

٢- مؤلفات ابن سينا «قائمة ببليوجرافية»، دار المعارف - القاهرة ١٩٥٠ ، ٤٥٠ ص عربى- ٢٠ ص فرنسى ، (بتكليف من الإدارة الثقافية لجامعة الدول العربية).

٣- الترجمة الفرنسية لـ « De causis »، المجمع العلمى لدراسات القرون الوسطى، مونتريال ١٩٥٢.

٤- «ابن سينا ، الشفاء . الميتافيزيقا (الإلهيات)» ، ترجمة فرنسية ، المجمع العلمى لدراسات القرون الوسطى ، مونتريال ٥٣-١٩٥٥ ، ٣٢٠ ص.

٥- «دموع إبليس» .. ترجمة فرنسية لـ فتحى رضوان ، طبعة مجلة القاهرة ١٩٥٧ ، ١٢٥ ص .

٦- «تاريخ الصيدلة والعقاقير فى العهد القديم والعصر الوسيط» ، دار المعارف - القاهرة ١٩٥٩ ، ٢٠٩ ص عربى، ٦ص فرنسى .

٧- «دراسات فلسفية إسلامية» ، المكتبة الفلسفية - باريس ١٩٧٤ . ٤٣٢ ص فرنسى .

٨- «قائمة ببليو جرافية عن ابن رشد»، الجزائر ١٩٧٨ ، ٤٣٠ص.

٩- «الميتافيزيقا فى الشفاء ، (مقدمة .. ترجمة وملاحظات)»، الجزء الأول - باريس ١٩٧٨ ، ٣٧٩ ص فرنسى .

١٠- Tendances et courants de l'Islam arabe contemporain. Vol. I: Égypte (Kaiser Grünewald, München 1982, 160 p.)

١١- «الميتافيزيقا فى الشفاء ، (مقدمة .. ترجمة وتعليق)»، الجزء الثانى - باريس ١٩٨٥ ، ٢٣٨ ص فرنسى .

١٢- «المسيحية والحضارة العربية»..

الطبعة الأولى : المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت ١٩٨٦ . ٢٧٦ ص .

الطبعة الثانية : (مزيدة ومنقحة) دار الثقافة - القاهرة ١٩٩٢ ، ٤٠٨ ص.

*** المجموعة الثانية : (بالاشتراك مع آخرين) .**

١٣- «مقدمة فى علم الكلام الإسلامى» (علم اللاهوت المقارن) «بالاشتراك مع لويس جارديه .. وقدم له المستشرق/ ماسينيون» ، المكتبة الفلسفية . باريس ١٩٤٨ ، ٥٤٣ ص فرنسى .

الترجمة العربية : «فلسفة الفكر الدينى بين الإسلام والمسيحية»، فى ٣ أجزاء، دار العلم للملايين - بيروت ٦٧-١٩٦٩ ، ٣٨٠ ص ، ٤٤٨ ص، ٤٦٤ ص.

قام بها : فريد جبر وصبحى صالح .

١٤- «ببليوجرافيا المؤلفات العربية المطبوعة فى مصر ٤٢-٤٣-١٩٤٤»، بالاشتراك مع تشارلز كوينتز ، القاهرة ١٩٤٩ ، ٦١٣ ص، ٤٧ ص.

١٥- «كتاب (النفس) ل. أرسطوطاليس»، بالاشتراك مع فؤاد الأهوانى ، (ترجمة ومقدمة وملاحظات) ، القاهرة ١٩٤٩ ، ١٦١ ص.

١٦- «جوهرة التوحيد ، (شعر)» ، بالاشتراك مع لويس جارديه ، تونس ١٩٥٠ ، ٦٦٩ ص.

١٧- «كتالوج الكتب العربية المطبوعة» ، القاهرة ١٩٦٠ ، ١٤٤ ص.

١٨- (avec LOUIS GARDET): Mistica islamia. Aspetti e tendenze. Esperienze e tecnica (trad. dal francese di N. M. LOSS. Coll. «Storia e Scienza delle Religioni». Società Editrice Internazionale, Torino 1960, XII + 325p.)

١٨ أ- Original français de la version italienne ci-dessus: Mystique musulmane. Aspects et tendances. Expériences et techniques (Tome VIII de la Coll. «Études Musulmanes». Librairie Philosophique J. Vrin, Paris 1961, 310 pages)

١٩- «تاريخ الصيدلة عند العرب»، بالاشتراك مع حفنى صابر وعبد الحليم منتصر ، اليونسكو - القاهرة ١٩٧٦ ، ٢٠١ ص.

٢٠- (avec P. GHALIOUNGUI): Medical Manuscripts of Averroes at El Escorial, translated with an Introduction and Commentaries from the critical text established by G.CANAWATI. and S. ZAYED (Al-Ahram Center for Scientific Translations, Cairo 1986, 500 p.)

*** المجموعة الثالثة : (بالاشتراك مع آخرين فى تحقيق النصوص القديمة) .**

٢١- «ابن سينا (الشفاء ، المنطق)» ، بالتعاون مع محمود الخضيرى و فؤاد الأهوانى ، القاهرة ١٩٥٢ ، ٤٥ص فرنسى، ٧٧ص مقدمات ، ١٥٩ ص نصوص النقد ، تمهيد طه حسين ، مقدمة عامة للشفاء ومقدمة خاصة للمدخل د / إبراهيم مدكور .

٢٢- «ابن سينا (الشفاء ، المنطق) ٢» ، بالتعاون مع محمود الخضيرى وفؤاد الأهوانى وسيد زايد، القاهرة ١٩٥٩ ، ٢٨٠ ص، مقدمة / إبراهيم مدكور .

٢٣- «أبن سينا (الشفاء ، الإلهيات)» ، بالتعاون مع سيد زايد ، القاهرة ١٩٦٠ ، ٢٨٥ ص ، طبعة نقدية للنص العربى ، مقدمة إبراهيم مدكور .

٢٤- «المغنى فى أبواب التوحيد والعدل - الإرادة» ، بالتعاون مع عبد الجبار ، وزارة الثقافة والإرشاد - القاهرة ١٩٦٣ ، ٣٥٦ ص.

٢٥- «ابن سينا (الشفاء ، الطبيات) كتاب النفس» ، طبعة نقدية للنص العربى ، بالتعاون مع سيد زايد ، القاهرة ١٩٧٥ ، ٣١٩ ص.

٢٦- «رسائل ابن رشد الطبية»، بالتعاون مع سيد زايد، هيئة الكتاب - القاهرة ١٩٨٧ ، ٤٥٣ ص.

---

* من المصادر الحيه الحيه التى ساعدتنا كثيراً فى عمل هذا الملف [وعلى الأخص البيوجرافيا ، والنصوص التى لم تنشر من قبل] هو الأب .

ريجيس مورلون.
«مدير معهد الدراسات الشرقية بعد الأب / قنواتى» . والذى لولاه لما حصلنا على جزء كبير من تلك الماده .. فلا تكفى الكلمات للشكر والثناء على جهد ..



يوجين يونسكو

عبد المنعم سليم

فكأنما الكاتب المسرحي الكبير يوجين يونسكو كان يتنبأ بموته، وذلك عندما أدلى بحديث في فبراير الماضي لجريدة الفيجارو الفرنسية، وتكلّم عن الشيخوخة التي كان قد اقترب منها بشكل واضح. في هذا الحديث قال يونسكو: في سن الشيخوخة هذه التي أمر بها ليس مفروضا أن تنتظر أي تحسن فيما يتعلق بالصحة. حتى لو وصف لنا الأطباء كثيراً من الأقراص والحبوب والحقن والعقاقير. إن ذلك كله لايجدى نفعا.. ذلك أن الحالة الصحية ـ برغم ذلك كله ـ تزداد سوءاً يوما بعد يوم. ويجب عليّ أن أقرر أن هناك أناسا كثيرين يصنعهم ماضيهم، وفيما يتعلق بي فإنني أشعر أن ماضيّ قد انفصل عنى تماما.. ولم يعد ينتسب إليّ.. ومع ذلك فإنني أنا الذى كتبت مسرحية «المغنية الصلعاء» ومسرحية «الكراسي».. وأنا الرجل الذى له زوجة اسمها ربيكا وابنة اسمها مارى ـ فرانس. لكن الماضي (الذى كان) لايمت بأى صلة إلى ذاتي.. ذلك أن الذى يعيش الحاضر، فإن هذا الحاضر يلتهم كل شيء بما في ذلك الماضي.

ويستمر يونسكو قائلا: الساعة الزمنية ليست هي نفسها الساعة الزمنية بالنسبة لكل الناس.. ذلك أن هناك إدراكات حسية للزمن.. فالساعة يمكن أن تكون أحيانا عشرين دقيقة أو أقل ويمكن أن تكون أيضا أكثر من ساعة.

ليس هناك زمن موضوعي يمكن القياس عليه، أو بمعنى أصح ليس هناك إدراك موضوعي للزمن.. فحين أصاب بالضجر، وهو ما يحدث في غالب الوقت، فإن الزمن يطول بشكل مرعب زمن يمر، هناك زمن لا يمر أبداً. الانتظار حتى لو استمر عشر دقائق فقط فإنه يكون أطول من ساعة لا نشعر خلالها بالضجر.

ثم تكلم يونسكو عن الشيوخ وعن العجائز، فقال: إن الشيوخ يتعرضون كثيرًا للأذى، أما العجائز فهن ساحرات إن كل اهتمامهن ينصب على الأعمال الشريرة. هذا هو الاتهام الذى يوجه إليهن، ولكننى أستطيع أن أعلق على ذلك بقولي: يا للعجائز المسكينات. نحن لا

نبرأ من الشيخوخة تماما كما نبرأ من نزلة برد.. وإذا مابرئنا من مرض ما، فإننا برغم ذلك نكون فى غاية التأكد من أن الشيخوخة سوف تواصل تخريبها لأرواحنا وأجسادنا، وإننى أتذكر أننى منذ أن ولدت كان هذا الصراع بين الروح والجسد، وكان الخوف والتعجب يستوليان علىّ لأننى كنت دائما أتساءل: من الأقوى؟..

الآن، فى سنى هذه، وفى هذا الوقت بالذات، أستطيع أن أقول إن الأقوى ليس شيئًا من هذا كله. ثم يقرر: الأقوى هو الخوف، ويقول: إن الشىء الوحيد الذى يدهشنى هو: الألم. لماذا نتألم إلى هذا الحد إذا كنا مؤمنين؟!.. هذا الألم هو الذى يحيرنى.

إننى أعيش بين الدهشة والخوف.. بين التعجب والرعب بالأمس، وقبل الأمس، واليوم - وربما غداً - تقول لى زوجتى: إننى أحبك أكثر مما يظن الناس،وإذا مت فإننى أريد أن أموت معك، فقلت لها إننى سوف أرحل أولا.. لأننى لم أعد أشعر بالرغبة فى الحياة.. انظرى إلى اليدين.. الأصابع.. القدمين.. الساقين.. كل شىء فى جسدى يسبب لى مشكلة لاتُحلّ إلا بصعوبة. وكأنما يونسكو لايريد أن يتخلى عن عبثه، فيقول: إن أهم شىء فعلته فى حياتى هو أننى طعنت فى السن.. هو أننى شخت. ومات بعدها أستاذ مسرح العبث طوال الخمسين سنة الأخيرة، وكان التاريخ ٢٨ مارس سنة ١٩٩٤.

وكان موته خبراً مهما فى كبريات الصحف العالمية، وفى الإذاعات، والتليفزيونات، وأفردت مجلات متخصصة كثيرة مثل مجلات: المسرح فى بريطانيا وأمريكا وفرنسا وألمانيا... إلخ صفحات كثيرة عن المسرحى الكبير.. وحركة العبث فى المسرح التى رفع لواءها يونسكو فى أواخر الأربعينيات وأوائل الخمسينيات واستقرت بعد ذلك إلى الآن.

الناقد (ريتشارد كو [1]) يكتب: يقول يونسكو إن تعبير (المسرح الواقعى) يناقض نفسه، فالمسرح فى ذاته عملية إيحاء فنى، والمسرح الواقعى مبنى على مهارة الكاتب فى أن يوحى للجمهور بأن مايراه أمامه هو من واقع حياته، ولكن يونسكو يرى أن المسرح الواقعى يحدد نفسه بالواقع الخارجى للحياة، وهو يعتقد أن هذا الواقع ليس إلا جزءاً محدوداً جداً من واقع الإنسان.. بل إنه تشويه كبير لهذا الواقع.. لأنه يركز على الجزء غير المهم من الحياة ويترك الجزء الأهم.

يقول يونسكو: إن الواقعية لا تستطيع أن تضم الواقع كله. إنها تخضعه لعملية انكماش.. تهذبه وتقدمه فى صورة كاذبة. إن الواقعية لاتدخل فى اعتبارها الحقائق الأساسية فى حياة الإنسان. إن الحقيقة تكمن فى أحلامنا وخيالنا..

معنى هذا أن الحقيقة الأساسية هى أحاسيس الإنسان الداخلية.. هى واقعه النفسى وليس مايحيط به من حياة مادية ملموسة.

ويجب أن نقرر هنا - والكلام للناقد الإنجليزى - أن يونسكو لم يكن يقف هذا الموقف من الواقع الخارجى وحده، بل كان يشاركه فى هذا الموقف كل أصحاب مدارس النحت والتصوير والرسم الحديث. أن الفن الحديث ومدارسه المختلفة تبحث عن الحقيقة الدفينة التى تكمن وراء الحقيقة الظاهرة..لذلك نجد فى مسرح يونسكو كثيراً من خصائص المدرسة السيريالية، وأهمها الاعتماد على الأحلام كنقطة بدء لعمله، ولكنه يرفض أن يقبل غموض الحلم وفوضى الشكل الناتج عنه، فهو يريد **الوضوح** بجانب حقيقة الحلم.

إذن فقد ثار يونسكو على المسرح الواقعى كما ثار أيضا على التمثيل الواقعى، وما كان ينشده فى بحثه عن المسرح الجديد.. مسرح يستطيع من خلاله أن يتخطى الحقيقة المادية، وأن يعبر عن الحقيقة الكبرى التى تكمن وراء الحقيقة الظاهرة: حقيقة النفس البشرية.. حقيقة الأحلام.. حيث لا منطق ولا عقل.

ونتيجة لهذا المفهوم للإنسان وللحياة أخذ المسرح الجديد صفات معينة، وبدأ يونسكو خطواته. كيف؟

يرد الناقد: إزاء فقدان المنطق يصبح العالم عبارة عن ظواهر متتابعة لاصلة بينها «عالم من المصادفات التى لا تنتهى» وفى مثل هذا العالم لانجد معنى للتجربة. إن أية ظاهرة يمكن أن تعلل بآلاف الأسباب. كل شىء جائز. إذن كل شىء جديد، أى لم يحدث مثله من قبل. إن قراءة الجريدة اليومية حدث تحوطه كل الغرابة وكأنه تفتت القنبلة الذرية. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى.. مادام لكل شىء هذه الجدة يصبح تحول إنسان إلى حيوان أمام المتفرج حدثا لا يختلف فى جوهره عن قراءة الجريدة اليومية.

وبفقدان مفهوم التجربة تُفقد الذاكرة. وكثير من شخصيات يونسكو تصاب بفقدان الذاكرة.

ولنقرأ هذا الحوار:

الزوج: إنى أسكن فى شقة نمرة ٨ بالدور الخامس.

الزوجة: ياللعجب.. ياللعجب.. ياللمصادفة الغريبة.. أنا أيضا أسكن فى الشقة نمرة ٨ بالدور الخامس.

الزوج: (بتفكير عميق) ياللعجب.. ياللعجب.. ياللعجب.. ياللمصادفة الغريبة.

ويستمر الناقد: ونتيجة حتمية لذلك يبطل المفهوم الكلاسيكي للشخصية، مادامت التجربة لاتتكرر.. إذن فليس لنا موقف من الحياة.. ولامنطق وراء أية شخصية وتصرفاتها. وفى ذلك يقول يونسكو: إن التناقض هو أساس الشخصية. بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك فيقول إنه ليس هناك شيء اسمه الشخصية. إن الفردية تفقد، فنرى الشخص الواحد يلبس شخصيات أخرى فى المسرحية.. فتتغير ملامحه، وقد يصبح أنثى بعد أن كان ذكراً. ويتغير عمله ومركزه الاجتماعى ثم يعود إلى أصله أولا يعود.. مادام ليس هناك منطق.. ومادامت الحقيقة الكبرى هى إحساسى الشخصى فى هذه اللحظة، وفى هذه اللحظة فقط.. فحين أحس أننى ملك أصبح كذلك، وحين أحس أنى متسول أصبح كذلك، وهكذا.. فالفرد ليست له ديمومة.

ويترتب على ذلك أيضًا موقف الكاتب من الزمن. إن عجز الإنسان ليس ثابتا. إن إحدى الشخصيات فى مسرحية (القتلة) تقول: «قد أكون بلغت الستين أو الثانية.. كيف لى أن أعرف.. إن الزمن مسألة شخصية بحتة».

فمادامت اللحظة هى كل شيء.. ليس لها ماض ولا يترتب عليها مستقبل. فقد أصبح الزمن لا وجود له. ويضرب الناقد مثالا لذلك فيقول: فى مسرحية (فى انتظار جودو) لصمويل بيكيت نجد أن الشخصيتين الرئيستين تنتظران (جودو) إلى مالا نهاية. وفى مسرحية المغنية الصلعاء ليونسكو تدق الساعة ٢٩ دقة.

إن الإنسان يخرج بعد قراءة هذه المسرحية وقد سيطر عليه إحساس بوجود كابوس فى العالم الذى نعيش فيه، ذلك أن يونسكو قريب فى مسرحياته من كافكا فى قصصه.

ويستمر الناقد فى الحديث عن مسرح يوجين يونسكو فيقول: ومن أهم مايميز مسرح فلسفة العبث ذلك التفكك اللغوى الذى تكتب به المسرحيات. وهنا يقول يونسكو. إن اللغة لاتستطيع أن تنقل إلينا إلا المعانى المادية.

ويقول أيضا إنه حين بدأ يتعلم اللغة الإنجليزية بدأ عن طريق كتب للمحادثة، وصعق للعبث الذى يقوله الناس فى هذا الكتاب، ولكنه سرعان ماتنبه إلى أن ٩٩٪ من أحاديث الناس لاتخرج عن هذا العبث. لقد ابتذلت اللغة وأصبحت عاجزة تماما عن توصيل شيء من الحقيقة الكامنة.

ثم يقول الناقد المعروف: لو أن فلسفة يونسكو وقفت عند هذا الحد لظل هناك شيء اسمه الحقيقة، وهى الحقيقة النفسية، ولكن يبدو أن يونسكو يريد أن ينكر حتى هذه الحقيقة.. فإذا كان العالم الخارجى حقيقة زائفة، والعالم الداخلى حقيقة كاملة كان هناك شيء يستند إليه الفرد.. ولكن المأساة هى أنه حتى هذه النفس قد تكون زائفة.. ومعنى ذلك أن فلسفة العبث ليس لها قرار.

وهنا يقول يونسكو فى مقال له بعنوان (نقطة البداية):

هناك حالتان من الوعى أبنى حولهما مسرحياتى.. إحداهما إحساس بالفراغ التام، والأخرى إحساس بالوجود الزائد.

ما معنى ذلك؟

معناه أن فى قرار النفس: الفراغ. وفى الحياة الخارجية المادية: الزيادة والفائض. لذلك فإن يوجين أيونسكو لا يجد أى معنى لأى شيء فى الوجود.

ولكن: لماذا يكتب إذن؟

الإجابة: لأن محاولة فهم هذا (اللامعنى) هو العمل الوحيد الذى يحمل معنى.

لذلك فمسرحياته هى الشيء الوحيد الذى يحمل معنى.. لأنه من خلالها يحاول أن يفهم (لامعنى) الوجود.. فالفن - فى رأيه - هو العمل الوحيد الذى يجد فيه الإنسان: معنى. ولا يعنى ذلك أن يهرب من الحياة ويتحاشاها ولكنه يحتج على نوع الحياة التى نحياها.

وهنا يصرح يونسكو: إنى فعلا أشعر أن الحياة كابوس مؤلم لاتحتمل. انظر حولك ترى الحروب والمآسى والكراهية والظلم، والموت يتربص بنا من كل جانب.. إن هذا فظيع.

كانت هذه هى نظرية يونسكو بالنسبة لمسرح العبث الذى كان رائده لسنين طويلة.. ولعله من المناسب أن أنقل إليكم بعض أقوال سبق أن أدلى بها فى الصحف الأدبية الفرنسية والإنجليزية وغيرهما لنتعرف على أبعاد هذه الشخصية الفذة.

فى حديث مع مجلة (الأدب الجديد) الفرنسية سألوه:

● لقد قلت يوما إن الحقيقة وحدها يمكن أن تتحول إلى كابوس.. فماذا تعنى بذلك؟

فأجاب: من وقت لآخر تقوم شخصياتى بالتعبير عن نفسها عن طريق النكتة وبطريقة ضاحكة. أيضا فإنها تقول أشياء سخيفة.. وهذه الشخصيات فى الحقيقة لاتفهم نفسها. هذه الشخصيات بطريقتها السمجة تحاول أن تعّرف نفسها.

إنهم يشبهون تماما أغلبية الناس. إنهم لا يلفظون لآلئ الحكمة في كل وقت يفتحون فيه أفواههم. إنهم أيضا يتناقضون مع ما أفكر فيه أو ما تتناقض معه أفكار الشخصية نفسها. لست أنا الذى أقول: إنها الحقيقة وليست الأحلام التى تتحول إلى كابوس. واحد من شخصياتى هو الذى ذكر هذه الملحوظة. ولذلك فإنك يجب أن تعرف شيئًا عن هذه الشخصية.. أن تعرف ما إذا كانت تقصد بما تقول: هل كانت جادة أم تصطنع النكتة؟.. فى أى وقت قالت ما قالت؟ ولماذا؟.. وماذا تعنى به.. وفوق ذلك: هل هى قادرة بالفعل أن تقول ما تعنيه؟.. يجب أن تسأل شخصياتى نفسها هذا السؤال.. وعندما أطلب منك هذا فإننى أعنى ذلك بالفعل.

● وعلى سؤال آخر من مجلة المسرح أجاب: لماذا ولمن يكتب الفرد؟..

لو كتب شخص ما خطاباً أو ألقى محاضرة أو درسًا أو التماسًا.. إنه يفعل ذلك ليعبر عن أفكاره أو ليعبر عن مشاعر شخص ما.. ليطلب.. ليتعلم.. ليعلم.. ليقنع.. ليحتج.. والهدف من مهنة الكتابة تتحقق خارجها.. الكتابة وسيلة.. إننا نكتب من أجل ولأجل الآخرين.

سؤال: إذن فأنت تهتم بالآخرين؟

جواب: إننى أنا نفسى واحد من الآخرين، ولذلك فإن مشاكلى بالضبط هى مشاكل الآخرين. إننى أتشابه مع الآخر. وسواء أحب الفرد أو كره فإن الفرد فى الوقت نفسه هو الفرد الآخر.. ولكن هذا الآخر لايدرك ذلك.

وجواب آخر عن سؤال: إننى لست أعرف ما إذا كانت الدراما عموما، أو الكوميديا خصوصًا أكثر إلزاما من الموسيقى أو الرسم. الذى أعرفه أنه أكثر صعوبة للمسرح أن يكون مسرحًا.. وهذا يختلف تماما عن الموسيقى. الموسيقى انعكاس مباشر فى حد ذاتها.. ثم إنها دون حدود.. دون زمن.. دون وقت..

سؤال آخر: نظرتك إلى الدنيا كما عرفناها.. ونظرتك إلى الناس وإلى الحياة.. وبالتصور القاتم المضحك.. ألم يدفعك هذا إلى أن تفكر فى أن تترك الكتابة؟

أجاب: أترك الفن؟.. هل أستطيع؟.. بالرغم من تشاؤمى ومزاجى المتقلب.. هل أستطيع ألا أتنفس؟.. الشعر.. الحاجة إلى التصور وإلى الخلق.. شيء أساسى تماما مثل الحاجة إلى التنفس.. أن تتنفس معناه أن تعيش وألا تهرب من الحياة.

● ولكن الحياة هربت من يوجين يونسكو فى مارس الماضى. ولعل الحديث الذى نشر فى جريدة الفيجارو فى فبراير الماضى يؤكد أن نظرته إلى الحياة وإلى الناس وإلى الفن لم تتغير أبداً حتى آخر لحظة من حياته.

عن مسرحياته

ولكن هل يوجين يونسكو هو كل هذا الذى قيل وكتب عنه؟ الإجابة: لا.. ذلك أنه من المستحيل أن تختزل حياة صبغت وجه الحياة المسرحية على مستوى العالم فى صفحات، ولذلك فإننى أحاول أن ألقى أضواء أخرى بشكل أوسع إلى حد ما. بعبارة أخرى: هذه النظرة العامة عن فلسفة يونسكو والتى عرضها بعض النقاد تحتاج إلى بعض التفاصيل، ومن أقواله هو شخصيا عن بعض مسرحياته لنرى إلى أى حد كان النقد كاشفا أو غير كاشف لوجهة نظره.

عن (المغنية الصلعاء) يقول يونسكو، وذلك فى مجلة (Cahiers des Quatre Saisons No 1,1955) إن المغنية الصلعاء واحدة من مسرحياتى التى يعتبر النقاد أنها كوميدية تماما Purely comic. ومع هذا فإن الكوميديا تبدو لى بمثابة تعبير عما هو غير عادى. ولكن من وجهة نظرى فإن غير العادى هذا يمكن أن يقفز فقط من أسخف وأكثر المسائل العادية اليومية الروتينية ومن نثرنا اليومى إذا ماحاولنا أن نلحق بما وراء حدوده. لكى تشعر بالعبثية وبعدم القدرة على احتمال التجارب اليومية ومحاولتنا للتواصل فإن معنى ذلك أنك قد وصلت إلى مدى أبعد.. وقبل أن تفعل ذلك فإنه يجب أولا أن تتشبع أنت نفسك. الكوميديا هى الشيء غير العادى والنقى والبسيط. لاشيء يدهشنى أكثر من الأمور التافهة.

ومن المصدر السابق نفسه يتكلم يونسكو عن مسرحيتى: إميديه وضحايا الواجب فيقول:

هاتان المسرحيتان تعتبران - أكثر مسرحياتى درامية. إن كلا منهما حالة عقلية.. كلمات.. العالم غير السحرى استبدل به أشياء تبدو سحرية استبدلت الكلمات والممتلكات.. فى شقة إميديه ومادلين.. جسد ميت يعانى من مشكلة أن الجسد الميت يتمدد إلى أن يكسر النوافذ ويطيح بالأشياء مما يضطر معه السكان إلى الخروج من البيت. وفى (ضحايا الواجب) عندما تقدم القهوة لشخصيات ثلاث فإننا نجد كومة من الفناجين. الأثاث فى مسرحية (الساكن الجديد) يسد كل سلمة من سلالم العمارة ثم تزحم المسرح، وفى النهاية تطغى على الساكن نفسه الذى يجلس وسط المقاعد والدواليب والمناضد.. الخ لدرجة أنه لم يعد قادرًا على الحركة من مكانه على الإطلاق. لقد أصبح هو نفسه قطعة من الأثاث.

يونسكو: العبث والرجعية والصهيونية

وليد الخشاب

وفى مسرحية (الكراسى) نرى المسرح وقد امتلأ عن آخره بعدد لا حصر له من الكراسى لضيوف غير مرئيين. وفى مسرحية (جاك) أنوف كثيرة تظهر على وجه الفتاة الشابة.

عندما تبلى الكلمات فإن معنى ذلك أن العقل قد تمزق . العالم محمّل بمسائل فى فراغ الحاضر: مسائل كثيرة مرتبطة بمسائل غير كافية، والأشياء هى ترجمة لمادية الوحدة.. لانتصار القوى التى ضد الروح.. لكل الأشياء التى تناضل ضدها، ولكن فى المواقف المعلقه فإننى لا أتوقف عن الصراع، وإذا ماحدث، وآمل، إن استطعت بالرغم من العذاب أن أدخل فى هذا العذاب شيئًا من الفكاهة.. تلك الفكاهة التى هى علامة من علامات وجود الآخر فإن هذه الفكاهة هى ما أبغيه. إنها ارتياحى وخلاصى.

هذا وليست لدى أى نية لأن أحكم على مسرحياتى. ليس هذا هو عملى، وكل ما أحاوله الآن هو أن أقدم بعض التلميحات ■

قبل رحيل يوجين يونسكو عن عالمنا، فى نهاية مارس الماضى، يكتمل اختفاء مثلث مسرح العبث الشهير: بيكيت، أداموف، يونسكو. إذ يعتبر ثلاثتهم طلائع ما سمى فى حينه «بالمسرح الجديد» أو «بمدرسة باريس ١٩٥٠»، حيث ظهرت أولى مسرحياتهم فى ذلك العام بباريس لتكون علامة فارقة فى تاريخ المسرح الغربى، وإيذانا بميلاد تيار متباين، بتميز أساسًا بالقطيعة مع المسرح التقليدى السابق عليه، واصطلح على تسمية المولود الجديد «بمسرح العبث».

بعد رحيل يونسكو، أفاض العديد من الكتاب فى الحديث عنه والإشادة به، فى مصر كما فى فرنسا والعالم كله. واتسمت الكتابة عنه فى مصر، باستدعاء بعض الخطوط العريضة لمسرحه، مع الإشادة بإسهامه المجدد(١)

من جانبنا، سنحاول إلقاء الضوء على جوانب أخرى من كتابات يونسكو وإبداعه، مركزين على فكره وخلفية إنتاجه الشخصية والسياسية. هذا إذن مقال عن فكر يونسكو، لاعن مسرحه وتقنيته، نتصور أنه يسهم فى استكمال صورة عالم أحد أعلام المسرح فى القرن العشرين، وفى فهم إنتاجه الفنى وفى رفع ما قد يلتبس فى هذا الخصوص.

التجديد فى المسرح

كان يونسكو مجددًا فى مسرحه على مستوى التقنية، لاسيما فى المرحلة الأولى من إبداعه، حتى منتصف الخمسينيات وصاحب ذلك التجديد إثارة قضايا لم تكن مطروحة من قبل على المسرح. نقد يونسكو بنية المسرحية التقليدية وبناء الشخصية النفسى الواقعى، وقدم مسرحًا يعتمد على الإيقاع والتأثير بالصورة واللفظ لا بأحداث منطقية متسلسلة أو متصاعدة، إذاستبدل بتصاعد الإيقاع تصاعد الحدث، وقدم منطقا

(١) من كتاب Ionesco. By Richard ـ من سلسلة Writers And Critics, London 1961.

مزعجًالأنه أكثر صراحة من المنطق المتعارف عليه اجتماعيًا، قدم منطقًا عبثيًا لأنه يعرى العنف والقهر والسيطرة ويكشف عبثية البواعث عليها ولا جدوى للهرب من وطأتها.

فى مسرحية «الدرس» مثلا، نجد أستاذًا يلقى درسًا غريبًا على تلميذته، ويصمم على تلقينها إياه، لأن همه هو الطاعة لا الفهم، فحين ترفض التلميذة استيعاب الدرس، يغتصبها الأستاذ ويقتلها. وفى مسرحية «ضحايا الواجب»، يتعرض شخص للتعذيب ليعترف بصلته بأسرة لا يعرفها. ثم يتدخل شخص لا ندرى من أين جاء ليخلصه، ثم يتولى تعذيبه بنفسه. بمثل هذه الخيوط البسيطة، يكشف يونسكوعن أن القهر لا منطق له (وكذلك العالم)، كما أنه لا فكاك منه. ويسهم الإيقاع فى التعبير عن تصاعد يشبه طوقا يضيق خناقه على عنق البطل، أو فعلا جنسيًا ينتهى بالغلمة، على حد تشبيه جان هيرفيه دونار[٢] واصفاً إيقاع «الدرس».

غداة الحرب العالمية الثانية، ظهرت خرائط جديدة للعالم وللمجتمعات على الأنقاض. كذلك ظهرت خريطة للمسرح، ساهم يونسكو فى وضعها، طارحًا بقوة تساؤلات حول (لا) جدوى العنف والقهر (الفاشى/النازى) الذى تسبب فى اندلاع الحرب، وعن اللغة والمنطق (اللذين استخدمهما الجميع لتبرير الصراع والتدمير وليثبت بهما كل طرف أنه على حق) وعن الموت الذى فرض نفسه كحقيقة أولى فى الحرب قدر ضحاياها بالملايين (ما جدوى الحياة؟ ما الذى يستحق أن نموت من أجله؟).

كثيرا ماتناول النقاد مسرح يونسكو، ومسرح العبث عمومًا، من الزاوية الميتافيزيقية المجردة، زاوية التساؤل عن معنى الحياة وجدواها. لكن الحقيقة أن مسرح يونسكو تحديداً يتضمن أبعاداً اجتماعية وسياسية، مرتبطة بظروف إنتاجه، وهى أبعاد أشد وضوحاً منها لدى بيكيت مثلا.

عادة ما يكون الموت عند يونسكو نتيجة لأشكال مختلفة من القهر: قهر الأستاذ الفكرى للتلميذة فى «الدرس» أوالقهر البوليسى الذى يمارسه المفتش وهو يحقق مع شوبير فى «ضحايا الواجب» أو قهر المجتمع للفرد مثلما فى «جاك أو الخضوع» حيث يضطر جاك لأن يقر بحبه للبطاطس بشحم الخنزير، بناءً على إلحاح الأسرة، ثم يضطر للزواج كما تفرضه تقاليد الأسرة. وقد يكون القهر ممثلا فى تراكم المادة الذى يخنق البشر ويجعلهم آلات مستهلكة، مثل تراكم البيض على المسرح فى «المستقبل فى البيض» الذى يشبه تراكم السلع الذى تسبب فى اقتتال الرأسماليات الكبرى فى ١٩٣٩، بحثاً عن السيطرة على الأسواق، لتصريف منتجاتها.[٣]

بين اليمين واليسار

كان يونسكو يدعى فى حواراته وكتاباته أنه يبتغى مسرحًا غير مسيس[٤]. إلا أن مسرحه كان يتضمن دائما إشارات سياسية واجتماعية عديدة. ورغم أنه كان يعنى بأن تكون مسرحياته عامة، بحيث تهاجم القهر والتسلط عموما، على سبيل المثال، دون الإغراق فى تحديد المسميات، إلا إن شروحه ومواقفه ومقالاته تكشف لنا مقاصده ومواقفه وتحددلنا مدلولها فى سياقها التاريخى وترفع اللبس الذى طالما تسببت فيه بعض الإشارات، لاسيما الإشارات التأريخية المدسوسة فى مسرحيات يونسكو.

فى بريطانيا بالذات، دافع نقاد اليسار عن يونسكو ورأوا فيه ناقدًالاذعًا للبورجوازية التى تمضى وقتها فى ثرثرة فارغة (مثلما فى «المغنية الصلعاء») أو فى تلفيق زيجات المصالح (مثلما فى «جاك») ورأوا فيه مهاجماً لطغيان الفاشية (مثلما فى «الدرس» حيث يخرج المدرس فى النهاية صليبا معقوفا) أو لطغيان الدولة البوليسية (مثلما فى «ضحايا الواجب» بل إن الجلاد الأخير فى المسرحية يحمل اسم «نيقولا الثانى» آخر القياصرة الروس الذى أطاحت به الثورة البلشفية).

ثم فتر حماس بعض نقاد اليسار تجاه يونسكو.بل وهاجموه عندما اكتشفوا أنه لا يقف معهم فى الخندق نفسه.[٥] واشتدت الخصومة على وجه الخصوص، بين أنصار المسرح «التعليمى» «والبريختى» وبين يونسكو[٦] وقد اتضحت الهوة الفاصلة بين الموقفين، بعد ظهور مسرحية «أميدية» التى تحكى موت حب بين زوجين، دون اهتمامات سياسية. هنا كشر يونسكو عن أنيابه، وبدأ المعارك الأدبية التى كان يجيدها، وأعلن أنه لا يكتب مسرحًا ليوصل به رسالة ما، كالرسالة الاجتماعية والسياسية لمسرح بريخت، ولكن ليعبر عن نفسه بصدق. وقد «مسخر» يونسكو نقاده البريختيين فى مسرحية «ارتجالية الألما» حيث صورهم على أنهم عقائديون يحاولون تعليم المؤلف كيف يبدع، مسترشدين بكتابات «بريخت»، التى يتعاملون معها على أنها كتاب مقدس[٧].

الواقع أن هذه المعركة التى دارت فى منتصف الخمسينيات، تأتى فى إطار المعركة الأدبية والفكرية التى احتدمت غداة الحرب العالمية الثانية، واتخذت شكلا تبسيطيًا مخلا، بين أنصار الفن الملتزم (بقضايا المجتمع) وبين أنصار الفن للفن، يصنف فيه الطرف الأول على أنه تقدمى يسارى والثانى على أنه رجعى يمينى. كان لتلك المعركة جوانب تبسيطية، تعكس تحزب المفكرين إلى قطب دون آخر، فى عالم كان مقبلا على الحرب الباردة بين الاتحاد السوفييتى، زعيم الاشتراكية آنذاك وبين الولايات

المتحدة، زعيمة الرأسمالية حتى الآن.

ولعل سر الحماس فى معركة يونسكو، التى هى جزء من معركة الالتزام فى الفن، هو أن إطارها المضمر كان تأييد أحد طرفى الحرب الباردة. ولو أخذنا يونسكو مثالا لاكتشفنا خلل التبسيط فى معركة الالتزام الفنى، فمعظم مسرحياته بها هموم سياسية واجتماعية، وهى هموم مشروعة، بل ويمكن القول إنها تعبر عن موقف «يلتزم بقضايا المجتمع» رغم أن يونسكو ينادى بتقدم الصدق الفنى على الرسالة المضمونية الهادفة ورغم أن موقفة فى معسكر اليمين المحافظ[٨].

هاجم يونسكو اليسار بجميع فصائله، هجوماً خليقاً بظروف الحرب الباردة التى دعت أغلب كتاب اليمين للهجوم على كل يسار خوفًا من استتباب الأمر أقصى اليسار. فنجده يبخس الزعيم الشيلى أليندى حقه ويكاد يتشفى فى وفاته، ولا يسترعى انتباهه أن الزعيم الاشتراكى المنتخب انتخاباً حراً قد أزيح بانقلاب دموى عميل لأمريكا، بل يروح يقارن بين أليندى وكاسترو[٩] وهو طبعاً يهاجم كاسترو وحكمه العسكرى فى كوبا ولا يسترعى انتباهه محاولات أمريكا لإقصائه بالعنف، لدرجة أنها استأجرت جيشاً كاملا من المرتزقة الكوبيين وأنزلتهم بأسطولها على سواحل كوبا. ويهاجم يونسكو ثورة البرتغال الاشتراكية فى مطلع السبعينيات، وينعى ديكتاتورية سالازار، قائلا إنها كانت مرنة أو «طرية» فى آخر أيامها، على حد تعبيره[١٠] وهو لا يلتزم توازنا معينا بحيث يقر بعيوب النظامين، بل يندفع دائما فى الدفاع عما هو يمينى، دون أن يلتزم حتى بحدود منطقه نفسه. أما عن الاتحاد السوفييتى وتجربته فهو لم يكف عن سبها دون أية نظرة موضوعية. ويلخص موقفه منه عنوان مقاله: «الشيوعية هى أكبر فشل فى تاريخ البشرية»[١١] أما عن تجربة الصين، فهو يصف ماوتسى تونج غير مرة بأنه «صنم» «وشيطان»[١٢] وأما جيفارا فهو يصفه بالقاتل[١٣].

على ضوء خطاب يونسكو الموازى لإبداعاته، يمكن فهم هجومه على البورجوازية على أنه هجوم على ثقافةبعينها، لاعلى طبقة ما[١٤] هجوم على أسلوب فى التفكير - أو عدم التفكير - وعلى التعامل مع الأمور، يجعل صاحبه ينساق وراء الآخرين ولا يتعامل إلا بمنطق العرض والطلب فى كل أمور الحياة، وهو هجوم يمثل امتداداً للهجوم على نموذج البورجوازى الصغير فى الثقافة الفرنسية، منذ القرن التاسع عشر(لدى جول فاليس مثلا).

كما يمكن فهم هجوم يونسكو على الفاشية والدولة البوليسية، بوصفه هجوماً على الشمولية، انطلاقاً من موقف ليبرالى يعلى شأن النزعة الفردية، لا من موقف اشتراكى.

لقد جاءت مسرحية يونسكو «خراتيت» دون إشارة فى النص للعلاقة بين قطعان الخراتيت المدمرة وبين فرق النازية الألمانية، لكن اختيار ألمانيا بلداً للعرض الأول، وتعليقات النقاد والمخرجين فى بروجرام العرض وفى وسائل الإعلام، كانت توجه تفسير المتفرج وجهة واحدة: الخراتيت هم النازيون[١٥] رغم أن النص يشير للتعصب الإيديولوجى الذى يجعل من البشر قطيعاً شرساً و غير متمايز وبعد عرض المسرحية بعدة سنوات، قال يونسكو إنه قصد النازية بخراتيته، لكنها يمكن أن تنسحب على النظام فى الاتحاد السوفييتى أو الصين أو فى بعض بلدان الشرق الأوسط[١٦] لكنه لم يذكر أمثلة لأنظمةشمولية يمينية، رغم أن تفسير المسرحية يمكن أن ينسحب على الجنون المكارثى فى أمريكا، الذى يهاجم كل ما هو يسارى تقدمى، على سبيل المثال.

أحيانا، يكتب يونسكو أو يصرح أن جميع الأنظمة فاشلة، يمينا كانت أو يساراً[١٧] ونراه يضع على ألسنة شخصيات مسرحيته: «هذا الماخور الرائع!» نقدا لليمين واليسار على السواء ونراه يفسر مسرحيته «ماكبث» بأنها نقد للطموح السياسى إلى السلطة ويعتبر هذا الطموح سبب فساد اليمين واليسار معًا. وإن كان فيما يقوله شىء من الوجاهة، إلا أن نظرة واحدة للكتب التى جمع فيها مقالاته، مثل «ترياقات»[١٨] و«رجل فى موضع المساءلة»[١٩]، تكشف لنا أن هذه العدمية السياسية، أو نفاذ البصيرة السياسى هذا،ليسا سوى قطرة فى محيط من النضال من موقع اليمين المحافظ والنزعة الفردية. وها هو يونسكو يصرح فى أحد حواراته أنه لا يخشى أن يعتبر رجعياً[٢٠] والواقع أنه، بسبب محافظته يعترض على مبدأ «الثورة» و «تحرك الجماهير»، هذا هو صلب انتقاده للفريقين المتناحرين، اللذين يمثلان كاريكاتور اليمين واليسار، فى مسرحيته «هذا الماخور الرائع!» ونظراً لغلوه فى التعلق بالنزعة الفردية، فهو يفضل الأنظمة الغربية التى تحمى تلك النزعة. وهكذا ينتهى قوله «إن كل المجتمعات، ثورية كانت أم لا، فاشلة»[٢١] بقوله بعد بضع صفحات: «ما يمكن أن ينقذنا هو النزعة الفردية [٢٢] أى أن ما يَجُب نقده لأى نظام هو تفضيله للنزعة الفردية فى الديمقراطيات الغربية الرأسمالية.

ضد النازية.. مع الصهيونية

لم يكن عداء يونسكو للنازية والشيوعية مجرد وليد نزعته الفردية الليبرالية واعتباره أن كلا النظامين شمولى، ينفى الفرد لحساب الجماعة ويقيد الحرية التى يقدسها يونسكو ونال عنها جائزة «القدس» الإسرائيلية، بل كان هذا العداء جزءاً لا يتجزأ من عقيدته الصهيونية. أما عن النازية، فالصراع

بينها وبين الصهيونية صراع وجود بين إيديولوجيتين قوميتين متعصبتين وأما عن الشيوعية، فهى عقيدة مساواة وعدالة تتناقض مع العقيدة الصهيونية القائمة على التمييز والتعصب وأوهام تفوق الجنس اليهودى وسيطرته الواجبة على شعوب المنطقة، بالإضافة إلى أن الصهيونية، تاريخيا، لعبت دور رأس حربة الغرب فى منطقتنا العربية، فكان لزامًا أن تصطدم ببلد الشيوعية الأم، المناهضة للغرب.

ربما كان سهلا أن نفهم توجه يونسكو الليبرالى الفردانى، فهو مبدع حريص على حريته واستقلاله، يشعر بتميزه لأنه مفرط الحساسية، لديه إحساس متضخم بذاته، بالإضافة لوضعه المختلف عن عامة مواطنيه، حيث إنه من أب ذى جنسية وديانة مختلفين عن جنسية وديانة الأم.لكن ليس من السهل أن نفهم نزعة يونسكو الصهيونية، وتطرفه فيها، دون أن نلقى نظرة على تاريخ حياته.

لسنا من أنصار الربط المبسط بين بيئة الكاتب وأفكاره وبين تاريخ حياته وأعماله. لكن إذا عرفنا أن يونسكو قد كتب ثلاثة كتب يعرض فيها سيرته الذاتية، بالإضافة إلى أجزاء من كتابين آخرين نشر فيها يومياته، وهو ما يمثل نصف كتبه النثرية غير المسرحية، بالإضافة إلى عشرات المقالات المنشورة فى الصحف عن مذكراته، وذكرياته وأحلام رآها، وإشاراته العديدة لحياته فى العشرات من لقاءاته وحواراته الصحفية، وتركيزه على علاقته بأبيه وأمه وبزوجة أبيه، لو عرفنا كل ذلك لأدركنا تأثير حياة يونسكو وبالذات طفولته التعسة، على فكره وموقفه المؤيد بحماس للصهيونية(٢٣).

ولد يونسكو لأب رومانى مسيحى ولأم فرنسية يهودية. وكان أبوه على خلاف دائم مع أمه ويسىء معاملتها «يغيرها» بديتها. وانتهى الأمر بانفصالهما وبزواج الأب من امرأة ثانية. عاش يونسكو طفولة مصدومة، يتعاطف مع أمه ومع كل ما يعيرها به أبوه، ثم عاش صدمة انفصال والديه وحمّل أباه مسئولية ذلك الخطب، ثم عاش تجربةالحياة مع زوجة أبيه وكان يشكو سوء معاملة أبيه وزوجه الجديدة وانتهى الأمر بأن ترك بيت أبيه. أثرت تلك التجارب على يونسكو أيّما تأثير وأورثته تعاطفًا شديداً مع اليهودية وجعلته يماهى بين اضطهاد أبيه لأمه وبين الاضطهاد الذى يتعرض له اليهود فى العالم، ثم يتخذ موقفا عنيفًا على المستوى الشخصى: يتشاجرمع أبيه ويقاطعه وعلى المستوى العام: يتبنى أطروحات الصهيونية ومواقفها.

ورغم أن يونسكو يعتبر يهوديا طبقا للشريعة اليهودية، إلا إنه لم يكن يهوديا، وكان يجاهر أحيانا بإلحاده أو بلا أدريته أو بانتمائه للمسيحية دون ممارسة الشعائر، حسب تقلباته لكن يونسكو يذكر فى كتابه «حاضر ماض، ماض حاضر» أنه أفحم أباه فى جدل بينهما قائلا له: «من الأفضل أن أكون «متهودًا» عن أن أكون عجوزا أحمق»، بنبرةتشى بنوع من الفخر «بتهوده» ويبدو لنا حبه الصهيونى لليهود منطلقًا من أسباب عرقية، لتعاطفه مع أمه، لا من أسباب دينية أو فكرية أو ميثولوجية.

وتفسر كراهية يونسكو لأبيه جانبًا أساسيًا من كراهيته للأنظمة الشمولية ومن نقده لكافة الأنظمة السياسية، فقد كان أبوه مؤيداً دائما للسلطة، أيا كانت : كان عضوا فى الحزب المحافظ المنحاز لألمانيا، أثناء الحرب العالمية الأولى، ثم عضواً فى حزب الفلاحين القومى ذى الميول الماسونية ثم عضواً فى الحرس الحديدى النازى ثم عضواً فى الحزب الشيوعى بعد الحرب العالمية الثانية(٢٤) ولطالما استشهد يونسكو بهذا المثال دليلًا على أن كافة الأنظمة مجرد أدوات للسلطة واعتناقها مجرد وسيلة للوصول للسلطة أو للانخراط فى القطيع وفى الحالين هى أداة لإشباع غرائز ولتحقيق طموحات معينة.

وربما كانت كراهية يونسكو للاتحاد السوفييتى لا ترجع فحسب لزعامته على العالم الاشتراكى سابقًا، بل كذلك لما ذكره من أن رومانيا كانت دومًا تقاوم الإمبريالية الروسية، سواء كانت قيصرية(فى طفولة يونسكو) أو شيوعية (فى رجولته) .(٢٥)

المناضل الصهيونى

إذا ما فهمنا سر انتماء يونسكو الصهيونى، ندرك الدافع الذى أدى به لأن يكيل السباب للعرب ولمصر خاصة، وبالذات فى مرحلة تسخين الموقف فى الشرق الأوسط، التى سبقت عدوان ١٩٦٧، حتى إنه كتب كتابا كاملا خصيصاً ليسب مصر ويمجد فى إسرائيل ويردد ادعاءات الصهيونية وقتها عن الخطر المحيق بإسرائيل وانتواء العرب محوها، لتبرر العدوان، بالتوازن مع استدعاء شذرات من سيرته الذاتية، يستدر فيها العطف على أمه اليهودية التى اضطهدها أبوه المسيحى وهى صورة مصغرة للعب الصهيونية على عقدة الذنب لدى الغرب المسيحى تجاه اضطهاد اليهود. وهو يذكر صراحة فى هذا الكتاب: «حاضر ماض، ماض حاضر» (٢٦) أنه سأل مسئولًا إسرائيليًا عما يمكن أن يقدمه لإسرائيل فى تلك «المحنة» التى سبقت عدوان ١٩٦٧. فجاءه رد المسئول: «يمكنك أن تكتب» وقد كان هذا الكتاب، الذى شكل واحداً من عناصر البروباجندا الصهيونية التى

صورت إسرائيل بمظهر البرىء المهدد بالفناء لتبرر العدوان واحتلال الأراضى العربية.

وقد كتب يونسكو العديد من المقالات فى الصحف والمجلات التى تجرى فى اتجاه الدعاية لإسرائيل وإثارة التعاطف معها، جنبا إلى جنب مع وصف العرب بأشنع الأوصاف، ووضعهم مع الاتحاد السوفييتى فى سلة واحدة، ليسهل عليه الهجوم على كل أعدائه مرة واحدة.

هكذا نجده فى مقالات متفرقة نشرت فى «الفيجارو» و «لوموند»، أكبر جريدتين يوميتين فى فرنسا، بعد حرب ١٩٧٣، يكتب عن الأخطار المحدقة بإسرائيل وكيف أنها جزء من العالم الغربى، سياسيا وثقافياً، ينبغى على أوروبا الأم أن تحميها حيث إنها واحة الديمقراطية فى المنطقة وحيث إنها تتعرض لخطر شتات جديد على يد العرب المتعصبين، وماذا يضير العرب أن يتركوا فلسطين للصهاينة وقد بقى لهم ما بين المحيط والخليج، إلى آخر الحجج الصهيونية المحفوظة.(٢٧)

ونلاحظ فى هذا كله أنه لا يذكر شيئا عن الشعب الفلسطينى الذى طرد من أرضه ولا عن عدم مشروعية احتلال أراضى الغير ولاعن أن منع اضطهاد اليهود لا يعنى اضطهاد الفلسطينيين وسلبهم وطنهم. باختصار، تعامل يونسكو مع المسألة كمناضل صهيونى شرس، لا ككاتب موضوعى، ولذلك توازى تشويهه لصورة الفلسطينيين والعرب والمسلمين، مع إثارته التعاطف مع إسرائيل.

كان يونسكو سبّاقا لخدمة إسرائيل: يشرع فى كتابة «حاضر ماض» فى ١٩٦٧، وينشر مقاله «إسرائيل وما أبعد منها..» فى «الفيجارو» بعد أيام قليلة من حرب أكتوبر، ويقول إن العرب والمسلمين يهددون إسرائيل والغرب مثلما يهدد هما الاتحاد السوفييتى، وهو قول كان ذا وقع قوى فى أوج اشتداد الحرب الباردة.

ويقول يونسكو فى المقال نفسه إنه لا يفهم سر إصرار العرب على تدمير إسرائيل، كأن حرب أكتوبر لم تكن حرباً لتحرير سيناء المحتلة. ويقول كذلك «هل أن يزرع (الإسرائيلى) حديقته ضرب من الاستعمار؟، كأن الإسرائيلين لم يطردوا أصحاب الأرض ليبدءوا فى زراعتها، وكأنهم مزارعون مسالمون لا محتلون بقوة السلاح وكأن يونسكو لم يسمع عن فظائع ميليشيات المستوطنين.(٢٨)

وفى حوار أدلى به يونسكو لمجلة «الأرش» اليهودية الصهيونية ينتقد اليهود الفرنسيين الذين يقدمون انتماءهم الوطنى على انتمائهم الدينى ثم يقول «فى النهاية، هؤلاء هم الذين يترصدهم الاضطهاد وينزع عنهم أقنعتهم. لذلك ينبغى عليهم أن يتحدوا، وأن ينظموا صفوفهم فى إطار بلدلهم. وهذا البلد هو إسرائيل. أن ترتكب الدولة بعد تأسيسها أحيانا، بعض الأعمال المستهجنة، مثل سفك الدماء، فهذا أمر يؤسف له. لكن هذا البلد مهدد بالإبادة فى كل لحظة وسكانه مهددون بالمذابح، كما كان حال الأمة اليهودية فى الشتات، فيما مضى»(٢٩).

هكذا يبرر يونسكو جرائم إسرائيل ويخفف من إثمها ويؤيد حق إسرائيل فى الوجود على حساب أصحاب الأرض، بحجة حماية اليهود. وفى أكثر من موضع نجده يصمم على أن معاداة الصهيونية تساوى بالضبط معاداة السامية، وهى مغالطة فادحة يروج لها الصهاينة ليصوروا معارضى سياستهم العنصرية الاحتلالية على أنهم يضطهدون قوماً لأسباب عرقية أودينية.

ليس بمستغرب إذن أن يدين نجاح يونسكو بجزء من الفضل إلى تعاونه مع الصهاينة ومؤيديهم. وبصفة عامة كثيراً ما تعاون يونسكو مع فنانين يهود. تأكدت شهرة يونسكو عالمياً بفضل مسرحيته «خراتيت» التى عرضت فى العديد من بلاد العالم، وكادت عروضها الأولى تتزامن فى ألمانيا وفرنسا وإنجلترا وإيطاليا وأمريكا ولأنه عنى بها الهجوم على النازية فقد أخرجها ومثلها كبار النجوم فى العالم، مثل أورسون ويلز ولورنس أوليفيه فى إنجلترا وموريتى فى إيطاليا وجان لوى بارو فى فرنسا.

حصل يونسكو بعدها على كامل اعتراف المؤسسة المسرحية الفرنسية، عندما أخرج بارو «خراتيت» وقام ببطولتها فى فرنسا، على مسرح «الأوديون - مسرح فرنسا، وهوواحد من أكبر مسارح فرنسا». ثم قدم له بارو على ذات المسرح عمله التالى: «الماشى على الهواء» وجان لوى بارو، إلى جانب أنه عملاق من عمالقة التمثيل والإخراج فى المسرح الفرنسى، فهو كذلك من كبار المتعاطفين مع الصهيونية، كماسجل ذلك فى كتبه وحواراته الصحفية.

بعد مسرح الأوديون، عرضت مسرحيات يونسكو على مسرح «الكوميدى فرانسيز» وهذا غاية ما يتمناه مؤلف مسرحى من اعتراف المؤسسة الفرنسية، إذ يعنى ذلك أن أعماله دخلت فى عداد الكلاسيكيات.

كذلك فى إنجلترا، يدين يونسكو بجزءمن شهرته للناقد والإذاعى البريطانى مارتن إيسلين المعروف بانحيازه للصهيونية.

وربما لم تكن مصادفة أن يدخل يونسكو «الأكاديمية الفرنسية» عام ١٩٧٠، بعد عامين من صدور كتابه المنشور الصهيونى «ماض حاضر» مرة أخرى تعد تلك العضوية تكريما مهماً من المؤسسة الرسمية بفرنسا.

مع ذلك، ظل يونسكو يتمنى الحصول على جائزة نوبل. لكنه لم يحصل عليها. وزاد من خيبة أمله أنها منحت لصمويل بيكيت، زميله فى قيادة طلائع مسرح العبث. ونزعم أن يونسكو

كان يغار من منافسة بيكيت، فإن وصفه تارة بأنه «أهم كاتب بالفرنسية فى يومنا هذا»(٣٠)، فإنه يصف مسرح بيكيت تارة أخرى بأنه ممل وتارة يشير من طرف خفى لإلحاد بيكيت(٣١)، فى سياق يدين هذا الموقف. ثم نشر يونسكو صراحة فى إحدى يومياته أنه محبط لمنح نوبل لـ «بيكيت»

الفن والسياسة

عندما نلفت الأنظار لصهيونية يونسكو وعدائه للتقدمية، فنحن لا نهدف لإثارة الحنق عليه.(٣٢) وعندما نحاول تفسير هذين الموقفين ورصدهما لا نقصد لإثارة التعاطف معه ولا التقليل من قيمته كمؤلف مسرحى مجدد وعبقرى. فالفن لايقيم بالأخلاق أو المواقف السياسية والفكرية. إنما يسهم فهم المواقف السياسية فى تفسير الفن ويسهم فى توضيح (أو التعتيم على) المواقف السياسية. هكذا حاولنا أن نفهم يونسكو وهكذا نميز بين إعجابنا بعبقريته وبين رفضنا لمواقفة السياسية، لا سيما صهيونيته.

لا تنقص الصهيونية من قيمة يونسكو الفنية، وإن انتقصت من قيمته الفكرية فى نظرنا، تماماً كما أن انضمام «بيرندللو» للحزب الفاشى، بموجب خطاب مفتوح موجه «لموسوليني» لا ينفى أنه كان مؤلفاً مسرحيًا فذاً وأننا ننقم عليه انخراطه تحت لواء «الدوتشى». ■

الهوامش :

(١) توفى أوجين يونسكو فى ٢٨ مارس ١٩٩٤. وظهرت فى الأيام التالية مقالات كل من «فريدة النقاش» - الأهالى ٩٤/٤/٦، «طلعت الشايب» - أخبار الأدب ٩٤/٤/٣ - «فتحى العشرى» - الأهرام ٩٤/٤/١٥، إلخ.

(٢) جان هيرڤيه دونار: «يونسكو كاتبا مسرحياً أو الصانع والشيطان» باريس. دار ليتر مودرن. ١٩٦٦ (بالفرنسية).

(٣) فى كتابة «يونسكو فاتحا قلبه» يقدم جيلبير طرب قراءة سوسيو لوجية ممتازة لعلاقة مسرح يونسكو بالواقع التاريخى الذى أنتج فيه. دار سيركل دى ليفر دى فرانس. مونتريال ١٩٧٠ .(بالفرنسية)

(٤) انظر مقاله le théatre ne peut évoluer sans étre dépolitisé الفيجارو الأدبى ٧٢/٦/٢٤.

وسنرى فيما يلى أنه يعنى نزع الاتجاه اليسارى عن المسرح، مثل الاتجاهات البريختية، لا نزع السياسة فحسب.

(٥) انظر «المعركة اللندنية» فى كتاب يونسكو «ملاحظات وملاحظات مضادة». باريس. دار جاليمار. ١٩٦٢ ص٦٩ - ٩٠

(٦) انظر مقالات رولان بارت وبرنار دورت عن مسرحيات يونسكو فى مجلة «المسرح الشعبى»

(٧) كتب يونسكو مقالا بعنوان «لا أحب بريخت» فى الفيجارو الأدبى ٧١/٣/١٢

(٨) راجع الحديث الذى أدلى به يونسكو لـ «كراسات الشباب الحرة» عام ١٩٦٠

(٩) يونسكو، الفيجارو، ٧٣/٩/٢٨: «أليندى أو اشتراكية الآخرين» كتب هذا المقال ودم الشهيد أليندى لم يزل بعد حاراً.

(١٠) يونسكو: «سراب الثورة»، جريدة الجيورنال، يونيو ١٩٧٥.

(١١) يونسكو، الفيجارو، ٧٦/٧/٨.

(١٢) انظر مثلا: يونسكو، «ركوعًا أمام ماو»، الفيجارو ٧٦/٩/٣٠.

(١٣) يشير يونسكو لقوله هذا فى الحوار المنشور معه بمجلة إكسبريس ١٩٧٠/١٠/٥، بعد استشهاد جيفارا.

(١٤) راجع مثلا ما نشر على لسان يونسكو بعنوان «مأساة اللغة» فى مجلة Tulane Drama Review ربيع ١٩٦٠.

(١٥) انظر العدد ٩٧ من «كراسات رونو - بارو» باريس. دار جاليمار ١٩٧٨ بعنوان «يونسكو خرتيت».

(١٦) نفسه.

(١٧) حديث يونسكو للإكسبريس - سبق ذكره

(١٨) Ioneso, **Antidotes**, paris, gaL-limard,1977

(١٩) Ionesco, un homme en question, Gallimard.1977

(٢٠) حديث يونسكو للإكسبريس - سبق ذكره. (وفى كتابه «ترياقات» يقول إن الأنظمة الملكية أفضل من اليمين واليسار لأن الحاكم معروف مقدماما يزيل ألاعيب الساسة الباحثين عن الوصول للحكم).

(٢١) نفسه.

(٢٢) نفسه.

(٢٣) عن سيرة حياة يونسكو، انظر مثلا:

Journal En Miettes - Present Passe, Passe La Photo Dv Colonel Decouvertes - Un homme En Question.

(٢٤) انظر حديث يونسكو للإكسبريس - سبق ذكره.

(٢٥) نفسه.

(٢٦) Ionesco, Presnt Passe Mercure De france 1968

(٢٧) جمعت هذه المقالات فى كتاب يونسكو «ترياقات» Antidotes ص٤٦ - ٦٧.

(٢٨) يونسكو، الفيجارو، ٧٣/١٠/٢٩.

(٢٩) حديث يونسكو لمجلة «الأرش» - مارس - أبريل ١٩٧٣.

(٣٠) يونسكو، ترياقات، ص١٠٢.

(٣١) نفسه ص٥٢.

(٣٢) كانت فريدة النقاش هى الوحيدة التى أشارت فى عجالة لتعاطف يونسكو مع إسرائيل ولموقفه المحافظ. الأهالى. سبق ذكره.

يونسكو: كل الكتاب يسعون إلى المقاعد الفردية

ترجمة: عبد القادر التلمساني

هذه ترجمة لحوارين أجريا مع يونسكو، لم يسبق نشرهما بالعربية.

ترجم الحديث الأول عبد القادر التلمسانى، وهو حديث أدلى به يونسكو لمجلة «كراسات الشباب الحرة» ثم نشر فى كتاب «ملاحظات وملاحظات مضادة»، ويطرق موضوعات عديدة تفسر عالمه الفنى وتحدد نظرته لوظيفة الفن الاجتماعية.

أما الحديث الثانى، من ترجمة مىّ التلمسانى، فقد أدلى به يونسكو لأليسون براوننج، المدرسة بالمعهد العالى للدراسات العلمية بچنيف وصاحبة أبحاث هامة فى العلوم السياسية.

نشر الحديث فى كتاب «أوروبا ومفكروها.. إلى أين»، الذى ضم حوارات أجرتها الباحثة مع عدد من المثقفين الأوروبيين حول تصورهم لوحدة أوروبا الفكرية والثقافية. يكشف الحوار عن نزعة إنسانية ووحدوية لدى يونسكو، تتكامل (وتتناقض) مع تعصبه للغرب فى مواجهة الشرق، الذى انسلخ منه، إذ هو رومانى الأصل.

ق

• لقد قلت مرة: إن الواقع وحده هو القابل للتحول إلى كابوس. ماذا تعنى بذلك؟

ـ إن شخصياتى تهزل من حين لآخر، أو تعبر عن نفسها بطريقة هزلية ضاحكة. وهى أيضا تقول حماقات، أو حتى تسىء التعبير ولا تعرف نفسها جيداً، وتبحث عن ذاتها من خلال أعمالها الخرقاء وتخبطاتها الخاصة. إنهم رجال، كغالبية الرجال، لا يتحدثون فى جد ووقار كلما فتحوا أفواههم، وهم يقولون أيضا عكس ما أفكر، أو يفكر البطل المقابل.

لم أقل أنا نفسى إن «الواقع، على عكس الحلم، يتحول إلى كابوس.» لقد نطق أحد الشخصيات بهذه الجملة،وعليه يجب أن نرى من هو صاحب هذه الشخصية، وإن كان قد تكلم فى جد، أو كان يسخر، وفى أى موقف قال ما قاله؟ ولماذا؟ وما الذى يقصده بذلك؟ إلخ... وعلى الخصوص هل هو يعرف جيدا كيف يقول ما يريد أن يقوله؟ عليكم أن تلقوا بهذه الأسئلة على شخصياتى وليس علىّ.

• ولكن ماهو نصيب الفرد فى هذا «الكابوس .. الواقعى»؟ وهل معنى هذا أن الواقع هو حلم؟ أو أن الحلم واقع؟

ـ الآن، إذا سألتمونى رأيى الشخصى عن هذا «الكابوس الواقعى»، فأنا اعترف لكم ـ فيما بيننا تماماً ـ أنى أشعر حقاً أن الحياة ذات طابع كابوسى مزعج، وأنها مؤلمة، وغير محتملة، كحلم سىء. أنظروا حولكم: حروب، كوارث وفواجع، أحقاد ومظالم. بلبلة وارتباك، ثم هذا الموت الذى يترصدنا. نحن نتحدث دون أن يفهم بعضنا بعضاً، نحن نقاوم بعضنا البعض قدر طاقتنا فى عالم يبدو مصابا بحمى هائلة. أليس الإنسان، كما قيل، هو الحيوان المريض، ألا نحس أن الواقع مزيف وأنه لا يلائمنا؟ وأن هذا العالم ليس هو عالمنا الحقيقى؟

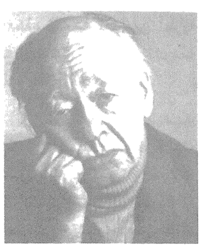
وبمعنى آخر، أننا ليس فقط لا نريد تغيير أى شئ فيه، وإنما ليس لدينا حتى مجرد الوعى بأن هذا العلم ناقص وغير كامل. وأغرب الغرائب أننا مربوطون إلى هذا الكابوس الواقعى، وأن زواله يبدو لنا أشد هولاً من شفاعته. لقد خلقنا لنفهم كل شىء، ونحن لانفهم أنفسنا إلا قليلا، ولا يفهم بعضنا البعض مطلقا. لقد خلقنا لكى نعيش معا، ونحن نمزق بعضنا البعض فيما بيننا. نحن لا نريد أن نموت، ومعنى هذا أننا خلقنا لنكون خالدين.. ولكننا نموت. هذا شىء مخيف وغير جاد. أى تقدير أستطيع أن أحمله لهذا العالم الذى ليس له أى صلابة والذى يختفى من الوجود؟ أين أرى كامو Camus، إننى أرى أتلان Atlan وفجأه لا أراها بعد ذلك. إنها مسخرة. وهذا الأمر يكاد يحملنى على الضحك. وباختصار، لقد استنفذ الملك سليمان، من قبل، الكلام فى هذا الموضوع.

تسألون عما إذا كان العالم ليس سوى وهم؟ أنا لا أستطيع إجابتكم. اسألوا حكماء الشرق الميتافيزيقيين (علماء ما وراء الطبيعة) لتستنيروا فى هذا الموضوع. والواقع أن ليس لهذا أدنى اعتبار. إنه يبدو لنا كواقع، ومن الواضح أننا نكافح مع هذا الواقع (ولو أنه زوال) ونتصارع معه.

●هل الأمر يتعلق بواقع اجتماعىّ؟ وفى هذه الحالة، هل هو ذلك الطابع الحلمى والاجتماعى معا الذى يسمح لك بالاستفادة من هذا الواقع كفنان؟

ـ طبعا الأمر يتعلق بواقع اجتماعى، وفردى، وبيولوچى، وفيزيكى، إلخ... بواقع إجتماعى، كما يمكن أن يبدو هذا الواقع للناس. وبأى واقع آخر يمكن أن يتعلق الأمر.

ثم إن كل شىء إجتماعى بمعنى ما. ومع ذلك فأنا أعتقد أن المرء لا يقتصر



يونسكو

على التنظيم الاجتماعى، على الآلية الاجتماعية، ولا يكتفى بها. ولقد قلت من قبل، أنا أيضاً، إن المجتمع العميق هو اجتماعى فوق العادة extra Socialأليست أحلامنا الجوهرية واحدة؟ ألاتكشف عن قلقنا المشترك، ورغباتنا المشتركة؟ والتنظيم الاجتماعى أليس هو ذلك الشئ الذى خرج من أفئدتنا ثم استقل عنا وأصبحنا من عبيده؟ وهذا هو فعلا ما يجعل هناك أناس لا اجتماعيين. وحينما أصل إلى أعمق أعماق نفسى أجدنى ألتقى مع وحدة جماعية (كوميون) منسية.

وكثيراً ما يفصلنى المجتمع (الخارجى) عن نفسى وعن الآخرين فى ذات الوقت. إننى أفضل كلمة الجماعية، (كوميون Coumunaute) على كلمة اجتماعى، وعلم الاجتماع (سوسيولوجيا) إلخ... إن هذه الجماعية الخارجية الخارجة عن نطاق التاريخ-extra Historiqueتبدو لى جوهرية.. ونحن نستطيع أن نلتقى معها ونتصل بها فيما وراء الحواجز «والمتاريس» والطوائف والطبقات إلخ...

لقد قالوا وأعادوا القول إن الإنسان حيوان إجتماعى .. ولكن ليس عليكم سوى أن تشاهدوا مايحدث فى عربات المترو: كل الركاب يسرعون إلى المقاعد الفردية، وفى الأوتوبيس نجد أن المقعد المشغول دائما هو ذلك القائم فى مقدمة العربة حيث يجلس عليه الراكب بمفرده. إن النمل والنحل والطيور مخلوقات اجتماعية. أما الإنسان فهو على الأرجح لا اجتماعى. وهو مع ذلك اجتماعى، فليس فى الإمكان غير ذلك.

وكون المرء لا إجتماعيا يعنى فى نهاية الأمر أنه، رغم ذلك، اجتماعى بطريقة مختلفة. فقط ينضوى اليوم تحت كلمة اجتماعى ـ سواء عن قصد أو عن غير قصد ـ عدد عظيم من المعانى التى أسىء فهمها. وهكذا فهم يقولون إن أى فعل أو عمل فنى لابد أن يكون له أهمية اجتماعية، وغالبا ما يعنى هذا أن يكون له هدف سياسى (وأن يعبر عن اتجاهات حركة سياسية محددة) أو يكون له هدف دعائى، أو عملى. ولنعد إلى المظهر الحلمى لأعمالى، مادمتم تلقون علىّ بالسؤال، وأقول لكم إننى حينما أحلم لا أحس بأنى أتخلى عن التفكير. بل على العكس أحس أنى أرى، وأنا أحلم، حقائق تبدو لى غاية فى الوضوح والجلاء وفى ضوء أشد نصاعة، وبحدة أشد عنفا مما يحدث لى فى حالة اليقظة، حيث غالبا ما تخف حدة كل شىء وتضيع معالمه الذاتية ويتحول إلى أشكال ثابتة جامدة. ولهذا السبب أستعمل فى مسرحى صورًا من أحلامى وحقائق واقعية من نسج الأحلام Mealites rêveés.

●أنت تقول أيضا إنك لا تفسر ولا تؤول، ولكنك توضح أفكارك وتشرح نفسك. ما هو الشاهد الذى يشرح نفسه؟

ـ حينما أقول إننى شاهد فأنا أعنى على الخصوص أنى لست قاضيًا. أنا لست رئيس المحكمة ولا وكيل النيابة ولا المحامى. وإذا كان الشاهد قد اختاره الدفاع أو الاتهام فهذا من شأنهم هم. أما الشاهد فهو أساساً لا يتخذ موقفا معينا ولا ينحاز. وإذا كان نزيها وجب عليه أن يكون موضوعيًا.. فى نظرته الذاتية.

فوكيل النيابة الذى ينحى على المتهم (وهذا هو دوره) والمحامى الذى يدافع عنه (فهذه مهنته) مغرضون ومتحزبون. إنهم يقومون بأفعال... سياسية واستراتيجية. ورئيس المحكمة هو البابا، هو رئيس الدولة، هو كل أولئك الذين يمسكون فى أيديهم بالكتاب. المقدس، وبالقانون، وبالمذاهب الجامدة Dogmes. ولديهم الجرأة على الحكم.

إن الشاهد يروى قصة، بل لعله يفعل ذلك بالضبط، وإنما هو يعرض كيف بدت له الوقائع. إنه يقول الحقيقة... الذاتية طبعًا. وهو على الرغم من كل شىء قاضٍ بقدر يسير، وهو كذلك عن خطأ. فالشاهد المطلق لا يجب أن يكون كذلك مادام لا يجب أن يكون له موقفًا معينا ولا يجب أن ينحاز.

نعم أنا لا أفسر ولا أؤول. أنا شاهد أى خاضع لتفسيرات وتأويلات الآخرين. ولكنى أوضح أفكارى وأشرح نفسى، بمعنى أنه حينما يجد القضاة أن عرضى للموضوع غير واضح فأنا أحاول تحديده بدقة. وهذا بالضبط ما تجعلوننى أفعله الآن. إنى أحاول توضيح نفسى بدقة وخاصة حينما يريد البعض (وهذا يحدث لى كثيرًا) أن يجعلنى أقول أشياء أنا لم أقلها.

إن الشاهد (أى: الشاعر) يروى إذن كيف يبدو العالم لضميره ووجدانه. ولكن كل شهادة هى نوع من إعادة الخلق، أو الخلق، ما دام كل شىء ذائلا. ونحن نعلم أيضا أن النظرات الذاتية تتلاقى. وعلى ذلك تكون الموضوعية هى اتفاق عام شامل can sensus للنظرات الذاتية.

وهكذا، ولكى نعود إلى سؤالكم السالف، لن نغامر كثيرًا إذا قلنا إننا نحلم كلنا، وبشكل جماعى، الواقع نفسه، الحقيقة نفسها، ما دام الواقع ليس سوى ما تخال أنه كذلك.

وفى المحكمة، يكون الشاهد هو أكثر الناس حرية. ويأتى بعده المتهم، ولو كان مكبلاً بالحديد. إن السجناء الحقيقيين هم القضاة، سجناء قوانينهم ومعتقداتهم الجامدة. وليس لديهم حرية ذاتيتهم، ماداموا خاضعين للمقاييس القضائية.

ومن الأمور التى تضايق المرء أن يحاكم وبعد المحاكمة هناك الاستئناف ثم النقض.. وإذا اختلفت الأحكام فإن الشهادة المسجلة، تظل كما هى. وبينما المحاكم تمر الواحدة بعد الأخرى، وتتناقض فيما بينها تصبح الشهادة (وهى طبعا شهادة لشىء ما) فى نهاية الأمر نوعا من الشهادة فى ذاتها، لاصاحب لها، ودائمة أما القوانين فتختلف، وكذلك وجهات النظر. إن الشهادة كما فهمتم، هى العمل الفنى والمحاكم هى المجتمعات، هى الروح التاريخية Historicié. إن المحاكم ليست بالأمر الجاد: إنها مسرح، احتفال مسرحى.

● إن لمسرحك إذن مع ذلك دور المرآة لجمهورك. على أية صورة يجب أن يعيد اكتشاف نفسه فيه؟

ـ طبعا أنا أرجو أن يكون لمسرحى هذه القيمة. مادمت ـ وأكرر ذلك ـ كبقية الناس فى أعمق أعماق نفسى، مع بقائى فى ذات الوقت أنا نفسى. ويجب على اللااجتماعيين على الأقل أن يعرفوا أنفسهم فىّ.

ولكن حينما أكون على السطح الإجتماعى لنفسى أصبح غير شخصى أو أكون نفسى إلى حد قليل جداً.

لقد ظنوا أنهم عرفوا الرجل البورجوازى، والرجل البروليتارى، والصانع الحرفى، والرجل العسكرى، والزوج إلخ... ألا ترون معى أن الرجل الحرفى والرجل العسكرى إلخ... ليس كل الرجل، وأنكم تجردونه من إنسانيته بوضعه فى القالب الاجتماعى؟ ألا ترون أنكم تشوهونه بتحديده هكذا؟ وأنكم تشوهون بالضبط ما هو جوهرى فيه؟ إن هناك جماعية أخرى غير محددة فى قالب اجتماعى معين، تلك التى أثرتها منذ قليل؟

● إنك تقول إن جمهورك يجب أن يحس بالضيق النفسى. أليس هذا هو الدور التربوى لأعمالك الذى تنكره أنت مع ذلك؟

ـ لقد قلت ذلك فيما أظن مرة: فى الملاحظات الموجهة للممثلين فى مسرحية «جاك .. أو الخضوع». لقد كنت أريد أن يكون تمثيلهم «متعبا وثقيلا» حتى ينقلوا للمتفرجين القلق والضيق واضطراب النفس.

إنكم ترون فى ذلك هدفا تربويا. ولكننا بالطبع نستطيع أن نستخلص دروسًا من أى شىء وحتى من الدرس نفسه إذا أردنا ذلك، ولا شك أنه أمر حسن. وعلى ذلك إذن نستطيع أن نقول إن كل شىء هو درس ما، وكذلك نستطيع أن نقول إن الكرسى هو منضدة إذا ما استعملته كمنضدة. بل نستطيع أيضا أن نقول إن هذا الكرسى نفسه طائرة، وليس علىّ إلا أن أضيف له مروحة وأجنحة وموتوراً. ومع ذلك فسوف يصبح من الصعب علىّ أن أقول إن الكرسى هو قطعة من اللادن أو قالبا من السكر على الرغم من أنه يمكن أن يوجد سكر على هيئة كرسى. ومن الممكن إذن أن نقول إن كل شىء تربوى، وأن كل شىءاجتماعى، حتى اللااجتماعى لأنه لا وجود لشىء إنسانى خارج المجتمع كما لا يوجد شىء خارج الكون وإن كل شىء سيكولوجى، وكل شىء هو عدد، وقابل للهندسة، إلخ...

ومع ذلك، فهناك سعاة بريد، ورجال بوليس، وجنود مرتزقة، ومدرسون وشعراء. والمدرس بحكم مهنته هو أساس تربوى. وإذا أردتم أن تجعلوا الشاعر مدرسًا فلن يصبح بعد ذلك شاعراً وسيصبح مدرسًا. وإذا كان هناك الشاعر، إذا كان هناك الشعر، فلا شك أن

الشاعر هو شيء آخر غير المدرس وأن ما يقوم به هو شيء آخر غير الدرس. من الممكن أن نستخلص من «أوديب ملكا» درسًا مؤداه أنه إذا خرج المرء على القوانين الأخلاقية لأمكن أن تحدث له أسوأ الكوارث والمضايقات. ولكن إذا كانت هذه المأساة ناجحة فلأنها قصة خيالية، قصة متوهمة ولها القدرة إلى حد تصديقها، ولاننا نعيش آلام الشخصيات مع الشخصيات، ولأنها عالم كامل أوجدته القوة الخالقة لدى الشاعر القديم، ولأن الأبطال أحياء، ولأن ذلك العلم المخترع يندمج فى العالم الحقيقى ويصبح حقيقياً، بينما هو لم يكن موجودًا من قبل، وكان من الممكن ألا يوجد على الإطلاق.

ومع ذلك، وفى الوقت نفسه نجد أن هذا العمل أيضا هو شهادة ما: تنبع ربما من معطيات واقعية معينة، ولكنها تتجاوزها، وتبعث فيها الحياة، وتغير وجهها. إنها «شهادة»، «بالخيال». ولا وجود للتناقض العميق فى الفن بين أن «نشهد» وأن «نتخيل».

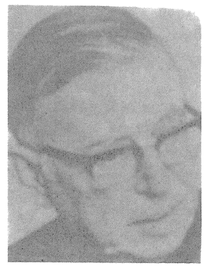
إن الخيال الخلاق يكشف عن الحقائق كحلم واضح ناقد. نحن لا نكاد نستطيع الكذب. كل واحد يكذب بطريقته الخاصة، وهذه الطريقة تعبر عنه.

المدرس ليس شاهداً. إنه قاض. قاض وخصم وهو كذلك لا يتخيل.

إن التربوية هى على الخصوص من صفات العقل، وهى تعبير عن إرادة للتسلط.

● ألا يسمح «بيرانچيه» للمتفرجين على مسرحياتك ألا يخجلوا بعد ذلك من أن يقبلوا أنفسهم على علاّتها كما هى؟ ثم أليس «بيرانچيه»، وهو يقاوم هو نفسه يونسكو الرافض للحياة؟ لماذا؟

ـ حسناً. ولنفرض أنكم قد «ضبطمونى فى حالة تلبس» وأنا أتناقض مع نفسى، وأننى قد حاولت كتابة «مسرح ملتزم» وأن أدافع وأتهم. ولكننا جميعا نتناقض ونتعارض فى الحياة. إن أعظم الفلاسفة يتناقضون فى داخل منهجهم نفسه. ولكن الشاعر الذى يكتب أحيانا عملاً ما، وأحياناً عملاً آخر؟ لا أعتقد أن من واجبه التغلب على المتناقضات وإيجاد الحلول لها. إن هذا يقلل من خصوبة العمل ويفقره. يجب أن ندع المتناقضات تتفتح (وتنطلق) بمنتهى الحرية وربما اتحدت المتناقضات من نفسها، مع استمرار تعارضها، فى توازن ديناميكى وسوف نرى ماذا يعطى هذا الوضع.


جان بول سارتر

أنا أستطيع أن أكتب مرة مسرحًا حرّا ولا دافع له ولا هدف ثم أكتب «قاتل بلا أجر» و «الخرتيت» ولكنى فى هاتين المسرحيتين أيضًا لا أصدر حكما ولا أقاضى، إننى أروى قصة حدثت «لبيرانچيه»، وألتمس تفسيرات لها (ربما لا أوافق عليها) ولكن، هل أنا حقاً لا أحكم؟

ربما فعلت ذلك.. فالدفاع هو أيضا إصدار حكم. وفى هذه الحالة أعتقد أن بيرانچيه بطل «الخرتيت» هو تماما كما قال جان ـ بول سارتر واحد من أولئك الذين يعيشون «فى مجتمع إرهابى فى شكله السياسى، حيث الديكتاتورية قائمة والناس كلهم تبدو عليهم الموافقة، وهو يعبر عن رأى أولئك الذين لا يوافقون: وبذلك فقط يمكن تجنب أسوأ ما فى الوجود».

ومع ذلك فبيرانچيه هو على الخصوص، فيما أرجو، شخصية. وإذا قاوم الزمن فيما بعد فذلك لأنه شخصية، وعليه، إذا كان حقاً شخصية أن يعيش حتى بعد أن تكون رسالته قد اندثرت فليس المهم من الناحية الشعرية فكره، وإنما روحه المتألقة وعواطفه المتأججة، وحياته المتخيلة هى المهمة، لأن رسالته يمكن أن يقولها اليوم أيضا كاتب صحفى أو فيلسوف أورجل أخلاق إلخ...

إن الأهمية الراهنة لموقف ما، رغم أهميته الإنسانية، تصبح ثانوية بالنسبة للأهمية الدائمة للفن.

● كيف لا تستطيع إذن فى هذه الحالة ألاّ ترفض الفن نفسه؟

ـ أرفض الفن؟ وهل أستطيع ـ رغم تشاؤمى وسوء المزاج أن أرفض التنفس؟ إن الشعر، والحاجة إلى الخيال والتخيل والخلق، هى أساسية تماماً كالحاجة إلى التنفس (التنفس هو أن تحيا، لا أن تهرب من الحياة) أو يعتبر هروبا أن يؤلف الموسيقى سوناتا؟ وفيم تستخدم هذه السوناتا؟ وفيم تستخدم لوحة مصورة؟ هل اللوحة الفنية اتخاذ لموقف عملى ما؟ إنه أمر اجتماعى طبعا، ولكنه ليس عمليا.

إن الخلق الفنى يستجيب لحاجة ضرورية جداً وحتمية فى النفس البشرية.

وهؤلاء المحرومون من هذا، والذين لا يسمح لهم بحرية الاختراع، واللعب، وخلق الأعمال الفنية، فيما وراء كل «التزام» يعانون فى عمق. حتى ولو لم يتبينوا ذلك على النور بوضوح.

إنى أعرف من هذا النوع كثيراً. وعلينا أن نساعدهم حتى لا يختنقوا.

(الكراسات الحرة للشباب، ١٩٦٠)

يونسكو: أوربا.. تسلسل عمليات ناقصة

حوار: أليسون براوننج
ترجمة: مى التلمسانى

● من خلال كتاباتك نشعر أنك تعتبر أوروبا كلها وطنك، لماذا؟ وما الذى تعنيه لك كلمة «أوروبا»؟

ـ كانت أوروبا فى القرون الماضية وحدة حضارية ووحدة ثقافية، لكنى لا أعرف الآن إطلاقاً ما هى أوروبا، إذ إنها أصبحت شيئا آخر لا يبدو لى مستقلا عن العالم.. الموجة الأمريكية والأيدلوجيات الشرقية والتكنولوجيا الحديثة كلها اجتاحت أوروبا، حتى إننى كثيرا ما أتساءل إن كانت أوروبا قد حافظت جيدا على فرديتها وشخصيتها.. كانت موحدة حين كانت لدول أوروبا الغربية لغة مشتركة هى اللغة اللاتينية، كما حققت اللغة الفرنسية لفترة ما وحدة أوروبا حين كانت هى لغة الأوروبيين الثقافية. هكذا كانت الوحدة التى أحدثك عنها.. أما الآن فهناك خليط من كل شىء خاصة فى المعاهد التعليمية.. اختفت الحركة الإنسانية Humanisme ولن تعود أوروبا إلى سابق عهدها إلا إذا عادت الحركة الإنسانية الروحية إلى الازدهار.. لكن هل ستعود «الإنسانية» بثوب جديد، من طريق جديد، فى بلد آخر؟ هل ستعود فى إحدى الأمريكتين؟ أشك فى ذلك، بل وأعتقد أن أوروبا مهددة بعجزها عن تحقيق ذاتها.

الواقع أن مكونات الثقافة الأوروبية وفدت إلينا من الخارج، من آسيا مع دخول المسيحية، الآن اندمجت الروح المسيحية مع الروح الأوروبية غير أنى لا أعلم ماذا سيكون مصير هذه المسيحية الإنسانية. كما أن علينا أن نذكر أن أوروبا امتدت لتسع أجزاء عديدة من العالم مثل روسيا التى لا أعتبرها أوروبية، والصين عن طريق الماركسية والبلدان المستعمرة فى أفريقيا.. الماركسية نشأت فى أوروبا وتبدلت كثيرا فى كل من روسيا والصين إلى حد اكتساب صفات غير أوروبية.. خُيل إلينا أننا غزونا الصين وبعض أجزاء من العالم بأفكارنا ومذاهبنا، لكن ما حدث مع المسيحية حدث مع الماركسية، دخلت بعض عناصر وثنية فى المسيحية وحل الفساد بشكل ما فى الماركسية ذاتها فانحرفت متأثرة بعادات وتقاليد وقوالب فكرية خاصة بالبلاد التى دخلتها. إننا لا نخطئ حين نقول إن أوروبا مسيحية لكننا قمنا بتغيير المسيحية وجعلنا الكنائس مؤسسات قائمة بذاتها بحيث لم تعد كما كان من المقدر لها أن تظل.

● هل كان لديك دائما إحساس بأنك محاط بثقافة أوروبية؟ يبدو أن الأمر على نقيض ذلك تبعا لما تقول؟

ـ كان لدى ذلك الإحساس منذ نحو ثلاثين أو أربعين عاما .. فى ذلك الحين كانت أوروبا تقاوم التكنولوجيا الأمريكية، لكن الوحدة اليوم مع كل تلك الرسوم المتحركة الأمريكية، مع موسيقى الجاز والثقافة السوداء، تبدو بعيدة المنال.

● ورد على لسانك فى أحد اللقاءات أن «الثقافة توحد بين الناس والسياسة تفرق ما بينهم» هل يعنى ذلك أن الوحدة الأوروبية بالنسبة لك يجب أن تتم على المستوى الثقافى؟

ـ نعم، يجب أن تقوم الوحدة على المستوى الثقافى وأن ترتكز على التراث الثقافى الذى لا يزال حيًا فى فرنسا .. وفى فرنسا على وجه الخصوص كما فى تلك البلاد التى تتحدث الفرنسية، لأنه فى تلك التى تتحدث الألمانية تختلط كثير من العناصر غير الأوروبية، خاصة وأننا نجهل على وجه التحديد ماهية أوروبا حتى أننا لم نعد ندرى إن كانت أوروبا موحدة أو مشتتة.

أوروبا صغيرة جدا ومهددة من قوى عظمى ومن إفراط تلك القوى فى مجال

التصنيع. هل تكتفى أوروبا بالتراث الأدبى الذى خلفه كورنى Corneille وراسين Racine وموليير Moliére؟

● أليس لدى أوروبا تراث ثمين يتمثل فى حقوق الإنسان؟

ـ بلى، يمكننا أن نقر بأن أوروبا ترتكز على مبادئ «الحرية، المساواة، الإخاء» التى دعمتها الثورة الفرنسية، ويمكننا أن نعتبر أن حقوق الإنسان والاستقلال الوطنى مبادئ أوروبية. إنما يحق لنا أن نتساءل عن معنى حقوق الإنسان ومعنى الاستقلال الوطنى. لقد رأينا أن الاستقلال الوطنى فى البلدان التى كانت مستعمرة سابقًا لم يتبع مبدأ الحرية لأن تلك البلدان أقامت دولا استبدادية تحت شعار الاستقلال الوطنى، وحين تحررت بعض الدول التى كانت قد اتجهت صوب الغرب فكرياً، أو بدأت فى ذلك، انقلبت عاداتهم ودياناتهم عليهم ثم علينا.. لكننا على أية حال لن نطبق الفكر الشمولى فى أوروبا ولا النظام الاستبدادى الذى يعيث فسادا فى دول أخرى .. على أن هناك اضطرابا عاما بين الشباب، خاصة، أسأل نفسى إن كنا قادرين على مقاومته.

● لكنك تحاول المقاومة رغم ذلك، مع مجلس المفكرين من أجل الحريات فى أوروبا .C.I.E.L؟

ـ نحن نفعل ما بوسعنا، وأعنى أنه على الرغم من أن الموقف ميئوس منه تقريبا، إلا أن كل إنسان عليه أن يقوم بدوره حين يستطيع، وحيث يستطيع.

● واليوم مع مجلس المفكرين هل تحاول إعادة خلق الاهتمام بالقيم الأوروبية، بالثقافة والعادات إلخ ..؟

ـ نعم، من أجل الثقافة والتقاليد، من أجل احترام حقوق الإنسان.. لكن ما هى



حقوق الإنسان تلك؟ من العسير أن أفسرها، كما أنه من السخف أن أردد ما هى، فالكلمة أصبحت تستخدم فى غير موضعها، وهذا ما نفهمه نحن وحدنا ـ وأعنى أن الأوربيين حين منحوا الدول المستعمرة الاستقلال الوطنى، توهموا أن فكرة الاستقلال وحرية الاختيار وحقوق الإنسان تلائم العالم كله .. غير أن ذلك ليس واقعًا، فالأفارقة لا يحفلون كثيراً لذلك،وأنت تعلمين ما حدث فى أوغندا ودول أخرى سواء فى شمال أفريقيا أو أمريكا الجنوبية، إلخ.

إن حقوق الإنسان اختراع أوروبى محض، وإن كنا لم نعد قادرين على نشرها، وإن كانت هذه الحقوق لا تساوى شيئا للآخرين، فستتحول إلى جزيرة صغيرة تحيا عليها بعض القيم لكنها لا تستطيع مقاومة الأعاصير طويلاً .. فنحن محاصرون بشكل أو بآخر.

● هل يهتم المجلس فقط بحقوق الإنسان أم أن لديه مشروعات تشمل أوروبا؟

ـ نحن نداقع ببساطة شديدة وخطوة خطوة عن حقوق الإنسان فى أبسط أشكالها.. وحتى نقيم حركة توحد ثقافى أوروبى يجب أن نتأكد من مشاركة عدد كبير من مفكرى الدول الأوروبية وذلك ما لم يتوفر لنا. إننا نعترض كلما اغتصبت حقوق الإنسان واعتراضنا يؤتى ثماره أحيانا لكنه يكون فعالا فى أحيان قليلة .. أنا أعلم أننا لا ننجز الكثير إذ إن الوسائل تنقصنا .. يجب أن يتحول المجلس إلى جامعة فكرية هائلة ونحن نعرف مدى تأثير الجامعات الفكرى فى الإعداد للثورة الفرنسية فى القرن الثامن عشر .. لكن رجال السياسة لا يعبئون كثيرا لنشاطنا، ورجال المال لا يعنيهم الدفاع عن حقوق الإنسان .. هكذا ينمو الإحساس باللا أوروبية وبالموجة الأمريكية المتوقعة .. لاسيما أن هؤلاء الصناعيين يتمتعون بذهن عملى أكثر منه ثقافى أو روحانى، أمريكى أكثر منه أوروبى.

● يساند بعض المفكرين مبدأ مقاومة «التحول إلى الأوروبية، فهل تعتقد أن مقاومة «التأورب» الثقافى يعد عاملا إيجابيا وليس سلبيا تبعا لما قلت من أننا «كلما أنكرنا الثقافة كلما أثريناها»؟

ـ حين قلت ذلك كنت أعنى الحقائق الأدبية، أو تلك التى تخص تاريخ الأدب فقط. كل مذهب جديد ينكر المذهب السابق .. الرومانسية أنكرت الكلاسيكية، والواقعية أنكرت الرمزية، وهكذا دواليك.. لقد أنكر المبدعون لغة أدبية بعينها وجاء الشعراء المحدثون ليخترعوا لغة جديدة قضت على اللغة السابقة .. لكنهم فى الواقع لم يقضوا عليها وإنما أثروها .. هذه الظاهرة ذات قيمة أدبية أكثر منها ثقافية. حتى الفنانين التشكيليين التكعيبيين والتجريديين انتهوا بالاندماج فيما نطلق عليه تاريخ الآداب الفرنسية والثقافة الفرنسية .. وأعتقد أن الثقافة تستطيع أن توجه كل دلائل السلبية فى قنوات خاصة لتخلق منها دلائل إيجابية.. الثقافة قادرة على هذا، لكنها فى خطر، وحين أقول إن أوروبا فى خطر فإنما أعنى ثقافتها

الإنسانية .. إنهم ينقصون من شأنها يوماً بعد يوم .. وقد رأينا كيف تسير الرواية الجديدة فى طريق مسدود وكيف كانت نهاية الفن التشكيلى الحديث إلى طريق مسدود أيضًا ولابديل.. لا معارضين ينتهى بهم الاعتراض إلى الاندماج.. ستكون حقا النهاية: نهاية أوروبا وفناء تلك الثقافة الإنسانية.

● إذن نحن نصل إلى النهاية لأنه ليس هناك حداثة ولا معارضة للقواعد والقوالب الثابتة؟

ـ نعم، لم يعد هناك من يقوم بدور المعارض.. والأمر يصبح جد خطير حين نكتشف أن الشباب لم تعد به رغبة فى الثقافة... الرسوم المتحركة هى التى تجذب اهتمامه.. لقد كتبت مسرحية بعنوان «ماكبث» وهى محاكاة ساخرة لمسرحية شكسبير «ماكبث».. وفى أحد معارض الكتاب رأيت شابا يشترى مسرحيتى، وحين سألته لماذا اشترى هذا الكتاب؟ أجابنى «هكذا» فسألته إن كان قرأ «ماكبث» لشكسبير. فقال «لا»، لم يسمع بها على الإطلاق.. لم يعد إذن لذلك أى معنى.. لم تعد هناك استمرارية، لا موقف ولا معارضة، هناك فقط الجمود، الموت، أو نذير الموت.. لأن الثقافة الأوروبية ما هى إلا تتابع بين مواقف معينة ونقيضها .. هى تراث.

● من خلال حديثك تبدو متشائما أمام العالم المعاصر وأمام المستقبل؟

ـ نعم.. أنا شديد التشاؤم وأفكر دائما فيما قاله شبنجلر Spengler «نحن ندخل عصراً قيصرياً، عصر مدنية وليس عصر حضارة وثقافة، المفكرون يغيرون اتجاهاتهم ليصبحوا رجال حضارة.. نهاية الثقافة هو ظهور القيصرية الاستبدادية..

تلك هى الحركة المعادية لأوروبا على وجه الدقة، وأظن أننا مندفعون معها.. كل ما أراده الإنسان انقلب ضده فى أوروبا.. نحن نعلم جميعًا أن الثورة الفرنسية أرادت تأكيد مبادئ الحرية، المساواة، الإخاء.. وقد أكدت اكتشاف الإنسان لأخيه الإنسان.. هناك ثورات أخرى فى بلاد أخرى حاربت تلك المبادئ وذلك الاكتشاف الذى لم يتواجد فى روسيا بالشكل نفسه الذى تحقق به فى فرنسا وإنجلترا .. كل المحاولات التى بذلها الداعون إلى العدالة لم تسفر إلا عن القصاص، وكل من أرادوا الحرية أو ادعوا ذلك لم يحققوا سوى المذابح والإبادات الجماعية.. هناك انطباع سائد منذ ما يقرب من قرن من الزمان بأن كل ما يقوم به الإنسان ينقلب ضده، وأن التاريخ ليس سوى تسلسل عمليات ناقصة. كثير من مفكرى أوروبا اعتقدوا أن علوم وفلسفة الشرق الأقصى فى استطاعتهما مديد العون إلينا وتوجيهنا نحو الروحانية، إلا أننى لا أتمسك إلا نادراً باستمرار أوروبا فى نطاق قيم الشرق الأقصى الروحية التى ارتوى منها الأوروبيون.

هذه القيم لم يعد لها وجود لأننا حولناها بأنفسنا، ومن ثم نجد أن أوروبا فقدت مواردها التى كانت تستمدها من الشرق .. نضبت الموارد خاصة حين أخذ الشرق عامة أسوأ ما لدينا .. الآن تهددنا روسيا والصين بفرض القيم المشوهة علينا نحن.. نحن محاصرون. ■

أقصر نص مسرحى

أن تتعلم السير

يوجين يونسكو

ترجمة: ع. س

المنظر: فى الطريق.

الشخصيات:

- رجل (شاب)
- امرأة عجوز.
- دكتور.
- ممرضة.

يدخل الرجل من اليسار. يتحرك نحو منتصف المسرح وعندئذ يسقط على الأرض بشدة. امرأة عجوز تأتى من اليمين. ترى الشاب الراقد على الأرض. ترفع ذراعيها إلى السماء، ثم تضع سلتها على الأرض وتقترب من الشاب. تهزه. تكلمه وتحاول أن تجعله يتحرك، ولكن وزنه ثقيل بالنسبة لها، تنادى دكتوراً فيأتى وهو يحمل حقيبة. الدكتور والمرأة والعجوز يحاولان إنهاض الشاب. تدخل ممرضة الدكتور.

(يتغير المنظر إلى حجرة فى مستشفى). الدكتور والمرأة والعجوز والممرضة ينجحون فى حمل الشاب ووضعه على مقعد.

المرأة العجوز والدكتور يخرجان. الممرضة تبقى وحدها مع الشاب المشلول، وتبدأ الآن تعلمه كيف يتحرك. الممرضة تعلم الشاب أن يحرك يده وأصابعه، ثم اليد الأخرى، ثم ذراعه، والذراع الأخرى، ثم تتحرك بعيداً عنه وتغنى له كى يلحق بها. الشاب يحاول دون أن ينجح. الممرضة التى يظهر عليها فجأة قوة غير متوقعة، ترفعه إلى أعلى حتى يقف على قدميه فى منتصف المسرح بعيداً جداً عن المقعد. الممرضة تنزع عن رأسها قبعتها البيضاء، ثم بالتدريج تتجرد من مريلتها، فستانها.. إلخ. إنها تتحول إلى راقصة تلبس بنطلونا ضيقا ملتصقًا تمامًا بجسدها. **(المنظر يتحول تدريجيًا إلى حديقة مليئة بالأنوار)**. الفتاة الشابة (وهى الممرضة السابقة) سوف تجعله يرى كيف يحّرك أولا ساقا واحدة.. ثم الأخرى.. إنها سوف تساعده حتى لايسقط، ثم عندما يبدو أنه يتقدم إلى الأحسن فإنها سوف تتحرك بعيداً عنه، ثم تعلمه، من بعيد، كيف ينفذ الحركات المتعلقة بالسير.. ويتحركان أولا كما لو كانا جزءاً واحداً ثم يجريان سويًا.. ببطء.. ببطء أكثر.. بسرعة.. بسرعة أكثر.الشاب من ناحية يتحول إلى راقص: إنهما يتحركان حركات راقصة.. خطوات باليه راح يتعلمها. الشاب الآن يرقص بإعجاز؛ إنه ينفذ الحركات بطريقة أوقع من الراقصة نفسها. إنه حتى يدور حول نفسه. **(سُلم يظهر فى الخلف، وقد سقطت عليه إضاءة شديدة لا حد لها)** ثم بمجرد أن تمد الراقصة ذراعيها للشاب، وبدلا من أن يجرى نحوها، فإنه يغوص فى أضواء السلم ويأخذ طريقه إلى القمة راقصاً.

فى هذه اللحظة، الدكتور والمرأة والعجوز يصلان.. فى الوقت ذاته، ليريا، لدهشتهما البالغة أن الشاب يختفى وراء أعلى قطعة ظاهرة من السلم.

ويائسًا من الممرضة، التى يراها الدكتور فى لباسها الملتصق بجسدها، فإنه يمد يده بمريلتها وقبعتها البيضاء.. بينما المرأة العجوز تخرج وهى تكلم نفسها فى صمت. ■

سيناريو فيلم الغضب

يوجين يونسكو
ترجمة وتقديم : ع . س

أعتقد أن كثيرين لا يعرفون أن يونسكو قد أسهم في المجال السينمائي ، ولكنني أسارع بالقول بأن دوره لم يكن مؤثرًا أبدًا. ولقد تجلى دوره السينمائي في كتابة بعض السيناريوهات التي لم تر كلها النور . ولكن الملفت للنظر أن يونسكو أخرج فيلما ، وكتبه طبعا ، وأكثر من هذا أنه كان بطل هذا الفيلم. كان ذلك في السبعينيات وكان الفيلم عبارة عن استعراض لحياته نفسها ويمكن أن نطلق عليه يونسكو كما يرى نفسه) .

والفيلم لم يتكلف شيئًا تقريبًا فنحن نرى في البداية شارعًا ثم مباشرة إلى الحجرة أو المكان الذي يعيش فيه يونسكو بعد أن أحيل إلى المعاش . إنه في الواقع فيلم عن يونسكو وهو يموت. أو بمعنى أصح إنه أراد أن يقول كلمة أخيرة. ولكن نقاد السينما أعربوا بصدق عن أن الفيلم كان مملا إلى حد بعيد وكان أيضا عبارة عن نرجسية شديدة . انه قصة حياة رجل يموت قطعة قطعة . يتمشى.. ثم يتوقف .. ثم يتمشى ويتوقف تماما .. تصله مئات الخطابات يوميا إعجابا بمسرحه يرد عليها كلها ثم بالتدريج يرد على نصفها ثم ربعها.. حتى يأتي الوقت الذي لا يرد فيه أبدًا. أنه ينسحب من الحياة .

انسحاب آخر ليؤكد وجهة نظره: لا يحلق .. لا يأكل إلا القليل . بدل أن يضع قطعة الخبز في فنجان الشاي في الصباح ، لا يعد شاي الصباح .. ويبلل الخبز في الماء .. وأكثر من هذا يبلل الخبز في ماء الحوض الملوث. لا يريد أن يفعل شيئا .. لا يريد أن يسهم أي إسهام حياتي . وكل هذا الكلام سبق أن قاله يونسكو في مسرحيته الرائعة : الملك يموت . إنه بالفعل هذا الملك الذي يموت .. وقد قال كلمته منذ سنين ولم يكن هناك أي داع لتكرارها ..

ولقد عرض هذا الفيلم في إحدى دور عرض أفلام الدرجة الثانية في باريس وعرض لمدة أسبوع واحد فقط ثم بعد ذلك أسدل عليه الستار نهائيا ، ولا أحد يعرف السبب في ذلك . هل لأن الفيلم لم يكن له أي صدى على أي مستوى ، ويونسكو هو ذلك الفنان الذي كانت تهتز الأحداث الثقافية الفرنسية إذا ما كتب مسرحية ؟ .. هل فطن يونسكو إلى أن هذا الملعب ليس ملعبه وخصوصا أن الفشل كان ذريعا ؟.. هل اقترح المنتج ذلك ؟.. كل هذا جائز ، إنما الثابت أن هذا الفيلم مسح من ذاكرة السينما لدرجة أن كل الصحف والمجلات التي كتبت عن يونسكو بعد وفاته لم تذكر هذا الفيلم أبدًا .

وغير هذا وكما سبق أن ذكرت أن يونسكو كتب بعض السيناريوهات وقام بنشرها إلا أن واحدًا منها اختاره أحد المخرجين ليكون (اسكتشا) من (اسكتشات) هذا الفيلم.الفيلم اسمه : الخطايا السبع المميتة (١٩٥٢) إنتاج فرنسي إيطالي وقد أخرجه سبعة من المخرجين الكبار .

وهذا السيناريو الذي تحول إلى (اسكتش) في هذا الفيلم هو الذي نترجمه على الصفحات التالية ...

قـ اللقطة الأولى هى لقطة لسماء ربيعية ، حيث جلجلة أجراس تنبعث من كنيسة صغيرة تدخل إلى الصورة والكاميرا تلتقط صوراً لها من القمة إلى الأرض . الساعة تعلن منتصف النهار .. الثانية عشرة . بجانب الكنيسة يمكن أن نرى الميدان الصغير كما فى أى بلدة ريفية . توجد لحظة هادئة بين كل صوت جرس وآخر ، وكبداية فإن كل شىء يتبلور بشكل هادىء جداً . الناس يخرجون من الكنيسة . كلهم هادئون ومبتسمون ويحيى كل منهم الآخر بإيماءة من رأسه ، ويتبادلون جميعا تلك المجاملات الرسمية بأدب شديد . النساء الطاعنات فى السن يخرجن من الكنيسة . واحدة منهن تسير متخطية شحاذا مستديما وتعطيه عملة معدنية :

ـ هذه بمناسبة يوم الأحد أيها الرجل الطيب . ويجيب الشحاذ بابتسامة عريضة : بارك الله قلبك الرحيم يا سيدتى. السيدة تسير بينما الشحاذ يقول بابتسامة جميلة : الشحاذة وظيفة سارة عندما يكون حولك هذا الجمهور المتعاطف .

سيدة أخرى تكلم أخرى : أهلا يا حبيبتى كيف حال زوجك المسكين؟ فتجيب : إنه الآن سعيد لقد تعود أن يكون مشلولا .

مازال الناس يسيرون الهوينى فى الميدان يحيّون بعضهم البعض بالأيدى أو برفع القبعات . بعض الأشجار يمكن رؤيتها . سطوح المنازل تلمع فى ضوء أشعة الشمس ، والنوافذ التى تعكس الضوء . فى إحدى النوافذ نرى امرأة وقد ارتدت أجمل ملابس الأحد وهى تنادى صبيا ، شابا، تحت نافذتها وكان قد خرج توا من المنزل . تقول : لا تنسى شراء بعض الأزهار لخالتك . ويجيب الصبى : لا يا أمى لن أنسى وسوف أقدم إليها محبتك .

إذا أردت فإنه يمكن إضافة منظرين أو ثلاثة على المستوى نفسه . مساحة



أكبر من الميدان يتم كشفها ونرى مقهى صغيراً. رجل ريفى محترم يجلس فى الشرفة إلى إحدى الموائد ومعه زوجته. . زوجان آخران وفى السن نفسها يجلسان إلى منضدة ثانية .

الرجل الأول يقول للثانى : أنت تعرف أننى أشرب مياه معدنية فقط فى أيام الأحد أما الكحول فإننى أشربه فى أيام الأسبوع الأخرى.

الرجل الثانى : بالنسبة لى العكس تماما .

ولد صغير يمشى هناك مع جدته وتتم الطبطبة على رأسه وتقدم له الحلوى.

ـ أشكرك يا سيدتى .

هذا ما قالته الجدة للسيدة التى قدمت الحلوى للصبى .

الصبى : لقد حصلت على وشاح الشرف .

الصبى يكشف عن وشاحه بينما الكبار يلتفون حوله .

ـ إن حفيدى ذكى جداً. إنه يريد أن يذهب إلى مدرسة اللغات .

أحد الرجال : أى مدرسة لغات؟

واحد من أربعة من الممثلين الذين يلعبون أدوار الأزواج يمكن أن يكون بجانبه كلب وقطة صغيرة . الكلب يجلس ويأخذ وضع الاسترخاء . القطة تقوس ظهرها ويصدر عنها مواء خفيف . الكلب والقطة منظرهما مؤثر حساس ، وأسيادهما فى غاية الانشراح .

السيدة صاحبة الكلب : أليسا فى غاية الجمال ؟.. حتى القطة أكثر رقة من كلبى.

السيد صاحب القطة : إنها لم تحاول أن تخدش أحداً.

السيدة صاحبة الكلب : إنه لم يعض أحداً أبداً .

السيد صاحب القطة : أوه ..! هذه الحيوانات الصغيرة .. أنت تعرفين!

السيدة صاحبة الكلب : إنهم يستطيعون عمل أى شىء ماعدا الكلام.

السيد صاحب القطة : هذا صحيح تماما.

السيدة صاحبة الكلب : إنهم يفهمون كل شىء.

مناظر أخرى سعيدة تتوالى : القسيس يأخذ طريقه خارج الكنيسة.

رجل ما يستوقفه : يوم طيب أيها الأب.

القسيس يجيب : يوم طيب أيها الناظر .

الشحاذ الذى ظهر من قبل يحيى الشرطى الذى يرد تحيته بصداقة ويقول :

ـ كيف حالك يا عزيزى ؟ هل وجدت مكانا لتقيم فيه ؟

الشحاذ : إننى بخير . شكراً . هناك روح طيبة تستضيفنى .

الشرطى : هناك أرواح طيبة تحيط هذا المكان .

الشحاذ : كثير منهم ، إننى سعيد ببقائى هنا .

الشرطى : كثير منهم . إننى سعيد لأن أسمع هذا . إذا شعرت بالملل تعال إلى قسم الشرطة .

الكاميرا تتحرك إلى داخل محل حلويات . زوج شاب يحمل فى إحدى يديه صندوقًا صغيراً من الكعك كان قد اشتراه منذ لحظة ، وفى اليد الأخرى يحمل بعض الأزهار .

الزوج الشاب للسيدة التى خلف (الكاونتر) : زوجتى تحب الكعك .. إنها تعشق فطيرة الفراولة .

السيدة : إنك زوج يقظ . لابد أن كلا منكما مولع بالآخر .. لابد ألا أجعلها تنتظر .

يخرج من المحل . وفى الميدان يلوح لزوجته التى تقف وراء نافذة فى المبنى المقابل . يرسل كل منهما للآخر قبلات . بسعادة يتجه إلى البيت . يمكن أن يكون هناك آخرون يحملون الكعك ويتجهون إلى بيوت مختلفة . الزوج الشاب يدخل إلى بيته . زوجته تفتح الباب .

الزوج الشاب : أهلا حبيبتى .

الزوجه الشابة : أهلا حبيبى . ماذا.. مفاجأة أخرى!

يقدم لها الأزهار . تقبله . ثم يقدم الكعك . تقبله . الزوجة الشابة تضع الكعك على المنضدة المهيأة لطعام الغذاء وتضع الأزهار فى (فازة) . يخلع معطفه ويعطيها إياه ، يتعانقان ......

نرى داخل المنزل بشكل واضح . إنه بسيط ، مريح ومنير : الأثاث وورق الحائط واضح اللون ويوجد تليفزيون حيث تذاع نشرة الأخبار .

يسأل : ما الأخبار ؟

هى : طيبة بالطبع .. كما هى العادة.

المذيعة تعلن : إن تجمع كل رؤساء الدول قد بلغ الدرجة القصوى حول مائدة الاجتماع وذلك من أجل التسوية العامة. وبعد الكلمات المناسبة تعانق الرؤساء .



لقطة سريعة لرؤساء الدول وهم يتعانقون ، ثم وهم يقولون لبعضهم البعض : لقد وافقنا على كل شيء طلبتموه .

الزوج الشاب : رائع !.. كل يوم ولمدة ثلاث سنوات كانوا يتكلمون دائما عن التسوية .

منظر غرامى قصير بين الزوجين الشابين . إنهما يقّبلان بعضهما البعض بينما يتمتمان لبعضهما البعض : يا حبى .. يا حمامتى .. يا أرنبى .. يا حملى .. يا قطتى الصغيرة .. يا دجاجتى .. يا زهرتى ..

فور أن عاد الزوج الشاب إلى منزله ، نرى بعض اللقطات القصيرة ونرى رجلا كبير السن ، وأيضا يحمل بعض الأزهار. ذاهبا إلى شقة أخرى فى مجمع الشقق نفسه . عندما يكون الزوج الشاب قد خلع سترته يمكن أن تكون هناك لقطة لرجل آخر فى شقة أخري ، يخلع سترته ويسلمها لزوجته، كذلك زوجان آخران: قسيس يونانى أرثوذكس ذو لحية يقبل زوجته فى النهاية..

فى شقة زوجين آخرين .

الرجل يسأل : ما الأخبار ؟

واضح أن هذا السؤال يجب أن يوجه فوراً بعد أن يكون الزوج الشاب قد سأل السؤال نفسه . والمنظر الغرامى الذى بين الزوجين الشابين يكون قد انتشر بالشكل نفسه فى جميع شقق المبنى : فيحدث أنه بعد أن قال الزوج الشاب لزوجته : يا حمامتى ، نرى فى اللحظة نفسها زوجة القسيس ذى اللحية تقول لزوجها : ياكنزى. وبعد كلمة : يا حمامتى .. نرى رجلا عجوزا ونستمع إليه وهو يقول

لزوجته السمينة : يا صغيرتى الطائرة .. وهكذا .. وهكذا ..

الزوجة الشابة : سوف نستمتع بقبلة أخرى فيما بعد .. إن هذا هو وقت الطعام .

الزوج الشاب : نعم .. إننى جائع .

تخلع مريلتها وتذهب لتعلقها . يتبعها. يتعانقان . يذهب إلى المائدة ويجلس على مقعده ثم ينهض مرات أخرى كثيرة ليقبلها .

الزوجة الشابة : الآن يجب أن تتأدب . إننى لا أريدك أن تموت من الجوع .

هذه اللقطة و الملحوظة نفسها تتكرر فى شقتين أو ثلاث مع أزواج وزوجات آخرين .

الزوجة الشابة : لقد أحضرت لك أيضا هدية !

تقدم له رباط عنق .

الزوج الشاب : أوه .. كم هى جميلة !

يضع رباط العنق حول رقبته .

الزوجة الشابة : ستكون ملائمة جداً لسترتك .

يرتدى سترته . يتعانقان وكلمات تعبر عن الإعزاز . يذهب إلى المرآة ويتطلع إلى صورته باهتمام .

يقول : إنها تناسبنى تماما .

يقبلها .

الزوجة الشابة : الطعام جاهز يا حبيبى .

يذهب إلى المائدة ويجلسان .

الزوجة الشابة : إنك لن تجلس إلى المائدة وقبعتك فوق رأسك .

الزوج الشاب : إننى آسف .

يخلع قبعته ويعطيها إياها. تنهض لتذهب بها بعيداً. يخلع سترته ويعطيها إياها، فتذهب بها بعيداً. يبدو عليه كما لو كان مقبلا على خلع رباط عنقه ولكنه يغير رأيه .

- لا . إنها جميلة جداً.. سوف أستبقيها حول عنقى . هذه الملحوظة الأخيرة يمكن أن تحدث أيضا من أزواج آخرين فى المبنى .

أخيراً أصبح الزوجان الشابان على استعداد لتناول الطعام .

صورة مكبرة لدى الزوجة وهى تقدم الشوربة وتضعها على المائدة. الزوج الشاب يلوى وجهه وهو يقول : (شوربة مرة أخرى) .

لقطات متقاطعة ومتشابكة لأسر أخرى فى العمارة نفسها حيث تقدم لهم الشوربة .

الزوجة الشابة : إنك لم تتناولها طوال الأسبوع وهذا هو السبب فى أننى أعدها لك أيام الأحد . إنها شوربة الصيف.

الزوج الشاب : يا للاهتمام ! .

الزوج الشاب على وشك أن يتناول أول ملعقه عندما يرى ذبابة كبيرة فى طبقه . الزوج الشاب يتراجع والزوجة تنظر بقلق وتسأله :

- أهناك خطأ ما ؟.. ما الأمر ؟..

ينظر إليها بروح مرحة : أبداً.. لا شىء غير عادى .. إننى متعود على ذلك. ذبابة فى الشوربة .. تماما مثل كل يوم أحد .

الزوجة : ذبابة فى الشوربة ؟.. كذاب .

الزوج : ما هذا إن لم تكن ذبابة ؟..

الزوجة : إنك وضعتها بنفسك لتضايقنى .

الزوج : اسمعى .. يا عزيزتى .. إنك بالطبع لا تصدقين ذلك.. هذا سخف.

الزوجة : ليس هناك أى سبب لإهانتى.

الزوج : إننى لا أهينك.

لقطات أخرى نرى خلالها أزواجًا آخرين يتحققون من أن هناك ذبابة فى أطباق الشوربة .

يصيحون : ذبابة !.. (أول من يصيح بذلك هو القسيس ذو اللحية) ثم زوجة أخرى تجيب على زوجها : أى ذبابة !..

القسيس ذو اللحية : انظرى !..

فى شقة أخرى ، قاضٍ يجلس إلى المائدة : كل يوم أحد .. خلال ثلاثين سنة .. وأجد ...

لقطة أخرى للمدرس وهو يقول لزوجته : ذبابة فى شوربتى !..

القسيس الملتحى يرى وهو يلفت نظر خادمته : أعنى أن أقول ...

فى شقة صاحبة الكلب ، الزوج يقول:

كل يوم أحد ، وحتى الآن، ولمدة خمس وعشرين سنة !..

نعود مرة أخرى إلى شقة الزوجين الشابين:

الزوجة : يالها من ضجة حول ذبابة!.. إنك على أى حال لم تنشأ فى قصر .. إننى أعرف من هما والداك .

الزوج : ماذا كانا؟

الزوجة: تاجران فى الروبابيكيا والهلاهيل .

الزوج : لقد تركا العمل الآن . إنهما على المعاش .. بجانب ذلك مفروض ألا تنظرى باحتقار لأى عمل .. لا تتحدثى عن أبوى .

الزوجة : ما الذى فعلته ضدهما !..

الزوج : إننى أفضل أن أعمل فى تجارتهما بدلا من أن أكون قواداً.

الزوجة : ومن الذى تعنيه بكلمة قواد من فضلك ؟

الزوج: أبوك . كل الناس تعرف ذلك. تجارة الروبابيكيا عمل مرهق وجاد وهو عمل مرهق لأنه عمل يتم بمنتهى الأمانة.

الزوجة : يجب أن تحس بالعار لأنك تتكلم بوقاحة عن أبوى، بينما كان الواجب أن تكون ممتنا لهما. ما الذى كان يمكن أن يحدث لك وأنت لم تكن شيئا .. بعد المهر الكبير الذى حصلت عليه .

الزوج : ما أعطونى إياه كانت أوراق مالية مزيفة اضطررت لبيعها بنصف ثمنها.

الزوجة: بالرغم من هذا فقد كان مبلغا كبيراً.

الزوج : ليس هذا سببا على أى حال لأن تضعى الذباب فى شوربتى كل يوم أحد .

الزوجـة : لقـد حـذرونى .. وأنت تعرف .. لقد حذرونى من الزواج بك لقد قالوا لى إنك مجنون مثل بائع القبعات . لقد كان صادقاً . عمى كان صادقا . كان يجب أن أستمع إليه .

الزوج : هذا العجوز الأبله .. لقد كان منقطاً دائما.

الزوجـة : ليس مثل خالتك التى كانت قروية بلهاء.

تتتابع لقطات أخرى فى شقق أخرى:

زوجة القسيس الملتحى : أنت وخالتك!

القاضى لزوجته : جدك الأكبر

زوجـة القـاضى تجـيب : أنت وأسرتك الذين يستحقون الشنق.

القسيس المحلى لخادمته : أسرة من الكفرة.

فى شقة أخرى ، الشحاذ يقول للسيدة العجوز : محتالون .. يا سيدتى .. هكذا أنت دائما .

فى شقة صاحبة الكلب نرى السيدة وهى تشير إلى زوجها وتوجه **الكلام إلى كلبها :** اقضم رقبته يابنى..

فى شقة صاحب القطة .. نرى القطة تندفع بكل جسدها نحو الزوجة

نعود إلى شقة الزوجين الشابين حيث نرى الزوج وهو يصب الشوربة على رأس زوجته .لقطات أخرى سريعة تتتابع فى الشقق الأخرى . وعندئذ نرى الشوربة وهى تسيل من تحت أبواب الشقق إلى أن تصل إلى السلم . ونتيجة حتمية لذلك تبدأ اللكمات وتسرع الزوجات بالحركة . نصف دستة من الأيادى تسقط على وجوه الأزواج المحترمين .

فى شقة الزوجين الشابين تتكلم الزوجة :

الزوجة : مجرم !

فى كل بيت يبدأ الناس بقذف أوانى المطبخ فى كل مكان . واحد من الأطباق الذى قذف به واحد من الأزواج أو الزوجات يسقط عند قدم أحد ضباط الشرطة ، ولكن ما كاد ليعرف من أين جاء هذا الطبق حتى يسقط طبق آخر وآخر .. ثم يسقط واحد آخر فوق رأسه .

ينفخ فى صفارته طالباً المساعدة من زملائه . طلقة أخرى نرى فيها ممسحة تسقط فى طبق ساخن وتبدأ فى الاحتراق: وهذه بداية اشتعال النار فى المبنى.

ومن الآن وفيما بعد طلقات تتبع طلقات بطريقة سريعة . وفى داخل الشقق نرى كل زوجين يتباريان فى كسر الأوانى الصينية .. إلخ بعضها يسقط بعنف من النوافذ إلى أرض الميدان . وكل شخص يبدأ فى العراك مع أى شخص بينما الشوربة مازالت تتسرب عبر السلم.

تصل الشرطة فى عرباتها . بعض الأسر تنظر من النوافذ وترى عربات الشرطة . وفى إحدى النوافذ .. بين اللكمات والصراع يصيح أحد الأزواج : الشرطة . ثم تصيح واحدة من الزوجات: الشرطة .

يخرج رجال الشرطة من العربات ويسرعون إلى البيوت ثم يعودون فوراً مرة أخرى وهم يجذبون بعض الأزواج الثائرين الذين يناضلون للفكاك ويصرخون : الشرطة . ساعدونا . المبنى مشتعل بالنيران . رجال الإطفاء يصلون هم الآخرون ورجال المدينة يسرعون للدفاع عن هؤلاء الذين تم القبض عليهم.

الشغب بين الشرطة وسكان المدينة ينتشر فى الناحية كلها . وهنا يمكن الاستعانة بأرشيف السينما للقطات من الشغب والمظاهرات : مثلا العربات المصفحة التى استخدمت فى برلين ضد العمال ، أو الصراع بين السود والبيض فى جنوب أفريقيا ، وهكذا . فى شقة واحدة نرى الممسحة المشتعلة التى تسببت فى إشعال النار فى المبنى . لقطات أخرى لرجال الإطفاء وهم يصلون إلى المكان ويحاولون إطفاء هذا الجحيم: يمكن الاستعانة أيضا بالأرشيف فى هذا المجال. ثم تكون هناك صورللحرب : بوانكريه وكليمنصو يستعرضان القوات ، هتلر أو موسولينى يخطب فى الجمهور ، قذف لندن أوهامبورج . ثم تفقد السيطرة على هذا الجحيم بفيضانات وزلازل .. إلخ : تنتهى إلى صوت انفجار للقنبلة الذرية . هذا الفيلم الصغير يكون هو المركز حول شخصيتين يظهران فى اللحظات الحرجة من الحدث . الرجل الشاب والسيدة مذيعة التليفزيون ، اللذان نراهما أو أيا منهما خلال استراحات منتظمة خلال الحدث ، الرجل يجلس إلى منضدة فى مقهى . هادئاً جداً ثم فجأة يتحول هدوؤه إلى غضب من تلقاء نفسه. وعندها تسود الفوضى تماما ، وبالتالى حالته النفسية . قبل أن ينفجر الكوكب ، نرى وجهه هو الآخر وقد تحول إلى لون أحمر داكن . الشخصية الأخرى ، أى السيدة مذيعة التليفزيون تظهر من وقت لآخر وهى مبتسمة على شاشة التليفزيون ثم على شاشة السينما بأجمعها لتعلن خبراً ليست له أية علاقة بالأحداث الجارية ، إنها تتكلم عن الربيع وعن الجداول والأزهار والمروج. عندما تنفجر رأس الرجل وذلك قبل انفجار الكوكب فإنها تعلن وهى مبتسمة ابتسامة واضحة تظهر أسنانها الجميلة: سيداتى سادتى .. فى الدقائق التالية يمكنكم أن تشاهدوا نهاية العالم .

اللقطة الأخيرة : ينفجر كوكب الأرض .■

أنا والنقاد

يوجين يونسكو
ترجمة: ع. س

فى أحد الأيام الظريفة منذ سنوات جاءتنى فكرة أن أكتب حواراً أربط فيه بين الجمل الشائعة التى تتكون من كلمات وكليشيهات لا معنى لها.

وكانت نتيجة مبادرتى هذه شيئًا عجيبًا: لقد سيطر علىّ تكاثر الكلمات التى تشبه الجثث، وأدركت أننى قد استسلمت تمامًا إلى مفردات القرف والبؤس الشديد والعصبية المكتئبة.. ولكننى على أى حال وصلت بهذا الذى كتبته إلى نهايته الحتمية. وبالمصادفة البحته وقع هذا الكلام فى يد أحد الشبان المخرجين الذى قرأه باعتباره كتابة درامية، وحوله إلى عرض مسرحى. ولقد أطلقنا على هذا العرض اسم المغنية الصلعاء.. وحقق العرض ضحكات كثيرة. ولقد دهشت تماماً لأننى كنت قد تصورت أننى قد كتبت تراجيديا للغة.

وحتى أتفادى إمكانية أى تشويش كتبت مسرحية ثانية يستطيع المرء أن يرى خلالها مدرساً سادياً مفزعاً يقتل كل طلبته واحداً وراء الآخر. وللعجب فإن الجمهور نظر إلى هذا العمل باعتباره عملا مسلياً من الطراز الأول.

وعندئذ ومقتنعًا ومصدقًا أننى قد اكتشفت خطأً فى طريقتى فى التفكير، اكتشفت فى الوقت نفسه ودون أن أعى أننى مؤلف كوميدى، فكتبت بعض مسرحيات (الفارس): واحدة منها عن شخصيتين معمرتين وصل عمر كل منهما إلى حوالى مائة عام ينظمان أمسية لدعوة مجموعة كبيرة من الناس.. ولكن حدث أن لم يحضر أحد.. بالرغم من جمعهما لعدد لا حد له من الكراسى، إنها كانت مسرحية الموقف فيها كلاسيكى من نوع الفودفيل: المتفرجون يعرفون أنه لايوجد أحد من المدعوين، ولكن البطلين لايدركان ذلك؛ إنهما يتعاملان مع الكراسى الخالية كما لو كانت حيوانات من لحم ودم فيفتحان لهم قلبيهما بإحساس كوميدى مؤلم. ولقد رأى المتفرجون فى هذا الموقف ما يشبه رقصة الموت.

وهكذا فإننى مرة أخرى أقدمت على ارتكاب خطأ. وبرغم هذا فكرت فى إمكانية وجود حل يمكن أن أتجنب به إمكانية عدم الفهم: ألا أكتب دراما من أى نوع مثل التراجيديا ولكن ببساطة نصاً شعرياً.. شيئاً (يعاش).

حولت للمسرح شكوكى ويأسى العميق.. حولت كل ذلك إلى ديالوج؛ أعطيت لحما ودما لصراعاتى الداخلية، كتبت بإخلاص شديد وكانت النتيجة: مسرحية «ضحايا الواجب». وقد اتهمت بأننى دجال ومهرج بطريقة عملية.

حسناً هكذا قلت لنفسى وأنا ألعق جراحى.. لماذا لا أكون مهرجاً؟

جلست إلى مكتبى وألفت سبع اسكتشات قصيرة عرضت بعد ذلك فى واحد من هذه المسارح التى يطلق عليها ذلك الاسم الغريب: طليعى.

فى ذلك الوقت قال النقاد: إننى قد عملت محاولة جادة نحو الدراما التجريدية وأننى قدمت بعض المشاكل الجادة، ومع هذا، وبرغم أن فى هذا القول بعض الجدية إلا أن ذلك لم يقدنى إلى أى شىء.

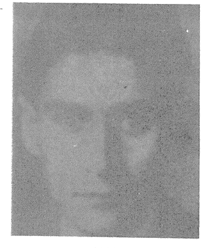
لقد صنعت وخلقت لكى أفهم أن المسرح ليس تجريداً بل شيئاً محدداً.

ثم إننى أردت أن أكون متأكداً ما إذا كان يجب على أن أستمر أم لا وفى أى اتجاه. من الذى يمكن أن أستشيره؟.. نقادى؟.. بالطبع كانوا هم الأشخاص الذين يمكن أن يضيئوا طريقى. ولذلك فقد بدأت أعيد القراءة والدراسة بكل انتباه وبكل الاحترام لكل ما كتبه النقاد عن مسرحياتى. وهنا تعلمت وأدركت أننى موهوب: فى هذا الوقت.. وفى الوقت اللاحق.. وفى وقت ما.. مستحيل.. أن تكون هناك فكاهات فى أعمالى.. وأننى أستاذ فى تلك المسائل التى تتصل بالمزاج النفسى وبالأسرار وأن مسرحياتى لها أبعاد تختص بالفلسفة

العقلية، وأن هذا ـ طبقًا لبعضهم ـ أننى بالأساس روح حقيقية، عالم نفسى، ملاحظ جيد للقلب الإنسانى وأننى يجب أن أستخدم قدراتى فى الخلق الفنى نحو هذا الاتجاه.. وأننى بشكل ما غير واضح.. وأننى كتبت بوضوح وبالضبط.. وأن موهبتى اللغوية فقيرة.. وأنها غنية.. وأننى كنت ناقداً عنيفًا لمجتمعى المعاصر.. وأن سر العيب فى الدراما التى أكتبها يتبلور فى فشلى لإنكار قوانين الظلم فى المجتمع.. الفوضى الثابتة أو المقننة.

لقد وجه إلى اللوم بشدة باعتبارى اجتماعيا: لقد تعلمت أيضًا أننى كنت بلا جدال شاعرى وأننى يجب أن أكون كذلك لأنه «لايوجد مسرح دون شعر».. وأننى كنت شاعراً وأن هذا بالضبط مالا يجب أن أكون لأنه «بعد ذلك كله ماذا يعنى الشعر؟» وأن مسرحياتى التى تعبر عن خجلى أو تهيبى .. باردة، وذهنية أو على العكس بدائية، بسيطة، وأولية، وأننى أفتقد الخيال تماماً.. جافة.. ويمكن الإحاطة بها بنظرة واحدة.. وأننى ليس لدى أى فكرة لأنظم خيالى المبالغ فيه وغير المنظم وأننى ـ بدلا من أن أكون جافا ومقتصداً كما يجب أن أكون ـ فإننى كنت كثير الكلام كثير الحشو.. هذا وذاك كان نقطة مهمة لصالحى.. وأننى يمكن أن أكون واحداً من خالقى دراما الأشياء: «يجب ألا يكون فى المسرح أى مواعظ» إنه ليس شيئًا حسنا.. لا أهمية لها فى النص.. نعم لماذا.. وعظ.. نعم.. إنه مهم جداً.. انه يحدد مسار المسرحية ويجعلها أكثر صلاحية للرؤية..أكثر مسرحية.. أوه.. لا.. نعم.. لا.. نعم لا.

قبضت على رأسى بيدى، وقلت لنفسى إنه من الأحسن أن أنصت لناقد واحد فقط. واخترت واحداً بطريقة جزافية وقرأت كل ما نشره عن أعمالى: لقد وجه اللوم إلى مسرحياتى باعتبارها مسرحيات سهلة وهينة جداً لأنه لاسر فيها. وبعد شهرين كتب الناقد نفسه..



كافكا

معترضًا على مسرحياتى باعتبار أنها محملة برموز جادة غامضة وتحدى أى شخص يستطيع أن يفهم ما الذى كنت أرمى إليه.

قلت لنفسى: دعنا نقرأ ما يقوله ناقد آخر. هذا الناقد الثانى داعب كبريائى: فهمت من كلامه أننى قد كسرت كل التقاليد المسرحية وأننى أكتب مسرحيات جديدة تمامًا، جريئة، وأصيلة، وأننى مبتدع وثورى. ومع الأسف فإن هذا الناقد الثانى رجع فى كل ما سرده من أفكار وأعلن أننى لم أكتب إلا مسرحيات لاتتفق مع العصر وكرر ما قيل قبل ذلك مراراً وألف مرة. لقد أكد لى أننى كنت متأثراً جداً بالكاتب السويدى أوجست سترندبيرج وقد دفعنى هذا لأن أقرأ أعمال هذا الكاتب السويدى: واكتشفت أن ذلك صحيح تماماً، وآخرون قالوا: ليس سترندبيرج بل ألفريد چارى وأن هذا شىء طيب لأننى أيضًا كان لدى شىء خاص أستطيع أن أقدمه.. وأن هذا ليس شيئًا طيبًا لأنه لم يكن لدى شيىء شخصى أقدمه.. وغير ذلك قالوا بل إننى تأثرت بهؤلاء الكتاب: تشيكوف ـ ريموندروسيل ـ بيرانديللو ـ كورتلين ـ الفونس ألاس ـ كافكا ـ لوى كارول ـ كتاب العصر الإليزابيثى، الطبيعيين، والتغريبيين، والكاتب الأيرلندى سنج، وآرتو، وأيضًا لوتريمو، رامبو، دوميه، نابليون، ريشيليو، مازارين وكتاب كثيرين آخرين.

هل يمكن أن أصدق عندما أقول إننى ضائع تماماً؟.. إننى أنوى قراءة واحدة من حكايات لافونتين: «صاحب الطاحونة وابنه والحمار» ربما خلال هذه القراءة أستطيع أن أحصل على بعض الرضا عن النفس فى النهاية.. ■

علامات

ـ ولد يوچين يونسكو فى بلدة سلاكينا (رومانيا) فى ٢٦نوفمبر سنة ١٩١٢.

ـ من أب رومانى وأم فرنسية وكان تلميذا فى فرنسا حتى بلغ الثالثة عشرة من عمره، فعاد إلى رومانيا وعاش هناك إلى سنة ١٩٣٨ حيث أنهى دراسته، فعاد إلى فرنسا حيث حصل على الجنسية الفرنسية وعاش هناك.

كتب ٣٣ مسرحية، على الأقل، ست منها تعتبر من الكلاسيكيات الحديثة لقيمتها الفنية العالية. ولعل أشهر هذه المسرحيات هى مسرحية «الخراتيت» التى قدمها المخرج الفرنسى العظيم «چان لوى بارو» فى باريس وقدمها بعد ذلك فى لندن «لورانس أولڤييه» ثم قدمها «زيرو موستيل» فى نيويورك وكان ذلك كله فى سنة ١٩٦٢.

بالإضافة إلى أنه بدأ يكتب الشعر فإنه فى أخريات أيام حياته بدأ يرسم وله لوحات فنية على قدر عال داخل نطاق الفن التشكيلى.. وقد دخل هذا الحقل الفنى الجديد بعد أن توقف تمامًا عن الكتابة للمسرح سنة ١٩٧٩.

عضو من الأربعين عضواً الخالدين فى الأكاديمية الفرنسية French Academy.

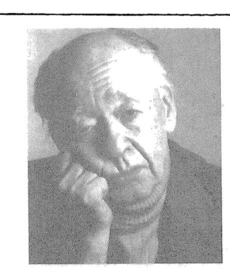
بعد انقطاعه عن المسرح سنة ١٩٧٩ بدأ يتبنى على المستوى العالمى حقوق الإنسان.

ـ فى يوم وفاته فى ٢٨ مارس سنة ١٩٩٤ كانت مسرحيتاه (المغنية الصلعاء والدرس) قد عرضتا ١١٩٤٤ عرضا بصفة مستمرة فى باريس، وما زالتا تعرضان حتى اليوم.

أعمال يونسكو

المسرحيات

- المغنية الصلعاء.
- الدرس.
الكراسى.
- ياله من سرك مخيف.
- الساكن الجديد.
- أميديه.
- ضحايا الواجب.
- الخراتيت..
- القائد.
- المستقبل فى البيضة.
- القاتل.
- ارتجال.
- خلقت للزواج.
- الملك يموت.



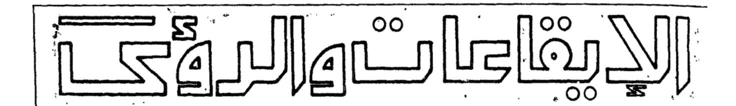
- معرض السيارات.
- مجموعة الأربعة.
- تجول فى الهواء الطلق.
- جنون الاثنين.
- الجوع والعطش.
- الصورة.
- تحيات.
- ماكبث.
- الوحل.
- أن تتعلم السير.
- هذا هو الساطور.
-- فوق النظر.
- أقدام الجدار.

سيناريو أفلام

- البيضة المسلوقة.
- الغضب.

كتب أخرى

- ملاحظات وملاحظات مضادة (مقالات وحوارات عن المسرح).
- الحاضر الماضى، الماضى الحاضر (أفكار وذكريات) ■



البحث عن ماء اللذة اللزج (1)

قصة

محمد حافظ رجب

قال لروحه المتأججة بالنار والدخان: لقد انتهيت..

... لا ينتظر ساعات أخرى قادمة تضاف إلى حصيلة عمره...

... شاهد بنفسه عقله يتدحرج فوق درجات السلم العالى.. إلى الطريق العام

.. حيث يهرول البشر بلا عيون ترى.. لم يحاول أن يلتقطه.. فقده...

.. قصّ شاربه.. أصبح مكانه ـ مثل النساء ـ أملسَ.. تمتم:

ـ أنا امرأة فى الميزان مثلها...

.. بصق سعالا

.. انتهى مستقبل شاربه وسعال الرجل فى داخله: «أنا هنا» لتنكمش المرأة.. تصمت الأم: «الرجل موجود بينكم».

.. خرج إلى السطح.. ألقى بشبابه من فوق السور.. سقط صريعا لا فائدة منه...

.. منذ قليل عاد إلى الحظيرة...

... قطعة جمر مشتعلة.. تخطف درجات السلم.. درجة درجة.. تصهر الحديد.. تحرقه.. يتطاير منها الشرر والحداد يطرق الحديد ساخنا... الطابق الأخير اقترب.. السطح.. يصعد إلى الأعالى بجناحين ممزقين: طائر الرخ متعب وحزين..

.. بضع درجات.. يكون فوق الدرجة الأخيرة.. مذعوراً الشبح يجرى، من وقع خطواته الأخيرة على السلم.. دحرج العين خلفه ـ ماذا يرى:

الصبى المخنث.. ابن الأرملة.. ساكنة النصف الآخر من السطح: شبح آخر غامض.. ملتف برداء أسود مظلم لا يعرف حقيقته ولا معناه.. الغموض مرعب هناك.. تصنعه أرملة السطح الآخر.. هى وابنتها العاهرة.. صديقة نصفه التى تعيش معه...

.. امرأته تعرف مجاهل الأحراش الرابضة فوق السطح الآخر.. كما تعرف أحراشهم.. هو لا يعرف السطح الآخر ولا سطحهم.

... أين كان الصبى: يختفى بين فخذيها ولحم بطنها.. عيناه فوق حجرات السطح،

مغلقة كلها بالضبة والمفتاح: حظيرته وحدها مفتوحة الباب تعلن: هنا كان أحدهم اقتحم عرينه فى غيابه الذى يطول: تبول فى الشىء الكامن .. خلف ستار الملابس... سحابات عمياء فاقعة السواد تمر داخل روحه: اكتسحه الغضب اكتسحها .. اكتسح الحجرة: النار والدخان والغضب والحريق: سقطت مقدمة الكلمات سقط ضرس العقل والبصر والبصيرة.. صار أحمقَ.. سألها:

ـ من كان معك..

.. وقع الخطأ المريع.. قال الكلمة البشعة..

.. لو قالت..

.. لم تقل.

... **هالها شكل الغضب.. أنكرت...**

ـ **لا أحد.. لا أحد..**

.. لكنه رآه: خرج من أحشائها يحمل سروالها.. بصق فى داخلك أول بصقاته.. يتعلم فى جسدك.. وأنت وحدك.. بمفردك .. منذ أول اليوم حتى نهاية الليل: الصمت مع الجدران الموحشة يأتى بالخبل .. شكله بشع.. هرم هو، وهو يعود إلى مأواهم فى آخر الليل.. وهذا هو مراهق رقيق فى شكل فتاة يقتحم عرينه قبّلتيه فقبلك.. امتدت يداك إليه.. عانقتيه:

تذوق طعم تجربته الأولى معك وهو يرتعد. يجب أن أعثر على الماء اللزج المسكوب فى إناء الحرام تحت طيات ملابسك.. دليلى لكى أفترس رقتك..

.. يداه امتدتا فى جسدها.. فى المتاهات الخفية.. تبحث عن لون شكوكه .. امتدتا فى أدق مكان.. تأوهت من الألم: مفترس هو: كل شىء .. ضاع.. انتهى الأمر: الخبل يربض فى قاع الطرق: يبحث عن اللزوجة ليرى شكل من ستنجبه.

ـ من كان معك

ـ لا أحد.. لا أحد..

ـ إذن سآكلك

ـ جارتى مرّت.. دعوتها.. دخلت.. انصرفت بعد قليل.

.. تلك التى تستقبل عشيقها فى النصف الثانى من متاهات السطح المتوارية: هل هو عشيقك

طارق ليل الظلمات [٣]

الرابض فى الظلمة.. تبعثر التفكير المتزن أثناء البحث عن الحقيقة..

ضغط على مسمار الانفجار.. انفجر.. دوى الوهج.. تناثرت الأشلاء فى أنحاء الحجرة.. قامت تجمعها.. ستصيرين مثلها بعد قليل.. لن أجعلك تجمعين البقايا..

ـ من كان معك؟. الصبى المخنث.. رأيت جسده يترنح من النشوة وهو خارج من هنا..

ـ إنه ابن الأرملة..

ـ تعترفين إذن أنه هو.. تقولينها بلا حرج.. هل كنتما تلعبان الاستغماية والصغير.. تضعان منديلا فوق عينيه وهو يبحث عنكما فى كل مكان وأنت

وهو تختبئان تحت السرير.

ـ ربما أتى من عند أمه ليسألنى عن شىء..

ـ هل سطح أمه انتقل إلى سطحنا..

ـ ربما ينتقل السطح كلما لمع نور القمر..

.. من رأسه انبثقت الدماء ساخنة.. ألقى بها المزراب من السطح إلى عرض الطريق..

..رفع يده .. سددها...

... يده الأخرى رفعها... لطم الوجه.. سال الدم من أنفها: الدماء والخيانة والوحشية.. والسطح والزمهرير يقرص البدن..

ـ يجب أن تشعرى بالخجل من نفسك .. أنت زوجة وأم.. وإن كنت ترغبين فى تذوق اللحم. فلتأكلى لحم رجل.. لا لحم صبى..

● ● ●

بدأ يقتحم صفوف البشر. بسكين علاها الصدأ.. لعب الدومينو بحماس ملتهب.. مع صديقه بائع الحلوى. دون أن يتسرب من تحت إبطه السر...

.. صديقه يلعب بكل عمره. شبابه وأعصابه وجسده وويل لمن يغلبه! .. من اضطرابه داس فوق جسد قطعة اللحم ابنه.. قطعة لحمه دهسها وضعها تحت الحذاء.. أنّتْ.. لم يستجب لأنينها..

.. حوّل شرارات غضبه إلى امرأته صديقة المراهق المذعور الفار من جانب السور....

... نائمة على الأرض تحلم به..

منذ الأمس افترقا.. تنام مع الصغير. يفرق بينهما زمان ومكان وصحارى وأنهار وبحار...

هو وحده

... رفع القدم... ركلها بلا شفقة.. القسوة تنفث دخاناً أسود... تنفث سحراً

... نهض من رقدته.. أمرها بحمل الطفل... نفذت الأمر فى عبودية مؤقتة...

وهى صامتة..

.. صوت نحيبها يصل إلى أذنه فحيحَ أفاعٍ جائعة.. غلبه النوم: رآها عارية.. مكدسة بالإغراء.. يضاجعها طفل رضيع.. صرخ فيها:

ـ كفى عن نكاح الطفل.. سأقتلك وأقتله...

... فرت من أمامه.. تحمل قميص نومها والسروال مبْتلا. تبعها الطفل صارخا.

... لم يتمالك نفسه.. تبول على نفسه وهو يبكى...

● ● ●

فى الصباح لم يجدها... تحسس ملابسه وجدها مبتلة.. قام وغيرها ... انصرف إلى حال سبيله ■

قا

.. قادمون إلينا..

... غدنا حافل...

... مسرات القلب تسرى حارة... تنفث راحة.. فوق وجهينا راقدة. .. ليلة الليالى: السهر ساهر حتى الصباح: عريض النور والضوضاء..

.. الغد عيد...

... وحدنا نحن....

.. مهندس أنا (٢٩ سنة): على زيور...

... موظفة زوجتى (٢٥ سنة): أحلام منصور

.. غرب (النوبارية) مكاننا..

... بيتنا حافل: اللحوم والمشهيات فوق المائدة.. بالونات العيد .. تتدلى: عناقيد عنب: الكرم ناضج..

.. قادمون إلينا فى الغد: ضيوفنا: الأصدقاء: الأهل.. أعددنا البيت: بالورد فرشناه... والشوق..

... العيد جاء..

عنف صاخب فوق الباب: طرقات وحشية تعربد...

... دوى الطرقات جنون...

.... وجومنا ينصت مأخوذا من الرهبة..

... وقتنا بعد منتصف الليل بقليل..

.. مَنْ طارق ليل الظلمات: هذا العنيد: يقتحم مكاننا باللهفة الملحة العاجلة..

ـ اسرع يا على.. انظر مَنْ طارق الليل المقتحم لسكون عشنا..

.. فتحت الباب..

.. قبضة نار اخترقتنى: إلى القاع ألقت بى...

... دخلوا ...

... رياح شريرة هم: المُدَى فى الأيادى..

... ثلاثة هم.......

بشاعة فوق الوجوه تتمدد..

ـ زيور، مين دول.؟

.. صرخت (أحلام)..

.. قبضتى المذعورة.. ارتطمت بأول الداخلين..

.. فوق رأسى هبط الجحيم: أشعل النار فيه: من أنفى خرج دخان الحريق..

.. على الأرض هبطت..

«بين المزارع والحقول سرت مترنحا.. هائما أبكى»

.. أوثقونى بالحبال..

... انتهى أمرى معهم..

ـ كل ما عندكم هاتوه: الذهب والأموال..

.. خلعوا أساور الذهب من يدها...

.. أخرجوا أموالنا من الدواليب.

... انتهى الأمر: كل ما كنا نملك أخذوه...

... سيرحلون...

... هموا بالرحيل...

... أجهشت (أحلام) بالبكاء

... فى هذه اللحظة.. نظروا إليها..

.. نظر كل واحد فى عينَىَ الآخر...

... ابتسموا ...

... ارتعشت أنا...

«سار فى مجرى الأوردة صقيع برد النوبارية»

... فى لحظات شدوا وثاقها بالحبال..

«تمتمت وأنا مازلت أترنح فوق خطواتى بمحاذاة (النوبارية):

ضاجعينى يا أحلام.. أنا لست مسئولا عنك ما لم تفعلى: على الفور رأيتهم يقتحمون مضجع أمى وهى عارية: صرخت: كفوا يا أوغاد عن مضاجعة لحمى... كيف تفعلون ذلك وأنا موجود بينكم»

... اقترب الأول منها...

... اخترقها...

... تتساقط السماوات فوقنا، تفور براكين الأرض والبحار ... اهتز البيت المنكود... تناثر كل ما فيه: زلزال عربيد أطاح بى وبها... بالرجال الثلاثة....

... صرخت (أحلام) وأنا راقد بجوار (النوبارية) أهذى:

ـ زيور يا حبيبى.. الْحَقْ مراتك.. حبيبتك (أحلام) ضاعت خلاص...

.. أغمى عليها...

«من بعيد لمحت طابورا طويلا من النساء يسرن عاريات... والرجال الثلاثة يقهقهون عاليا»

.. «أشرت إليهم: سأضعكم فوق الموقد أشوى أكبادكم ولحومكم .. هيا يا زوجتى كلى من لحم من ضاجعوك... تركها الأول...

.. أفاقت...

... راحت تبكى...

... انتحى جانبا....

.. بدأ الثانى يثقب اللحم...

.. «نظرت إلى الطابور السائر فوق مياه النوبارية.. تساقط الرجال والنساء صرعى أمامى وهم يصرخون صرخات الفزع العظيم»

.. أمسك بها الثالث...

... أنّت .. ثم غابت عن وعيها...

.. يغرس أسنانه.. كان.. فى لحمها

«صعدت إلى أعلى برج: بلا غطاء من ملابس: صحت من فوقه

على الناس المتجمعين وهم عرايا تحتى: فقدت اليوم رجولتى أمامكم

.. لم يتدخل أحد لإنقاذى.. الآن أبصق على جثثكم أجمعين..»

.. «تركت البرج.. سبحت فى (النوبارية)... سبقتنى زوجتى إليها.. حاولت الإمساك بها.. حاصرتنى أسماك القرش.. هاجمتْ (عضوى) التهمته.. قهقهتْ الأسماك الشرسة عاليا.. رفعت سكينى.. بقرت بطونها.. لم أجد عضوى.. مضغت اللحم..

بصقته على الجانبين»

.. انتهى منها الثالث..

... قفزت بلا ملابس.. عانقتنى عارية.. حولنا تجمع رجال ونساء.. عراة مثلنا. يصرخون ويبكون... صرخنا مثلهم وبكينا..

● ● ●

.. فتحت أحلام عينيها......

.. صرخت...

... مات العيد

... مات جسدى: جسدها....

..... مات البيت.. ماتت (النوبارية)... ماتت (البحيرة) ... والأرض المروية.. فاض النيل على الجانبين منكسر القلب متشحا بالسواد .. المائدة حافلة أمامهم: برقت عيونهم... جلسوا حولها..

.. مضغت أنيابهم... ما فوقها... اللعاب يسيل... تجشأوا.... بصقوا على الأبسطة... نهض أحدهم تبول فوقها...

....

... قاهر: الألم الحزين..

... القيود مشدودة...

... ما أراه لم يره أحد...

.... الجرح فىَ رأسي ذهول...

«أى طرقات ملعونة... لبّيْتَ دعوتها... فتحت غطاء ماء النار. أحرقتنا.. أحرقت وجه العالم معنا.... ليتنى كنت أصمَّ هى وأنا... ليتنى مقطوع الساقين.. ميت الحركة حتى لا أفتح باب الرعب..... ■

رسالة الحائط الرطيب

قصة: خيرى شلبى

قانع نحيف القوام مهزول البدن مرهق النفس على الدوام. يطل من عينيه شقاء ووجع مزمنان؛ فيهما بريق استهوال كأنه انحط فجأة بين عصابة من اللصوص الخطرين فتجمدت فى عينيه نظرة الاستهوال المبطن بدهشة مع حقد مع حسد مع ظل من البلاهة الماكرة؛ نظرة من يريد ولو لحسة من السريقة جزاء سكوته على ما رأى.

ذلك هو وجيه ابو وهدان . أصله من مدينة المحلة الكبرى شُغلته فى الأصل حلاق ؛ له محل فى شارع السوق أهم شارع فى المدينة . لكنه يتعشق تأليف الأغانى . من أجلها داوم على هجر الدكان ومدينة المحلة . بات كلما توفر لديه مبلغ ركب إلى القاهرة ؛ فيتجه مباشرة إلى حديقة معهد الموسيقى فى شارع الجلاء ، يعرض على الصحبة أغنياته ؛ يتصيد المطربين والملحنين ليسمعهم هذه التآليف ، ولكن بصنعة لطافة.

حيلته فى ذلك من أعجب ما يمكن ..

فلقد هجر الدكان أى نعم ، ولكن عدة الحلاقة دائما معه . حقيبة منفاخ كانت أنيقة ذات يوم قبل أن يلقيها سوء حظها بين يديه يحشر عدة الحلاقة كلها بفوطتها فى جيب منها ؛ وفى جيب آخر دفاتر وأوراق مكتظة بالأغنيات ؛ وفى جيب ثالث قميص وغيار داخلى . ومن طرائف هذه الحقيبة أنها حين تفتح على جيب معين فإنها تبدو كما لو كانت مجرد هذا الجيب وحده فقط . أما هو نفسه فإنه يجتهد فى أن يكون على الدوام نظيفا إلى حد مقبول ؛ فالبنطلون من صوف الفانلة هو هو لكنه دائما مكوى ؛ وكذلك القميص الأبيض ذو الكم المشمر الأساور عن ساعة جوفيال عتيقة فى معصمه الأيمن تمشيا مع تقاليد الشواذ المخالفين للتقاليد من أهل الفن والمجتمع.

موهوب الملامح ؛ ما إن تقع عينك على وجهه حتى ترثى له تشفق عليه وعلى حماسه . لا تلبث حتى تتعاطف معه ؛ إذ هو على الأقل تعشق طريقا جميلا فى حين يتعشق أمثاله المكاسب والشطارة.

بارع فى التعرف إلى كبار الملحنين والمطربين ، والتقاط أخبارهم من كل مصدر ، وتسقط أنباء زياراتهم المرتقبة للمكان الفلانى : سيعمل بروفة فى نادى نقابة الموسيقيين يوم كذا الساعة كذا ؛ سيكون فى المعهد بعد ساعتين من أجل كذا ؛ سيكون عند الترزى يوم كذا .. هكذا يمكن أن يجيبك إذا سألته عن أخبار أى مطرب أو ملحن.

يرى أن حديقة معهد الموسيقى هى أنسب مكان للتلاقى ؛ فهى المكان الوحيد الذى يملك مبررا لاقتحامه فى أى لحظة والانتظار فى حديقته الواسعة . إنه قد يجد الشخص المرجو فجأة جالسا بجواره أو قبالته يشرب فنجان قهوة . حينئذ يبدو على سمت وجيه أبو وهدان هدوء وثقة ، عدم رغبة فى المطاردة ؛ فيأمن له النجم المرجو يوقن أنه جالس مع رجل وقور متزن لن يطلب منه خدمة لن يلح عليه فى شىء أو يزعجه بثرثرة فارغة. لا يجد النجم غضاضة فى أن يبادله الحديث والتعليقات حول ظواهر عامة ؛ وإذ يتأكد أن هذا الشخص غير متكالب عليه غير مراقب له فإنه يصير على سجيته يلتزم جانب اللطف مع جليسه ؛ فالنجم دائما أبدا لا يهتم إلا بمن يظهر له عدم الاكتراث به .

لكن ، يؤتى الحذر من مكمنه كما يقول المثل . إذ إن وجيه أبو وهدان يكون قد دخل بالفعل من باب آخر لا يتوقعه أحد رغم أنه بات ظاهرة متكررة بالنسبة لمعظم نجوم الموسيقى والغناء ممن يرتادون حديقة معهد الموسيقى. يتسلل وجيه أبو وهدان بالحديث حول تسريحة شعر النجم ؛ وكيف أنها غير متسقة مع شكل وجهه الجميل ؛ وأن الفورمة المناسبة له هى هذه ، ويريه صورة للتسريحة فى كتالوج مطبوع . ومهما كانت رغبة النجم فى تقفيل الحديث قوية باترة فإنه سيفاجأ بعد دقائق أنه قد صار يتفرج على الكتالوج فى شغف . وبعد دقائق أخرى سيفاجأ

بأنه قد جلس فى الوضع المناسب والتفت فوطة الحلاقة حول رقبته صار تحت الماكينة والمقص والموسى بالفعل .

تقع الضحية فى المصيدة فليس أمامها ثمة من مفر ؛ فيشرع وجيه أبو وهدان فى تسوية ضحيته على نار هادئة ؛ يلقى على سمعه كل ما تحتويه جعبته من أغنيات على درجة كبيرة من الطرافة . فى تسعين فى المائة من هذه الحالات لن تشعر الضحية بالضجر إلا إذا كانت مرتبطة بموعد عاجل . فيما عدا ذلك فإن الرجل سيجد أن تعديلا جوهريا قد حدث بالفعل فى تسريحة شعره بلمسات بسيطة سريعة مدربة . سيجد كذلك أن الكلمات التى يستمع إليها لا تخلو من أفكار وجيهة طازجة فى كل الأحوال ، وبعض العمق أحيانا ، ودربة على النظم الموزون ، وبراعة فى استجلاب القوافى الغريبة التى لا تخطر على البال لأول وهلة ، والتى لو سمعتها وحدها لا ستتكفت ورودها فى أغنية . ثم إن أغنياته تختلف عن أغنيات معظم الهواة المترددين على حديقة المعهد ؛ إنها تدور حول فكرة أو لمحة أو موضوع يكون فيه منفذ لورود الحب والكلام عنه بلهجة فيها جرأة وواقعية ؛ فى معالجة فنية يغلب عليها السذاجة ، لكنها السذاجة اللطيفة المغرية بترديد الكلام.

لهذا كان من السهل أن تصل كلماته فى بحر سنوات قليلة جدا إلى حناجر بعض مطربى الدرجة الأولى . اشتهرت له أغنية اشتغلت كثيرا فى حفلات أضواء المدينة بصوت مطرب شعبى مرموق ؛ كانت الجماهير تطلبها منه - وبإلحاح - فى كل حفل .

بعدها أصبح يزور حديقة المعهد كواحد من المشهورين الموموقين . تنازل عن عدة الحلاقة مؤقتا . لم يتركها ، إنما أغلق الجيب الذى يحتويها فلم يعد يفتحه قط إلا فى حالات نادرة حين يقع أحد النجوم فى زنقة موعد أو تصوير فيطلب إليه رفع لحيته بسرعة . لكن مظهره بقى كما هو ؛ لم يطرأ على حالته الاجتماعية أدنى تغيير وإن قويت عينه وبات إذا جلس يضع ساقا على ساق .

لم يكن ذلك عن غطرسة أصيلة فيه، إنما هو مدفوع إلى ذلك دفعا ، للدفاع عن نفسه ضد نبرة من الاستهزاء الخفى باتت تجابهه من رهط ممن أطلقوا على أنفسهم شعراء العامية ؛ فارتبطت أشعارهم بشعارات الاشتراكية والنبرات الخطابية الزاعقة ؛ شاعت فيها مفردات كالخطاوى والغناوى والأحمرانى والأخضرانى وما إلى ذلك . أحيانا كانوا يجاهرونه برأيهم فى أن «المرحلة» لا يجب أن تتسع لأمثاله من الذين يكتبون شعبيات لا فكر فيها ولا ثقافة وراءها فهى إذن ضد الفلسفة الاشتراكية التى تنتهجها البلاد فضلا عن أنها مدمرة للذوق العام. فيطاولهم برأيه فى أن الاشتراكية يعنى أن تأخذ كلماته هذه وأمثالها طريقها إلى الآذان وهى آخذته بالفعل شاءوا ذلك أم أبوه . وقد لقى منهم صنوف الكبر والاستعلاء والعدوانية حتى لكأنه حشرة يتأففون من منظرها يعملون على سحقها. نجحوا فى الاستيلاء على الفرص الثمينة لأنهم كانوا بالفعل وقودا للمرحلة فأفلحوا أن يكونوا تمثيلا لها بأى شكل وعلى كل لون . المرحلة كانت فى حاجة لأبواق ؛ والأبواق فى احتياج للشهرة والمال والنجومية ، فالصفقة إذن متوازنة . بشكل أو بآخر سيطروا على مشاهير الملحنين الذين لهم نفوذ كبير على الأصوات والميكروفات ، والذين هم بدورهم جزء لا يتجزأ من الصفقة . امتلأ الأثير بكلمات ذات نزعة شعارية ، أو عاطفية مجنحة ، أو فولكلورية بصياغة جديدة مسبوكة مائعة. أما هو .. وجيه أبو وهدان . فقد كان أقرب إلى الفولكلور من حبل الوريد ، هو الفولوكلور بكل عبله الجميل الصادق : الخشونة والتلقائية المفرطة فى العرى من أى تزويق أو تجميل أو إسقاط وإن كانت أعماله مع ذلك لها أبعادها العميقة ولكن فى حدودها الإطارى ككيان مستقل قائم بذاته .

كان يضيق بزيف القاهرة وعدوانيتها الشديدة ، فيهرب إلى المحلة الكبرى يلتمس فيها أمنا ورزقا من صنعته . فما يلبث حتى يضيق بالمحلة الكبرى وعالمها المحدود ، يشعر بعمق الاغتراب، فيشد الرحال إلى القاهرة . كان بالفعل منبت الجذور حقا ، يلفظه مجتمع المحلة العملى الصرف، المنغمس فى ماكينة العمل بلهاث لا ينقطع ؛ ويستعلى عليه مجتمع القاهرة الزائف بطواويسه المدربين على شغل الحواة ولاعبى ثلاث الورقات ودهن الوجوه بالمساحيق والبويات ، حيث يعيش كل واحد بشخصيتين وربما أكثر .

كثيرا ما اختفى تماما ، لأوقات طويلة لا يظهر فى أى مكان . ولأنه لم يعدم المحبين والمتلطفين فإن الشعور بغيابه يكون دائما قويا ، لدى الجميع فى غالب الأحيان . فمستلطفوه يشغلهم الاطمئنان على أحواله ؛ ورافضوه يشغلهم الاطمئنان على اختفائه النهائى كأنه العقبة الكأداء فى طريقهم .

هو أيضا من الذكاء والملاحية على قدر كبير ، يعرف جيدا من يستلطفه فيسقط عليه فجأة ليمكث معه وقتا طويلا يعطيه تقريرا مفصلا - فهو مغرم بالتقارير المفصلة - عن أخباره وأحواله ؛ ويعرف كذلك من يرفضه فيمر عليه مرور الكرام لا لشىء إلا ليكيد له بإشعاره أنه موجود على قلبه لم يمت بعد ولن يموت حتى وإن لفظ أنفاسه . هكذا كان يقول لرافضيه ، ويضيف قائلا إنهم مؤقتون لأنهم أبناء مرحلة أما هو فباق لأنه ابن الذوق الشعبى الأصيل . ولربما يتذكره أحدهم فيصيح فجأة : «هو الولد وجيه أبو وهدان مش باين ليه بقى له مدة؟!» ؛ فإذا به يكتشف بعد برهة قصيرة أن وجيها يجلس خلفه مع مجموعة أخرى أو ربما وحده . لقد كان فى الواقع لا يخلو من إشعاع وشفافية كبيرين .

وبالنسبة لى شخصيا كنت أحبه ، وأفتقده ، وأطرب لكلماته ، أنجذب لأفكاره الجنونية المحطمة لكل الأعراف والتقاليد الكتابية ، تسخر منها ، تمسخها، تحاول إقامة بنيان جديد مختلف ، يستنكره الذوق المستقر لكنه بعد التفكير فيه يكتشف أن له منطقه الخاص الذى لا يخلو من وجاهة فنية . فإذا كانت الأغنيات الدارجة تجعل من القلب بيتا يسكنه الحبيب ؛ فما المانع أن يجعله هو

شوارع وحارات يسكنها الحيارى فى دنيا الحب والغرام ؟! .. إلخ إلخ .

كثيرا ما تذكرته خلال الغياب فإذا هو يطب علىّ فجأة فى مكتبى فى الجرنان كأنه سقط من خاطرى مجسدا . وأحيانا أخرى يختفى حتى من الذاكرة فلا يطفو عليها إلا عندما أستمع لأغنيته الشهيرة فى الراديو فى لحظة عابرة .

ثم مضت سنوات طويلة لم أره وإن تذكرته كثيرا ؛ فاشتقت إليه بالفعل . سألت عنه فى جميع مظانه فلم أظفر بطائل ، حتى يئست من ملاقاته . إلى أن وجدتنى ذات يوم فى المحلة الكبرى أجمع مادة موضوع أكتبه للجريدة عن لفيف من أدباء المحلة الشبان من أبناء المجتمع العمالى الصرف .

لم أجد عناء فى الوصول إلى صالونه الشهير فى شارع السوق الحافل ليل نهار بحركة لا تنفد ولا تهمد . يقع الصالون بين محلين ، أحدهما بقّال والآخر معرض للأحذية مغلق بباب زجاجى . تحت الرصيف تمتد على الجانبين عربات الخضر والطعمية والفول وأدوات التنظيف والأدوات المنزلية . كأى صالون حلاقة عتيق فى أى مدينة صغيرة كان هناك ستارة من الخرز فى حبال طولية تتخابط فى بعضها من شدة اهتزاز الأرض تحت عجلات السيارات وأقدام الوافدين والراحلين . منظر الصالون يبدو أنه مدهون حديثا باللون السماوى الفاتح فى الداخل ، وبدرجاته الغامقة على الواجهة. ثمة لافتة كبيرة على الباب : [صالون الحرية] . نظرت فى الداخل ؛ يوجد ثلاثة كراسى ثمينة متجاورة تلمع بمساند شامخة ومقاعد وثيرة . خلفها ـ لصق الحائط ـ صف من الكراسى الجلدية المريحة . الحوائط كلها مكسوة بالمرايا حتى ما فوق القامة . كراسى الحلاقة وكراسى الانتظار كلها مشغولة .

دفعت رأسى بين حبال الخرز . قلت: «السلام عليكم .. نعيما مقدمًا» . ردوا جميعا : «أنعم الله عليك» . قلت : «هذا فيما أظن صالون وجيه أبو وهدان!» . مرت لحظة صمت مشوب بالترقب الغامض . كان من الواضح أن الأسطى الواقف على الكرسى المحاذى للباب هو الأسطى هاهنا . تقهقر عن قفا الزبون ؛ حاذانى قائلا : حضرتك تطلبه فى شىء؟» . قلت فى شىء من المرح تاركًا حبال الخرز تنثال على كتفى : «إنه صديقى وأنا صحفى من القاهرة جئت فى مهمة فأحببت أن أراه» . اختفى التوجس من ملامحه ، صاح : «أهلا وسهلا ! هو سيكون هنا بين السادسة والسابعة ! إنه الآن فى السوق له زبائن خصوصيون يمر عليهم فى محلاتهم وبيوتهم !» ؛ ثم استأنف الحلاقة للزبون بالمقص والمشط. شكرته وخرجت . ملت على البقال أشترى علبة سجائر . كان وحده مرتكنا بمرفقيه على البنك . رأيت فيه شابا بشوشا طفولى الوجه إلى حد كبير ، وله عينان بارزتان فى وجهه الأبيض المحمر ، مليئتان بالخبرة والعذاب والتجربة لقلت إنه طفل متضخم الجسد . فلما اعتدل واستدار ليأتى بعلبة السجائر رأيت جسده القصير مثل رأس الفجلة ، رفيعا من أعلى تخينا من أسفل . وإذا انحنى على درج الفكة ليجمع لى بقية الجنيه وجدتنى أقول له : «أستطيع أن أرى وجيه أبو وهدان أو أترك له رسالة؟» . فرفع وجهه عن درج الفكة ناظرا فى وجهى باهتمام وتدقيق شديدين؛ مد ذراعه السمينة إلى جواره فرفعها بكرسى دائرى صغير بدون مسند؛ قدمه لى : «تفضل اقعد!» .فتفاءلت خيرا وجلست بجوار البنك . سلمنى بقية الجنيه، ثم فتح الثلاجة الثلجية الحمراء وأخرج زجاجة اسباتس خضراء مغبشة ؛ فتحها ، قدمها لى : أهلا وسهلا .

قدمت له نفسى ؛ فعاود الترحيب بى؛ قال إنه خدامى فتحى الملاّ ، من هواة الشعر والزجل ؛ جاءته الهواية من الورق الذى كان يشتريه بالطرناده ليبيع فيه ، فلما جذبه الورق تصفحه ، فلما تصفحه عرف فيه الشعر ، فأحبه ، جاء عليه وقت لم يكن يتكلم فيه مع الزبائن إلا بالشعر ؛ هم يطلبون بالنثر وهو يرد عليهم بالشعر؛ وكان سريع البديهة ؛ لكنه اضطر إلى إبطال هذه العادة بعد أن اتضح له أن معظم الزبائن يتضايقون من قفشاته الشعرية . إذ يفهمونها خطأ . قلت له :

ـ «هل أنت واثق أن وجيه أبو وهدان سوف يأتى ؟!» ..

قال فى براءة :

ـ «على كل حال هو ابن حلال مصفى ! إنه غريب الأطوار ! أحيانا يكون على موعد معى ويتصادف أن يجىء قبله من يسأل عنه قاصدا به أذى! فإذا به بقدرة قادر لا يحضر فى موعده بل ربما يتأخر أياما! وأحيانا أخرى يطب فجأة بدون موعد ليجد فى انتظاره من يبحث عنه لمصلحة !! إنه جدع غريب وبائس لكنه طيب القلب فنان!» .

مدفوعا بنوع من الفضول قلت :

ـ «الصالون المجاور لك ! صالونه فعلا ؟!» .

تردد لبرهة ثم قال:

ـ «قلت لحضرتك إنه بائس ! الأيام لطشت معه كل التلطيش ! كله من قَرّ الناس عليه من يوم ما اشتهر كمؤلف غنائى ! بدأ يهمل الصالون يظل طول الليل يدخن الحشيش يسرح فى دنيا الخيال يصطاد الأفكار التى لابد أن تكون كما يقول حديثه غير مسبوقة ! زوجه المسكينة صبرت عليه كثيرا ! الأهل والجيران اعتقدوا أنها أصبحت زوجة النجم المشهور الذى لا يكف الراديو عن إذاعة اسمه فأىّ عزّ ونغنغة! فى حين أن المسكينة لا تجد قوت يومها إلا بصعوبة!! المهم ! قام الخلاف بينهما !! هى مهما كان الأمر غلطانة ! كان يجب أن تصبر قليلا حتى يستقر فى مستقبله وكانت ستأكل الشهد ! إن طريق الفن طويل يا أستاذ وأنا أعرف ! الشاهد ! أخذت أولادها وتركته إلى بيت أبيها ! ركبت رأسها ! هو الآخر ركب رأسه أكثر وأكثر!! قام بتأجير الصالون للصنايعى الواقف بجوار الباب! صاحبنا عمل إصلاحات وجدد العفش واستوطن فى المحل ! عاد وجيه يلف بالعدة مثلما كان يفعل أبوه قبل أن يشترى هذا المحل منذ خمسين عاما! اليوم هو لا يستطيع إجلاء صاحبنا هذا عن المحل ! إذ هو ولد لبط وخربوش! وطريق الفن حتى الآن غير مضمون لوجيه أبو وهدان ! يعنى لا طال

عنب الشام ولا تفاح اليمن ! إنه بائس والله يا أستاذ ويستحق عون الصحافة!!.. كتمت ضحكتى ؛ صرت أتحين الفرصة لإنهاء الكلام والانصراف؛ حيث صار من الواضح لى الآن أن وجيه أبو وهدان ليس فى حالة تليق باستضافة أحد . نظرت فى ساعتى :

ـ «على كل حال إذا ..»

فإذا بالبقال يهتف فى فرحة طاغية :

ـ «وصل ! كلا كما ابن حلال ! تعال ياعم!»

استدرت ناظرا إلى الباب . كان وجيه أبو وهدان مقبلا فى خطو بطىء ، ناحل الجسد ، ليس فيه سوى عينين تبرقان فى ترقب وتحد شديدين ؛ يحمل حقيبة العدة، الحقيبة نفسها التى يجىء بها إلى القاهرة . وضعها على البنك وعانقنى ؛ أمعن فى الترحيب بى . غمزت له بعينى غمزة يفهمها ؛ صاح :

ـ « وماله ! عن إذنك يا فتحى يلابينا!»

ـ «نهاركم أبيض !»

هكذا قال فتحى البقال ..

عبرنا الشارع فى نزق ، ومنه إلى شارع جانبى أقل زحاما ، ومنه إلى الخلاء ، فالمزارع الشاسعة . هناك فى سفح طريق زراعى هبطنا إلى عشة صغيرة كالخص مبنية بالبوص والحصائر جلسنا على دكة خشبية . كان فى استقبالنا رجل ممصوص الدم شاحب الوجه منتفخ العينين . جهز لنا الشاى الأسود الثقيل ، وحجارة التبغ المعسل ؛ أقعى أمامنا بالجوزة وراح يسقينا أنفاس الحشيش فى تمهل وهدوء أعصاب . قرص الشمس كان فى مواجهتنا قد صار كرة من اللهب الأحمر يتناثر منه فتات على حجارة التبغ تلمع تطقطق تحت أنفاسنا . إحلوت المسائل كلها . أسمعنى وجيه حوالى عشرين قصيدة غنائية فى خيط واحد ؛ فى إلقاء كالتبتل والتهجد . أكبرته ، إذ لاحظت أنه لأول مرة يلقى شعرًا لغيره من الشعراء كلها تمجيد فى الثورة الاشتراكية ، وتجسيد للحلم الشعبى الإنسانى فى غد مزهر ؛ كلماتها مليئة بالمداخن والمآذن والمشربيات والحقول الخضراء .

من فرط استمتاعى وشغفى أهز رأسى طربا : الله الله الله ! يا سلام !.. ذلك أنه قد وقر فى ذهنى لحظتها أن وجيه أبو وهدان قد اتسع مخه وصدره وتذوقه فأصبح يلقى شعرا لغيره يستحسنه؛ واندهشت كيف أتته هذه القصائد الجديدة الطازجة التى لم أقرأها من قبل . قلت مبديا إعجابى :

ـ «ظاهرة طيبة أن تحفظ شعرا لغيرك وتردده !»

لمع فى عينيه احتجاج كبير :

ـ «غيرى من ياعم ؟! هذه كلماتى أنا ! شعرى أنا !!»

قلت فى غير تصديق :

ـ «هذا اللون جديد عليك !!»

قال فى وعى حسدته عليه :

ـ «المهم أن يكون لونا أصيلا وليس طلاءً متقنا !!» تفكرت لبرهة طويلة . استعدته بعض مقاطع ؛ تمعنتها جيدا ؛ وجدت اختلافا كبيرا بالفعل بينه و بين شعراء العامية الذين حظوا بشهرة عريضة فى القاهرة ؛ فى الأسلوب ، المفردات ، زواية الرؤية ، الأشكال الموسيقية . هنا مفردات المدينة الإقليمية، العمالية الفلاحية معا . هنا خيال ساذج رائع السذاجة ، غُفل من الحشو الثقافى التقليدى ، وبالأخص الثقافة الاشتراكية ؛ كما أن الكلمات تخلو تماما من الشعارات المصكوكة التى شاعت فى منتصف عقد الستينيات الذى يقترن فى أذهاننا بالهزيمة .

رحت أحدق فى عينيه كأننى أحاول التعرف عليه لأول مرة :

ـ «أنت إذن مؤلف هذه الأشعار ! الغريب أن أغنياتك السابقة كانت خفيفة جدا ! وجانب الطرافة فيها هو الأقوى ! فما سر هذا التحول المفاجىء ؟!»

ضحك ضحكة مكدودة مرهقة ؛ بانت لها سنُ ذهبية كامنة فى جانب من الفك السفلى الأيمن . قال بصوت متهدج:

ـ «أنا فى الأصل هكذا !! هذه هى أغنياتى الأصلية !! كتبتها قبل الأغنيات الخفيفة التى أذيعت واشتهرت!!» هتفت مقاطعا :

ـ «ولماذا لم تقدمها هى يامجنون ؟! لو قدمتها لكان لك الآن شأن آخر ! كانت كبَّرتك مليون مرة !!» فإذا به يكور شفتيه ، ثم يطلق ضراطا بذئيا ، تعقبه شخرة أشد بذاءة ؛ ثم استدرك فى جدية أسيفة مريرة :

ـ «هذه الأغنيات كلها رفضتها لجنة النصوص فى الإذاعة بحجة أنها سوقية!! وكلما أسمعتها لواحد من المطربين أبدى إعجابه وقال : أنا عايز حاجة خفيفة تعلق مع الناس !..»

جمدتنى الدهشة؛ لأن الكلمات التى استمعت إليها لا يمكن رفضها بأى حال من الأحوال. وإذا به يستطرد :

ـ «كان فى استطاعتى أن أصر على تقديمها بالإلحاح لكن ظروف النكسة وقفت ضدها وضد كل شىء جميل ! الناس شبعت من هذا الكلام ولم تعد تصدقه ! الناس الآن فى حاجة إلى من يداوى جراحهم ! بنكتة بقفشة بصورة هزلية ! الفن الزائف الهتيف ضلل الناس ونفخ رجال الثورة صنع منهم أباطرة يتحكم كل واحد فى مكان كالأبعاديات فضاعت البلاد بين الرؤساء كذلك انطمست وطنية الرئيس عبد الناصر تحت أقدام الرئاسات الزائفة ! فلما انكشف المستور إذا بكل الأشياء شائهة ! الذين غنوا للثورة حتى وهى تضربنا بالأحذية الثقيلة لكى يحققوا الشهرة والمال والجاه خنقوا صدرى. صرت أكتب كلمات هزلية أقصد بها الهزء بكل شىء فى الدنيا حتى بالشعر نفسه ! صرت أكتب أشياءً أهدر بها قيمة الشعر عامدا متعمدا !! أهينه أزرى بكل أهدافه الإنسانية النبيلة !! كنت أتوقع أن يضربنى كل مستمع بالحذاء لكنى فوجئت بأن الجميع معجب بما أكتب إلى حد الجنون !! الناس أصبحوا يعشقون الهزل بصورة مخيفة !!.

لاحظت أنه ممرور حتى مما يقول . سألته عن حياته الزوجية فقال إنها فشلت هى الأخرى كما فشلت الثورة فى تحرير البلاد . ثم زفر ، وأشعل سيجارة ؛ أسند رأسه المكدود على كفه وجعل يدخن بشراهة فائقة. أخيرا رفع وجهه بعينين حمراوين كالدم؛ طلب عشرة حجارة على سبيل الختام. ثم ابتهج فجأة وهتف:

- «على فكرة ! جئت فى وقتك ! كنت أنوى أن أمر عليك وعلى بعض الأصدقاء فى الصحف لأكلمكم فى موضوع شديد الخطورة!!»..

- «لعله خير،هذه المرة !؟»..

- «هو موضوع أحب أن أنوه عنه فى الصحف !».

- «ما هو يا ترى ؟!»..

- «لقد بدأت السماء تراسلنى!!»..

- «نعم ؟!»..

- «أقول لقد بدأت السماء تراسلنى !!»

- «كيف بحق الله ؟! ليتنى أستطيع أن أعرف !».

أشتدت حماسته . لمع فى عينيه بريق شديد النفاذ :

- «سأريك كل الوثائق! ستراها رأى العين ! وبما أنك صديق قديم وعزيز فإننى سأكشف لك السر الذى لا يصح أن أكشفه لأحد ! إن الأسرار فى هذه الحياة لا يجب أن تقال لكل من هب ودب وإلا كانت السماء قد راسلت كل الناس !! وبما أن السماء قد اختارتنى أنا بالذات لتبلغنى بالرسالة فإننى سأختار بعض الصفوة لأبلغهم مضمون ما وصلنى فلربما تعاونا جميعا فى حل لغز الحياة وفض مغاليقها!!»..

- «من فضلك ! أريد أن أعرف كيف تمت هذه المراسلة ؟! وهل تقوم أنت بالرد على كل رسالة أم تكتفى بالتلقى فحسب ؟!»..

- «إنها لا تنتظر منى ردًا ! إنها تنتظر منى أن أفهم فحسب : أفهم وأستفيد بما فهمت !!»

- أقول كيف ؟!»

- «سترى كل شىء بعينيك ! سأجعلك تحاول القراءة بنفسك ! لقد كنت على وشك الانتحار قبل أن توافينى هذه الرسالة فعلمت أنى على شىء كبير من الأهمية وأننى ربما ألعب دورًا فى حياة الناس على نطاق واسع أوسع من نطاق الشعر والأغانى والإذاعة ! كل ما فى الأمر أننى أريد أن تساعدنى أنت وكل من يستطيع ! لا أقصد التنويه فى الصحف فحسب ! بل أن تعاوننى أنت مثلا فى قراءة مضمون هذه الرسالة وتساعدنى على تفسير بعض غموضها !! وعلى كل حال فإننى ماض فى قراءتها وفك رموزها يوما بعد يوم ! وحين أنتهى منها سأضع لها صيغة نهائية يمكن لأى واحد أن يقرأها ويفهمها !!»

- «هل هى رسالة خاصة بالدين مثلا؟ أو بالدنيا ؟!»..

- «بالاثنين معا ! هناك نبوءة بتحول جذرى فى حياتنا ! إذا انتبهنا إليها من الآن يكون من حسن حظنا قبل أن تضيع منا الفرصة فى تدارك الأمور !!».. وشدّ النفس من الجوزة بشراهة تاركا سحب الدخان تتدافع من منخريه فى غزارة .

صرت أنا فى حالة هى مزيج من الإثارة والخوف الغامض القابض للقلب . رحت أفكر فى طريقة أنسحب بها إلى موقف السيارات . إلا أنه نهض ، فنهضت . صار يعبث فى جيوبه بحثا عن نقود ، فسارعت إلى حافظتى وحاسبت الرجل صاحب المطرح ؛ ومضيت بحذاء وجيه أبو وهدان عائدين إلى المدينة التى بدت رغم أضوائها كتلة من الغموض الباعث على القلق .

بعد مسيرة طويلة صرنا فى شارع السوق . كانت الحركة قد هدأت فيه بشكل ملحوظ . أنوار خافتة تنبعث من لمبات داخل فوانيس قديمة الطراز معلقة فى عواميد طويلة . الأرض زلقة موحلة من أثر باعة الخضراوات وعربات الرش والقمامة. السيارات الملاكى والأجرة تمر مسرعة فتلقى علينا بطين الأرض. قعقعة العربيات الكارو تبدد سكون الشارع.

حودنا إلى حارة جانبية . مضينا فيها مسافة طويلة فى خط مستقيم ؛ ثم التوينا معها لخطوات طويلة ؛ ثم مالبثنا حتى دخلنا حارة متفرعة منها ، وسط بيوت كالحة مسودة بالغبار والدخان ، ما بين أربعة وخمسة وستة طوابق على الأكثر . بعض الشقق فى الأدوار العليا مدهونة حديثا باللون الأزرق والأخضر والوردى الساذج ؛ كل البلكونات تتدلى منها حبال الغسيل المتخمة بأشباح مصلوبة . بعض البلكونات مقفلة بالأبلكاش والسلك الشبيكة كحظائر للدجاج والأرانب . رائحة التقلية والقمامة وصابون الغسيل والرماد تتصاعد متمازجة فى رائحة واحدة نفاذة تبعث الأنس فى الأعطاف .

أخيرا توقفنا عند بيت لا بأس به ، من خمسة طوابق على الطراز الفرنسى القديم ، عمره لا يقل عن نيِّف ومائة عام، له بواكٍ بارزة وشرفات وشبابيك طويلة القامة متقنة الصنع . باب مفتوح وضلفتاه غائصتان فى الأرض بين البلاط المتآكل المتفزز، بعد العتبة بخطوتين فتحة بالوعة تشير إلى أن البيت كله يصرف فضلاته فى طرنش واحد يتم كسحه من هذه الفتحة .

باب الشقة مجاور لباب الشارع تماما؛ لها شباك مطل على الشارع لصق فتحة باب الشارع . مدّ وجيه أبو وهدان يده بالمفتاح ؛ فتح الباب . سرب يده من وراء الضلفة ضاغطا على زر النور ، فانبعث الضوء فى مواجهتنا . تقدمنى قائلا : ادخل . أغلق الباب ورائى بالترباس الداخلى .

كنا فى صالة مربعة تخلو تماما من أى أثاث ، بلاطها لامع ليس فوقه سوى الظلال . الحوائط تستحم فى الرطوبة والملح اللزج يتخثر ويسرح فى خطوط عشوائية قبيحة الشكل مفزعة ؛ ثمة خرائط وجبال وأحراش ومستنقعات رسمتها الرطوبة على الحوائط وفى السقف بتساقط الجير عن المحارة ..

وقفت مذهولا وقد بدأ الشك يساورنى فى كل شىء . أما هو فقد وقف أمامى واضعا يديه فى خاصرتيه ، ناظرا نحوى

ونحو الحوائط فى زهو شديد ، كأن لسان حاله يقول : أرأيت بشائر صدق قولى ؟.. فلما رآنى غير مستوعب للموقف برمته رفع حاجبيه قائلا : تشرب شاى ؟ ثم مضى نحو ما توقعت أن يكون مطبخا . فمضيت وراءه؛ فإذا بنا بالفعل فى مطبخ، لكنه مجرد حوائط وحوض غسيل ورخامة مستطيلة ؛ وليس ثمة من موقد أو طبق أو حلة أو ملعقة أو كوب أو كنكة أو حتى كوز من الصفيح . وكانت الحوائط تزدان بالخرائط نفسها ، فتشككت فى أننى سمعته يقول : تشرب شاى . لم أشأ أن أسأله ، استدرت خارجا من المطبخ؛ رأيت بحذائه دورة مياه تفح من جوفها ريح كريهة ؛ شددت بابها أغلقته . أمامى الآن حجرتان مفتوحتان ، دخلت الأولى فلم أجد بها أى شىء على الإطلاق ؛ اللهم إلا ما رسمته الرطوبة على الحوائط من غابات وخرائب وأدغال. اندهشت كيف ينام فيها ؟ وعلى أى شىء ينام ؟ دخلت الحجرة الثانية فإذا الفراغ يملأ كل بقعة فيها . رأيت أن من العبث أن أوجه إليه أى أستفسار . إلا أنه كرر على مسمعى : تشرب شاى ؟! وجدتنى أرد بعصبية شديدة : إفرض أننى طلبت فأين هو الشاى ؟ .. قال : حالا ؛ ثم تركنى ففتح باب الشقة بسرعة ووقف فى وسط مدخل البيت صائحا فى اتجاه سلم سابح فى بحر من الظلام كديناصور أسود: يا مرمر ! مرمر ! إعملى لنا كبايتين شاى لو سمحتى!.. فلم أسمع أى رد عليه ، إلا أنه عاد فأغلق الباب بالترباس . ثم قال فجأة :

- «على فكرة ! لك عندى حلْقة ممتازة تليق بوجهك وبشعرك الخفيف هذا ! ثم إنى اشتريت شفرة جديدة من أعظم الماركات أظنها ستجعل ذقنك هذه الخشنة أنعم وأطرى من الحرير القز ! إجلس أمامى لأريك فن الحلاقة على أصوله!!».

وضع الحقيبة على حافة الشباك ، فتحها بسرعة . صحت فيه بغيظ وضيق:

- «أنت قلت إنك ستريني وثائق ورسائل السماء إليك فأين هى أولا وقبل كل شىء؟!»

ترك الحقيبة مفتوحة وأشار بابتسامة ضجرة إلى الخرائط المرسومة على الحوائط قائلا :

- «هذه هى !! ألم يكفك كل هذا ؟! سأقرأها لك الآن على قدر ما فهمته منها ! ولكنى كنت أحب أن أفعل ذلك وأنا مندمج فى الحلاقة لك ! إن الحلاقة تجعلنى أتوهج ! تستحضر ذهنى ولو كان فى بلاد بعيدة!».

- «دعك من الحلاقة الآن !»

- «ستشكرنى لو حلقت لك!»

صحت بغيظ شديد :

- «يا أخى وكيف تحلق لى بحق الأبالسة ؟! هل أتربع على الأرض وتتقرفص أنت أمامى ؟!»

- وما الداعى؟ اجلس على أرضية الشباك وأظل أنا واقفا! سمك الحائط عريض كما ترى.

اعفنى من الحلاقة أرجوك وإلا فدعنى أنصرف!

- «براحتك ! والآن سأقرأ لك بعض سطور هذه الرسائل المقدسة !!»

أشار بقلم من الرصاص نزعه من جيبه قائلا وهو يضع سن القلم على الحائط :

- «ماهذا الذى تراه؟»

- «جير تساقط بفعل الرطوبة لا أزيد ولا أقل !»

رمقنى فى استخفاف ثم انفجر ضاحكا :

- «هذا ما توقعت أن تقوله ! ولكن لا ! ليس هذا هو الأمر ! إنما الحقيقة هى أن هذه الخطوط التى أمامك لم تحدث هكذا عبثا ولا مصادفة ! أقصد أن حركتها هذه ليست عشوائية! فلا شئ يخضع للمصادفة والعشوائية أبداً فى هذه الحياة ! كل شىء له حكمة ومعنى يتجلى فى حركته الذاتية ! كل خط موجود هاهنا يمضى لهدف معين ! ما الذى يجعل هذا الخط مثلا يرتفع إلى أعلى هكذا متعرجا متلويا؟! وما الذى يجعله ينحدر إلى أسفل ثانية ؟! هذا ليس مصادفة ! ليس عشوائية ! بل تحرك هكذا ليصنع هذه الدائرة ! وتصنع الدائرة مع هذا الخط الآخر هذه الربوة ! وهذه المناظر المتعددة إنما هى فى حقيقة أمرها كلمات ذات معنى ومنطق !! إن الله سبحانه باختصار - وهو قادر على كل شىء - يرسم لى العبر والمواعظ ! يشخص لى أزمنة سوف تجىء وأحداثا سوف تقع !! يجدد لى رموزا عميقة !! لم لا تكون هذه آية من الآيات الكونية البيّنات نبهنى وحى من الله إلى محاولة قراءتها وأخذ الموعظة منها والدرس والتنبيه !! لا تتصورنى مجنونا فأنا فى كامل قواى العقلية بل لم أكن فى حياتى أعقل منى الآن !! وأنت بعد قليل سترى تفاصيل الرسوم بدقة ! وحينئذ سترى ماوراء هذه الرسوم والأشكال !! على كل حال اقترب منى وركز بصرك على حركة هذا القلم أينما سار أو توقف ! وإنى لواثق أنك سوف تقتنع وترى نفس ما أرى!!» ..

«أرى ماذا وأقتنع بماذا يا هذا؟! إما أنك مهتز عقليا أو أنك تستخف بعقلى»

- «من فضلك ! نحن أصدقاء قدامى ! من حقك أن تهاجمنى ولكن بلطف ! وليس من حقك اتهامى بالجنون فأنت منذ قليل كلت لى المديح بالكيلة ! فعلى الأقل أنت واثق من صحة عقلى الذى كتب هذه الأشعار التى أطريتك!!»

- «يا أستاذ أنت الآن تخرف ! هذا الجير وقع عن الحائط بفعل الرطوبة لا أزيد ولا أقل ! وكل بيوت الناس القديمة يحدث لها هذا !»

- «ولماذا لم يسقط الجير مرة واحدة؟! ما الحكمة فى أنه يسقط بطريقة ترسم هذه الرسوم وتخط هذه الخطوط كأنما بسن القلم؟!»

- «قياسا على هذا فإن كل البيوت المجاورة لك تجيئها رسائل من السماء ! فلست أنت وحدك المصطفى!»

- «كل البيوت قد يحدث لها شىء كهذا أى نعم، ولكن الله لم يوح لأحدٍ من أصحابها بقراءة الخطوط التى تنتج عن التساقط الجيرى !! الله سبحانه لا يوحى

للأنبياء فحسب ! بل يوحى للناس كافة ! للطير ! للحجر ! الشجر ! للأرض ! لكل شىء ! الحياة نفسها وحى من الله ! الروح التى فيك وحى من الله ! الطفل الوليد يرضع ثدى أمه بوحى من الله! يعرف أمه وأباه بوحى من الله ! وأنا بوحى من الله رأيت أنه من الممكن قراءة هذه الخطوط على حوائط منزلى ! إنها موجهة لى أنا شخصيا !! وعلى فكرة! إنك لو تأملت فى مثل هذه الخطوط فى كل بيت فستجد أنها تختلف من بيت لآخر اختلاف البصمات ! لقد تأملت هذا بنفسى فى كل البيوت التى دخلتها فوجدت أن كل حائط عليه بقع عارية أما عندى فخطوط مرسومة لها معنى ومنطق ! ألهمنى الله تفسيرها فما الذى يغضبك فى هذا؟ خلك مع الكذاب لحدّ باب الدار كما يقول المثل».

- «قل إذن ما يعن لك».

أشار بالقلم الرصاص نحو التشكيلات الغريبة قائلا فى جدية شديدة التجهم :

- «ماهذا الشكل كله ؟ أليس يأخذ منظر مدينة كبيرة متهدمة يعمها الخراب فى القلب مع أن القباب والمآذن والمداخن وأعمدة النور وأسلاك التليفونات والهوائيات توحى بأنها عامرة؟» .

تأملت الشكل جيدًا ، فإذا هو بالفعل كما يقول ؛ بل إن الصورة التى رسمها فى خيالى راحت تتضح شيئا فشيئا وتنطبع على الشكل المرسوم على الحائط بشكل جلى ، وبدرجة شككتنى فى سلامة عقلى نفسه فخفت أن تكون عدواه قد سرت إلىّ .

قال : «جميل ؟»

قلت : «جميل !»

أشار إلى شكل هلامى معلق على أعلى قمة فيما اعتبرناه حطام مدينة ، وكان يميل برأسه نحو منحدرٍ سحيق . قال :

- «بم يذكرك هذا الشكل ؟ هذا الرأس المحوط بشال من الشعر ! وهذا البدن المرن القوى ! وهذه المؤخرة العارية مع الذيل والأقدام الأربعة أليس هذا سبعا ؟ أسداً بمعنى أصح ؟!»

قلت بكل اقتناع :

- «نعم هو كذلك سبع ولاكل السباع! هو فعلا لا يمكن أن يكون إلا سبعًا»

قال كأن هذا شىء مفروغ منه : «جميل!» ، ثم أشار إلى شكل آخر يطلع من جوف الخراب متطلعا نحو السماء وآخذا سمته نحو القمة المرتقبة :

- «وهذا الشكل أليس يوحى لك بأنه كلب ؟!»

هززت رأسى فى تأييد قاطع :

- «نعم هو كلب واين كلب أيضا بلا جدال !»

رفع ذراعيه فى انتصار وهتف :

- «الحمد لله ! هذا إذن : سبع يسقط وكلب يصعد!!» ولمع فى عينيه بريق مخيف فيما أخذت أردد لنفسى فى اندهاش وانجذاب : سبع يسقط وكلب يصعد ، قول يدعو للتأمل حقا . فإذا هو يضيف :

- «لقد كان السبع حارسًا للخراب وحامياً لهذه البقية الباقية من العمار ! ولسوف يصعد الكلب ليعيش فوق قمة الخراب ! ولسوف يأكل الجيف التى خلفها السبع فيسمن وينظف المكان منها ويبقى فى انتظار سيد يلقى إليه بالفتات ويتملك المدينة يحولها إلى مشروع خاص !! لسوف يكثر عدد الأسياد الغرباء وتكثر فضلاتهم بعد التخمة!! سيكثر أيضا عدد الكلاب بكثرة الجيف والفضلات المتبقية من الأسياد!» .

ثم تراجع عن الحائط فى رشاقة ومرونة فصار بحذاء الحائط المقابل . جذبنى من كتفى بقبضته ليجىء بى إلى جواره . ضغط بأصبعيه على كتفى صائحا :

- «والآن انظر إلى الصورة من بعيد ! ألست ترى أن تحت أقدام السبع ما يشبه الرقم الحسابى الطويل ؟!»

بالفعل كان منظر ما اعتبرناه قبابا ومآذن ومداخن وأعمدة وأبراجا قد صار من بعيد على هيئة أرقام . قال :

- «هذه الدائرة السوداء هى فى حقيقة أمرها صفر!! وبجواره رقم سبعة ! بجواره رقم تسعة وهو نفسه عامود فوقه فانوس ! وهذا رقم واحد وهو نفسه عمود أيضا ولكن بلافانوس فلو أننا قرأنا الرقم من اليسار إلى اليمين فيكون نطقه ألف وتسعمائه وسبعين !! أى أن لعبة الزمن قد دخلت فى الموضوع كما ترى ! فلابد أن هذه الألف وتسعمائة هى عدد السنين كما ندونها فى التقويم الميلادى الذى نعتمده فى بلادنا قبل وبعد التقويم الهجرى ! ومابعد الألف وتسعمائة يعنى استمرار الأعوام! والسبعون هى وعاء زمنى يحدث فيه حدث جلل ربما كان بداية الخراب التام! ربما يكون عاما فاصلا بين زمن وزمن ربما تقوم القيامة!!» ..

صمت برهة قصيرة ليرى وقع كلماته علىّ ، ثم استطرد كأنه يشد خيط الأمل فيما هو يقترب بى من الحائط ثانية :

- «ولكن ! فلنكن أبعد نظرًا ! هذا المنحدر الذى سيسقط فيه السبع! انظر تحته ! تجد ما يشبه الحديقة القفراء الجافة الموحشة ! تلك هى الحفرة الأسطورية التى سيغيب السبع فى جوفها إلى الأبد ! والآن انظر إلى خلف الحطام من الناحية الأخرى تجد ما يشبه البحيرة الضيقة ذلك هو مستنقع العدم الذى يلقى فيه بكل من لا ينفع كلب حراسة! غالبا سيتسع لكل أبناء هذه المدينة المؤمنين بواجب الدفاع عنها !! سيسلط عليهم السادة الغرباء كلاب حراستهم تنهشهم فيتراجعون إلى الخلف حيث تجذبهم الهاوية!!» ..

واستدار كالجندى المدرب على : خلفا در . أدارنى معه موجها بصرى بإشارة من قلمه إلى الحائط المقابل :

- «انظر الآن فى هذه الصورة تأملها جيدًا لا يفوتك شىء فيها !» ..

كانت صورة كرنفالية كأنها مرسومة . بريشة فنان سوريالى كبير ذات حركة مدروسة جيدا : عشرات الأشكال

المتناقضة المتآلفة معا: سوق ريفية ، مولد السيد البدوى ، طراطير ، زعابيط ، طرابيش ، قبعات ، طواقى ، عمائم ، قلنسوات ، أجساد منبعجة ، أخرى كالزعازيع ، كائنات لا يعرف فيها الذكر من الأنثى..

رفع كفيه صائحا :

- «أظنها واضحة وغير محتاجة لشرح! ذلك هو عالم المهرجين والمحتالين والأتباع وأرباب المتع والفنون المسلية والقوادين !! هأنتذا تراهم يواجهون الحطام ولا يحفلون بشىء ! ذلك أن البقاء لهم فى النهاية !! إن أى شريف حقيقى لن يكون له أى مكان فى مدينة الكلاب والأسياد أصحاب المشاريع المدرارة ! إذ لا بضاعة لهم فى هذه السوق الصاخبة سوق المهرجين الهازلين مصاصى الدماء فهم أنفسهم بضاعة للمهرجين!!»..

أشعل سيجارة قدمها لى بود عميق دافىء ؛ وأشعل لنفسه أخرى ، جذب منها الأنفاس بعمق:

- «ألست ترى إذن - تبعا لهذه الرؤية الواضحة - أن الجادين والشرفاء والوطنيين مقضى عليهم بالفشل الذريع لا محالة وأن شاعر الأغنية الشعبية الشهيرة لم يكن يمزح فحسب عندما طالب بالتقفيل على كل المواضيع إذ إن الجو بديع والدنيا ربيع ؟! أشعر أنى قد دوشت رأسك ! اقعد إذن لأحلق لك ! حقق لنفسك أمنية كان يجب أن تتمناها منذ سنوات طويلة : أن أحلق لك مثل النجوم الذين أحلق لهم! أريد أن أرفعك لمرتبة النجوم وهذا فأل طيب! يمكنك أن تجلس على حافة الشباك! هيا..»..

تركته ومضيت نحو إحدى الحجرتين المواجهتين :

- «دع الحلاقة الآن ! أريد أن تقرأ لى بقية ما فى هاتين الحجرتين من رسائل موجهة إليك من السماء!!»

مشى خلفى :

- «إنها فى مسائل أخرى كثيرة وعميقة ! سوف لن تصدقها بالطبع! ستوجع لى دماغى على الفاضى ! لكن لا بأس من أن أطلعك على شىء منها !!»

تقدم فى حماسة شديدة نحو الحجرة القريبة ، دخلها مضيت وراءه ، لكنى توقفت على بابها ، فلاحظت أن فى الباب مفتاحاً ؛ فانبثقت فى رأسى فكرة شيطانية أنجو بها من هذه الورطة السخيفة التى ليس من ورائها طائل . أعطانى ظهره وشرع يتأمل الحائط المواجه تمهيدا للشرح . فبكل بساطة وهدوء جذبت باب الحجرة بسرعة خاطفة، أغلقته ، أدرت المفتاح : تك ..تك . هرولت فى الردهة كطفل عابث ، فتحت باب الشقة وخرجت لاهثا فانغلق الباب خلفى من تلقائه . تلقفتنى الحارة ، لفظتنى إلى الشارع الفرعى ، تتسارع دقات قلبى تسبق خطواتى ..

فى الشارع العمومى الذى يشق المدينة لفحنى الهواء فشعرت كأن دماغى قد رُدَّ إلىَّ بغتة . انسحب الطنين فانبعث الصفير فى أذنى . عاد صوت وجيه أبو وهدان يهدر فى رأسى صافيا ناعما ناضحا بالمرارة ، بلهجة حكماء العصور الغابرة . تمثلت لى صورة العَّراف تيرزياس فى المآسى الإغريقية القديمة يلقى النبوءة حاسمة قاطعة جلية النبرات موجزة العبارة . دهمنى تساؤل مفاجىء: من أين يستمد مثل هذا العراف نبوءته ؟ من ذا الذى يطلعه على الغيب؟ أهى قدرة على استقراء ماوراء الأفق ؟ ماتبطنه النفوس والمشاعر والأحداث؟!.. لكننى شعرت أن ما قاله وجيه أبو وهدان - وإن اصطبغ برؤية هزلية قائمة على الوهم والتخليط - يحمل قدراً كبيرا من النفاذ والاستشراف ..

كانت أضواء الشارع شاحبة مختنقة ، ميتة فى بقاع كثيرة لاضوء فيها . يضمحل الضوء كلما اقترب الشارع من الخلاء العريض المتصل بأراض زراعية شاسعة؛ حيث تتباعد المسافات بين المبانى فتبدو نهاية الشارع كذيل الفأر . قمر ضئيل جداً يكابد ويناضل جحافل سحب سوداء تنطرح فوقه بغزارة فيثقبها ثقبا صغيرا كعدسة صغيرة مدورة . تذكرت أن مافعلته منذ لحظات قليلة بوجيه أبو وهدان شىء فى غاية الجبن والخسة . تذكرت أشعاره البديعة التى أمتعتنى بحق ، وطريقة إلقائه لها مموسقة مشحونة بالانفعال والصدق والمعاناة . شعرت - لأمر ما - أننى قد صرت الآن مقتنعا تمام الاقتناع برؤيته هذه الهزلية المجنونة . رأيتنى أستدير عائدا إلى بيته لأفتح الباب بأى شكل وأفرج عنه ..

قطعت الشارع والحوارى فى دقائق معدودة . أشعلت القداحة داريت لهبها الواهن براحة يدى اليسرى حتى تبينت فى ظلام العتبة موضع شراعة الباب . دفعتها فانفتحت ، فشعرت بفرحة طاغية، سربت أصابعى من خلل الشبكة الحديدية، أزحت لسان الكالون عن مخبئه، انفتح باب الشقة ، الردهة كما هى ، غارقة فى الصمت والرطوبة كالمقبرة، حقيبة عدة الحلاقة موضوعة على أرضية الشباك ، المفتاح فى باب الحجرة كما تركته ، مددت يدا مرتعشة ، أدرته : تك .. تك .. تك. دخلت مفتعلا ضحكات حاولت جهدى أن تكون مرحة تشى بالمزاح والشقاوة . كانت الحجرة خالية تماما.

اقشعر بدنى ، صرت أتنفض مقلبا البصر فى كل ركن متوقعا أن تنشق الأرض عن عفريت يلتهمنى أو يطبق على قفاى . بصوت راجف مضطرب رحت أنادى : وجيه ! وجيه . اقتحمت الحجرة الثانية ، فالمطبخ ، فدورة المياه، ثم أعدت الكرة ثانية فثالثة فرابعة وصوت ندائى يعلو يرتعش يقترب من الصراخ الفاجع ، ولكن ليس ثمة من أحد على الإطلاق .■

هدية بابا نويل [١]

فريدة الشوباشي

طغت فرحتها بثوبها الجديد على الفرحة المعتادة بهذه الليلة الكبيرة.. ليلة الخامس والعشرين من ديسمبر التى مرت بها فايزة ستة عشر عاما من قبل... بثياب جاد بها عليها آخرون.. ليس هناك مايمنع إذن من الاحتفال بالحدثين: ثوبها الجديد... و ... مولد المسيح.

رقص قلبها طربا وهى تحاول التستر وراء مظهر الخشوع الذى يتفق وجلال الذكرى.. لكنها ما تلبث أن تدور بعينيها فى رحلة مقارنة بين ثوبها وما ترتديه الأخريات... وانتهت إلى قرار حاسم.. إنها «عروس» الليلة...

توقفت عيناها فى رحلة «المقارنة» أمام طفلة صغيرة، يشبه ثوبها رداء المسيح الصغير الذى يتوسط مزود البقر.. كانت الصغيرة ترتعد بردا مثله.. سرت رجفة فى جسد فايزة ونفذ «برد» الصغيرة إلى قلبها فبدا عاريا من الثوب الجديد.. لابد أن الصغيرة التى تسجد فى خشوع أمام «المسيح الطفل» تهمس بالدعاء نفسه الذى همست به فايزة وهى فى مثل سنها... فكم ركعت أمام مزود البقر تتوسل للمسيح الصغير أن «يتوسط» لدى مبعوث السماء حتى يتذكرها فى جولة توزيع الهدايا التى يغمر بها الصغار... قالوا لها إنه ينفذ من ثقب الباب... تركت له باب حجرتهم الوحيدة مفتوحا على مصراعيه ليسهل عليه التسلل... كانت تظل ساهرة إلى أن يقهرها سلطان النوم، ويغدق عليها عشرات الهدايا فى عالمه الخاص الذى يولى مع خيوط الفجر الأولى... عندما تفتح عينيها على يدين خاويتى الوفاض، فتذهب إلى الكنيسة لتنضم إلى فريق الصغار الذين انطفأ بريق ثيابهم منذ أمد بعيد، فى أعينهم أمانى وفى قلوبهم رجاء، وآثار احمرار لا تزال عالقة بعينيها..

ظلت رحلة العذاب تتكرر سنويا، إلى أن أهداها اليوم أخوها أول ثوب جديد ترتديه فى عمرها... اعتصر الألم قلب فايزة وهى ترقب همس الطفلة إلى المسيح الصغير... خرجت من بين صفوف المصلين متجهة نحو الصغيرة بخطوات ثابتة.. ودمعة إشفاق تترقرق فى عينيها وهى تتساءل:

هل أقول لها؟.. هل أقول لها إن «بابا نويل» لا يزور الفقراء؟؟..»

ولكنا حرسنا [٢] مسيحنا..

تطلع كل الواقفين ببهو المستشفى إلى القادمة التى يتقلص وجهها ألما، بينما تتسابق حبات العرق إلى النزول من جبينها... اخترقت صف العيون مستندة إلى ذراع زوجها فى خطوات بطيئة.. متثاقلة... توقفت فجأة لتطلق صرخة مكتومة، وزوجها يسأل:

- قسم الولادة من فضلك..

تماسكت بجهد خارق حتى لا تفر الدموع من عينيها.. وألم حاد يغوص فى صدرها ويجر معه شكا كاد يعصف بما تبقى من قواها...

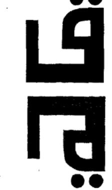
مضت لحظات ثقيلة.. ثقيلة قبل أن يظهر الطبيب... تسارعت دقات قلبها.. جف حلقها، ورجفة خفيفة تسرى، رغم القيظ الشديد، فى بدنها كله.. ونظرات الرجاء واليأس تتأرجح فى عينيها المرهقتين.. عادت تطلق صرخة مكتومة لتقطع الشك باليقين.. وهمس الطبيب فى نبرة إشفاق:

- خليكى تحت الملاحظة..

تفجرت همسة الطبيب المشفقة قنبلة فى جوانحها... تراقص أمامها كل شىء وكأنها غابت عن الوعى بعينين مفتوحتين... وكأن صوت الطبيب وهو يردد «المجهود... التوتر...» يأتيها من عالم آخر..

جذبها إلى واقع عالمها ألم سافر.. خلع قناع الشك، فأطلقت لصرختها العنان، وكأن سوطا ألهب ظهرها..

أغمضت عينيها المكدودتين...



ولكن حرمنا مسيحنا[٣]

فى ذلك المساء... سمعت صراخه... سمعته وهو لايزال مجهولا بعد فى أحشائى.. يستحلفنى بكل شىء.. بأغلى شىء.. به هو، طفلى الذى لم يولد بعد.. أن أقفز كل الدرجات... كان نداؤه أقرب وأقوى نداء.. «اصرخى ياأماه.. اصرخى من أجلى طالبة منه البقاء».

عاد الألم يقطع خواطرها... تشبثت بظهر سريرها.. جف حلقها وموجة من المشاعر المتضاربة تعربد فى كيانها..

فى ذلك المساء.. كان الشارع كله يصرخ باسم طفلى الذى لم يولد بعد.. يستحلفه أن يبقى من أجله.. من أجل كل الأطفال... الأطفال يمتلىء بهم الشارع... تمتلىء بهم المدينة... يمتلىء بهم وطنى كله، عيونهم مذعورة.. تتجمد فى مآقيها الدموع.. دموع الضياع.. يهتفون بنشيد الرجاء.. يمسكون بجلباب الأب.. يسألونه فى هلع..

ـ إلى أين؟.. بل تبقى يأبتاه...

فى ذلك المساء... غسلت دموعنا خطايا العالم.. وكأننا حملنا صليب البشرية... هنا... تحت هذه السماء التى ألقى عليها يهوذا بوابل نيرانه... أطفأت بصقاتنا نيران القاتل... يهوذا..

أطلقت صرخة جديدة وهى تتمتم..

ياإلهى... لكل عصر يهوذا.. ولكل عصر مسيح.. وصليب..

فى ذلك المساء.. كانت أجسادنا شحنات من طاقة لا تنضب.. تمضى.. وتمضى.. تطوف بكل شارع.. تسحق فى طريقها كل العقبات... مضينا طوال الليل نحمى «مسيحنا» الذى انتظر يهوذا تسليمه.. بقينا نحرسه... غسلنا بدموعنا خطايا العالم.. وبزغ فجر صنعته تلك الدموع... لم نغفل عنه لحظة.. صنعنا بقلوبنا سياجا منيعا... بإصرارنا سلاحا يرعب يهوذا العصر.. وارتفعت أغصان الزيتون.. ويهوذا مهزوم.. مدحور.. تحرقه قطع الفضة...

عاد سيل دموعها ينهمر من جديد.. تذكرت كلمات الطبيب.. «بس المجهود ده فيه تهديد للطفل..»

عادت تصرخ بكل قواها وضربات السوط تتلاحق.. تسبق أنفاسها...

اقترب منها الطبيب، ثم ربت على كتفيها...

ـ خلاص.. هانت..

سألته وبحر العرق يغرقها..

ـ ممكن يعيش؟..

سارع الطبيب بقوله..

ـ هدى نفسك... إن شاء الله حايعيش...

عادت دموعها المختلطة بحبات العرق تتسابق إلى النزول..

يهوذا القاتل.. يهوذا القرن العشرين... يهوذا قاتل كل الأطفال...

موجات آلام كطعنات السيف تشتد.. خيل إليها أن صرختها تستغيث بالعالم بأسره... تهذى...

«لكنا حرسنا مسيحنا..»

قالت للعالم عبر صرختها...

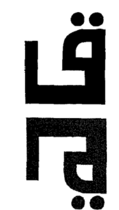
ـ يهوذا قاتل كل الأطفال.. الذين رفضوا أن يسلموا المسيح..

ودوت صرخة فاصلة.. ثم.. كفت كل الصرخات.. والضربات..

مرت لحظات كل منها دهر آلام... كان جسدها المنهك مسجى لا ينبض فيه غير إحساسها العارم بالترقب لعودة الطبيب... انحبست أنفاسها لحظة وعينا الطبيب تنطقان بفشل المحاولة.. محاولة إنقاذ الوليد..

انحدرت دمعة ساخنة حارة... وهى تتطلع إلى الطفل وقد خنقه يهوذا... أظافره تترك آثارا مقيتة مخيفة... لكنها تبينت فى ملامحه الصغيرة شبح ابتسامة انتصار وكأنه يمسح بها حبات الحزن والعرق ويهمس معها...

ولكنا حرسنا مسيحنا...» ■.



الكشاف السنوى

الكتّاب

إعـداد: **حسن سرور**

(ا)

الجديدة (المواجهات) ـ ع ١٣٧ إبريل/ ص ١٦ ـ ٢٠، إريك ڤيل ترجمة كاميليا صبحى: عودة أخرى إلى نهاية التاريخ (المواجهات) ـ ع ١٣٢ نوفمبر/ ص ٤٨ ـ ٥٣، أسامة الغزولي: ثلاث قصائد (الإيقاعات والرؤى/ شعر) ـ ع ١٣٢ نوفمبر/ ص ٢٠٠ ـ ٢٠١، نافذة (شهادة) ـ ع ١٣٦ مارس/ ص ٢٦ ـ ٢٧، أسامة خليل: صوفى يبحث عن هاوية (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٢٨ يوليه/ ص ٢٦٠ ـ ٢٦٣، العبور إلى الضفة الأخرى (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣٠ سبتمبر/ ص ٢٥٦ ـ ٢٥٨، أسعد خير الله: فؤاد رفقة ونبوءة الشعر (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣٧ إبريل/ ص ١٧٢ ـ ١٧٤، آكون أندريه: المجتمع وتطور الإمكانيات الرمزية (الفصول والغايات) ـ ع ١٣٦ مارس/ ص ٩٩ ـ ١٠١، آلان دى ليبيرا ترجمة ريشارجاكمون: الأصول الثقافية للعنصرية الأوروبية (المراجعات) ـ ع ١٣٢ نوفمبر/ ص ١٢٨ ـ ١٣٢، البشير بن سلامة: لا حرية للمبدع إلامع وجود سلطة رابعة حقيقية (المحاورات) ـ ع ١٣٧ إبريل / ص ١٥٨ ـ ١٦٠، السماح عبد الله: مواصلة غناء الثمانينيين (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٢٨ يوليه / ص ٢٦٣ ـ ٢٦٦، خطوات جانبية (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٢٩ أغسطس / ص ٢٠٩ ـ ٢١١، أكتوبر.. السيد المتوج على عرش السلة (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣١ أكتوبر / ص ٢١٧ ـ ٢٢١، السيد فاروق رزق : صناعة الوشم وكتابة الذاكرة (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٢٨ يوليه / ص ٢٤٧ ـ ٢٥٠، السيد نصر الدين السيد: المواجهات الكبرى والاستجابات المنقوصة (الفصول والغايات) ـ ع ١٣٦ مارس/ ص ٧٥ ـ ٨٣، السيد ياسين: حوار الحضارات فى عالم متغير (الفصول والغايات) ـ ع ١٢٩ أغسطس/ ص ٣٠ ـ ٥١، مقدمة لسيرة ذاتية (المراجعات) ـ ع ١٣٦ مارس/ ص ١٠٤ ـ ١١٠، الثقافات المضادة بين الإدانة والتكفير (المواجهات) ـ ع ١٣٨ مايو/ ص ٨١ ـ ٨٤، ألفريد جميل حبيب: تعدد التصويت فى الموسيقى العربية (المحاورات) ـ ع ١٣٤ يناير/ ص ١٤٥ ـ ١٤٧، ألفن توفلر ترجمة لبنى الريدى: المعرفة.. صناعة الرموز (المواجهات) ـ ع ١٣٢ نوفمبر/ ص ٦٦ ـ ٧٢، المحمود إبراهيم: معرض الفن السينمائى الدولى الـ ٥٠ بالبندقية (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣١ أكتوبر/ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٨، آخر أحلام المايسترو (ڤيللينى) (المحاورات) ـ ع ١٣٣ ديسمبر/ ص ٢٣٢ ـ ٢٤٨، إيطاليا ليلة رحيل ڤيلليني (المحاورات) ـ ع ١٣٣ ديسمبر/ ص ٢٥٠ ـ ٢٥٥، مهرجان السينما التسجيلية فى فلورنسا (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣٥ فبراير/ ص ١٥٥ ـ ١٥٧، إعادة كتابة تاريخ هذا القرن (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣٦ مارس/ ص ١٦٧ ـ ١٦٨، إليزابيتا كونفا لونى ترجمة المحمود إبراهيم: عطايا الغرب المسمومة.. مقابلة مع سيرج لاتوش (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣٥ فبراير/ ص ١٥٧ ـ ١٦٠ اليسون براونيج ترجمة مى التلمساني : يوجين يونسكو : أوروبا ... تسلسل عمليات ناقصة (المراجعات) ـ ع ١٣٩ يونيه/، ص ١٨٥ ـ ١٨٧ ،إليكس كالينيكوس ترجمة خليل كلفت: خلفيات التغير في موقف الحزب الحاكم في جنوب أفريقيا (الفصول والغايات) ـ ع ١٣٩ يونيه / ص ٩٢ ـ ٩٥، أمجدريان: فانتازيا للأعالى (الإيقاعات والرؤى/ شعر) ـ ع ١٣٦ مارس/ ص ١٤٥ ـ ١٤٦، أمل دنقل (أول قصيدة) : أوجيني: النشيد الأول (شعر) ـ ع ١٣٦ مارس/ ص ٣٨، أمير العمرى: طفل ماكون لبيتر جرينا واى (الإشارات و التنبيهات) ـ ع ١٣٦ مارس/ ص ١٦٩ ـ ١٧٢، أمنية ماسك عبد الله: الجسد... والسلطة (المواجهات) ـ ع ١٢٨ يوليه/ ص ١١ ـ ٤٧، انطونيو جرامشى: المثقفون (المراجعات) ـ ع ١٣٤ يناير/ ص ١٠٦ ـ ١١٧، انعام كجه جي: الخوافات (الإيقاعات والرؤى/ قصة) ـ ع ١٢٨ يوليه/ ص ١٧٨ ـ ١٨١، أيمن بكر: حرية الفكر والإبداع فى مجمع الفنون (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣١ أكتوبر/ ص ٢٢١ ـ ٢٢٣، إيناس رفعت: مختارات التليس الشعرية (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣١ أكتوبر/ ص ٢٤٣

(ب)

باسكال بيدان ترجمة: كاميليا صبحى: الواحد الآخر من أعماق المغارات (المواجهات) ـ ع ١٣١ أكتوبر/ ص ٢٢ ـ ٢٣، بثنية الناصرى: ميلاد (الإيقاعات والرؤى/ قصة) ـ ع ١٣٠ سبتمبر/ ص ٢٢٥ ـ ٢٢٦، بثينة رشدى: الإسلام فى الهند (المواجهات) ـ ع ١٢٩ أغسطس/ ص ٢٥ ـ ٢٨، الشر فى كل قلب (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣٢ نوفمبر ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦، جاك بيرك مفكرا سياسيا (المحاورات) ـ ع ١٣٧ إبريل/ ص ١٦٠ ـ ١٦٢، الكتابة والشك (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣٨ مايو/ ص ١٨١ ـ ١٨٢، بدر الدفاعي : تساؤلات علي هامش المستقبل (المواجهات) ـ ع ١٣٩ يونيه / ص ٢٢ ـ ٢٥، بشير السباعي: الماركسية ولاهوت الدولة (المحاورات) ـ ع ١٣١ أكتوبر/ ص ٢٠٨ ـ ٢٠٩، بهاء طاهر: من حكايات عرمان الكبير (الإيقاعات والرؤى/ قصة) ـ ع ١٣٢ نوفمبر/ ص ١٧٤ ـ ١٧٨، بهيج إسماعيل: هم (الإيقاعات والرؤى/ شعر) ـ ع ١٣١ أكتوبر/ ص ١٧٠ ـ ١٧٢، بول بالتا ترجمة: كاميليا صبحى: إعادة خلق البحر الأبيض المتوسط (المواجهات) ـ ع ١٣٥ فبراير/ ص ٤٣ ـ ٤٦، بياتريس دوروب، ترجمة: كاميليا صبحي (المواجهات) ـ ع ١٣١ أكتوبر/ ص ١٨ ـ ٢٠، بيير برنارد: هذه الترجمة لماذا؟ (المواجهات) ـ ع ١٢٩ أغسطس/ ص ١٣، الأمل الذى تحقق (المواجهات) ـ ع ١٢٩ أغسطس/ ص ١٩، بيير كاكيا ترجمة: محمد عيد إبراهيم، مراجعة إدوار الخراط: التحرر من السيطرة الكهنوتية.. صورة رجال الدين فى الأدب العربى الحديث (الفصول والغايات) ـ ع ١٣١ أكتوبر/ ص ٤٦ ـ ٥٣.

(ت)

التحرير: محمد فريد أبو حديد.. مائة عام على مولده (المراجعات) ـ ع ١٢٨ يوليه/ ص ١٢٦، جاك بيرك (محاولة لترجمة معانى القرآن الكريم) (المواجهات) ـ ع ١٢٩ أغسطس/ ص ١٢، صلاح أحمد إبراهيم: رحيل عصفور أم درمان (المراجعات) ـ ع ١٢٩ أغسطس/ ص ٨٠ ـ ٨١،

أطفال مصر والمستقبل الغامض (الفصول والغايات) ـ ع ١٣٠ سبتمبر/ ص ٧٢ ـ ٧٣، الجنس... الفكر والإبداع والوجود (المواجهات) ـ ع ١٣١ أكتوبر/ ص ٨ ـ ٩، البحث عن الحرية فى الأدب العربى (الفصول والغايات) ـ ع ١٣١ أكتوبر/ ص ٤٣، فى الرد على أندريه ميكل (المحاورات) ـ ع ١٣١ أكتوبر/ ص ٢٠٩، نهاية الأمل وصدمة المستقبل (المواجهات) ـ ع ١٣٢ نوفمبر/ ص ١٨ ـ ١٩، زكى نجيب محمود وخرافة الخرافة (الفصول والغايات) ـ ع ١٣٢ نوفمبر/ ص ٧٤، طه حسين.. ببليوجرافيا (١٨٨٩ ـ ١٩٧٣) (المراجعات) ـ ع ١٣٢ نوفمبر/ ص ١٢٠ ـ ١٢٣، حسن البنا و الحركات الإسلامية الجديدة (المواجهات) ـ ع ١٣٣ ديسمبر/ ص ١٩، الإسلام بين أزمة الواقع ومتطلبات العصر (ندوة/ المواجهات) ـ ع ١٣٣ ديسمبر/ ص ٧٥ ـ ٩٦، رسائل محمد مندور إلى طه حسين (هذه الرسائل) (الفصول والغايات) ـ ع ١٣٣ ديسمبر/ص ١٠٠، فيد يريكو فيلليني.. الرحيل إلى الصباح (المحاورات) ـ ع ١٣٣ ديسمبر/ ص ٢٢٥، الإسلام السياسى من السودان إلى الجزائر (الفصول والغايات) ـ ع ١٣٤ يناير/ ص ٤٤ ـ ٤٥، الإسلاميون.. رؤية غربية عن الإكسبريس الفرنسية (الفصول والغايات) ـ ع ١٣٤ يناير/ ص ٧٨ ـ ٨٥، التواصل ـ الانقطاع.. أنا والآخر (المواجهات) ـ ع ١٣٥فبراير/ ص ١٠ ـ ١١، عبد الفتاح الجمل.. عباد الشمس، لانقول المؤتمر الوطني الأفريقي من السجن إلي البرلمان وداعاً، فى سطور (شهادة) ـ ع ١٣٦ مارس/ ص ٤ ـ ٧، العنصرية فى الغرب (المواجهات) ـ ع ١٣٦ مارس/ ص ٤٣، الهوية والعالم فى عصر الانقلابات الكبرى (الفصول والغايات) ـ ع ١٣٦ مارس/ ص ٧٢ ـ ٧٣، خصوصية المرأة أم خصوصية الكتابة؟ (الإيقاعات والرؤى) ـ ع ١٣٧ إبريل/ ص ١٠٦، الفكر أقوى من السلاح.. شهادة عادل عبد الباقى (المواجهات) ـ ع ١٣٨ مايو/ ص ٧٠ ـ ٨٠، تشارلي كيمبر : المؤتمر الوطنى الأفريقى. من السجن إلى البرلمان ترجمة خليل كلفتً (الفصول والغايات) ـ ع ١٣٩ يونيه / ص ٩٦ ـ ٩٩، توماس فيراترى، ترجمة: كاميليا صبحى: ماذا بعد ماركس؟ (المواجهات) ـ ع ١٣٢ نوفمبر/ ص ٢٠ ـ ٢٣.

(ج)

جار النبى الحلو: البكاء الأخير (الإيقاعات والرؤى/ قصة) ـ ع ١٢٩ أغسطس/ ص ١٢٩ ـ ١٣١، جان روى، ترجمة: أحمد عثمان: حول مفهوم السينما الاستعمارية (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣٥ فبراير/ ص ١٤٩ ـ ١٥٠، جان ماكس نوبيه: إمبراطورية الاستراتيجية الشاملة (الفصول والغايات) ـ ع ١٣٦ مارس/ ص ٨٩ ـ ٩٨، جمال السبعاوى: حفلة للمجانين (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٢٩ أغسطس/ ص ٢٠٠ ـ ٢٠١، جميل حتمل: الخال ابن ستى نصره (الإيقاعات والرؤى/ قصة) ـ ع ١٢٨ يوليه/ ص ٢٠١، جهاد عودة: تحطيم الوهم حول الحركة الإسلامية فى مصر (المواجهات) ـ ع ١٣٠ سبتمبر/ ص ٤٦ ـ ٥٥، جهاد هديب: عمان...كيف تبدو قبل الشتاء الساخن ؟ (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣٧ إبريل/ ص ١٧٦ ـ ١٨١، جورج قنواتي ترجمة .كاميليا صبحي : علم الكلام الإسلامي وعلم اللاهوت المسيحي (المراجعات) ـ ع ١٣٩ / ص ١٥٧ ـ ١٦١ ، ترجمة هانى لبيب : مدرسة الإسكندرية (المراجعات) ـ ع ١٣٩ / ص ١٦٢ ـ ١٦٦ ، الراهب الفيلسوف الإسلامي (المراجعات) ـ ع ١٣٩ / ص ١٦٧ ـ ١٧٠ ،، جوزيف سكاتولين : رجل الحوار بين الشرق والغرب وبين العقل والإيمان (المراجعات) ـ ع ١٣٩ / ص ١٥٢ ـ ١٥٤جون كنج، ترجمة: خليل كلفت: نظرة من محيط العالم (الإيقاعات والرؤى) ـ ع ١٣٧ إبريل/ ص ١٢٨ ـ ١٣٤، جونوفييف كلاتسكى، ترجمة: كاميليا صبحى: الرؤية والجسارة (المواجهات) ـ ع ١٣١ أكتوبر/ ص ١٠ ـ ١١، جيل نورد جمان، ترجمة كاميليا صبحى:: آليات الرقابة.. حديث مع جيرا ربورجارديه (المواجهات) ـ ع ١٣١ أكتوبر/ ص ٢٨ ـ ٣٠.

(ح)

حازم شحاته: تاريخ جديد فى مسرح جديد (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٢٩ أغسطس/ ص ١٩١ ـ ١٩٣، حازم هاشم: صلاح أحمد إبراهيم. مذكرة للإنقاذ (المراجعات) ـ ع ١٢٩ أغسطس/ ص ٨٢ ـ ٩٤، صلاح أحمد إبراهيم صورة من قريب.. حوار مع الطيب صالح (المراجعات) ـ ع ١٢٩ أغسطس/ ص ٩٦ ـ ٩٩، احتفال أصيلة الثقافى (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣٠ سبتمبر/ ص ٢٥٨ ـ ٢٦٢، نجار السلام (الإيقاعات والرؤى/ صورة) ـ ع ١٣١ أكتوبر/ ص ١٨٥ ـ ١٨٩، القديس (الإيقاعات والرؤى/صورة) ـ ع ١٣٣ ديسمبر / ص ٢١٨ ـ ٢٢١، العصماء البذيئة (الإيقاعات والرؤى/ صورة) ـ ع ١٣٥ فبراير/ ص ١١٨ ـ ١١٩، حجاج حسن أدول: حول مصطلح الأدب النوبى (المحاورات) ـ ع ١٣٢ نوفمبر/ ص ٢٣٢ ـ ٢٣٥، حسن البنا: من حسن البنا إلى طه حسين (المواجهات) ـ ع ١٣٣ ديسمبر/ ص ٥٨ ـ ٦٢، حسن حنفى: جدل الأنا والآخر (الفصول والغايات) ـ ع ١٢٨ يوليه/ ص ٦٦ ـ ٨٥، تجديد الفكر العربى إشكال التواصل والانقطاع (الفصول والغايات) ـ ع ١٣٢ نوفمبر/ ص ٧٦ ـ ٩٥، المشروع الحضارى الجديد الماضى والحاضر والمستقبل (بدايات) ـ ع ١٣٧ إبريل/ص ٤ ـ١٤، حسن نور: رواية وصف البلبل (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٢٨ يوليه/ ص ٢٤٢ ـ ٢٤٥، الغيوم تخنق القمر (الإيقاعات والرؤى/ قصة) ـ ع ١٣١ أكتوبر/ ص ١٧٧ ـ ١٨١، حسين أحمد أمين: وأسمعت كلماتى من به صمم (المحاورات) ـ ع ١٢٨ يوليه/ ص ٢٢٦ ـ ٢٣١، حاجة المسلمين إلى أدب الحوار فى الدين (المواجهات) ـ ع ١٣٠ سبتمبر/ ص ٢٥ ـ ٣٠، حسين عفيف: الشعر المنثور (الفصول والغايات) ـ ع ١٣٥ فبراير/ ص ٧٠ ـ ٧٢، ،وراء الغمام، للشاعر إبراهيم ناجى (الفصول والغايات) ـ ع ١٣٥ فبراير/ ص ٧٣ ـ ٧٤، قصيدتان (الفصول والغايات) ـ ع ١٣٥ فبراير/ ص ٧٥، مختارات شعرية مترجمة (الفصول والغايات) ـ ع ١٣٥ فبراير/ ص

٧٦ - ٧٨، حسين فهمى العمرى: الإسلام وحرية الرأى (المحاورات) - ع ١٢٩ أغسطس/ ص ١٧٩ - ١٨٣، حكيم ميخايل شحاته: إبراهيم فهمى.. العشق أوله القرى (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٣٦ مارس/ ص ١٥٨ - ١٦١، حمدة خميس: قصائد (الإيقاعات والرؤى/شعر) - ع ١٢٨ يوليه/ ص ١٨٢ - ١٨٦، حنيف يوسف: أقنعة السهروردى ومدائح هيلين (الإيقاعات والرؤى/ شعر) - ع ١٣٠ سبتمبر/ ص ٢٠٢ - ٢٠٥.

(خ)

خالد النجار: امرأة من العراق وصاروخ من أمريكا (المحاورات) - ع ١٢٨ يوليه/ ص ٢٠٩ - ٢١٣، خالد داود: مشكلة أطفال الشوارع فى مصر (الفصول والغايات) - ع ١٣٠سبتمبر/ ص ٨٦ - ٨٨، خزعل الماجدى: أثر منهج ميشيل فوكو على إدوارد سعيد فى كتاب الاستشراق (المراجعات) - ع ١٣٧ إبريل/ ص ٦٢ - ٧١، خليل كلفت : خور خه لويس بورخيس.. نظرة من محيط العالم (الإيقاعات والرؤى) - ع ١٣٧ إبريل/ ص ١٢٦ - ١٢٧، تسلسل زمنى [بيو- ببليوجرافى] ٢٤ أغسطس ١٨٩٩ - ١٤ يوليو ١٩٨٦ (الإيقاعات والرؤى) - ع ١٣٧ إبريل/ ص ١٥٤ - ١٥٥، التاريخ يتغير من جنوب أفريقيا (الفصول والغايات) - ع ١٣٩ يونيه / ص ٧٢ - ٨١، خ. ل. بورخيس ترجمة: خليل كلفت: دحض جديد للزمن (الإيقاعات والرؤى) - ع ١٣٧ إبريل/ ص ١٣٥ - ١٤٢، تيلون، أو كبار، أوربيس تيرتيوس (الإيقاعات والرؤى/ قصة) - ع ١٣٧ إبريل/ ص ١٤٣ - ١٥٠، الجحيم، ٣٢،١ (الإيقاعات والرؤى / قصة) - ع ١٣٧ إبريل / ص ١٥١، ليل العود الأبدى (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٣٧ إبريل / ص ١٥٢ - ١٥٣، خورخى أيبار جنجوتيا ترجمة : محمد إبراهيم مبروك.. قانون هيرودس (الإيقاعات والرؤى / قصة) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ١٣٦ - ١٣٩، خيرى شلبى: عصر عبد الفتاح الجمل (شهادة) - ع ١٣٦ مارس / ص ١٧ - ٢٠، رسالة الحائط الرطيب (الإيقاعات والرؤى/ ع ١٣٩ يونيه / ص ٢٠٢ - ٢٠٨.

(د)

دوروثى باركر، ترجمة :حسين أحمد أمين: مكالمة تليفونية (الإيقاعات والرؤى / قصة) - ع ١٣١ أكتوبر /ص ١٣٢ - ١٣٥، ديڤيد لودچ، ترجمة السيد إمام: التاريخية والتاريخ الأدبى.. رسم خريطة العصر الحديث (المراجعات) - ع ١٣٧إبريل/ ص ٧٦ - ٨١.

(ر)

راؤول جيرارديه، ترجمة خليل كلفت: العصر الذهبي (الفصول والغايات) - ع ١٣٧ إبريل/ ص ٢٩ - ٤٨، رجاء عيد: تفكك الشخصية (المراجعات) - ع ١٣١ أكتوبر/ ص ١١٤ - ١٢٣، رجب أبو سرية: انكشاف الذوات المقهورة فى مرايا النار (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ٢٣٨ - ٢٤٠، رجب سعد السيد: نموذج غريب للقصص السياسى (المحاورات) - ع ١٢٩ أغسطس / ص ١٧١ - ١٧٦، رشاد سلام : الإرهاب.. منظور السطح ورؤية الأعماق (المحاورات) - ع ١٢٩ أغسطس / ص ١٨٤ - ١٨٦، رشاد عبد الله الشامى: إحسان عبد القدوس والآخر اليهودى(الفصول والغايات) - ع ١٢٨ يوليه/ ص ٩٦ - ١٠١، رضا البهات : على شاطئ البحر (الإيقاعات والرؤى / قصة) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ١٧٤ - ١٧٦، رفعت السعيد: الفرق بين الفكر والمعرفة (المواجهات) - ع ١٣٣ ديسمبر/ ص ٦٤ - ٦٦، الإرهاب فى التأسلم السياسى.. مفروض أو مفترض؟ (المواجهات) - ع ١٣٨ مايو/ ص ٦٢ - ٦٨، ولن يكون الأخير • (المواجهات)- ع ١٣٨ مايو/ ص ٩٣ - ٩٤، رفعت السيد: تزييف التاريخ - عصور فى فوضى (المواجهات) - ع ١٣٩ يونيه / ص ٨ - ١٣، رفعت بهجت: اسكندرية كفافى (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٢٩ أغسطس/ ص ١٩٦ - ١٩٩، مهرجان الإسكندرية السينمائى الدولى التاسع (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٣١ أكتوبر/ ص ٢١٤ - ٢١٧، سينما الشاطئ الأخر المتوسط (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٣٢ نوفمبر/ص ٢٥٧ - ٢٥٩، ذلك الثائر الردىء الطيب (المواجهات) - ع ١٣٨ مايو/ ص ١١١ - ١١٤، رمسيس عوض: إ. م. فورستر والحياة الجنسية عند الإغريق (المواجهات) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ٣٢ - ٤٠، روجر آلين ترجمة: محمد عيد إبراهيم، مراجعة إدوار الخراط: الرواية العربية والبحث عن الحرية (الفصول والغايات) - ع ١٣١ أكتوبر/ ص ٥٤ - ٦٤، رودلف إرنهايم ترجمة وتقديم وتعقيب عادل السيوى : الرؤية والتفكير ورسوم الأطفال (الفصول والغايات) - ع ١٣٠ سبتمبر / ص ٩٤ - ١٠٣، ريلو إيجور ترجمة كاميليا صبحى : الإباحية والقانون (المواجهات) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ١٦ - ١٧، ريم سعد: معانى الرقى والهبوط فى تركيا ومصر (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٣٨ مايو/ ص ١٨٢ - ١٨٤.

(ز)

زكريا عنانى: يوسف يعقوب: الاستشراق الفرنسى (المراجعات) - ع ١٣٢ نوفمبر / ص ١٥٤ - ١٦٣، زينب الخضيرى.. الأب قنواتى ودور همزة الوصل (المراجعات) - ع ١٣٩ يونيه / ص ١٥٥ - ١٥٦.

(س)

ستيفان وايلد، ترجمة أحمد صليحة: نزار قبانى الجنس والموت والشعر (الفصول و الغايات) - ع ١٢٨ يوليه/ ص ١٠٢ - ١٠٩، سعد القرش: لويس عوض ذلك الفرعون (المحاورات) - ع ١٢٩ أغسطس/ ص ١٦٢ - ١٦٦، عن الفرعونية والعروبة وأشياء أخرى سخيفة (المحاورات) - ع ١٣٢

نوفمبر/ ص ٢٢٥ ـ ٢٢٧ ، سعد لبيب: السياسة الثقافية فى ضوء تطور التقنيات فى مجال الاتصال (المراجعات) ـ ع ١٣٣ ديسمبر/ ص ١٧٦ ـ ١٩٠ ، سعدى يوسف: دائرة المثلث (الإيقاعات والرؤى/ شعر) ـ ع ١٣٣ ديسمبر/ ص ٢٠٠ ـ ٢٠٤ ، سلمى خضراء الجيوشى: الحرية والقسر فى شعر السبعينيات (الفصول والغايات) ـ ع ١٣١ أكتوبر/ ص ٦٦ ـ ٧٧ ، سليم سحاب: الموسيقى العربية و... الهارمونيا (المحاورات) ـ ع ١٣٤/ص ١٢٨ ـ ١٣٢ ، سليمان الحكيم: لويس عوض هذا الفرعون نقد على نقد (المحاورات) ـ ع ١٣٠ سبتمبر/ ص ٢٢٤ ـ ٢٣٦ ، سمير حنا صادق: تراكم المعلومات والتطور (المراجعات) ـ ع ١٣١ أكتوبر / ص ١٢٤ ـ ١٢٧ ، العلم فى الثقافة المصرية (المراجعات) ـ ع ١٣٣ ديسمبر/ ص ١٧٠ ـ ١٧٥ ، سمير مرقس: تجربة لاهوت التحرير (المواجهات) ـ ع ١٣٤ يناير/ ص ٢٢ ـ ٣٧ ، سهام عبد السلام: حتى إشعار آخر (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣٥ فبراير/ ص ١٤٣ ـ ١٤٥ ، سهير عبد الفتاح: بليغ حمدى .. الموهبة وحدها لاتكفى (المحاورات) ـ ع ١٣٢ نوفمبر/ص ٢٣٦ ـ ٢٣٨ ، الموسيقى العربية الحاضر والمستقبل (المحاورات) ـ ع ١٣٤ يناير/ص ١٢٠ ـ ١٢٣ ، سيد محمود حسن: موت المؤلف المسرحى (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣١ أكتوبر/ ص ٢٢٨ ـ ٢٣٠ .

(ش)

شارل بوكوفسكى ترجمة : بشير السباعى: سيدات الصيف (الإيقاعات والرؤى/ شعر) ـ ع ١٣١ أكتوبر/ ص ١٤٦ ـ ١٤٩ ، شاكر خصباك: القهقهة (الإيقاعات والرؤى/ مسرحية) ـ ع ١٣٠ سبتمبر/ ص ١٩٢ ـ ٢٠١ ، شاكر نورى: صلاح أحمد إبراهيم .. تعال نمرح فى غابة الأبنوس أيها الموت (المراجعات) ـ ع ١٢٩ أغسطس/ ص ١٠٠ ـ ١٠٤ ، شريف الشوباشى: الشيخ عبد الله (الإيقاعات والرؤى/ قصة) ـ ع ١٣٦ مارس/ ص ١٣٤ ـ ١٤٠ ، شريف رزق: فضاء راعى المياه (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣٠ سبتمبر/ ص ٢٤١ ـ ٢٤٥ ، شوقى عبد الحكيم: الأعشاب والعطارة والخرافات (المحاورات) ـ ع ١٣٧ إبريل/ ص ١٦٢ ـ ١٦٣ .

(ص)

صافيناز كاظم: محمد فريد أبو حديد والظلم النقدى (المراجعات) ـ ع ١٢٨ يوليه/ ص ١٢٨ ـ ١٢٩ ، محمد فريد أبو حديد.. سيرة الحياة (المراجعات) ـ ع ١٢٨ يوليه/ ص ١٧٤ ـ ١٧٦ ، تأمل فى الشخصية الأدبية (المراجعات) ـ ع ١٣٠ سبتمبر/ ص ١٦٠ ـ ١٦٣ ، صالح السنوسى: أحلام ليلة أندلسية (الإيقاعات والرؤى/ قصة) ـ ع ١٢٨ يوليه/ ص ١٩٢ ـ ١٩٤ ، عودة رحمانى (الإيقاعات والرؤى/ قصة) ـ ع ١٣٨ مايو/ ص ١٦٨ ـ ١٧٠ ، صدوق نور الدين: الحى الخلفى: سؤال الرواية (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٢٨ يوليه/ ص ٢٧٧ ـ ٢٨٢ ، صلاح أحمد إبراهيم: أسرة مصرية من طراز رفيع (المراجعات) ـ ع ١٢٩ أغسطس/ ص ١٠٥ ـ ١٠٧ ، نحن والردى (المراجعات/ شعر) ـ ع ١٢٩ أغسطس/ ص ١٠٧ ـ ١١١ ، صلاح الدين محسن: تعقيب على: لويس عوض هذا الفرعون (المحاورات) ـ ع ١٣٢ نوفمبر/ ص ٢٢٨ ـ ٢٣٠ . صلاح هاشم: هل بريطانيا مجتمع عنصرى؟ (المواجهات) ـ ع ١٣٦ مارس/ ص ٤٤ ـ ٤٨ .

(ض)

ضياء رشوان: العنف بين الدين والسياسة (المواجهات) ـ ع ١٣٠ سبتمبر/ ص ٣٣ ـ ٣٧ ، مفاهيم العنف: حدود الخلط والتمايز (المواجهات) ـ ع ١٣٠ سبتمبر/ ص ٣٨ ـ ٤٢ .

(ط)

طارق الطيب: مجنونة (الإيقاعات والرؤى/ قصة) ـ ع ١٢٨ يوليه/ ص ١٨٧ ـ ١٨٨ .

(ع)

عادل أبو زهره: ازدهار الإسكندرية... وتدهورها (المراجعات) ـ ع ١٣٢ نوفمبر/ ص ١٢٤ ـ ١٢٧ ، عادل حلمى بدر: العيد الثالث لمهرجان كافافيس (١٢ ـ ١٥ نوفمبر) (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣٣ ديسمبر/ ص ٢٧٥ ـ ٢٧٦ ، عادل غنيم: لماذا جرامشى؟ (المراجعات) ـ ع ١٣٤ يناير/ ص ١٠٠ ـ ١٠٤ ، عاطف أحمد: حسن البنا .. فقه الاختلاف (المواجهات) ـ ع ١٣٣ ديسمبر/ ص ٦٨ ـ ٧٣ ، عالية ممدوح: فرائض الهوى (الإيقاعات والرؤى/ شهادة) ـ ع ١٣٧ إبريل/ ص ١٠٧ ـ ١١١ ، عبد الرحمن أبو عوف: لغة الرفض وفقه اللذة (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٢٨ يوليه/ ص ٢٦٦ ـ ٢٧١ ، آليات... الواقع والرمز فى العالم الشعرى لحسن طلب (المراجعات) ـ ع ١٣٠ سبتمبر/ ص ١٤٢ـ ١٤٨ ، مآسى المهمشين (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣٣ ديسمبر/ ص ٢٢٦ ـ ٢٦٨ ، التنوير يواجه الظلام (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣٥ فبراير / ص ١٣٠ ـ ١٣٦ .رحيل الأب الروحى لجيل الستينيات.. وأحزان محب (شهادة) ـ ع ١٣٦ مارس / ص ٢٨ ـ ٣١ ، جدلية الوعى والذاكرة والتخيل فى الخطاب الشعرى لدى وليد منير (المراجعات) ـ ع ١٣٨ مايو / ص ١٥٧ ـ ١٦٢ ، عبدالرحمن الأبنودى (أول قصيدة) ـ ع ١٣٦ مارس / ص ٣٩ ، عبدالعال الحمامصى :

أطفال الله (الإيقاعات والرؤى / قصة) - ع ١٣٦ مارس / ص ١٤١ - ١٤٤، عبدالعزيز موافى : بيوت وراء الأشجار والبحث عن الزمن المفقود (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٣٠ سبتمبر / ص ١٣٨ - ٢٤١، مدن مرئية (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ١٦٤ - ١٦٨، حسين عفيف.. سيرة الحياة ومغامرة الشعر تقديم الملف (الفصول والغايات) - ع ١٣٥ فبراير / ص ٥٧ - ٥٨، الإطار النظرى للشعر المنثور عند حسين عفيف (الفصول والغايات) - ع ١٣٥ فبراير / ص ٦٤ - ٦٩، شعرية النص وشروط الحداثة (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٣٥ فبراير / ص ١٤٦ - ١٤٨، «صورة شخصية، لذاكرة شعرية أخرى (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٣٧ إبريل / ص ١٦٩ - ١٧١، الإطار النظرى للشعر عند إبراهيم شكر الله - ع ١٣٨ مايو / ص ١٤ - ١٧ ، إبراهيم شكر الله (بطاقة) - ع ١٣٨ مايو / ص ٥٩، عبدالعليم محمد : تعميق الالتباس (المواجهات) - ع ١٣٠ سبتمبر / ص ٤٣ - ٤٥، عبدالفتاح الجمل : «مختارات، من كتابات منسية - ع ١٣٦ مارس / ص ٣٢ - ٣٦، عبدالفتاح جلال : التربية والقدرات الخلاقة (الفصول والغايات) - ع ١٣٦ مارس / ص ٨٤ - ٨٨، عبدالله السمطى : على زجاج مهشم (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ١٦٠ - ١٦٢، عبدالله باخشوين : الغبار (الإيقاعات والرؤى / قصة) - ع ١٣٢ نوفمبر / ص ١٨٤ - ١٨٦، عبد المنعم رمضان : فى الليل (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٣٢ نوفمبر / ص ١٨٠ - ١٨٣ ، عبدالمنعم سعيد : تحطيم الوهم حول الحركة الإسلامية (المواجهات) - ع ١٣٠ سبتمبر / ص ٥٦ - ٥٧، عبدالمنعم سليم: شكسبير الجديد (المراجعات) - ع ١٣٨ مايو / ص ١٥٣ - ١٥٦، يوجين يونسكو (المراجعات) ع ١٣٩/ص١٧١ - ١٧٤، عبدالمنعم عواد يوسف : جيلى عبدالرحمن.. الجواد والسيف المكسور (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٢٨ يوليه / ص ٢٧٢ - ٢٧٤، عبدالوهاب الأسوانى : ارتجال الظل (الإيقاعات والرؤى / قصة) - ع ١٣٠ سبتمبر / ص ٢٠٦ - ٢٠٨، عبدالوهاب داود : احتفالية أمل دنقل ومراقبة التاريخ (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٣٠ سبتمبر / ص ٢٥١ - ٢٥٢، فى ذكرى على قنديل (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ٢٢٦ - ٢٢٨، عبده جبير : قراءة فى أخبار الأدب (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٢٩ أغسطس / ص ١٩٠، جلجلة (شهادة) - ع ١٣٦ مارس/ ص ٢٣ - ٢٥، عبلة الروينى : د. نصر أبو زيد (المحاورات) - ع ١٣٢ نوفمبر/ ص ٢٣٩ - ٢٤٨، عثمان حسن عبدالله : محمد فريد أبو حديد.. فى ذكرى رائد عظيم (المراجعات) - ع ١٢٨ يوليه / ص ١٣٠ - ١٣١، عرفة عبده على: مغالطات نعيم تكلا (المحاورات) - ع ١٢٨ يوليه / ص ٢٠٤ - ٢٠٨، إشاعة الوهم - نجيب محفوظ فى الدراسات الإسرائيلية (المواجهات) - ع ١٣٩ يونيه / ص ٦٢ - ٦٧، عرفة محمد عبد الجواد : بليغ حمدى : مفتاح النيل (المحاورات) - ع ١٣٢ أكتوبر / ص ٢٠٠ - ٢٠٢، عروسية النالوتى : البوارق الهارية (الإيقاعات والرؤى / شهادة) - ع ١٣٧ أبريل / ص ١١٩ - ١٢٠، عز الدين أسامة : ورود سامة لصقر (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٣٦ مارس/ ص ١٦١ - ١٦٤، عز الدين بدوى : تساؤلات حول مهرجان المسرح التجريبى (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ٢٢٤ - ٢٢٦، عزت عامر : هندسة المستقبل (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٢٨ يولية / ص ٢٤٥ - ٢٤٦، يوحنا المعمدان الذى هو يحيى بن زكريا (الإيقاعات والرؤى/ شعر) - ع ١٣٥ فبراير / ص ١٠٧ - ١١٣، عصام الزهيرى : مشروع النهضة وازدواجية الفكر والسياسة (المحاورات) - ع ١٣٧ أبريل / ص ١٦٣ - ١٦٤، عطيات الأبنودى : النص الكامل لمحاكمة وإعدام زعيم إسلامى فى السودان (الفصول والغايات) - ع ١٣٤ يناير / ص ٤٦ - ٤٧، الدهشة الدائمة (شهادة) - ع ١٣٦ مارس / ص ١٥ - ١٦، علاء الديب : دروس الأستاذ عبدالفتاح الجمل (شهادة) - ع ١٣٦ مارس / ص ٣٧، علاء غنام : حقوق الطفل وصحته النفسية (الفصول والغايات) - ع ١٣٠ سبتمبر / ص ٧٤ - ٧٩، على أحمد : الكاتبة (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٣٥ فبراير / ص ١٥٣ - ١٥٤، على الشوباشى : تأملات حول مسألة المعارضة فى مصر (بدايات) - ع ١٣٥ فبراير / ص ٤ - ٨، الإرهابى التائب تحية له وللإعلام (المواجهات) - ع ١٣٨ مايو / ١٠١ - ١٠٣، على زين العابدين فرح : عن أدب الحوار والتكفير (المحاورات) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ٢١٠ - ٢١١، على عفيفى : الخنادق (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٣٢ نوفمبر/ ص ٢٠٨ - ٢١٠، تتدارى.. الموت والليل والنشور (المراجعات) - ع ١٣٣ ديسمبر / ص ١٩٢-١٩٨، على عوض الله كرار: فيلم «الآخر، والسؤال الجوال بحثا عن تكاملية أولى (الإشارات والتنبيهات) - ع ١٣٢ نوفمبر / ص ٢٦٩ - ٢٧٢، على فهمى : العوام والأفندى (الفصول والغايات) - ع ١٢٨ يولية / ص ٨٦ - ٩٥، حول التوبة التليفزيونية ! ملاحظات فى المنهج وفى الموضوع (المواجهات) - ع ١٣٨ مايو / ص ٩٥ - ١٠٠ ، على منصور : قصيدتان (الإيقاعات والرؤى / شعر) - ع ١٣١ أكتوبر / ص ١٥٨ - ١٥٩، عمر الفاروق : تلخيص العصر فى شخصية مصر (١) (الفصول والغايات) - ع ١٣٨ مايو / ص ١١٦ - ١٤٦، تلخيص العصر فى شخصية مصر(٢) (الفصول والغايات) - ع ١٣٩ يونيه /ص ١٠٠ - ١٤٢، عمرو على بركات : قراءة على قراءة لرسائل جمال حمدان (المحاورات) - ع ١٣٦ مارس / ص ١٥٣ - ١٥٥ .

(غ)

غالى شكرى : من المحرر - ع ١٢٨ يوليه / ص ٣، من لا يخاف الشيخ الغزالى (بدايات) - ع ١٢٨ يوليه / ص ٤ - ٨، من المحرر - ع ١٢٩ أغسطس / ص ٣، بين أقنعة الاعتدال، وجوه التطرف (بدايات) - ع ١٢٩ أغسطس / ص ٤ - ٩، الثقافة العربية والمتغيرات العالمية (الفصول والغايات) - ع ١٢٩ أغسطس / ص ٥٢ - ٧٧، من المحرر - ع ١٣٠ سبتمبر / ص ٣، الخطاب غير الوطنى (بدايات) - ع ١٣٠ سبتمبر / ص ٤ - ٢٢،

من المحرر ـ ع ١٣١ أكتوبر / ص ٣، أكتوبر ... والخيال الأدبى (بدايات) ـ ع ١٣١ أكتوبر / ص ٤ ـ ٦، من المحرر ـ ع ١٣٢ نوفمبر / ص ٣، الخطاب الاستهلاكى (١) (بدايات) ـ ع ١٣٢ نوفمبر / ص ٤ـ١٥، من المحرر، وداعا ... ميشيل كامل ـ ع ١٣٣ ديسمبر / ص ٣، الخطاب الاستهلاكى (٢) (بدايات) ـ ع ١٣٣ ديسمبر/ ٤ـ ١٦، من المحرر ـ إلى ـ كل قارئ ـ ع ١٣٤ يناير / ص ٣، الخطاب الاستهلاكى (٣) (بدايات) ـ ع ١٣٤ يناير / ص ٤ـ١٣، من المحرر ـ ع ١٣٥ فبراير/ ص ٣، من المحرر ثقافة الإبادة العنصرية ـ ع ١٣٦ مارس / ص ٣، من المحرر.. حتى لا تقتل نازك الملائكة ـ ع ١٣٧ إبريل / ص ٣، من المحرر ـ ع ١٣٨ مايو / ص ٣، من المحرر ـ نحو ميثاق ضد التطبيع الثقافى ـ ع ١٣٩ / ص٣ .

(ف)

ف . ف نازمكين، س . ا . بانارين، ترجمة: أنور محمد إبراهيم : الشرق السوفيتى باعتباره مشكلة استشراقية (المراجعات) ـ ع ١٣٠ سبتمبر / ص ١١٨ ـ ١٢٤، فاروق بسيونى : الواقع الشعبى فى الفن المصرى (المراجعات) ـ ع ١٣٠ سبتمبر / ص١٦٤ ـ ١٧٨، فاضل الأسود : ايزنشتين يعود بقوة للدوريات الحديثة (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣٠ سبتمبر / ص ٢٦٧ ـ ٢٧٢، فايز محمود : الهدير المستسر (الإيقاعات والرؤى / قصة) ـ ع ١٢٨ يوليه / ص ١٩٩ ـ ٢٠٠، فتحى أبوالعينين : صورة الذات وصورة الآخر فى الخطاب الروائى (الفصول والغايات) ـ ع ١٣١ أكتوبر / ص ٩٢ـ ١٠٨، فتحى امبابى : بشر (الإيقاعات والرؤى/ قصة) ـ ع ١٣٥ فبراير / ص ١٠٤ ـ ١٠٦، فتحى صالح : نحو مفهوم موحد للمقامات (المحاورات) ـ ع ١٣٤ يناير / ص ١٣٣ ـ ١٤٤، فتحى عامر: التداخل الحضارى والاستقلال الفكرى (المواجهات) ـ ع ١٣٥ فبراير / ص ٢١ ـ ٢٦، فتحى عبدالله : قصائد الرصيف والشتات الجميل (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٢٨ يوليه / ص ٢٧٤ ـ ٢٧٧، اللغة وكيفية البناء عند ناصر العلوى (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٢٩ أغسطس / ص ٢١٥ ـ ٢١٦، سلطة المعرفة والدلالة الشعرية (المراجعات) ـ ع ١٣١ أكتوبر / ص ١٢٨ ـ ١٣٠، طه حسين وشهود العصر (المراجعات) ـ ع ١٣٢ نوفمبر / ص ١١٦ ـ ١١٩، لطفى السيد بين الذات والمجتمع (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣٣ ديسمبر / ص ٢٦٩ ـ ٢٧١، هل فرنسا عنصرية ؟ (المواجهات) ـ ع ١٣٦ مارس / ص ٦٧ ـ ٧٠، الأداء الشعرى فى ديوان موت العائلة (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣٧ إبريل / ص ١٧٥ ـ ١٧٦، إنسانية النص وإختفاء خصوصية المكان (الإشارات التنبيهات) ـ ع ١٣٨ مايو / ص ١٨٠ ـ١٨١، فتحى فرغلى : صفحة المساء (شهادة) ـ ع ١٣٦ مارس/ص ٨ ـ ١٢، فخرى صالح : الاستغراب فى مواجهة الاستشراق ! (المراجعات) ـ ع ١٣٧ إبريل / ص ٧٢ـ٧٥، فريدة الشوباشى : هدايا بابا نويل (١) (الإيقاعات والرؤى/ قصة) ـ ع ١٣٩ يونيه / ص ٢٠٩ ـ ٢١٠، فرج العربى: بين يديك لعبة قيس فى عامه الثانى (الإيقاعات والرؤى / شعر) ـ ع ١٣٥ فبراير / ص ١١٤، فوزى سليمان : السينما الصينية الجديدة فى مهرجان ميونخ (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣٠ سبتمبر / ص ٢٦٢ ـ ٢٦٤، سينما شابة فى عالم متغير (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣١ أكتوبر / ص ٢٣٦ ـ ٢٣٨، مهرجان فالنسيا لدول البحر المتوسط (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣٢ نوفمبر / ص ٢٧٢ ـ ٢٧٥، السينما والمسرح بين مصر والهند (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣٦ مارس / ص ١٦٤ ـ ١٦٦، فوزية رشيد : ذلك الألق (الإيقاعات والرؤى / قصة) ـ ع ١٢٨ يوليه/ ص ١٩٥ـ ١٩٨، فيديريكو فيلليني ترجمة المحمود إبراهيم : فن السينما (المحاورات) ـ ع ١٣٣ ديسمبر /ص ٢٥٦ ـ ٢٦١ ترجمة على نبوى عبدالعزيز : انجمار برجمان (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣٧ أبريل / ص ١٨٤ ، فيليب تانسيلين، ترجمة كاميليا صبحى : الواقع السياسى والإباحية (المواجهات) ـ ع ١٣١ أكتوبر/ ص ١٢ ـ ١٤، فيليب عطية : بدايات الطب الحديث فى مصر (المراجعات) ـ ع ١٣٢ نوفمبر / ص ١٣٤ ـ ١٣٩ .

(ك)

كرستينا بوتشيسكا ترجمة بثينة رشدى : الحب والجنس فى الرواية والشعر العربى فى تونس (الفصول والغايات) ـ ع ١٢٨ يوليه / ص ١١٠ ـ ١١٦، كريستيان فان نيسبن : قدسية الإنسان عند الأب جورج شحاته قنواتى الدومنيكانى (المراجعات) ع ١٣٩/ ص ١٤٤ ـ ١٤٦، كريستين عبد الكريم ويلان ترجمة خليل كلفت: مهمة ضخمة فى انتظار إعادة البناء الوطنية (الفصول والغايات) ـ ع ١٣٩ يونيه / ص ٨٨ ـ ٩١، كريم عبدالسلام : فلسفة الجسد (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٢٨ يوليه / ص ٢٨٣ ـ ٢٨٤، محمود درويش فى أحد عشر كوكبا (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣٠ سبتمبر / ص ٢٥٢ ـ ٢٥٦، قطيع أيام بيضاء (الإيقاعات الرؤى / شعر) ـ ع ١٣٢ نوفمبر / ص ٢٠٢ ـ ٢٠٥، على مبارك رائد التحديث فى مصر (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣٣ ديسمبر / ص ٢٦٤ ـ ٢٦٥، كمال الجويلى : ست الحسن والجمال تطل من صندوق الدنيا فى لوحات حلمى التونى الفريدة (المراجعات) ـ ع ١٣٨ مايو / ص ١٤٨ ـ ١٥٢، كمال مرسى: المخاض (الإيقاعات والرؤى / قصة) ـ ع ١٣١ أكتوبر / ص ١٨٢ـ ١٨٤ .

(ل)

لبنى الريدى : ألفن توفلر وتحول السلطة (المواجهات) ـ ع ١٣٢ نوفمبر / ص ٥٤ ـ ٦٤، لطفى عبدالوهاب يحيى : التواصل الحضارى وأزمة الهوية (المواجهات) ـ ع ١٣٥ فبراير / ص ١٢ ـ ٢٠، لوث جارثيا كاستينوف : اكتشاف نص مجهول (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٢٩ أغسطس / ص ٢١٧ ـ ٢٢١، صورة المسلم فى حكايات الأطفال الأسبانية (الفصول والغايات) ـ ع ١٣٠ سبتمبر / ص ١٠٤ ـ ١١٥، مانولو كاراكول أمير الفلامنكو (المراجعات) ـ ع ١٣٦ مارس / ص ١٢٨ ـ ١٣١، لورنس هاريس ترجمة خليل كلفت : تأمين الفصل العنصرى للسلطة الاقتصادية فى جنوب أفريقيا (الفصول والغايات) ـ ع ١٣٩ يونيه / ص ٨٢ ـ ٨٧، لوى ماكينس ترجمة ماهر شفيق فريد : الدقائق الساخنة (الإيقاعات والرؤى / شعر) ـ ع ١٣١ أكتوبر / ص ١٤٠ ـ ١٤٥، ليانة بدر : انعكاس التفاصيل فى المرآة (الإيقاعات والرؤى / شهادة) ـ ع ١٣٧ أبريل / ص ١١٢ ـ ١١٤، ليلى عبدالوهاب : المرأة والحضارة (المواجهات) ـ ع ١٢٨ يوليه / ص ٤٨ ـ ٦٣.

(م)

مارتن جوزلان ترجمة كاميليا صبحى : الجزائر.. من يريد الموت للمفكرين (الفصول والغايات) ـ ع ١٣٤ يناير / ص ٨٧ ـ ٩٧، مارك لاشييز ـ رىّ، جان بيير ليمديه ترجمة عزت عامر : مولد الأكوان (المراجعات) ـ ع ١٢٩ أغسطس / ص ١٢٠ ـ ١٢٥، ماجد يوسف : براويز الأنثى (٢) (الإيقاعات والرؤى / شعر) ـ ع ١٢٩ أغسطس / ص ١٥٥ ـ ١٦٠، ماشادو ده أسيس، ترجمة خليل كلفت : مارش جنائزى (الإيقاعات والرؤى / قصة) ـ ع ١٢٩ أغسطس / ص ١٥٠ ـ ١٥٤، سر ألبونذو.. فصل غير منشور، بقلم فرنون منيديس بينتو (الإيقاعات والرؤى / قصة) ـ ع ١٣٣ ديسمبر / ص ٢١٢ ـ ٢١٦، ماهر حسن فهمى : أنا الصادح المحكى والآخر الصدى (المحاورات) ـ ع ١٣٠ سبتمبر / ص ٢٢٩ ـ ٢٣٣، مايكل لوفى ترجمة بشير السباعى : الماركسية والدين (المواجهات) ـ ع ١٣٤ يناير / ص ١٦ ـ ٢١، مجدى فرج : بناء العالم (الإشارات و التنبيهات) ـ ع ١٢٩ أغسطس / ص ٢٠٨، التمرد الخلاق فى تحولات نازلى مدكور (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣٨ مايو/ ص ١٧٢ ـ ١٧٣، مجدى يوسف : العنصرية فى ألمانيا (المواجهات) ـ ع ١٣٦ مارس /. ص ٦٢ ـ ٦٦، حول التداخل الحضارى والاستقلال الفكرى.. رد وتعقيب (المحاورات) ـ ع ١٣٦ مارس / ص ١٥١ ـ ١٥٢، محروس سليمان : حول نقد كتاب الجذور الإسلامية (المحاورات) ـ ع ١٢٩ أغسطس / ص ١٨٧ ـ ١٨٨، محسن خضر: صورة إسرائيل ومستقبلها لدى الشباب الجامعى المصرى (المواجهات) ـ ع ١٣٩ يونيه/ ص ٢٦ ـ ٢٩، محسن يونس: تعديدة للفاعل القديم (الإيقاعات والرؤى / قصة) ـ ع ١٢٩ أغسطس / ص ١٣٥ ـ ١٣٨، محمد أبو الإسعاد : أوراق محمد فؤاد شكرى (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣٧ إبريل / ص ١٨١ ـ ١٨٣، محمد البساطى : اللحظات الأخيرة (شهادة) ـ ـ ع ١٣٦ مارس / ص ١٣ ـ ١٤، محمد السيد إسماعيل : الدولة الدينية (قراءة فى عددى يونيو ويوليو من مجلة القاهرة) (المحاورات) ـ ع ١٢٩ أغسطس / ص ١٦٧ ـ ١٧٠، محمد القليوبى : البحث عن الجمال (شهادة) ـ ع ١٣٦ مارس / ص ٢١ ـ ٢٢، محمد بدوى : عن فن جميل شفيق (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣٠ سبتمبر / ص ٢٤٥ ـ ٢٤٨، قصائد أخرى فى مديح السر (الإيقاعات والرؤى / شعر) ـ ع ١٣٢ نوفمبر / ص ١٨٨ ـ ١٩١، محمد برادة: الحداثة فى الإبداع (المراجعات) ـ ع ١٢٩ أغسطس / ص ١١٢ ـ ١١٨، محمد حافظ دياب : مرايا الذات والآخر نموذج تزفتان تودوروف (المواجهات) ـ ع ١٣٥ فبراير / ص ٢٧ ـ ٣٧، محمد حافظ رجب : القزم يشتهى .. تفاحة آدم (الإيقاعات والرؤى / قصة) ـ ع ١٣٣ ديسمبر / ص ٢٠٦ ـ ٢٠٩، البحث عن ماء اللذة اللزج (١) (الإيقاعات والرؤى/ قصة) ـ ع ١٣٩ يونيه/ ص ١٩٨ ـ ٢٠١، محمد حمزة : التجريدية وأثرها فى الفن المصرى (المراجعات) ـ ع ١٣٧ أبريل / ص ٨٢ ـ ٩٤، محمد جلال عبدالرازق: أولى صيحات الكاريكاتير المصرى (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٢٨ يوليه / ص ٢٥٢ ـ ٢٥٥، محمد سليمان : أنابيش (الإيقاعات والرؤى / شعر) ـ ع ١٢٩ أغسطس / ص ١٣٢ ـ ١٣٤، محمد سنكير : جاك بيرك .. الإسلام المستنير (المواجهات) ـ ع ١٢٩ أغسطس / ص ١٥ ـ ١٨، محمد صالح : ١٩٩٣ (الإيقاعات والرؤى / شعر) ـ ع ١٢٩ أغسطس / ص ١٢٨، حالات الإيقاعات والرؤى / شعر) ـ ع ١٣٥ فبراير/ ص ٩٨ ـ ٩٩، محمد صدقى : وجهان للحقيقة (الإيقاعات والرؤى / قصة) ـ ع ١٣٠ سبتمبر / ص ١٨٠ ـ ١٩٠، محمد عبدالمطلب : مقعد ثابت فى الريح.. بين الانقطاع والتواصل (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣٨ مايو / ص ١٧٤ ـ ١٧٩، محمد عبدالمنعم خاطر :حكاية من وادى الملح (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٢٨ يولية / ص ٢٥٧ ـ ٢٥٩، محمد على أبو الوفاء : حول الجنس والفكر والوجود (المحاورات) ـ ع ١٣٢ نوفمبر / ص ٢٢٠ ـ ٢٢٤، محمد غنيمى هلال : حسين عفيف .. الأرغن (الفصول والغايات) ـ ع ١٣٥ فبراير / ص ٥٩ ـ ٦٣، محمد فريد أبو حديد : مذكرات (المراجعات) ـ ع ١٢٨ يوليه / ص ١٣٨ ـ ١٦٣، سؤال من نحن ؟ (المراجعات) ـ ع ١٢٨ يولية / ص ١٦٤ ـ ١٦٦، الدور الأول من حياة الأمة العربية (المراجعات) ـ

القراءة الكشفية للنص الماركسى (المراجعات) ـ ع ١٣٧ إبريل / ص ٥٠ ـ ٦٠، هيلاركيلبتريك ، ترجمة محمد عيد إبراهيم مراجعة: إدوار الخراط (الفصول والغايات) ـ ع ١٣١ أكتوبر / ص ٧٨ـ٩٠.

(و)

وائل غالى : خرافة (الفصول والغايات) ـ ع ١٣٢ نوفمبر / ص ١٠٠ ـ ١٠٧، احتفالية الوجود والعدم (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣٣ ديسمبر / ص ٢٧٢ ـ ٢٧٤، بؤس العالم (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣٦ مارس / ص ١٧٣ ـ ١٧٦، وطفاء حمادة: المسرح اللبنانى مشاكل وآفاق (الإشارات والتنبهات) ـ ع ١٢٨ يوليه / ص ٢٨٤ ـ ٢٨٦، وفاء إبراهيم : خالتى صفية والدير، قراءة وتفسير (المراجعات) ـ ع ١٣٠ سبتمبر / ص ١٣٢ ـ ١٤١، مفهوم الذوق الأدبى عند طه حسين (المراجعات) ـ ع ١٣٢ نوفمبر/ ص ١١١ ـ ١١٥، وفاء حامد كمالو تغريبة مصرية (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٢٨ يوليه / ص ٢٥٠ ـ ٢٥٢، وفاء وجدى: متواليات لحظية (الإيقاعات والرؤى / شعر) ـ ع ١٣٢ نوفمبر / ص ٢٠٦ ـ ٢٠٧، رسالة إلى سيدة فى الخمسين (الإيقاعات والرؤى / شعر) ـ ع ١٣٨ مايو / ص ١٦٦ ـ ١٦٧، وفيق الفرماوى : الصقر (الإيقاعات والرؤى / قصة) ـ ع ١٣٠ سبتمبر / ص ٢١٢ ـ ٢١٤، وليد الخشاب : مهرجان للتليفزيون .. أم سوق للفيديو (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣٢ نوفمبر / ص ٢٥٦ ـ ٢٥٧، يونسكو: العبث والرجعية والصهيونية (المراجعات) ـ ع ١٣٩ يونيه / ص ١٧٥ ـ ١٨٠، وليد منير: رقصات نيلية (الإشارات والتنبيهات) ـ ع ١٣٠ سبتمبر / ص ٢٤٨ ـ ٢٥٠، لحظة ليقظة الحلم (الإيقاعات والرؤى / شعر) ـ ع ١٣٢ نوفمبر / ص ١٩٦ ـ ١٩٩، السر والأجنحة (المراجعات / شعر) ـ ع ١٣٨ مايو / ص ١٦٣، وليم سليمان قلادة : زكى نجيب محمود والحوار بين الأديان (الفصول والغايات) ـ ع ١٣٣ نوفمبر / ص٩٦ ـ ٩٩، جدل التعدد والوحدة فى الواقع المصرى (المراجعات) ـ ع ١٣٥ فبراير / ص ٨٠ ـ ٩٥.

(ى)

يعقوب الشارونى : ثقافة الطفل من خلال القصص والحكايات الشعبية (الفصول والغايات) ـ ع ١٣٠ سبتمبر / ص ٩٠ ـ ٩٢، وجين يونسكو ترجمة عبد القادر التلمسانى / : كل الركاب يسرعون إلى المقاعد الفردية (المراجعات) ع ١٣٩ يونيه / ص ١٨١ ـ ١٨٤، ترجمة عبد المنعم سليم: أن تتعلم السير (المراجعات) ـ ع ١٣٩/ ص ١٨٨ ـ ١٨٩، سيناريو فيلم الغضب (المراجعات) ـ ع ١٣٩ / ص ١٨٩ ـ ١٩٣، النقاد وأنا (المراجعات) ـ ع ١٣٩ / ص ١٩٤ ـ ١٩٦، يوسف أبو ريه : مصباح الجاز (الإيقاعات والرؤى /قصة) ـ ع ١٢٩ أغسطس / ص ١٤١ ـ ١٤٢.

اعــتــذار

سقط سهواً اسم الكاتبة ريم سعد من العدد ١٣٨ مايو ١٩٩٤ وذلك من مقال معانى الرقى والهبوط الفنى فى تركيا ومصر ولذا نعتذر للكاتبة وللقراء .



مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب